الأمثال

وَالمِثْل وَالتَّمَثُّل وَالمثُلات

في

القرآن الكريم

تأليف

سميح عاطف الزّين

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

الأمثال

والمثل والتمثل والمثلات

في

القرآن الكريم

لماذا يهتمّ الناس بالأمثال التي يقدمها العامة أو التي يطلقها الحكماء أو الشعراء، ولا يهتمون بالأمثال التي ضربها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وعلى لسان رسوله العظيم؟!

* * *

الله تعالى محيط بكل شيء وقد ضرب للنّاس في القرآن الكريم من كل مثل. فما أحرانا بأن نغترف من المعين الالهي كلما احتجنا إلى ضرب مثل، وان ننهل من ينبوع السماء الذي لا تنفد كلماته ولو جئنا ببحر مداد يمده سبعة أبحر!..

* * *

قلّة استعمالنا لأمثال القرآن الكريم دليل على عدم اهتمامنا بالمداومة على قراءة كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

* * *

لا يستغني أحد عن ضرب الأمثال خلال محادثاته اليوميّة، وفي ممارسة شؤون الحياة مع الآخرين، فما أجدره بأن يتمثل أثناء تعامله ومحادثته بقول أصدق القائلين

الله

العليم الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثلٍ لعلَّهم يتذكرون ﴾ .

من عادة الناس أن يستعينوا كثيراً بالمثل في محادثاتهم وفي معاملاتهم ، حتى صار المثل صنو الحكمة جارية على ألسنتهم ذلك أن المثل نتيجة تجارب كثيرة ، وخلاصة فكر - عَبْر العصور - وهو في عرفهم صادق في دعوتِهِ وحكْمته . .

فالناس إذن يهتمون بالأمثال التي تعارفت عليها الشعوب ، أو أطلقها الحكماء والشعراء والأدباء . بل وكثيراً ما يستعين بها أهل الفكر لتوضيح فكرة ، أو تقريب معنى ، أو إثبات نظرية . .

وقد جاء القرآن يُقِرُّ هذا الاهتمام بالأمثال ويكرِّس استعمالها ، فضرب الله تعالى الأمثال فيه لغايات كلها حكمة ورحمة ، ولكنها لا يمكن تلمُّس عظاتها ، والوقوف على حقائقها

إلاَّ بالاطلاع على نصوصها ، وربطها بالأحداث التي أملتها ، أو بالظروف التي تواكبها عبر مسيرة الإنسان على هذه الأرض ، فأورد الله سبحانه تلك الأمثال ليكتشف الناس العبر بسهولةٍ ويُسْر ، وليتَّعظوا ويستفيدوا ممَّا كان عليه الخاطئون فلا يقعوا في مثل ما وقع فيه غيرهم .

ولكنَّ العجيب الذي نلاحظه ، هو أن الناس يهتمون بأمثال تدور على ألسنتهم ، ويُهملون الأمثال التي ضربَها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ، وعلى لسان رسوله العظيم ، ساهين عن أنه سبحانه قد ضرب لك أيها الانسان في قرآنه المبين من كل مثل ، وأن له تعالى المثل الأعلى ، وأنه قد أحاط بكل شيءٍ علماً . . فلماذا أيها الناس تتمسكون بالذي هو دون في أكثر الأحيان ، وتتخلَّون عن الذي هو خير ؟ . . وهل التمسك بالأمثال الجارية ، وعدم الاهتمام بأمثال القرآن الكريم إلاَّ دليل على عدم معرفة عظمة الأمثال القرآنية ؟! . . أفلا يدلّ عدمُ استعمالها على جهلها من قِبَلِ الكثيرين من الناس ؟

بلى . . . وهذا هو الأمر الذي دعانا إلى أن نسهِّل على إخواننا قراءة كتاب « الأمثال في القرآن الكريم » لفهمها ، والتعمق في مدلولاتها . . ومن ثم لاستعمالها بعد معرفة مواضيعها ومواردها . . وخاصة من قِبَلِ الدعاة لدين الله الحق ؛ فإن الأمثال من أهم عناصر الدعوة التي تتجسد فيها غير المحسوسات من المخلوقات كالجنة والنار ، وتتوضح بها معاني الأفكار . .

مقدّمة

المثل في الأصل بمعنى النظير ؛ ثم نُقل منه إلى القول السائر ، أي الشائع المُمَثَّل مضربه بمورده ؛ وقد يأتي المثل على صورة التشبيه بأركانه ؛ وفي أحيان أخرى قد يكون مشبهاً مسبوقاً بلفظ « مثل » . فالمثل السائر إذن يكون هو المضروب لحالةٍ سبقت ، حيث يشبهون مضربه بمورده إظهاراً للمضرب . ولذا فقد يكون ضرب المثل مأخوذاً إما من :

- ضرب في الأرض بمعنى سار .
- ضَرَبَهُ بمعنى نصبَهُ للناس وأَشْهرَهُ .
- ضَرَبَ بمعنى صنَعَ وأَنْشَأَ .
- ضَرَبَ بمعنى أبقى الشيء على مثال شيء آخر .

وقد اختير لفظ « الضرب » مع المثل لأنه يأتي عند إرادة التأثير ، وهياج الانفعال ، وكأن ضارب المثل يريد أن يقرع به أذن السامع قرعاً ، بحيث ينفذ أثره إلى قلبه ، وينتهي إلى أعماق نفسه . وهكذا فإن القول أو الكلام الصائب الصادر عن تجربة إذا ما كثر استعماله ،

وشاع أداؤه في المناسبات المختلفة ، يصير مثلاً ، ويعرَّف على أنه « القول السائر الذي يشبَّه به حالُ الثاني بالأول » ومن هنا قيل في المثل : « ما يشبه مضربه بمورده » .

وقد جاء في لسان العرب : إن « مَثَل » كلمة تسوية ، يقال : هذا مِثْلُهُ ومَثَلُهُ كما يقال شِبْهُهُ وشَبَهُهُ . وهناك فرق بين المماثلة والمساواة ، لأن المساواة تكون بين المختلفَين في الجنس والمتفقَين ، لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص ، بينما المماثلة لا تكون إلاّ في المتفقَين ، بحيث تقول : فِقهُه كفقهه ، ولونُهُ كلونه ، وطعمه كطعمه . . فإذا قيل : هو مثله ـ على الاطلاق ـ فمعناه أنه يسدُّ مسدَّه . وإذا قيل : هو مثله في كذا ، فمعناه أنه مساوٍ له في جهة دون جهة .

والمثل قد يكون الشيء الذي يضرب لشيءٍ مثلاً فيجعله قَبلَهُ . . وفي الصحاح : ما يُضرب به من الأمثال . . وقد يقال : تمثَّل فلان أي ضرب مثلاً ؛ وتمثَّل بالشيء أي ضربه مثلاً .

فمن مجمل هذه المعاني ، نجد أن المثل قد يكون :

- بمعنى الصفة ، فيقال : مثل الشيء أي صفته ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾(1) أي صفة الجنة . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾(2) أي صفاتهم .

- بمعنى العبرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً

---

(1) الرعد ٣٥ .
(2) الفتح ٢٩ .

لِـلآخِرِينَ ﴾[1] . فمعنى « سلفـاً » أنـه جعلهـم متقـدِّمـين يتّعظ بهم الغابرون . ومعنى « مثلاً » أي عبرةً يعتبر بها المتأخرون .

ـ وقد يأتي ذكراً لحال من الأحوال مشتملاً على ما يناسبها ليبيِّنَ ما كان خفيّـاً من حسنها أو قبحهـا ، فيكون قـولاً بديعـاً فيه غـرابة ، تجعله خليقاً بالقبول ، ولذا قالوا : « استُعير لفظ المثل لكل حالٍ ، أو صفـةٍ ، أو قصةٍ ، لهـا شـأن عجيب ، وخـطر غـريب ، من غـير أن يلاحَظ بينها وبين شيءٍ آخر شبـه » . ومنها قـوله تعـالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ بِـالأخِـرَةِ مَثَـلُ السَّـوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَـلُ الأَعْـلَى ﴾[2] ، أي لهم الصفـات الذميمـة ، ولـه ـ عـزَّ وجـلَّ ـ الصفـات العُـلى ذات الشـأن العظيم والخطر الجليل ؛ فتعالى الله عمَّا يصف الظالمون .

ـ بمعنى الحكمة ، وقد سمِّي المثل حكمةً لانتصـاب صورهـا في العقول ، باعتبـار أنها مشتقة من المثـول والانتصاب . وفي ذلـك يقول أبـو هلال العسكـري ، صاحب كتـاب (جمهرة الأمثـال) : « إن كل حكمة سائرة تسمَّى مثلاً . والكلمة إذا شاعت وانتشرت وكثُر دورانها على الألسن تكون مثلاً . أما إذا كانت صائبة وصادرة عن تجـربة ، ولم تـدُر على الألسن ، فتسمَّى حكمـة » . وهذا يعني أنـه إذا أُريد بـالمثل عبرةً فقد يصح أن يكون حكمـة ، لأن من تعاريف الحكمـة[3] أنها :

---

(١) الزخرف ٥٦ .

(٢) النحل ٦٠ .

(٣) إذن الحكمة هي القول الصائب والصادر عن تجـربة نـاجحة . أو بمعنى آخـر هي إصابـة الحق بالعلم والفعل . . . فالحكمة من الله تعالى هي : العلم بالأشياء وإيجادهـا أو خلقها على غاية من الإحكام . . والحكمة من الإنسان هي معرفة الأشيـاء وتسييرهـا للغايـة التي أوجدت لها ، بما يؤدي إلى فعل الخيرات على وجه الصواب . وهـذا ما وُصِفَ بـه لقمان (ع) في قـوله عـز وجل : ﴿ ولقـد آتينا لقمـان الحكمة ﴾ . وقـولـه تعـالى لنسـاء النبي =

« الكلام النافع ، المانع من الجهل والسفه ، والناهي عنهما » .

- وقد يحتوي المثل على قصة ، فيطلق عليها اسم « القصة التمثيلية » ، وهي تحمل في الغالب صورة فرضية ، وأحياناً تكون حقيقةً تاريخية سيقت لمجرد التصوير وإبراز المنقول في صورة المحسوس . يقول الله تعالى عن جبريل (ع) في سورة مريم (ع) : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ، قَالَتْ : إنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيّاً ﴾ .

هذا من حيث اللغة .

أما في الاصطلاح ، فقد عرَّف البلاغيُّون المثل بأنه : « اللفظ المركَّب المستعمل في غير ما وضع له ، لعلاقة المشابهة ما بين مضربه ومورده ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي » .

وهو أيضاً : « أحد أقسام علم البيان الاصطلاحي الهادف إلى

= (ﷺ) : « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » ، قيل معناه أن يذكرن تفسير القرآن الكريم وتدبر معانيه التي تهدي للعلم والحق والخير والصواب . وبناء على هذا الفهم لمعنى الحكمة نقول :

من الممكن أن يُؤتى الإنسانُ العلمَ ولكن لا يحسن استعماله في وجه الصواب ، فيكون أعطيَ العلمَ ولكنه لم يُعطَ الحكمة . ومن الممكن أيضاً أن يُعطى الإنسانُ المالَ ولكنه لا يُحسن تدبيره من حيث الاستثمار أو الإنفاق على وجه الصواب ، فيكون قد أعطيَ المالَ ولكنه لم يُعطَ الحكمة .

وبهذا المفهوم تكون الحكمة إذن أعلى شأناً من العلم والمال . لأن من أعطي الحكمة ، وإن كان علمُهُ أو مالُهُ قليلاً إنما يُحسن تدبيره ، فيكون ممدوحاً في الدنيا ، ومرضياً عنه في الآخرة . . وبخلافه ، فإن من جمع علماً كثيراً أو ملك مالاً وفيراً ، ولم يحسن توجيه هذا العلم أو تدبير هذا المال ، يكون مذموماً في الدنيا ، ومغضوباً عليه في الآخرة .

وصدق اللّهُ العظيم حيثُ يثني على صاحب الحكمة فيقول في محكم كتابه العزير : ﴿ ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذّكر إلاّ أولو الألباب ﴾ .

تأدية المعنى بصورة أوضح وأتمّ ، ولكن في تراكيب مختلفة » .

وهكذا اعتبروا المثل بأنه قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ، ليبينّ أحدهما الآخر ويصوِّره . أي أن المَثَل هو عبارة عن تشابه المعاني المعقولة . . والمِثْلُ هو عبارة عن تشابه الأشخاص المحسوسة . . وقد يدخل أحدهما على الآخر .

وأما المثال : فمعناه المقدار ، وهو من الشبه . وبذلك فإن المثل هو ما جُعل مثالاً ، أي مقداراً لغيره يقاس عليه . والجمع : المُثل والأمثلة ، ومنه أمثلة الأفعال في باب التصريف .

والمثال : القالب الذي يقدَّر على مثله . وهو أيضاً : مقابلة شيء بشيء هو نظيره ، أو وضع شيء ما ليُحتذى به فيما يفعل .

ويقال : ماثَلَ الشيء : شابَهَه - وامتثلتُ مثالَ فلانٍ : احتذيتُ حذوه وسلكت طريقه .

ويقال : تماثل العليل للشفاء أي قارب البُرء ، فصار أشبه بالصحيح من العليل المنكوب .

وقولهم : تماثل المريض أو العليل هو من المُثول والانتصاب ، كأنه همَّ بالنهوض والوقوف منتصباً .

والأمثل ما يعبر به عن الأشبه بالأفضل ، فيقال هو من أماثلهم أي من أفاضلهم . وفلان أمثل من فلان أي أفضل منه . وأماثل القوم كناية عن خيارهم . يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾(١) . وفي الحديث الشريف : « أَشَدُّ الناس بلاءً

---

(١) طه ١٠٤ .

الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » ، أي الأشرف فالأشرف ، والأفضل فالأفضل والأعلى فالأعلى في الرتبة والمنزلة .

والمُثلى هي تأنيث الأمثل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾(١) .

ثم تأتي صيغة التمثيل ، فيقال : مثَّل الشيء بمعنى صوَّره كأنه ينظر إليه . وامتثله : تصوَّره . ومثَّلت له كذا تمثيلاً ، إذا صورت له مثاله بكتابةٍ أو غيرها . . والتمثال : اسم للشيء المصنوع مشبهاً بخلقٍ من خلق الله ، وجمعه التماثيل .

وأصله من : مثَّلت الشيء بالشيء إذا قدَّرته على قدْره .

ويكون تمثيل الشيء بالشيء تشبيهاً له . واسم ذلك الممثَّل .

وتمثَّل بمعنى تصوَّر ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ أي تصوَّر أمامها الملك جبريل على صورة أو شكل بشرٍ عاديّ .

أما المُثْلَة وجمعها مُثْلات ومَثُلات ، فهي النقمة التي تنزل بالإنسان وتجعله مثالاً يرتدع به غيرُه . أي أنها بمعنى العقوبة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ، وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾(٢) . فلفظةُ : « خلت » هنا بمعنى سبقت . . أي أن الكفار يستعجلونك يا محمَّد بالعذاب الذي لم أعاجلهم به ، أولَمْ يعلموا ما أنزلنا من عقوباتٍ بالأمم الغابرة الخالية ،

---

(١) طه ٦٣ .
(٢) رعد : ٦ .

فيعتبروا بها ؟ . . ومن الأقوام الذين استعجلوا عذاب الله فأصابهم ، وتركهم مثلة يعتبر بها من بعدهم :

- قوم نوحٍ (ع) الذين أغرقهم الطوفان عندما غسَلَ وجهَ الأرض من الشرك والكفر .

- وقوم هودٍ (ع) وهم عادٌ الذين أهلكوا بريح صرصرٍ عاتية جعلتهم صَرْعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .

- وقوم لوط (ع) الذين أخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعل الله بلادهم عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، فذاقوا العذاب الأليم . .

وعن المُثْلة ، يقال أيضاً : أمْثَلَ السلطانُ فلاناً إذا نكَّلَ به . ويقال : مَثَّل فلانٌ بالرجل أو بالحيوان إذا نكَّلَ به أو قطع أجزاءً من جسده أو شوَّهه . . وفي الحديث : أن الرَّسول (ص) نهى عن المُثُلة لأنها تكون بجدع الأنف أو الأذن أو بتقطيع الأطراف أو الأعضاء ، وهذا كله يؤدي إلى التشويه بالممثَّل به . .

أما من حيث التمثيل والتشبيه فإننا نُشير أولاً إلى أن المَثَل لا بد أن يكون جامعاً ، شاملاً ، متحصلاً بالتأويل ؛ في حين أن التشبيه يكون عادة بيِّناً ، واضحاً بلا تأويل ، أو محتاجاً إلى تأويل بسيط .

وعلى هذا فإن التشبيه يحصل في جملتَين أو أكثر . وكلَّما أوغل التشبيه في أن يكون عقليّاً محضاً ، كانت الحاجة أكثر إلى الجُمْل ، ويظهر هذا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا

أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] . فانظر كيف كثرت الجمل في هذه الآية المباركة حتى بلغت عَشْراً ، ولكنها تداخلت في بعضها كأنها جملة واحدة ؛ وقد أخذ الشبه أو التشبيه بمجموعها بحيث لو أردنا أن نَفصلَ بعضَها عن بعض ، أو نُفرِدَ شطراً عن شطرٍ ، أو لو حاولنا حذفَ جملة واحدة من أي موضعٍ منها ، لأخلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه .

من هنا كان القول بأن التشبيه عام والتمثيل أخص منه ، بمعنى أن كل تمثيل يكون تشبيهاً ، وليس كل تشبيه تمثيلاً . . ويظهر ذلك جليّاً في التأليف من أجل إظهار المعاني المقصودة . ذلك لأن الألفاظ ـ كما هو معلوم ـ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصّاً من التأليف على وجه دون آخر من التركيب والترتيب . . . فلو عمدنا إلى بيت من الشعر ، أو فصل من النثر ، وعددنا كلماته عدّاً ، أو لو بعثرناها بعثرةً كيفما اتفق ، فإنا نكون قد أبطلنا نظامه الذي بُني عليه وأفرغناه من معناه الذي جرى عليه . بدليل أننا لو قلَبنا تركيب هذا الصدر من بيت الشعر : « قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل » بحيث لا نضع كل كلمة في موضعها ، بل حيثما اتفق لنا ، فإننا نكون قد أفرغناه من معناه ، فصار ألفاظاً بلا معنى ؛ وبذلك يفقد خصوصيته بصورة مطلقة ، وتضيع نسبته إلى صاحبه ، إلى ما هنالك من الأمور التي تذهب بنظامه وأصله . .

ويقرب من هذا تعريف الشِّعر عند البعض بأنه : «الكلام المقفّى

---

(١) يونس ٢٤

الموزون»، من غير أن يأخذوا في الاعتبار : الخيالَ وقصد التأثير، والتعبير عن المشاعر، وهي التي تشكل روح الشعر وسبب وجوده. ومَثلُ هؤلاء كمَثَل من يُعرِّف الصلاة بأنها عبارة عن أقوال وأفعال فقط، من غير أن يدركوا أن خشوع القلب هو روح الصلاة.. فهؤلاء وأولئك يكتفون بالصورة الظاهرة دون المعاني المقصودة؛ وبذلك صرنا لا نخشى معهم ضياع اللغة فقط، بل ضياع المفهوم الحقيقي للدِّين أيضاً.. فالمقصود من التشبيه أن يجعلك تتخيل صوراً متنوعة، ولكن لتأدية معان معيَّنة.

ومن قبيل ذلك قول أحدهم :

وكأن أجرام النجوم لوامعاً ... دررٌ نُثرن على بساطٍ أزرقِ.

فأنت إذا ما قلت كأن النجوم دررٌ، وكأنما السماء بساط أزرق، ووجدت التشبيه مقبولاً، كنت ـ بذات الوقت ـ تعلم يقيناً البعدَ ما بين الحقيقة والتشبيه الذي أتى به الشاعر، ومع ذلك فقد أخذتك الدهشة من هذا القول الجميل لما فيه من صور متنوعة ملأت ناظريك عجباً، وذهنك إشباعاً، ولما فيه من استنطاق القلوب تسبيحاً بذكر الله تعالى من طلوع النجوم مؤتلفة متفرقة في أديم السماء الزرقاء، التي زُرقتها تخدع العين، خصوصاً وهي تمتلىء بالنجوم التي تتلألأ مثل الدرر.. فمن أين لك بمثل هذه الصور لو أنك خرقت هذا التشبيه المتعدِّد، وأزلت عنه الجمع والتركيب؟

التمثيل والاستعارة

أما من حيث التمثيل والاستعارة، فإننا نتساءل : هل إن

الاستعارة هي التمثيل على الإطلاق ، بحيث لا نستطيع أن نفرِّق بينهما ، أم أن حدود التمثيل هي غير حدود الاستعارة ولكنها تتضمَّنه وتتصل به ؟

إذا كان كلُّ تمثيل تشبيهاً ، فإن الاستعارة يجب أن تفيد حكماً زائداً على المراد بالتمثيل . وبيان ذلك أن تقول : رأيت أسداً يسبح في البحر . . وأنت تقصد رجلاً يسبح في البحر . ولكنك استعرت تشبيه الأسد له للدلالة على شجاعته وقوَّته . . أو كأنْ تقول : « . . إنَّها ظبيةٌ شاردةٌ تسير في الشارع ! . » وأنت تريد امرأة ذات مواصفات معيَّنة ، استعرتَ لها التشبيه بالظبية . مما يفيد أن التشبيه ليس هو الاستعارة ، ولكن الاستعارة كانت من أجل التشبيه .

هذا وليس كل كلام يجيء فيه التشبيه الصريح بذكر الكافِ ـ كافِ التشبيه ـ أو نحوها يستقيم فيه نقل الكلام إلى طريقة الاستعارة وإسقاط ذكر المشبه جملةً والاقتصار على المشبه به ؛ يقول رسول الله (ﷺ) : « مثل المؤمن كمثل النخلة أو الخامة » (والخامة : الغضة الرطبة من النبات) . وقد قال الطرماح : « إنما نحن مثل خامة زرع ، فمتى يأنِ يأتِ حصاده» . . فلا يستطيع أحد أن يتعاطى الاستعارة في شيء منه .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾[1] فيُعَدُّ استعارة لأن التمزيق في اللغة يعني تفريق الأجزاء المتلاصقة عن بعضها البعض ، كتمزيق الثوب إلى أجزاء متفرقة . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً ﴾[2] فيُعد استعارة أيضاً ، ويفيد نفس المعنى من حيث

(١) سباء : ١٩.
(٢) الأعراف : ١٦٨.

التفـرقـة والانفصـال . . والمـراد مـن لفـظتي ﴿ وَمَـزَّقْنَـاهُمْ ﴾ و ﴿ وَقَـطَّعْنَاهُمْ ﴾ التـدليل عـلى معاني تفـريق الجماعـة وإبعادهم عن بعضهم بعضاً ، لأن مفهوم الجماعة يعني الوحدة والتماسك . .

ويستعمـل القـرآن الكـريم لفـظتَي « النُّـور » و « الـظُّلمـة » في مواضع كثيـرة ، بمعنى الاستعارة وذلـك لدلالات معيَّنـة . فهو عنـدما يستعمل لفظة النُّور فهو يستعيرها للبيان والحجة قـاصداً بـذلك أخـذاً من محسوس لمعقول ، باعتبار أن النُّور مشاهَدٌ ومحسوسٌ بالبصر ، بينـما البيان والحجة هما من صُنع العقل أو ما يؤدِّي إليـه . ويستعير القـرآن الكـريم أيضاً لفـظة النُّور للدلالـة على العلم والإيمـان . . أما عنـدمـا يستعمل لفظة الظُّلمة فلكي يدلَّ على الجهل والكفر . . ووجـه التشبيه في الحالتين : أن من امتلأ قلبه بالإيمان فهو يسير على هدى كمن يسـير في النُّور ، أما من طغى عليه الكفر وأعماه الجهل فهـو كمن يسعى في الظُّلمة ، وفي غير الطريق السويّ ، ويدفـع نفسه إلى الهـلاك والتردِّي في الهاوية .

أنواع المثل

يمكن تقسيم المثل بصورة عامة إلى ثلاثة أنواع :

١ ـ **المثلُ السائر** : وهو ما ينبثق عن تجربـة شعبية بـلا تكلُّف أو تصنُّـع ، بل تمليـه الحياة الـواقعية ، فينـطق به أشخـاص مـرُّوا بتلك التجربة تعبيراً عن تفكيرهم أو إحسـاسهم . ويمكن أن يأتي هـذا المثل على لسان أهل العلم والخبرة ، كما في قول رسـول الله (ﷺ) : « إنَّ مِنَ الْبَيَـانِ لَسِحْراً » ، وفي قـول أحـدهم : « رُبَّ أخٍ لَـكَ لَـمْ تَلِدْهُ أُمُّك » .

٢ ـ **المثل القياسي** : وهو سردٌ وصفيٌّ أو قصصيّ ، أو صورة بيانية لتوضيح فكرة معيَّنة عن طريق التشبيه والتمثيل . ويسمِّيه البلاغيون التمثيل المركَّب ، أو التشبيه المتعدِّد ؛ وهو يكون من أجل تشبيه شيء بشيء آخر لتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسَين من الآخر . أو قد يكون من أجل التأديب والتهذيب ، أو للتوضيح والتصوير ، بحيث يكون فيه إطناب ، ويجمع ما بين عمق الفكرة وجمال التصوير . ومن أمثلته ، قول ابن حازم يصف النرجس بتصوير رائع :

ونرجسٍ ككؤوس التِّبر لائحةٌ ... لهنَّ من خالص العقْيان[(١)] أحداقُ

وقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً ، قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[(٢)] .

فقد ذكر الله تعالى هذه القرية في حالتين : إيمانها ، وكفرها . وضربه مثلاً أورده للكافرين ولأهل مكة ، لما بينهما من تشابه في الكفر والعناد . وهذا المثل يصلح لكل قرية ويقاس على كل مدينة تكون حالُها حالها . فهي عندما كانت تأتمر بأوامر الله تعالى كانت آمنة مطمئنة ، يُغْدِقُ سبحانه عليها من رزقه الكثير ، فلما تولَّت عن أوامره عزَّ وجلَّ وكفرت بما أنزله عليها ، أتاها العذاب والسخط والنقمة والجوع والخوف نتيجة كفرها . .

---

(١) العقيان : الذهب الخالص

(٢) النحل : ١١٢ .

٣ ـ المثل الخرافي : وهو ما تنسب فيه الأحاسيس الإنسانية إلى الحيوان أو الطير ، ويكون هدفه تعليمياً أو عظةً أو تحذيراً ، أو ما إلى ذلك . ولذلك يأتي على شكل قصص خيالية أو فرضيَّات ، أو على شكل خرافات وأوهام كما جاء في كتاب كليلة ودمنة وغيره . . .

أهمية المثل في الكلام

للمثل في الكلام مكانة هامة نظراً لما له من وقع غريبٍ في الآذان ، وتأثير عجيب في النفوس والقلوب ؛ فهو يقرّب المعاني إلى الذهن ، ويعطي السامع الصورة المعبِّرة بأقصر اللفظ وأحسنه . وفي ذلك يقول إبراهيم النظام : « يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحُسن التشبيه ، وجودة الكفاية . . فهو نهاية البلاغة » .

وقال العلامة أبو السعود في تفسيره : « والتمثيل ألطف ذريعةٍ إلى تسخير الوهم للعقل ، واستنزاله من مقام **الاستقصاء** عليه ؛ وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبيّ ، وقمع سَوْرة الجامح الأبيّ ؛ كيف لا ، وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفيَّة ، وإبرازٌ لها في معرض المحسوسات الجليَّة ، وإبداءٌ للمنكر في صورة المعروف ، وإظهارٌ للوحشي في هيئة المألوف ؟ » .

فوائد المثل[1]

للمثل فوائد عديدة جمَّة فيما يُعبَّر به عن المعاني ونقل الصور حتى يتحقق الغرض المقصود .

(١) إن الآيات القرآنية التي نورد بعضها تحت هذا العنوان هي خيرُ الأمثال التي نستقيها من كتاب الله المبين ، للتدليل على ما ذهب إليه الجرجاني في فوائد المثل .

وقد أبرز الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة) صوراً لفوائد المثل ، فقال : « واعلم أن ما اتّفق العقلاء عليه ، هو أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أُبَّهةً ، ورفع من أقدارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها . . . »

- « فإن كان مدحاً : كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس ، وأسرع للإلف ، وأغلب على الممتدَح ، وأوجب شفاعةً للمادح » . ومثاله في القرآن الكريم ، وصفُ الرسول (ﷺ) وصحابتهِ الكرام ، بقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾(١) .

ثم يقول الجرجاني : «وإن كان ذمّاً ، كان مسُّه أوجع ، وميسمه أَلْذع ، ووقعه أشدّ ، وحدُّه أحدّ » . ومثله في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا

(١) الفتح ٢٩ .
(٢) الأعراف ١٧٦ .

يُؤْمِنُــونَ . إِنَّـا جَعَلْنَــا في أَعْنَــاقِهِمْ أَغْـلاَلاً فهي إلى الأَذْقَــانِ فَهُمْ مقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا من بَين أَيْدِيهِمْ سَـدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فـأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾[1] .

ومن قبيل هذا التمثيل في الذم قول أحدهم :

ولــو لبِسَ الحمــارُ ثيــابَ خـزٍّ   لَقـالَ الناسُ يـا لَكَ مِن حِمـارِ .

ويقـول الجرجـاني أيضاً : « وإن كـان حجاجـاً : كان بـرهـانـه أنور . وسلطانه أقهر . وبيانه أبهر » .

ومثله في القـرآن الكريم قـوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّـذِي حَاجَّ إِبْـرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتـاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْـرَاهِيمُ : رَبِّيَ الَّـذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، قَـالَ : أَنَـا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَــالَ إِبْـرَاهِيمُ : فَـإِنَّ اللَّهَ يَـأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَـرَ ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[2] .

وهذا النوع من الحجاج أو النقاش يكـون في حالتَـين : المدح ، والذم . . فهو هنا مدحٌ بحقِ إبراهيم (ع) وذمٌّ للنمروذ الظالم الكافـر الذي ادَّعى بأنه يحي ويميت . . .

وتجد هذا النوعَ أيضاً في قول أبي العتاهية :

ترجو النجاةَ ولم تَسْلُك مسالِكَهـا   إن السفينة لا تجري عـلى الْيَبَسِ

وفي قول شاعرٍ آخر :

ونــارٍ لـو نفختَ بهــا أضــاءَتْ   ولـكـنْ أنـتَ تـنـفـخُ في رَمــادِ

---

(١) يس ٧ ـ ٩ .

(٢) البقرة ٢٥٨ .

ويتابع الجرجاني : « وإن كان افتخاراً كان شأوُه أبعد ، وشرفه أجدّ ، ولسانه أندّ » .

وفي ذلك قول عبدالمطلب (جد رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم) :

لا يَنزل المجدُ إلاَّ في منازلنا كالنوم ليس له مأوًى سوى الْمُقَلِ

وأما ما يجيء في القرآن الكريم من بيان عظمة الله تعالى وكماله ، فلا يسمَّى افتخاراً ، بل اقتداراً . .

ومثالُه قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[2] .

ويتابع أيضاً بقوله : « وإن كان اعتذاراً : كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلَب ، وللسخائم[3] أسلّ » وليس في القرآن الكريم من اعتذارٍ ، إلا ما حكى عن أصحاب المعاذير الكاذبة ليكون اعتذارهم حجةً عليهم ، أي هو اعتذار في الظاهر واحتجاج في المعنى ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[4] .

---

(١) الزمر ٦٧ .

(٢) الحج ٧٤ .

(٣) السخيمة : الضغينة ، السخائم الضغائن .

(٤) فصلت : ٥

وقد قال شاعرٌ في الاعتذار :

لا تحسبوا رقصيَ فيما بينكم طرباً فالطَّيرُ يـرقص مذبـوحاً من الألمِ

ويقـول الجـرجـاني مفصِّـلاً : « وإن كـان وعـظاً ، كـان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر » .

ومثله في القرآن الكريم : ﴿ إعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلٰـدِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً، ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَـدِيـدٌ ، وَمَغْفِـرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْـوَانٌ ، وَمَـا الْـحَيٰوةُ الـدُّنْيَـا إِلَّا مَتٰـعُ الْغُـرُورِ ﴾[1] فالكفَّـارُ هنا بمعنى الـزُّراع ، لأنهم يكفرون الحب ، أي يسترونه بالتراب .

وقـوله تعـالى : ﴿ إِنَّا عَـرَضْنَا الأمَـانَـةَ عَـلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَـانُ إِنَّهُ كَـانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلنَا هَذَا الْقُرآنَ عَلَى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَـهُ خَاشِعـاً مُتَصَـدِّعـاً مِنْ خَشْيَـةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الأَمْثَـالُ نَضْـرِبُهَـا لِلنَّـاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] .

ذلك هو مفهوم المثل بـأشكالـه المتنوعـة ، أو بما يتفـرع عنه من مترادفات تؤول إلى بيانه وتوضيحه أو ما يتداخل فيه من معـانٍ بيانيـة

---

(١) الحديد : ٢٠ .

(٢) الأحزاب : ٧٢ .

(٣) الحشر : ٢١ .

أو اصطلاحية ، تهدف إلى تقريب المعنى ، وتوضيح الفكـرة ، بأحسن الصور ، وأجمل التعابير .

المثل قديم النشأة

والمثل ليس حديثاً في أشكاله المتنوعة ، بل هو عريق في الْقِدَم ، قد رافق الإنسان منذ نشوء الثقافات وازدهارها عبر العصور ، رغم كل التفاعلات الثقافية ، والصراعات الفكرية التي أدت إلى تعدد في الفنون وتنوع في الأساليب ، تكاد لا تحصى ، إلَّا أنها كانت تلتقي دوماً على عدد من القيَم والْمُثل التي تهدف إلى تربية الإنسان ، وصقل مواهبه ، وإنارة طرقه ، بما يؤمِّن له حياة أفضل ، بعيداً عن المؤثرات المادية ، والضغوطات النفسية ، وما أكثر ما واجَهَ منها الإنسان ، ويواجه ، ولا سيما في المجتمعات الحديثة التي تثقلها الأعباء والهموم ، وتنوء تحتها جهود الانسان العامل ، الدؤ وب . .

على أن التفاعل الثقافي ظهر ، أكثر ما ظهر ، في بعض البلدان التي كانت ملتقًى لثقافات متنوعة ، مثل فرنسا ، ومصر ، ولبنان ، أو غيرها من البلدان ، التي هيأ موقعها الجغرافي ، أو تراثها الفكري والحضاري ، أو نمط عيشها وأسلوبها في الحياة أو غيرها من العوامل . . . لأن تكون موطناً لذلك التفاعل بأشكاله المتنوعة ومستوياته المختلفة .

ولقد كان من نتائج تلك التفاعلات التركيز على إحداث تغييرات جذرية شملت الطريقة والمضمون على حدٍّ سواء ، حتى كادت تقضي في بعض الفنون الثقافية على كل صلة بين القديم والحديث ؛ فظهر ذلك التغيير بما قلب أنواعاً من تلك الفنون رأساً

على عقب ، وجعلها أنواعاً لا عهد للدارسين بها من قبل . ولكنها تغيرت ـ في أنواع أخرى ـ القوالب وأساليب الأداء فقط ، وبقي الجوهرُ محفوظاً محتوياً على مضامينه الأصيلة . .

فمن الفنون الثقافية التي حافظت على جوهرها رغم إيغالها في الْقِدَم ، نجد الأمثال ، التي لم يطرأ عليها تغيير في الجوهر ، وكان كلُّ ما طرأ عليها تغييراً في الظاهر ، أي في الشكل وأسلوب الأداء ليس إلَّا . .

ومن قبيل ذلك المثل عند العرب الذي يعتبر فَنّاً ثقافيّاً قديماً ، يستمد عراقته من الجذور المشتركة بينه وبين الثقافات الساميَّة القديمة ، ولعله من أجل ذلك كان أقدم فنون الأدب العربي على الاطلاق . فهذا النوع الأدبي ، بقي إلى عصرنا الحاضر ، حيّاً بروحه ، ولم يتغير إلا من الناحية الشكلية ، لأن المراد به كان تصوير وقائع معيَّنة ، أو عبرة اقتضاها ظرف معيَّن ، أو حكمة من أجل التهذيب والتثقيف ، وما إلى ذلك من الأمور والقضايا التي تناولتها أمثال العرب على امتداد وجودهم الحياتيِّ والثقافي . .

ومِثْل العرب عرفت مختلفُ الشعوب القديمة الأمثال بأشكال متنوعة ، ومسمَّيات عديدة . . من الجملة الوحيدة ، إلى المجموعة الفريدة ، مروراً بالقصة والقصيدة ؛ لأن المثل كان ولا يزال مظهراً من المظاهر العقلية عند الشعوب ، يمثِّل بأسلوب من أساليب التعبير طريقة التفكير في المعاناة الشخصية ، والتقلُّبات النفسية ، بحسب الأحوال والظروف والأحداث والوقائع ، وطبعاً إزاء المؤثرات المحلية والانعكاسات المجتمعية ، حتى ليمكن القول بأن المثل ، من الناحية

الثقافية ، يحتلُّ حيزاً كبيراً من الدلالة الظاهرة على المعاني المسلكية باختلاف أبعادها وأنواعها .

وهكذا ، ومما جاء عن الأمثال واستمراريتها عبر الأجيال ، ندرك بأن الشعوب لم تضع أمثالها عبثاً ، بل كان وراءها أسبابٌ أوجبتها أو حوادث اقتضتها . . ونحن نرى في عصرنا أنه كلما اتسعت دائرة الاختراعات والاكتشافات والصناعات والإنشاءات، كان لا بدَّ أن تتسع معها دائرة الأمثال . لأن الإنسان بحاجة ماسة إلى توضيح وشرح الأمور المعقدة التي تحيط به وخصوصاً في هذا العصر المتقدم تكنولوجياً . . إذ نحتاج إلى تيسير الأمور التي تحيط بنا بشتى الوسائل والطرق ، فلا نكتفي بالجسيم منها وحسب بل ونهتم بدقائق الأمور وأيسرها حتى لا نقع في الخطر الذي ينجم عنه تعطيل الأمور برمتها . وبهذه المناسبة نجد أن الرسول الكريم (ﷺ) يضرب المثل بالعضو في جسم الإنسان، ويبيِّن تأثير الفرد في حياة الجماعة، مهما كان شأن هذا الفرد صغيراً، حين يقول (ﷺ) في حديثه الشريف المشهور: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى » . . وهذا المثل أكثر ما ينطبق في عصرنا الحاضر ، نتيجة لما توصل إليه العقل البشري في مضامير التكنولوجيا . . إذ يمكن أن يعطل السلك الصغير مثلاً محطة كهربائية برمتها كانت تزود كامل منطقة سكنية أو صناعية بالطاقة الكهربائية . أو يمكن أن يؤدي توقف جهاز ما في السيارة إلى تعطيلها ، وفي الطائرة إلى إسقاطها . وقس على ذلك سائر الأشياء التي تستوجب الاهتمام ، بالمبسَّط منها مثل المعقد ، أو بالصغير مثل الكبير ، وذلك للحفاظ على سلامة الفرد والمجتمع على حد سواء ،

لأن إهمال الأمر الحقير قد يؤدي أحياناً كثيرة إلى الخطر الكبير . .

من هنا كانت الأمثال تعتبر أجدى الوسائل التي تنير طرق العمل والتحرك ، وتساعد على التوضيح أو الشرح الذي يخفف عن الإنسان بعضاً من الإرهاق الذي أفرزته مظاهر التقدم ، بكل مشاكلها وتعقيداتها . .

والعرب كغيرهم من الشعوب ، كانت وراء المثل عندهم أسباب معيَّنة أو حوادث متعاقبة ، أو وقائع بارزة ، حتى صار المثل المضروب لديهم ، لأمر من الأمور ، كالعلامة التي يُعرف بها الشيء . وليس في كلامهم أوجز من المثل ، ولا أشدَّ اختصاراً منه . حتى صار لضرب الأمثال عندهم شأنٌ هامٌّ في إبراز جنَبات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، بحيث تجعل المتخيَّلَ يُرى وكأنه في صورة المحقَّق ، والغائبَ كأنه مشاهَد ، والمتوهَّمَ في معرض المُتيَقَّن . وذلك لأن من شأن المثل أن يقرِّب المعاني ، ويضع صورتها مثيرةً لدى المستمع ، ويجعلها في هذا التقريب في وضع ثابت بالدليل ؛ بحيث يأتي لتقريب الفكرة إلى الذهن بما يمكِّنه من استيعابها بأقصر الأداء وأوضح البيان .

ولا يشترط في المثل أن يكون من نفس نوع الشيء المقصود به ؛ بل قد يكون مختلفاً تماماً عن هذا الشيء إلاَّ أنه يعطي الفكرة عنه وفقاً لما أريد بها . فمثلاً عندما تواجه شخصاً يتحدَّاك بقوَّته ، أو يحاول أن ينال منك مغترّاً ومزهوّاً بقدرته ، ويدَّعي أنَّ له قوَّة الريح ، فإنك تقول له : إن كنت أنت الريح فأنا الإعصار . . وهو طبيعيٌّ أنه لا يوجد ، في هذه الحادثة ، لا ريح ولا إعصار ، حتى يكون التشبيه

مماثلاً ومطابقاً لما قلت . . ولكنك استخدمت الفكرة التي تبيِّن حقيقةً ثابتة ، ألا وهي أن الإعصار أقوى من الريح ؛ ثم طبقتَ هذه الحقيقة أو الفكرة على الوضع الذي أنت فيه ، لتبيِّن أن كلَّ من ادَّعى قوةً فقد يلقى من هو أقوى منه . . فالمثل هنا لم يرتبط بواقع الحادثة أو الوضع ، لأنك أنت لست إعصاراً ، وخصمك ليس ريحاً ، ولذا لم يكن التشبيه مطابقاً للحادث ، إلَّا أن المثل كان لتقريب المعنى أو للتعبير عن هذا المعنى . أي أنك بالنتيجة ـ وبصرف النظر عن الحادث الواقع ـ جعلت السامع يفهم ما تريد من وراء ضربك للمثل . . وهكذا الأمر بالنسبة لباقي الأمثال ، إذ ليس من الضروري أن يُشَبَّهَ فيها جميعها الشيءُ بالشيء بعينه ، ولكنها على أية صورة أتت تعطي المعنى المراد ، وتقرِّبه إلى العقل ، وهي تشير إلى نفس المدلول ، بما يجعل سامع المثل يعرف فكرة صاحبه أو قصده من ضربه لهذا المثل .

وتعتبر الأمثال ، في بعض خصائصها ، حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، بل لقد كانوا يستشهدون بالأمثال للتدليل على وقائع حياتهم ، وثمرة تجاربهم ، حتى صارت تلك الأمثال تعبِّر عن حقيقة واقعهم المجتمعي وحالهم النفسي على حدٍّ سواء . فلننظر إلى بعضٍ من أمثالهم التي تعبر عن ذلك أصدق التعبير ، كما في هذا الدعاء لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، حيث يدعو ربَّه قائلاً : « اللَّهمَّ اجعلْ نفسي أولَ كريمةٍ تَنتزعها من كرائمي ، وأولَ وديعةٍ ترتجعها من ودائع نِعَمِك عَلَيَّ » . فهو يعبِّر عن نفسية المؤمن الصادق الذي أدرك قيمةَ خَلْقه ، وفَضْلَ الخالق تعالى على هذا

الْخَلق ، من حيث كـون الحياة البشـرية نعمـةً على الإنسـان ، ولكنهـا نعمةٌ على شكل وديعة إلى أجل مسمّى .

ويقرب من هذا قول لبيد :

ومـا المـالُ والأهلونَ إلا ودائـعٌ ولا بـد يـومـاً أن تُـرَدَّ الـودائـعُ

إذ شبه المال والأهل بالـودائع التي يلزم ردُّهـا إلى صاحبهـا ذات يوم ؛ وهذا التشبيه قريبٌ من دعاء أمير المؤمنين عليّ عليه السلام .

ومن أمثال العرب أيضاً ، قول أحدهم :

لا تَقطعنْ ذنبَ الأفعى وتُرسِلهـا إنْ كنتَ شهماً فأَتْبِعْ رأسَها الذَّنَبا

وهـذا البيت من الشعر يضـرب به مثـلاً للحثّ عـلى استئصـال الشرِّ من جذوره ، فلا تقوم له قائمة بعد اجتثاثه من تلك الجذور .

ومن أمثلتهم أيضـاً : « مثلك لا يبخل » . للتـدليل عـلى صفة الكرم بحيث لا يمكن لصاحب صفـات نبيلة وأخلاق كـريمة أن يكـون بخيلاً .

ولقد كان للأمثال تاريخ عريق في ثقافاتنا ، إلَّا أن هذا التـاريخ قد شابَهُ كثيرٌ من الاضطراب والتشويش . فـالأمثال التي وصلت إلينـا قد اختلط منها الجاهلي بالإسلامي ، وتـداخلت فيها أشكـال عديـدة في العصـور اللاحقـة ، فكـان من الأمثـال مـا ارتبط بـأحـداث تـاريخيـة معـروفة ، أو مـا عبَّر عن أوضـاع مجتمعيـة مـوصـوفـة ، أو مـا ارتبط بحوادث تخيُّلية فرضية ، وقد جمعت كلها في مجـاميع مـوحَّدة ، إلا أن تلك المجاميع ظلَّت أشتاتاً متفرقة ، ولم يبق بين أيدينـا سليماً ومجمـوعاً إلا ما حفظه القرآن الكريم أو ما نقل عن الحديث النبويِّ الشـريف ،

ومن هنا كانت الضـرورة إلى جمع الأمثـال في القرآن الكـريم وشرحهـا لإظهـار الغايـة الهـامـة من احتـواء كتـاب الله تعـالى عـلى الكثـير من الأمثال .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أثبت هذه المجموعة من الأمثال في قرآنه المبين ، فإننـا نرى من خـلالها المضمـون القديـم ، والأشكـال الحديثة ، حين يعرض صـور الإنسان في جـوهره منـذ كان وإلى نهايـة الزمان .

صورة المثل القرآني

لقد جاءت الأمثال في كتاب الله عزَّ وجلَّ كثيـرةً ومتنوعـة جريـاً على لغة العرب باعتبار أن القرآن عربيّ .

وميزة هذه الأمثال التي يقدِّمها القرآن الكـريم أنها لا يفقهها إلاَّ من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . . إنه المؤمن الذي تضعه هـذه الأمثال في القـديم الجديـد ، وتحمله إلى عالم فـريـد من الحكمـة والموعظة والدليل العقلي ، والبرهـان الحسي ، على مـا أراده الله تعالى مثلاً . . فأنت أيهـا القارىء الكريم مع المثـل القرآني تتخطى الأزمنة والأمكنـة حين تـرى كل شيء في الإنسـان ولـلإنسـان ، وحـين تـرى الإنسـان في كـل شيء . . تقـرأ هـذه الأمثـال التي تُعبِّـر عن معـانـاة الإنسان في الأرض، وفي ذاته، وفي تجربته وفي حياته نشداناً لآخـرته، صاغها لك في القديم كما يجب أن تصاغ لك اليوم . . وهي بمضمـونها أشبه ما تكـون بمثيلاتهـا بالأمس حـين كانت خـير اتصال بـين الأرض والسماء ، وهي تتنزَّل على النبيِّين والمرسلين عبر الدهور الطويلة لتقصَّ حكاية الإنسـان منذ بـدء وجوده ولتقـدِّم الأدلة والبـراهين عـلى حقيقة

وجود الله تعالى ، وما خلق من كونٍ شاسع ، ومن سماوات وأرضين بما فيهنَّ وما بينهنَّ ، مما لا يقدر العقل البشري على معرفته كاملاً ، ولا يتمكَّن من الوصول إلى كل ما فيه .

وأهداف الأمثال في القرآن الكريم عديدة أيضاً ومتنوعة ، ولكنَّ أقربها إلى عقولنا كان لتوضيح المعاني القرآنية ، وتقريب الأمور الغيبية ، والتأثير في تبليغ الدعوة وحملها بحيث تضع الإنسان أمام صورٍ عن الوجود لا تخلو منها الحياة في كل زمان ومكان .

ولعلَّ أهمَّ ما ترمي إليه أمثال القرآنِ المجيد هو أن يدرك الناس ما خفيَ عنهم من أمور غيبية ، فالناس يحتاجون إلى ضرب الأمثال إذا خفيت عليهم الأشياء ، فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم بقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾[1]، وقد جعله من أنفسهم ليدركوا ما غاب عنهم . . لأنه ـ سبحانه ـ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ، وقد قال عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾[2] .

إذن فالأهمية الخاصة للأمثال في القرآن الكريم تبرز في رحمته تعالى بالإنسان عندما تقرِّب هذه الأمثال معاني القضايا الغيبية إلى ذهنه ، فيستطيع فهمها بأهون السُّبل وأيسر الطُّرق . . ذلك أن هنالك الكثير من الأمثال التي نعرفها ونرددها كل يوم ، وهذه الأمثال غالباً ما تكون نابعة عن تجربة إنسانية ، وعن أحداث واقعية فعلية ، إلَّا أنها لا يمكن أن تنشأ من غيب ، أو من أحداث وأشياء مجهولة

---

(١) الروم : ٢٨ .

(٢) النحل : ٧٤ .

للإنسان ولم تصل بعدُ إلى علمه لا من قريب ولا من بعيد . . فمثلاً لو أخذنا بعض الأشياء التي لم تكن موجودة من قبل ، ثم أصبحت معروفة في حياتنا ، كالمركبة الفضائية أو العقل الالكتروني أو القمر الصناعي . . . وما إلى ذلك من الأشياء أو العلوم ، التي هي من علم الله الذي أظهره للإنسان ومكّنه منه ، فهل كان من الممكن أن يستوعب عقل بشري هذه الأشياء قبل أن يكتشفها ، وتصبح ممكنة لديه ؟ طبعاً لا . . بل حتى الأسماء التي وضعت لها كانت مجهولة في لغات البشر . . وعلى ذلك ، فلو جئنا بإنسان كان حيّاً منذ مئات السنين ، أو على الأقل قبل أن توجد تلك الأشياء ، وحاولنا معه أن يصفها أو أن يعطي فكرةً عنها ، لوجدنا أنه غير قادر على إعطاء أي فكرة ، باعتبار أنها كانت معدومة بالنسبة إليه ، بل لم يكن لها أي وجودٍ في تفكيره بتاتاً لأنها لم تدخل في حياته ، فمن المحتّم ألاّ يعرف عنها أي شيء ، وبالتالي ألاّ يكون لها عنده أيُّ تراث سابق ، لا عن طريق الأمثال ، ولا عن طريق غيرها من ضروب الفكر البشري .

هذا في حياتنا ، وبالنسبة لعقولنا نحن البشر ، وعند عدم قدرتنا عن إعطاء مثل عن أشياء غيبية ومجهولة . أما بالنسبة للقرآن الكريم ، وقد احتوى على كثيرٍ من القضايا الغيبية ، فإنَّ الأمر يجب أن يكون على خلاف ما هو متعارَف عليه في حياة البشر ، فاقتضى أن يضرب الله تعالى لنا مثلاً حتى يقرِّب إلى أذهاننا معانيَ ما هو غيبٌ عنا ، لأنَّ عَالَمَ الغيبِ لا يصل إليه العقل البشري مهما اجتهد ، باعتباره عالَماً محجوباً عنه ، وبالطبع فإن ما هو محجوب عنه ، هو عدمٌ بالنسبة إليه ، أي لا يستطيع الفكر البشري احتواءَه أو إدراكه .

فالمثل القرآني على هذا الأساس يتولى مهمة رئيسية ترتكز على تقريب المعاني الغيبية إلى أذهان البشر، وجعلها في متناول فهمهم، بل وجعلها محسوسة لهم بما لها من ارتباط في شؤون حياتهم ، وبما تدل عليه من عملٍ صالح يقتضي إتمامه ، والقيام بموجباته وفرائضه . . من هنا ، فإنَّ العبث بالقول : إن المعاني التي يقصدها المثل القرآني هي فوق طاقة الفكر البشري ، ولا يستطيع العقل إدراكها ، هو من قبيل زرع بذور التشكيك بالمعاني القرآنية ، ومن قبيل محاولة الهروب من الحقائق الدامغة التي تناولها القرآن الكريم ووضعها أمام العقل البشري بطريقة تمكِّنه من استيعابها والاقتناع بها ، وذلك بما ضرب له من أمثالٍ تمكِّنه من تقريب المعنى ، وفهم المقصود . .

ولنأخذ مثالاً على ذلك خلق الإنسان في القرآن الكريم ، وأطوار هذا الخلق من تراب ، ثم من صلصالٍ ، ثم من حمإٍ مسنون ، ثم النَّفخ فيه حتى يصير بشراً سويّاً . .

إنَّ هذا الخلق ما يزال سرّاً مغلقاً على عقل الإنسان ، ولم يستطع ، ولن يستطيع معرفة قدرة الله تعالى في صنعه . من أجل ذلك كانت قضية الخلق هذه ، موضع تشكيك من قبل أعداء القرآن والإسلام ، وذلك لجهلهم حقيقة هذا الخلق ، ما لم يؤمنوا بالقرآن . .

وقد أظهر القرآن الكريم هذا الجانبَ من إفك الإنسان وشكوكه ، فعمد إلى وضع الأمور في نصابها ، من أن قضية الخلق وما ينتج عنه من حياة ، مرجعها إلى الله تعالى وحده . ولكي يُبعد عن الذهن البشري المعنى الغيبي لهذه القضية ، فقد جعل الله تعالى في

حياتنا ، قضية محسوسة ، لا يمكن لأحد المجادلة فيها أو الهروب من حقيقتها ، ألا وهي الموت الذي هو نقض الحياة . .

فالشيء الذي يُنْقَضُ ، أول ما يُنْقَضُ فيه ، هو آخر ما تمَّ فيه . . ومثاله المرأة التي تغزل ، إذا ما أرادت ـ بعد أن تنتهي من غزلها ـ أن تنقض ما غزلت ، فإنها تبدأ بالخيط الأخير الذي انتهت إليه ، وهذا ما يدلنا عليه القرآن الكريم ، وإن كان أتى على شكل تحذير وتنبيهٍ ، بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً ، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[١] .

ثم إن المثل الحيَّ على ذلك ، هو أنك حين تذهب في طريق ، وتريد العودة منه ، فإن أول خطوة في العودة هي بعد آخر خطوة في الذهاب .

وبعد هذين المثلَين ، لننظر ماذا يحدث في الموت الذي هو نقض الحياة . .

إن أول ما يخرج من الإنسان ، عند الموت ، هو الروح التي كانت آخر ما دخل فيه . وبعد أن تتوقف نفخة الحياة في الإنسان (وهي نفخة فيه) أي بعد أن يحصل النقض للحياة ، يتصلّب الجسم ـ وهذا هو الحمأ المسنون ـ ثم يتعفَّن الجسم الميت ويصبح طريّاً كالصلصال ، ثم يصير تراباً ويعود إلى الأرض . .

أوليس في قضية الموت ، وهي قضية محسوسة للإنسان ، ما

---

(١) النحل : ٩٢ .

يثبت قضية الْخَلق الغيبيَّة ممثَّلةً بأشياء محسوسة ملموسة كالتراب والصلصال . . فتأتي أدوات القضية معبِّرة بذاتها عن كونها قضية حقة لا يجوز إنكارها ؟ ! . .

على أن الجدل ليس جديداً حول هذه القضية الهامة ، أي قضية الخلق ، فهو قائم منذ تنزيل القرآن ، إذ اتَّخذها المنافقون حجةً على رسول الله (ﷺ) وراحوا يضربون له الأمثال من أجل غرس بذور الشك حول رسالته ، ووضع العراقيل في طريقها ، إلَّا أن الردَّ عليهم كان بأمثالٍ تدحض كل نفاقهم وشكوكهم ، وما تزال هذه الأمثال تنتصب على الزمان ، ردّاً على جميع المنافقين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله تعالى إلَّا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون . . فهذه نيف وأربعمئة وألف سنة تنقضي على نزول القرآن ، وما تزال أراجيف المنافقين والكافرين تترى للنيل من عقيدة المسلمين ، ولكن ثبات هذه العقيدة كان دائماً هو الأقوى ، وحقها هو الأسطع ، فانظر إلى قول الله تعالى ، في سورة يٰس : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ، وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيم ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيم . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ ، فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[١] .

---

(١) يس : ٧٨ ـ ٨٣ .

إذن ذلك هو تدبير العزيز الحكيم الذي ضرب لعباده الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها ، ليدركوا من خلالها ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة ، ولذا فقد سمّى الله تعالى مَنْ عَقَلَ هذه الأمثال عالماً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾(١) . وعن الرَّسول الكريم (ﷺ) : « العالِمُ مَن عقلَ عن الله ، فعمل بطاعته ، واجتنب سخطه » .

ولَمّا كان من سنن الهدي الإسلامي مراعاة نفسية الإنسان ؛ ولما كانت النفوس البشرية متباينة بحيث نجد نفوساً طاهرة مؤمنة ، وأخرى كافرة فاجرة ، كما نجد نفوساً ضعيفة خائرة ، وغيرها مارقة ماجنة . . . فقد أنزل الله تعالى في قرآنه الكريم علاجاً خاصّاً لكل من هذه النفسيات . فأما النفوس المؤمنة ، فهي التي تتمسك بعقيدتها ، وتعمل على نشر تعاليمها ، وترشد الناس لاتّباعها . والقرآن الكريم يربي هذه النفوس تربية خاصة مثالية تتلاءم مع قوة إيمانها واستعدادها للعمل من أجل إعلاء كلمة الله . أمّا النفوس الضعيفة الخائرة ، والمارقة الماجنة ، والمنافقة أيضاً ، فإنَّ كتاب الله يقدم لها من بالغ كَلِمِه ، وبارع حِكَمِه ، ورائع مثله ، وجميل إرشاده ، وجليل نصحه ، ما يوجب عليها درء الضعف عنها ، ولفظ المروق والمجون والنفاق ، لتعود وتستوي نفوساً مؤمنة مطمئنة . أما النفوس الكافرة فأكثر ما يشدّد كتاب الله عليها أن تترك الكفر مع الوعد بالمغفرة والغفران ، مقابل التهديد والوعيد بالعقاب الشديد على البقاء على الكفر والتعنّت في الضلال ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢) . ولكن ، يبقى مع ذلك

---

(١) العنكبوت : ٤٣ .	(٢) الأنعام : ١٦٥ .

كله ، اختيار الإنسان للطريق المستقيم ، واستجابته للهداية الإلٓهية ، بحيث يكون ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (١) . وهناك مجالاتٌ رحيبةٌ لعلاجات كثيرة يقدِّمها القرآن الكريم لعباد الله إذ قال سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾ (٢) وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ (٣) ؛ إنَّه مزيجٌ من نصحٍ ، وأمشاجٌ من هداية ، ومقاديرُ من علاج لكل نفس ؛ ولذا كانت الأمثالُ في القرآن الكريم تحتوي لوناً من ألوان الهداية الإلٓهية التي تغري النفوس بفعل الخير ، وتحضها على البر ، وتدفعها إلى الفضيلة ، وتمنعها عن المعصية والإثم ، مقدمةً لها الوقائع والأحداث والْعِبَر والعظات بآياتٍ ذات أدلة حسية ، وأخرى ذات مضامين عقلية ، بما يهدي للتي هي أقوم . . من هنا نجد أنَّ الأمثال في القرآن الكريم تناولت مجالاتٍ شتى ، فمثَّلت الإيمان والكفر ، وحضت على البرِّ والتقوى ، وندَّدت بالشر والباطل ، وصوَّرت الطيب والخبيث ، وأبرزت الصالح والطالح ، في كل ما حكت عنه أو أشارت إليه ، أو أكَّدت عليه ، لتضع الإنسان في النهاية أمام المصير الذي يختاره بنفسه وبملء إرادته .

هذا ، والأمثال القرآنية تبصِّر الدُّعاة والمدعوِّين ، وتعرِّفهم بالحياة التي يعيشونها في دنياهم ، وذلك لكي تساهم مع بقية الوسائل في تبصير الداعية بالجو العام الذي يدعو فيه ، فيتصرف في وسائله ، على ضوء ما يرى ويشاهد ، وبذلك يساهم المثلُ القرآنيُّ في البيان والموعظة أعظم مساهمة .

---

(١) الشمس : ٩ ـ ١٠ .

(٢) الاسراء : ٨٢ .

(٣) الكهف : ٥٨ .

والمثل القرآني قد يكون حقيقة ، وقد يكون فرضيّاً ، ولكنه من صميم الواقع . .

ففي حالة كونه حقيقة ، يطلق على نفس الشيء وذاته ، كقوله تعالى : ﴿ كَمَنْ مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾[1] أي كمن هو في الظلمات . وكقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾[2] أي حكاياتهم بواقعها الذي جرت عليه . وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾[3] . أي أن طريقة خلق عيسى ، ومن قبله آدم ، كانت خروجاً عن النظام المألوف الذي سنَّه الله تعالى لخلق البشر ، فآدم خلقه من تراب ومن غير أبٍ ولا أم ، ثم نفخ فيه من روحه ، وعيسى خلقه بلا أبٍ ، ونفخ في أمه من روحه ، وهذه الطريقة في الخلق لكلٍّ من النبيَّين ـ عليهما السلام ـ بيانٌ لقدرة الله عزَّ وعلا ، ودليلٌ على أنه إذا شاء أن يقول للشيء : كن فيكون . فهذا الْخَلق يخرج عن النواميس والقوانين والنظُم التي تسيّر الكون والحياة والإنسان ، والتي تعرف بسنن الله التي لا مبدل لها إلَّا بمشيئته وقدرته .

أما في حال كون المثل القرآني فرضيّاً ، فإنه يأتي على صورة التشبيه ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾[4] . . فالأسفار هي الكتب القيِّمة النادرة . ولمَّا كان اليهود قد كُلِّفوا بحمل التوراة والعمل بما فيها ،

---

(١) الأنعام : ١٢٢ .

(٢) محمد : ٣ .

(٣) آل عمران : ٥٩ .

(٤) الجمعة : ٥ .

ثم تخلَّوا عنها وتركـوها ونكثـوا العهد وتخلوا عن الـدِّين ، صار مثلهم كالحمار الـذي يحمل الأسفـار دون أن يفقه مـا في الأسفار ، ودون أن ينتفع بما يحمل . . ولذلك عقَّب القرآن الكريم على هذا التشبيه بقـوله تعالى : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْـدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] . . وذلك للدلالة على تكـذيبهم بآيـات الله ، وما أعقب هـذا التكذيب من ظلم لأنفسهم ، أقله عـدمُ هـدايتهم ، ومـا باءوا به من الخسران المبين واللعنة الدائمة .

ومن هـذه الصورة التشبيهيـة للمثل جـاء تعريفـه عنـد بعضهم بأنه : « عبارة عن قول يشبه قولاً آخر ، بينهما مشابهة ، ليبيِّن أحدُهمـا الآخرَ ويصوِّره » . وقد أشار البعض إلى هـذا النوع من المثـل فقال : « وأبلغُه تمثيلُ المعاني المعقولة بالصورة الحسية وعكسه » .

وقد بينَّا سـابقاً كيف أن المثـل يأتي وهـو غير حقيقي ، أي عـلى صـورة الاستعارة ، كـما أننا بينَّـا صور التمثيـل في القرآن الكـريم من خلال الآيات البيِّنات التي أوردناها في الحديث عن فوائد المثل في هذه المقدمة .

القياس التمثيلي في الأمثال

وفي أمثال القرآن الكريم نجد أيضاً القياس التمثيليّ ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُـوا ، وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضـاً ، أَيُحِبُّ أَحَـدُكُمْ أَنْ

---

(١) الجمعة : ٥ .

يَـأْكُـلَ لَحْمَ أَخِيـهِ مَيْتـاً ، فَكَـرِهْتُمُـوهُ ، وَاتَّقُــوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَـوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾(١) .

إنها الغيبة ، وما أدراك مـا الغيبة ؟ ! . . هي داء وبيـلٌ ورذيلة قاتلة ، غايتها إظهار العيب في الشخص الغائب الذي نتنـاول عيبَه أو نختلق فيه العيب اختلاقاً وكذباً . . وعن جابـر قال : قـال رسول الله (ﷺ) : « إيَّاكم والغيبة ، فإن الغيبة أشـدُّ من الزِّنـى . ثم قال : إن الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » . . ثم ضرب الله سبحانـه للغيبة مثـلاً في نفس الآية الكريمة حيث قال : ﴿ أيحب أحدُكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ ﴾ فلما سُئِلوا هـذا السؤال المحـرج ، قـالـوا : لا . فكـان الجـواب : فكرهتموه . أي فكما كرهتم ذلـك ، فاجتنبـوا ذكر صـاحبكم بالسـوء غائباً . وقيـل فكما كـرهتم لحمه ميتـاً ، فاكـرهوا غيبتـه حيّاً ؛ ولشـدة كراهية الغيبة ومقتها فـإنه يقـال للذي يغتاب الآخـرين : فلان يـأكل لحوم الناس .

هـذا هو معنى الغيبـة وأثرهـا المكروه . أمـا من حيث المبنى فإن قول الله تعالى هذا ، هو من أحسنِ وأظهرِ القياس التمثيلي ، لأنه شبَّه تمـزيق عرض وشـرف الأخ المسلم بتمزيق لحمـه . والبلاغـة الفريـدة فيـه ، أنه لـما كان الميت لا يسمـع من يغتابـه لأنه فقـد الحياة بفقـدان الروح ، فإن المغتابَ الحيَّ لا يكون حاضراً مع من اغتابه ليدافـع عن نفسه ويدفع أذاه ، فهو إذاً عاجزٌ عن دفع الذم عن نفسه بعدم وجوده أمام من يغتابـه ، فيكون بمنـزلة الميت الـذي يقطَّع لحمـه ويؤكل فـلا

---

(١) الحجرات : ١٢.

يُحس ليدفع عن نفسه . . ولما كان مقتضى الأخوَّة في الإسلام التراحمُ والتناصرُ والحفاظُ على الذمم والأعراض والنفوس ، فإن الغيبة بالذم والطعن والعيب ، كانت نقيضاً لتلك الأخوَّة ، وصار المغتاب كأنه يقطع لحم أخيه تقطيعاً ليأكله .

فلنتأمل هذا التمثيل في حُسن موقعه ، وبمطابقة المعقول فيه للمحسوس: ولنتأمل إخبار الله تعالى عمن يغتابون بأنهم يأكلون لحم الأخ ميتاً بكراهية، وذلك لأنه مكروه في طباعهم، فكيف يحبون ما هو مثله ويتجرأون إذن على الغيبة التي هي بمثابة أكل لحم الأخ ميتاً؟ ولذلك كان الاحتجاج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه ، عندما شبه لهم ما يحبونه (الغيبة) بما هو أكره شيءٍ إليهم وبما هم أشد شيءٍ نفرةً منه ، وهو أكل لحم الأخ ميتاً . وهذا ما يوجب على العقل والفطرة والحكمة النفرةَ مما هو نظيره وشبهه ، حتى أن الشاعر عندما استوعب فهم هذا المعنى ، من حيث التشبيه والتمثيل ، قال :

وليس الذئب يأكل لحم ذئبٍ ويأكل بعضنا بعضاً غِياباً

وقال شاعرٌ آخر :

فإن أكلوا لحمي وَفَرْتُ لحومَهم وإن هَدَمُوا مَجدي بنيتُ لهم مجدا

وهكذا تأتي أمثال القرآن الكريم متناولةً المثل في جميع مفاهيمه وتقسيماته ، وبسائر ما يتداخل فيه أو يدخل عليه من تشبيه واستعارة ، وتمثيل قياسي وما إلى ذلك . .

على أن أمثال القرآن الكريم ، يمكن أن تكون باعتبار آخر ،

ذات وجهين : أحدهما ظاهر مصرَّح به ، وثانيهما كامن لا ذكر للمثل فيه .

فمن أمثلة الوجه الأول ، قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾(١) . فهذا مثل ضربَه الله تعالى للمنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام لكي يحصلوا على المغانم والمكاسب ، معتزِّين في حياتهم الدنيا بما كسبوا ، فلما ماتوا سلبهم الله العزَّ كما سلب صاحب النار ضَوْءَها ثم تركهم في عذاب أليم .

ومن أمثلة الوجه الثاني قوله تعالى : ﴿ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ، عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾(٢) . فهو قولٌ يشير إلى مثلٍ كامنٍ فيه تعرفه العرب ، وهو قولهم : « خَيْرُ الأُمورِ أَوْسَاطُهَا » وكقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾(٣) فإنه يتضمن مثلاً كامناً فيه ، وهو قول العرب : « الحيَّة لا تَلِدُ إلَّا حيَّة » . . وكقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾(٤) وهو يتضمن مثلاً يقوله العرب : « مَن جهل شيئاً عاداه » أو قولهم : « الإنسان عدوٌّ ما جهل » .

هذا وفي القرآن الكريم ألفاظ جرت مجرى المثل ، الذي يُعرف بالمثل السائر ، ومنها قوله تعالى : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾(٥) ، وهو

---

(١) البقرة : ١٧ .

(٢) البقرة : ٦٨ .

(٣) نوح : ٢٧ .

(٤) يونس : ٣٩ .

(٥) يوسف : ٥١ .

يضرب وقت ظهور الشيء واتِّضاحه . . وقوله تعـالى : ﴿ كُلُّ حِـزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[1] ، ويضرب للمتعارضين الذين ـ رغم تعارضهم والاختلاف الذي هم عليه ـ تكون كلُّ فئة منهم فَرِحةً بوجهة نظرها . وهذا النَّص القرآني يصـوِّر حالـة العالم بـأسره اليـوم ، فهو ينقسم إلى أحزاب متعددة ومتنازعة قد تجد في كل بلد جملةً منها ، وكل حزبٍ من هذه الأحزاب يرى أن وجهة نظره هي الصحيحة ، ولذلك فهو يعمل على هذا الأساس .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيـهِ تَسْتَفتيانِ ﴾[2] وهـو مثلٌ يُضـرب حين انتهـاء أمرٍ متنـازَعٍ فيه ، عـلى أي وجـهٍ كـان الانتهاء .

على أن الأمثال في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعـة جداً . ولكثـرتها فنحن لا نستطيع أن نتعرَّض لها جميعـاً ، بل نقتصـر على الآيـات التي ظهـر التشبيه في سيـاقها ، أو التي أتت بـالأمثال الصـريحة ، أي التي وردت لفـظة « مثل » في سيـاقها ، أو كـاف التشبيه أو مـا شـاكلهـا ، مُثبتـين تلك الآيات تحت عنـاوينها الخـاصة بهـا غالبـاً ، ومضيفين مـا اقتضى المثـل من الآيـات التي تسبقـه أو تعقبـه ، عبــر كـلامنـا عن الموضوع ، لبيان ما قد يَرِدُ فيها من جديد .

وبما أنَّ القرآن الكريم يحيط بكل علم الإنسان، لذلك جاءت الأمثال فيه على هذا النحـو الجامـع بحيث لا يمكن أن يزاد عليهـا أيُّ شيء . ومن هنا نلاحظ أن المثل القرآني يأتي بالأمـور مجتمعة، ولا يـأتي

---

(١) الروم : ٣٢ .

(٢) يوسف : ٤١ .

بها فرادى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾. تعبيرٌ عن الحياة كلها ـ من أولها لآخرها ـ دون ذكر تفاصيلها ؛ وكذلك الحال بالنسبة لكل قضية ؛ فهو ـ سبحانه ـ يضرب مثلاً لحالةٍ بحالة ، دون الدخول في تفاصيل كل حالة على حدة ، ولذا أتت الأمثال في القرآن الكريم مطلَقة ، بمعنى أنها لا تنطبق على حالةٍ معينة ، ولا على زمنٍ معين أو أفرادٍ معينين ، حتى أن الأفراد الذين يضرب الله تعالى بهم مثلاً ، أو الأقوام ، لا يذكر أسماءهم على سبيل الحصر ، لأن المقصود ليس الفرد ولا الحالة ، بل هي أمثلة وحالات تتكرر في هذه الدنيا ، وتوجد في كل وقت . . فعندما يذكر الله تعالى قول « قارون » في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (أي الأموال والجاه ، والغنى والثروة التي حصل عليها) ، فهو سبحانه يعني كل صاحب غنىً ماديٍّ على شاكلة « قارون » وهؤلاء عرفتهم المجتمعات البشرية كلها ، وعرفتهم العصور كلها ؛ وكل واحدٍ منهم ينسب ما تفضَّل به الله تعالى عليه من نعمٍ إلى فطنته وعلْمه وقدرته ، مع أن النِّعم حقيقةً هي من عند الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾(١).

وكذلك عندما يذكر الله سبحانه « فرعونَ » الحاكم الطاغية المستبد ، الذي جعل نفسه إلَهاً وألزم قومَهَ بعبادته ، فهل « فرعون » مصر كان فريداً في حياة الأمم الغابرة والحاضرة ، أم أن الأمم كلها عرفت « الآلهة البشريين » ، من ذوي الجبروت والطغيان ؟ ! . . . وها نحن اليوم نشاهد كثيرين من أصحاب الحكم يتعالون على

---

(١) النحل : ٥٣ .

الناس ، ويستبدون ، ويقهرون ، بل ويتحكمون في رقاب عباد الله ، ويقسمون الأرزاق وفق ما يؤمِّن مصالحهم وأهواءهم . . . فهل يختلف هؤلاء عن « فرعون » مصر في زمانه ؟ لا ، لأن مسيرة حياتهم تظهرهم وكأنهم أرباب على هذه الأرض . .

ومثلُهم الكفار ، والملحدون ، والمنافقون ، والفاسقون من الذين يحاولون ، بشتى الوسائل والأساليب ، أن يخدعوا الناس ويضلّوهم بغير علم بما يزيِّنون لهم من الفحشاء والسوء ، وبما يجرُّونهم إليه من الرذائل . مما أوجَدَ مأساة الإنسان على الزمان . . فالذين ضرب الله تعالى بهم مثلاً في كتابه الكريم ، تتكرَّر قصصُهم في الأمم ويتكرَّر وجودُ أمثالهم دائماً وأبداً .

ويبقى أن تعرف أيها القارىء الكريم أن عظمة الأمثال في القرآن المجيد هي أنك تقرأها في المكان الذي وضعت فيه ، فتراها تشع بالحقائق المحسوسة التي أشارت إليها ، وتوضح المعاني الصعبة فتجعلها في متناول العقل البشري ، ولكن في بيانٍ معجزٍ وترتيبٍ عجيب . .

ولا يحسبنَّ أحدٌ ، أن هذا المثل الذي أنزله الله تعالى في القرآن لكي يهديَهُ بضيائه ، يقتصر على مفهوم واحد من حيث التشخيص والتصوير والتمثيل ، بل تندرج تحته مفاهيم لا تحصى ؛ أي أن أمثال القرآن الكريم بمثابة قواعد تتفرَّع عنها أفكارٌ عديدةٌ تتناول حقائق كثيرة ؛ وهذا ما يثبته القرآن الكريم ذاتُه بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(١) . وبمعنىً آخر ، إن

---

(١) الزّمر : ٢٧ .

الأمثـال في القرآن المجيـد لا تتجاوز المئـات ، ولكنها مـع ذلك تـدعو لإعمال الفكر والتبصُّر بكافـة القضايـا التي تطال الإنسـان وتخاطبـه في كل زمان ومكان . .

ونلفت النـظر إلى شـيءٍ آخـر هـامٍّ ، وهـو أن جميـع الشعـوب تكلمت بالأمثال ، بل ربما كـان وجود الأمثـال لديهـا تعبيراً عن وجـود كل شعب منها ؛ ولـذا كان تبـاين الأمثال وتشعبهـا وتعددهـا ، تابعـاً لتعـدد تلك الشعوب واختـلافهـا . . ولكنَّ مـا يثـير الـدهشـة ويثبت الإعجاز ، هو أن يحتويَ كتابٌ واحدٌ ، ألا وهو القـرآن المبين ، حيـاة الشعوب والأمم الغابرة ، ثم حياة الشعوب والأمم الحاضـرة والآتية ، لأنه أعطى نموذجاً عن الإنسان يصلح للماضي والحاضر ، كـما يصلح للمستقبـل ، في شتى شؤون الحيـاة ، وبمضـامـين تحتـوي عـلى بيـانٍ إعجـازيٍّ ، واسلوب بـلاغيٍّ ، لا يمكن لغـير القـرآن أن يـأتيَ بهـما ، وذلك من أجل أن يحقق المثل القرآني أهدافه بـواقعية وتـأثير ؛ وبغـايةٍ من الوضوح والبيان . .

فنية الأمثال في القرآن الكريم

قـد جاء المثـل في القرآن الكـريم ، ليقوم بـدوره الذي أراده الله سبحانه وتعالى له كأحد وسائل الـدعوة الإسـلامية ، ولـذلك اشتمـل على عدد من الخصائص نذكر أهمَّها فيما يلي :

١ ـ الدقة والواقعية : فـإن المتأمِّـل في المثل القـرآنيِّ يلْحظ دقته الفريدة المؤثرة ، لأن المثل القرآني ـ دائماً ـ لا يمثِّل بالغريب العجيب ، وإنما يتخير المحسوسات الموجودة ويعـرضها بـأوصافهـا ، ثم يضعها في

المثال لتكون شاهداً واضحاً على ما يريد ؛ وهو لا يضع في الممثَّل به وصفاً زائداً أو ناقصاً ، من أجل أن تكون صورته صادقة ملموسة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(١) .

فمع هذه الدقة والواقعية ، نرى أنَّ المثل القرآني يترك ـ عمداً ـ للمخاطب به ، أو لمن يقرأه أو يسمعه ، بعض الجوانب التي تستدعي التفكُّر به ؛ وهذه ولا شك دعوة لإعمال العقل ، وقدحِ زناد الفكر ، وهي لا بد أن تؤدي إلى الإيمان الصادق عند مَن يفكِّر ويقدِّر ويتبصَّر : وذلك كما في مثل قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾(٢) .

٢ ـ **التأثير النفسي** : تستمد الأمثال القرآنية عناصرها من الكون والحياة والإنسان ، لتظل قريبة من الإنسان ، أيّاً كان ، تعيش معه ، وتؤثر فيه ؛ فكانت ـ من أجل ذلك ـ روعة التصوير التي بدت فيها ضروريةً لها . وحتى يؤدي المثل القرآني دوره التأثيري تماماً ، نجده يتَّخذ من الطبيعة ميداناً ، يرسم منها صوره ، فمن نباتها نجد الحبة التي تنبت سبع سنابل ، ونجد الشجرة الطيبة ، والشجرة الخبيثة ، والزرع الذي أخرج شطأه . . ومن حيوانها نجد البقرة والحمار والكلب ، ومن طيرها الهدهد ، ومن حشرتها النمل

---

(١) العنكبوت : ٤١ .

(٢) إبراهيم : ١٨ .

والعنكبوت والنحل والبعوضة ؛ ومن جمادها الجبل والحجر والسفينة . . .

وهذه الصور من الطبيعة لا تعني الاقتصار على بعض حيوانها أو جمادها ، وإنما جاء هذا البعض على سبيل المثال ، لأن القرآن الكريم لا يقصد الاهتمام بالممثَّل به ، أو بتخصيصه عن غيره ، بل يهتَمُّ بتقريب الصورة إلى نفس الإنسان ، رغم شدة وضوحها وبيانها ، حتى تأتي دعوته للإيمان أشد وقعاً وتأثيراً . .

هذا ، وإن بدا في بعض الأمثال القرآنية أنها غير مستمدة من النظام العام للكون ، كما في ذكر « المصباح » في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ، زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾[1] ، إلَّا أن هذه الأمثال لا تبعد عن الطبيعة ولا عن حياة الإنسان . فالمصباح ملازم لشؤون الناس بحيث لا يستغني عنه أحد ؛ وشجرة الزيتون يعرفها الناس لارتباطها بكثير من شؤون حياتهم بما تقدم لهم من حَبٍّ وزيت ووقود ؛ أو بما يؤثر وجودها في الأرض ، وبما يفيد الكائنات الحية من تجميل الطبيعة وتحسين المناخ وجلب الأمطار وتنفس أوراقها وغير ذلك من فوائد شجرة الزيتون . . أي أنَّ هذه الأمثال ، وهي تلتصق بحياة الناس ، تكون ذات تأثير شديد في نفوسهم ، وانعكاسات كثيرةٍ على شؤونهم الخاصة والعامة . .

---

(١) النور : ٣٥ .

٣ - **الترغيب والترهيب** : ومن أهداف المثل في القرآن الكريم كيفية الدعوة إلى الحق ، بالتأثير في المدعوِّين عن طريق ترغيبهم بالخير والثواب ، وترهيبهم من الشر والعقاب ، فذلك أدعى لأن يتفاعلوا مع واقع المثل المضروب ، ويندفعوا في تقصِّي الحقائق فتستقر في نفوسهم الاستجابة لتعاليم الدين الحق ، ويكون إيمانهم بحقيقة وجود الله راسخاً ثابتاً ، وبما أنزل على عبده صادقاً مصدَّقاً .

أما كيف يلجأ هذا النوع من المثل إلى الترغيب والترهيب ، فعن طريق استعراض الجماعات البشرية ، وبيان ماهية كل جماعة . وفي هذا منهج عملي يجعل المدعوين يتمنَّون أن يكونوا مع الجماعة الناجية ، لا مع الجماعة الخاسرة .

وهذه الجماعات البشرية تنقسم في الأمثال القرآنية ، من حيث الإيمان ، إلى ثلاث فئات كبرى : المؤمنين ، والمنافقين ، والكافرين . ويرقى المثلُ القرآنيُّ في هذا التقسيم إلى ذروة البلاغة في النسج ، وذروة المعنى في الأداء ، وهو يقيّم تلك الجماعات من النواحي النفسية والعملانية والمجتمعية ، بحيث لا يترك شأناً من الشؤون المتعلقة بالعقيدة إلاّ ويبرزه بجلاء ووضوح . . وكما أن القرآن الكريم يقسِّم الناس إلى تلك الطوائف الكبرى الثلاث من الناس ، فإن الرسول الأعظم (ص) قد قسَّم الناس ، من حيث طلب الهدى والعلم إلى ثلاثة أقسام، إذ قال (ﷺ) : «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيثٍ أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلتِ الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادب[1] أمسكتِ الماء فنفع اللَّهُ

---

(١) أجادب : أراضٍ مجدبة لا تنبت شيئاً لأنها سبخة ولكنها تحفظ الماء لصلابة أرضها .

تعـالى بها النـاس فشربـوا منها وسقـوا وزرعوا . وكـان منهـا قيعـان لا تمسـك ماءً ، ولا تنبت كـلاءً» . ويشير هـذا الحديث الشـريف إلى أنَّ النــاس يتفـاوتــون في تلقي الهـدى والعلم ، كتفــاوت الأرض وهي تستقبل الغيث . . فهناك الأرض التي تفتح للغيث الهاطـل صدرهـا ، وتمتصّه مسامُّها بارتواء ، لتُخرج بعـد ذلك ـ بـإذن اللّهِ ـ عطايـاها . . وهناك الأرض العقيم ، تمتلىء بالحياض والآبار والبرك التي تختـزن الماء وتحتويه ، فيأخذ منـه من شاء ، وكيفـما شاء ، وهـذه أيضاً ذات نفـع وخـير . . ويأتي النـوع الثـالث من الأرض التي هي قيعـان لا تمسـك ماءً ، ولا تخرج نبتاً ، فليس لها من غيث السـماء حظٌّ في العطاء ، ولا نصيبٌ في النفع . .

وهكـذا النـاس . . فـالإنسـان الــذي يتلقى العلم وهـدى الله سبحانه ليحيا بها ، يقف مع الأبرار الذين يمدون الحياة الإنسانية دوماً بخير زادٍ، وهم الدعاة والمجاهـدون. . والذين يختـزنون عِلْماً أو هـدياً من الله ـ سبحانه ـ يَغترفُ منه القاصرون، فإنَّ لهم ـ أيضاً ـ نفعاً بإمداد الحيــاة من زاد العلم والهــدى إلى الــطريق المستقيم ، وهـم العـلماء المنفقــون . . أما الـذين لا يسعـون إلى طلب العلم ، ولا يسـاعـدون أنفسهم ولا الآخـرين عـلى الهــدى ، فـما لهم في الخــير من نصيب ، وهؤلاء هم المنكرون المستكبرون والكسالى المتقاعسون . .

وإن نبيَّنا العظيم لَيـدعونـا إلى طلب العلم ، وهدى الله ، حتى نكون أهلاً للعطاء والإعطاء ، إذ لا أحد يقدر على عون الآخـرين إذا كان عاجزاً عن عون نفسه . . فلكي يكون الإنسان سويَّ التعامل مع الآخـرين ، لا بد أن يكـون سويّـاً مع نفســه . أمَّا المنشق على ذاته ،

الكاره لها ، الساخط عليها ، فهيهات أن تظفر جماعةٌ منه بنفعٍ حُرِمَتْهُ نفسُهُ التي هي أقرب الأشياء إليه .

تلك هي بعض خصائص وملامح الأمثال القرآنية ، التي تتناول غايات بعيدة ، لكنها غايات ـ دائماً ـ من أجل الإنسان ، وقد تنزَّلت على قدر الطاقة البشرية ، لتبرز رحمة الله سبحانه بعباده . فهو يضرب لهم المثل لكي يقرِّب إلى أذهانهم المعانيَ الصعبةَ فيدركوها ، وبذلك يهديهم إلى طريق الدين الحق فيتَّبعونه ، ثم ينشر أمامهم صفحات الإنسان والحياة والكون ، كآياتٍ بيِّناتٍ دالَّات ، معبِّراتٍ ، فلا يفوتُ على الناس شيء مما كان ، ومما قد يكون . .

ولما كانت أمثالُ القرآن على هذا القدر الكبير من الروعة والعظمة والفائدة ، فقد راعَ الكافرين ، والمعاندين والمكذبين هذا النمط من الأسلوب القرآني ، وهذا اللون من معانيه العظيمة ، فعمدوا إلى المواربة والتشكيك والمداهنة ، مستنكرين أن يضربَ الله الأمثال ، وزاعمين أن الله أعلى وأجلّ من ذلك . . ثم غالَوا في استنكارهم وتساءلوا متعجبين : أي قدر للبعوضة حتى يضرب بها الله المثل ؟ وجادلوا بدعواهم الكاذبة ، بأن الله عظيم ولن يتضمن كلامه إلَّا عظيماً . . فجاءهم الجواب الذي يدحض كذبهم ودعواهم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ : مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بهذَا مَثَلًا ؟ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾(1) .

---

(1) البقرة : ٢٦ .

فقد أُنزلت هذه الآية الكريمة لأمرٍ هام جدّاً ، أَلَا وهو التمييز ما بين المؤمنين والكافرين ، وتقديرهم لما يضربُ الله تعالى مِن مَثَل . .

فأما المؤمنون الذين عادتهم الصدق والإنصاف ، والعمل بالعدل والسوية ، والنظر في الأمور بعين العقل والحق ، فإنهم إذا سمعوا بمثل هذا المثل علموا أنه الحق من عند الله تعالى الذي لا تمرُّ الشبهة بساحِهِ ، وأنه الصواب الذي لا يحوم الخطأ من حوله . . وأما الكافرون الذين غلب الجهلُ على عقولهم ، والضلال على نفوسهم ، فقد استكبروا عن التصديق بهكذا مثل ، فاستنكروه معاندين ، وحكموا عليه بالبطلان منكرين ، فقالوا : مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ؟

والحقيقة أنَّه لا مجال لأي استنكار أو استغراب إذا كان المراد من المثل والتمثيل كشف المعنى ، وبيان الغرض المطلوب ، ولو جاءَ التدليل بأضعف المخلوقات أو بأحقر الجمادات . . أفلا يكونُ الاستغراب إذن من الموقف العنيد لهؤلاء الكفار الذين يدَّعون بأنه لا يجوز على الله تعالى أن يضرب مثلاً بمثل هذه المحقَّرات من المخلوقات ؟ . . إذ كيف ينكرون المَثَل بالبعوضة في كلامِ الله تعالى ، والناسُ يومئذٍ يضربون الأمثالَ بالبهائم والطيور والحشرات والهوام والجماد والنبات ؟ ! . . . فالعرب ـ الذين نزل القرآن بلغتهم ـ قد تمثلوا بأحقر الأشياء ، فقالوا : « أجمعُ من ذرَّة » ، و « أجرأُ من ذباب » و « أضعفُ من فراشة » و « آكلُ من السوس » . . ولم يخجلوا بما ضربوا من أمثال ، فهل حقَّ لهم ما لا يحق للخالق القدير ليقول ما يريد ؟ تعالى الله عن جهل المعاندين ، وإنكار الضالين . . ولكي

تكون الحجة قاطعة ، بما لا يقبل الجدل والنقاش ، فقد تحدّى القرآن الكريمُ أولئك الكفار ، وجميع مَن هم على شاكلتهم ، تحدّياً موضوعياً وعقليّاً عندما طلب إليهم ، ومن يشهدون معهم على ادّعائهم ، بأن يأتوا بشيء من مثل هذا القرآن إن كانوا في ريب من أنّه منزل على محمد (ﷺ) فقال عزّ وجلّ : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] .

وإنه لَتحدٍّ هادىء ، ولكنه معجز في آنٍ معاً . . فهذا هو القرآن أمامكم أيها المخاطبون من الإنس والجن ، وهو على ما وجدتم ، وشهد غيركم من صفته البيانية ، وعلوّ نظمه ، وسموّ نسجه ، فهلاّ أتيتم بشيء يماثله ؟ وهو أيضاً تحدٍّ لطيف عندما يلفت النظر إلى أن الرسول الذي أُنزل عليه هذا القرآن ، عربيٌّ أُمّيٌّ لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولم يأخذ عن العلماء ، ولا قصدَ إلى شيء من ذلك حتى يتمكن من مثل هذا التأليف ، وإعطاء معانٍ شاملة ، تامة ، كاملة ، عن الإنسان وخلقه وما يحيط به ، وعن تاريخ هذا الإنسان منذ بداية خلقه وإلى نهاية وجوده الأرضي ، ثم إلى مصيره في الآخرة ، فضلاً عمّا في هذا القرآن من آفاق السماوات والأرض . . وكلها إثبات للحق الذي يدعو إليه محمد (ﷺ) وإعجاز لكم أيها المنكرون الكافرون ! . .

إذن فحريٌّ بالإنسان ألاّ يعاند ويكابر وهو يرى القرآن بين يدَيه حجةً قائمةً إلى الأبد ، يهدي للتي هي أقوم . . ولقد نزل على قلب

---

(١) البقرة : ٢٣ .

محمد (ﷺ)، وفيه بيان ساطع على أنـه رسـول الله (ﷺ) وأنه قـدوةٌ حسنة للناس كـافة ، وللمسلمـين خاصـة . . فوجب أن نقتـدي بهذا الرسول العظيم كما أمرنا الله تعـالى بذلـك . . اقتداءً حقيقيّـاً لا التواء فيه ولا اعوجاج ، لنكون حَمَلَةَ رسـالته حقّـاً وحقيقة ، ولنمثّـل أدوارنا إنْ على مسرح الحيـاة الواسـع ـ أو على خشبـة المسرح الضيق ـ تمثيـلاً يـدلُّ على أننـا نقتبس من تلك الشخصية العـظيمة اقتبـاساً كـامـلاً ، متمثـلاً بهديهـا وخُلُقها وبكـافة مـظاهر حيـاتها . بـل علينـا أن نعيش بـداخلنا الـدور الـذي نمثله لنُحسن تقليـد تلك الشخصيـة المقـدَّسـة الفذة .

ونحن لا ندعو إلى تمثيل دور الرسول (ﷺ) بما بعثَـهُ اللَّهُ تعالى به بشيراً ونذيراً للعـالمين ـ حـاشـا وكـلا ! فـلا يفهمَنَّ أحدٌ من القـراء الكرام خطأً ما نصبو إليه ، بل الذي ندعـو إليه بصـدقٍ وإيمان ، هـو الاقتــداء بـه (ﷺ) قــولاً وفعـلاً ، متمثلين بشخصيتــه الكــريمــة بإخلاص ، لأنه هو الأسوة الحسنة لنا . .

ولم يُضْفِ الله تعـالى على رسـولِهِ الكـريم هذه الميـزة الفريـدة ، عندما جعله الأسوة الحسنة للمؤمنين ، إلَّا لغاية بعيدة ، ألا وهي أنـه خاتم النبيين ، ويتـوافق مع ختم النبـوة به ، كـونُ شريعتـه الشريعـة التامة الخاتمة ، الباقية إلى يوم الدين . وبـذلك تتحقق لـلإنسان سُبـل التكامل في الحياة : قرآنٌ كريم يهتدي به ، وسيرةٌ نبويةٌ شريفةٌ يقتـدي بها . وصحَّ ما رواه جابر بن عبداللَّه (رض) عن رسـول الله (ﷺ) من قوله الشريف : « إنما مَثَلي في الأنبياء كمثَل رجل بنى داراً فـأكملها وحسَّنها إلَّا موضع لَبِنَة . فكان مَن دخل فيها ، فنظر إليها ، قال : ما أحسنهـا إلا مـوضـع هـذه اللبنـة ، فـأنـا مـوضـع اللبنـة ، ختم بي الأنبياء » .

فالمسلم ، بمقدار ما يقف على حقائق القرآن ، وخصائص الأمثال التي وردت فيه ، ويعمل بوحيها ؛ وبمقدار ما يتمثَّل بخُلُق رسول الله (ﷺ) ، فإنه يكون داعية إلى الدِّين الحق ، الذي به ينير للآخرين سبيل الرشد ، ويدلُّهم على الطريق المستقيم ليفوزوا في الدنيا وفي الآخرة . .

ومن هنا كانت الأمثالُ في القرآن الكريم وسيلةً من وسائل إبلاغ الدعوة وإيصالها إلى العقول والنفوس ، لأنها تبصِّر بالدعوة وبالمدعوين على حد سواء ، فتساهم هذه الأمثال ، مع بقية الوسائل المتاحة ، في تبصير الداعية ، بالجو العام الذي يدعو فيه ، فينصرف على ضوء وسائله إلى العمل الجدّي ، بثقة تامة ، وبصيرة نافذة .

ونشير ، في ختام هذه المقدمة ، إلى أن قصدنا من وراء جمع الأمثال في القرآن الكريم ، لم يكن إلَّا للتوفير على الداعية ، وعلى الباحث والمدقق ، مشقة البحث والتدقيق ، ومن ثَمَّ تقديم التفسير لها ، للتيسير والتسهيل . . وعلى القارىء الكريم أن يعلم علم اليقين ، بأن عظمة الأمثال في القرآن الكريم لا تكون إلَّا في المكان الذي أنزلت فيه من السوَر المباركة ؛ وتبقى الغاية من وراء عملنا هذا ، دائماً وقبل كل شيء ، رضوان الله تعالى .

وفقنا اللَّهُ إلى طاعته ومرضاته ، وتقبَّل منا هذا العمل المتواضع ، إيضاحاً لبعض مفاهيم الإسلام ، لأنه الدين الحق ، وإنارة للطريق أمام المسلمين خاصة ، والناس عامة . والله ولي التوفيق .

العقيدة

القرآن كتاب الله المبين - القرآن يتحدى
عظمة الخلق برهان ساطع على عظمة الخالق
الإيمان بقدرة الله تعالى وحده
البعث
الجنة
اللوح المحفوظ

العقيدة

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(١)
﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢)

كائناً ما كان الإنسان، فمن خصائصه الفضلى العقل الذي ينتج عنه التفكير، فيتميَّز به عن سائر المخلوقات الحية الأخرى في دنيا الأرض. ذلك أن العقل ـ بما يبتدعه أو يكتشفه من أفكار ـ هو الحجر الأساس في ارتقاء الجنس البشري، والعامل الأول لتفوقه على بقية أجناس المخلوقات. ولكنَّ الإنسان، وقد غابت عنه حقائق الوجود، ولا سيما حقيقة وجود الله تعالى، لم يستطع أن يهتدي إلى تلك الحقائق إلَّا من خلال العقيدة الدينية التي حملها الأنبياء والمرسلون إلى الناس، على مدار الزمان.. بيد أن هذا الإنسان، كثيراً ما كان يتنكر للعقيدة الدينية، ويقف في وجه مسيرتها الخيِّرة ـ بل كان وما زال يحاربها ـ ولذا

---

(١) آل عمران: ١٨.

(٢) آل عمران: ٨٤.

لم يستطع أن ينظم طرائق عيشه الصحيح ، ولم يوجد السبل الكفيلة بإسعاده ، فراح عقله يعمل ويجهد ليبتكر عقائد لم يُنزل الله بها من سلطان ، وبات ، نتيجة لذلك ، أسيرَ القوانين والأنظمة الوضعية ، التي أدت إلى تعقيد حياته ، وزجِّه في مشكلاتٍ كثيرة وعاتية ، لسوء تطبيقها ، وتشعب اتجاهاتها ، وعدم صلاحيتها لتأمين العدل على الأرض ؛ وظهر - من ثمَّ - فساد تلك العقائد الدنيوية لبعدها عن العقيدة الحقة .

فمن أي جهة جاء الفساد إلى تلك العقائد ؟ ولماذا كانت بعيدة عن العقيدة الحقة التي ينبغي أن يعتنقها الإنسان ؟ . .

العقيدة - بالحقيقة - هي ما انعقد عليه القلب من الغيبيات - بالتحديد - كالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورُسله واليوم الآخر . . وعن هذه العقيدة - وحدها - يجب أن تتفرع سائر المعتقدات الأخرى التي تتناول مسيرة الإنسان في حياته . . فكان لا بد له من العقيدة الحقة ، ولا بد له من الحفاظ عليها والدفاع عنها ، ونبذ كل ما يناهضها ، وتحدِّي كل ما يتعارض معها . .

ويشاءُ الله اللطيف الخبير ، الرؤوف بعباده ، الذي استخلفهم في الأرض ، أن يُنزل عليهم - في ختام ما أنزل من رسالات - رسالة الإسلام الذي يحمل العقيدة الشاملة الكاملة ، التي تحتوي طرق الهدى والأمن والاطمئنان ، وتنطوي على الكثير من الحقائق الغيبية الروحانية ، وتشتمل على نظامٍ متكاملٍ للحياة ، جديرٍ بأن يوطد دعائم المجتمع البشري الأمثل ، وبأن يرفع أبناءه إلى أعلى درجات الإنسانية الرفيعة . . ولذلك فإنه لمّا انتشر الإسلام عقيدة دينية

راسخة ، ونظاماً للحياة رائعاً ، انبرى أعداؤه - أعداء الإنسان - لمناهضته وأخذوا يحاربونه بشتى الوسائل والقدرات ، لأنهم رأوا فيه خطراً كبيراً على نظمهم الجائرة . فكانت من جراء ذلك حروب الجاهلية ، وحروب صدر الإسلام ، ثم الحروب الصليبية التي تنتهِ فيها بعد الأبحاث الماكرة ، والدراسات الخبيثة التي امتلأت بالجحود والتعصب والافتراء ، وحفلت بالكراهية والحقد والجشع وكانت أبعد ما تكون عن الحق والصواب ، واستمرَّت منذ تلك الحروب على كيدها ومكرها ، حتى أنه ما زال ديدن الكفر قائماً على الكيد للإسلام حتى أيامنا هذه . .

ومن جراء ذلك واجه المسلمون سيلاً جارفاً من التيارات الفكرية المتباينة ، والاتجاهات العقائدية المتصادمة ، بل لقد تأثَّر الكثيرون من ضعفاء العقيدة من أبناء الأمة الإسلامية بتلك العقائد ، ولم ينجُ إلاَّ من عصم اللَّهُ تعالى فعرف كيف يميِّز بين تلك التيارات المتنافرة والاتجاهات الخبيثة ، وبين عقيدته الحقة التي نزلت من السماء لتكون أصدق العقائد وأصفاها وأولاها بالاتِّباع .

فعلينا ، نحن المسلمين - والشباب المسلم الواعي بنوع خاص - أن نطّلع على الأفكار الوافدة علينا ، أو العقائد المقتحمة لديارنا ، لنعرف كيف نكافحها ونقف في وجهها . ولكن - بادىء ذي بدء - علينا أن نكون متسلّحين بفهم عميق لثقافتنا الإسلامية ، مطَّلعين على آثار علماء المسلمين وأفكارهم ، لنستطيع أن نقيم توازناً بين ما يدعو إليه الإسلام ، وبين ما يصلنا من أفكار ، من شتى المصادر ، محاولين الإفادة منها ، لا التأثر بها ، وبذلك نُدرك عظمة عقيدتنا ، فنعمل

بهديها الذي يحصِّن ولا شك أنفسنا من الأفكار المنحرفة الوافدة ، ومن الايديولوجيات الغريبة المتطفلة . وحين نكون على المستوى الإسلاميِّ اللائق ، فإننا بمجرَّد المقارنة ما بين عقيدتنا وغيرها ، نصبح قادرين على التمييز بين الحق والباطل ، وقادرين ـ أيضاً ـ على وعي هذه العقيدة ، ومعرفة ما فيها من غنىً وفيض ، ومن سماحة ويسر ، وما في اتِّباع ديننا من نجاح وفلاح . .

والحقيقة أن هنالك الألفاظ الثلاث : المبدأ ، الإسلام ، العقيدة ، التي يجب أن نفهم بأنها تعني شيئاً واحداً ، ألا وهو الدين الحق الذي ارتضاه الله تعالى لعباده عقيدة صحيحة تنبثق عنها الأحكام التي تعالج جميع شؤون الحياة . وذلك يتجلَّى في قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ (١) .

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (٢)

وبما أن الإسلام هو العقيدة الصحيحة ، فقد وجب أن ينشأ الشباب المسلم في رحاب هذه العقيدة نقيَّ السريرة ، محمودَ الخصال ، حسنَ السلوك ، سَمْحَ التعامل مع الآخرين ، لأنه إذا أتيح للشباب المسلم أن ينعم بشعاع الإسلام النوراني ، وأن يطَّلع على تعاليمه العظيمة ، فمعنى ذلك أنه تمكَّن من معرفة عقيدته الراسخة التي ينبغي أن يعقد قلبه عليها ، فترتاح نفسه لاعتناقها ، ويأمن بالإيمان من الانحراف والضلال ، وينجو بالاستقامة من الزلل

(١) آل عمران : ١٨ .
(٢) آل عمران : ٨٤ .

والخطل ، فينشأ عندها مكتملَ العقلية والسلوكيَّة ، ثم يصبح جديراً ببناء مجتمعٍ فاضلٍ ، قوامه السيادة والعدلُ ، ودعامتُه الخُلُقُ والمُثُلُ العليا . وطبعاً لن يحصل هذا ما لم يعرف ، حق المعرفة ، ثقافته الإِسلامية ، ذلك أن الثقافة تعني - بالإِصطلاح - المعرفة التي تؤخذ عن طريق التلقِّي والإِخبار والاستنباط ؛ وعلى هذا الأساس ، فقد تلقى محمد ( ) الوحيَ عن الله تعالى بواسطة جبريل الأمين (ع) ، ثم راح يُذيعه على الناس - بعد توضيحه وتفسيره ، وإظهار معانيه ومراميه - . ولما أكمل الله تعالى الإِسلام ديناً للناس كافة - بقرآنه الكريم وبسنَّة رسوله العظيم - فقد صار هذا القرآن ، وتلك السيرة النبوية الشريفة ، وما استُنبط منهما وتفرَّع عنهما ، صارا مصدر الشريعة للمسلمين ، ونظام تعاملهم في الحياة ، والتراث الحقيقي لثقافتهم . .

أما الثقافة بالمعنى اللغوي ، فهي الحِذْقُ والفهمُ ، بحيث يُقال : ثقف الكلام ثقافةً أي حذقَهُ وفَهِمَهُ ؛ ولما كانت الأمثال القرآنية جزءاً هاماً من الثقافة الإِسلامية ، كما نزل بها الوحيُ قرآناً عربياً مبيناً ، وكما فسَّرها الرسولُ الأعظم ، وفهمها ثقاتُ المسلمين ، فقد هدانا الله تعالى لأن نضع هذه الأمثال بين يدي المسلمين ، وغير المسلمين ، حتى يفهموها ويحذقوها . . ومن هنا كان عملنا منصبّاً ، بعون الله تعالى ، على ترتيب هذه الأمثال ، وتقسيمها إلى أبواب بحسب مواضيعها ، وكان ابتداؤنا - أولاً - بالموضوع المتعلق بالعقيدة . وبحثُنا فيها يتناول دراسةَ جميع الآياتِ القرآنيةِ التي تَرِدُ في هذا الباب . . .

١ ـ مَثَلُ الذي يدعو غيرَ الله

قال عزّ وجلّ : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ (١) .

إن الله تعالى ـ وحده ـ دعوةَ الحق ، التي هي كلمةَ الإخلاص التي أرادها سبحانه بشهادة «أن لا إلَهَ إلاَّ الله»، الواحد الأحد، الفرد الصمد . فهو سبحانه وتعالى الحق ، ومنه الحق ، وكلمته هي الحق ، فكانت له دعوة الحق ، وهو يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . . إذن فللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يكون التوجُّهُ بدعوة الحق ، ولا يُدعى بها غيرُه ، ومنه سبحانه الرضى والاستجابة . أما الذين يدعون من دونه ، كما كان يفعل الكافرون والمشركون وهم يدعون الأوثان والأصنام وغيرها ـ من دون الله ـ لقضاء حاجاتهم ، فسوف يجدون أنَّ تلك المعبودات السخيفة لا تستجيب لهم بشيء ، لأنها ، في الأصل ، لا تنفع ولا تضرُّ ، وليس بها حياة ولا لها إرادةٌ ولا قدرة على شيء . . ولذا جاء تشبيه القرآن الكريم للكافرين والمشركين ، في دعوتهم الوثنية ، بالرجل الذي بسط كفيه للماء وهو يراه من مسافاتٍ بعيدة ، ملهوفاً إلى الوصول إلى ذلك الماء ، وكأنما يرغب في أن يأتي الماء إليه من تلقاء نفسه ويقع في فمه الذي فتحهليتلّقف قطرةً منه . إلَّا أن الماء لا يأتي إليه ولا يبلغ فَاهُ أبداً ، لبعد الشقة بينهما ، ولعدم قدرة الكف

(١) الرعد : ١٤ .

على تناوله والحصول عليه في مثل هذه الحال. وهكذا فإن أولئك الكافرين والمشركين ، هم مثل هذا الرجل ، لا يبلغون من دعائهم لأصنامهم وأوثانهم شيئاً ، إلَّا الخيبة والحسرة ، لأنها مدعُوَّاتٌ لا يمكنها أن تستجيب لدعاء ، فبطل المدعوُّ ، وبطلت دعوة الداعي ، لأنها ليست دعوة الحق التي لا تكون إلا لله تعالى وحده . .

وقيل إن هذه الآية الكريمة جاءت بمعنى تمثيلٍ للعرب كانوا يضربونه لمن يسعى وراء ما لا يدركه ، وإذا أدركه لا يستطيع أن يضبطه ؛ وذلك حيث يقولون : « كالقابض على الماء » وفي مثل هذا قال شاعرهم :

فأصبحتُ ممَّا كان بيني وبينَها	من الودِّ مثلَ القابضِ الماءَ باليدِ

وقال آخر :

فإني وإياها وشوقاً لوصلها	كقابضِ ماءٍ لم تَسَعْهُ أَناملُهْ .

فما هي - فعلاً - نتيجة دعاء الكافرين ؟ وهل هي إلَّا الضلال ؟ . حتماً ، لأنَّ الضلال نتيجة حتمية في حال توجيه الدعاء إلى أصنام وأوثان ، إذ تكون الدعوة خائبة ، بعيدة عن الحق والصواب ، وهي دعوة في ضلال لأنها تُضِلُّ أصحابها عن مبتغاهم الذي قصدوه فلا يتلقون أية إجابة ولا يحصلون على أي نفع . .

٢ - ليس مثلَ الله شيءٌ

قال الله تعالى : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ

أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١) .

إن الله سبحانه وتعالى هو فاطر السموات والأرض ، أي خالقهما ومبدعهما ابتداءً ، فكان وصفُهُ لذاته بالخالق مما يوجب عبادته وحده ؛ وكما خلق السموات والأرض ، فقد جعل لنا ، من أنفسنا أزواجاً ، أي أشكالاً متنوعة من جنسنا ، فمع كل ذكرٍ أنثى يسكن إليها ويألفها وتألفه ؛ وجعل أيضاً من الحيوانات ذكوراً وإناثاً لتكتمل حياتها وتستمر . . وفي هذه الأزواج تكثير عن طريق الخلق بالتزاوج ، تماماً كما هي الحال في تكثير الناس بتزاوجهم. وهذا التكثير، وإن قام على أنظمة خاصة ، أودعَها الله تعالى في كل جنس ، إلَّا أنه يبقى الأساس لإستمرار وجود الإنسان ، ووجود الحيوان ، على حد سواء ؛ فتبارك الله الخالق البارىء ، الذي ليس كمثله شيء . فهو سبحانَهُ يبين لنا أنه ليس مثله شيء ، وقد أدخلت الكاف في « كمثله » زائدة لتؤكد معنى النفي . وقد استعملها الشاعر بقوله :

سعدُ بنُ زيدٍ إذا أبصرتَ فضلَهُمُ   ما إنْ كمِثْلِهِمُ في الناسِ مِنْ أحَدِ

فسبحان مَن ليس كمثله شيء ! . وإنَّ الفطرة السليمة تؤمن بهذا بداهة، لأن خالق الأشياء لا تماثله الأشياء التي هي من خلقه، ومن ثَمَّ فإنها ترجع كلها إلى حكمه عندما تختلف فيما بينها على أمر ، ولا ترجع معه إلى أحد غيره ، لأنه ليس هناك أحد مثله حتى يكون

---

(١) الشورى : ١١ .

هناك أكثر من مرجع واحد عند الاختلاف . فكان الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ، لأنه متفرّد بصفاتٍ لا يشاركه فيها غيره ، من الربوبية والخلْق والقدرة والإحياء والإماتة والرزق وما إلى ذلك من صفاته الإلهية . ولذا كان هو ـ سبحانه وتعالى ـ الواحد الأحد ، الذي دلَّ الدليل الحسيُّ على أنه ليس معه إلهٌ آخر . وهو السميع البصير لجميع المسموعات والمبصرات ، وقد نفى ـ سبحانه ـ أن يكون له نظير أو شبيه على وجهٍ من الوجوه ، وإن العقل السليم ينفي ذلك قطعاً.

٣ ـ قدرتُه تعالى على خَلْق مثل ما خَلَق

قال سبحانه وتعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (١) .

إنه المنطق الواقعي الذي يدركه الكافرون وتحسُّه نفوسهم ولكنهم يغفلونَهُ، وهو أنَّ الله تعالى الذي خلق هذا الكون الكبير الهائل المؤلف من السماوات والأرض، قادر أيضاً على أن يخلق أمثالَ ما خلقَ من قبل ، لأن القادر على الشيء ، قادرٌ على مثله في الأشكال والأجناس . فبما أنه سبحانَهُ قادر على أن يخلق مثلَهم ، فهو قادر على أن يعيدهم أحياء ، لأن الإعادة أسهل من الإنشاء ابتداءً . . فأية غرابة إذن في البعث ؟! . . لا غرابة في ذلك عند ذوي الألباب ، لأن من أوجد هذه الكائنات الهائلة من كتم العدم ، وأجرى أمورها

(١) الاسراء : ٩٩ .

بمقتضى الحكمة ، وبمنتهى الدقة ، حريٌّ بأن يعيد بناءها بعد فنائها وتبعثر أجزائها ، إذ من البديهيِّ أن إيجاد السيارة والطائرة والصاروخ ابتداءاً أصعب من ترميمها وجمع أجزائها بعد عطلها وتفكُّكها .

ثم يَعدُ الله سبحانه وتعالى أولئك الذين لم يؤمنوا بإعادة خلقهم أو بعثهم أنهم سيرون ذلك بأم العين ، لأنه جعَلَ لهم أجلاً حالاًّ هو الموت الذي لا ريب فيه ،فباستطاعتهم قبل حلول هذا الأجل أن يتفكَّروا فيما ينبغي الاستعداد له . ويؤكد سبحانه وتعالى أن الأجل آتٍ لا محالة لأن لا أحد يقدر على أن يفلت من الموت ، كما يشاهد الناس ويعقلون . . وموعد هذا الأجل هو وحده ـ سبحانه ـ الذي يعيِّنه ، لا غيره . . ولكن الظالمين أبوا إلاَّ أن يجحدوا بقدرة الله على الخلق والإعادة ، وإلاَّ أن يُنكروا تلك الآيات المبثوثة في أنفسهم وفي الكون ، مع أنها تدلُّ على قدرته سبحانه وتعالى . كما أنهم أبَوا إلاَّ أن يتنكروا لنعمه عليهم ، التي يرفدهم بها منذ الولادة وعلى مدار حياتهم في هذه الدنيا ، وحتى ساعة الموت . . وكلها عبرٌ وعظات جحدوا بها وأنكروها فكان جزاؤهم عادلاً بعد منطق الدلالات ، ومنطق الشهادات ، ووضوح الآيات . .

٤ ـ لله تعالى وحده صفة الخلق

قال تبارك وتعالى : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١) .

هذا التذكير الإلهي ، وهذه الدعوة الربانية للتفكُّر ، تأتي بعد

---

(١) النحل : ١٧ .

استعراض آيات الخلق ، وآيات النعمة ، وآيات التدبير التي ساقَها في صدر قضية التوحيد وتنزيه الله سبحانه . وهو تذكير أو دعوة على شكل تعقيب يجيء في أوانه ، والنفس متهيئة للإقرار بمضمونه . ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ . فهل هنالك إلا جواب واحد : لا ، وكلا . . أفيحق إذن للإنسان أن يساوي ـ في تفكيره وتقديره ـ بين من يخلق ذلك الخلق كله ، وبين من لا يخلق شيئاً لا كبيراً ولا صغيراً ؟ والأمر لا يحتاج إلى أكثر من التذكر ، فتتضح الحقائق ويتجلّى اليقين . . وقد يأتي تفسير قوله تعالى هذا ، على ثلاثة أوجه :

الأول : أن الذين يعبدونهم ، ويدعونهم من دونه تعالى (سواء كانوا أشخاصاً أم أصناماً أم أجراماً) لا يخلقون شيئاً ، بل هم يُخلقون ، وإذن فلا خالق إلاّ الله وحدَه .

الثاني : المقابلة بين من يخلق ومن لا يستطيع أن يخلق شيئاً (كتلك الأشياء التي عبدوها من أي نوعٍ أو جنسٍ كانت ، وذلك ليظهر هوانها وفقرها للموحد ، فضلاً عن أنها لا تقدر على شيء) .

الثالث : أن يؤديَ المعنى إلى أن من يَخلُق ليس كمن لا يخلق عند ذوي العلم ، فكيف بمن لا علم عنده . وذلك سبيل القياس بين العالم والجاهل . بل وأكثر من ذلك فإنَّ آلهتهم حالها يختلف عن حال من لهم أيدٍ وأرجل وآذان وقلوب من الناس الأحياء ، لأنها (أي تلك الآلهة) تفتقر إلى ذلك كله، فهي إما جمادات صمّاء، أو حيوانات بكماء ، لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً ، فكيف تقدر على خلق غيرها ؟ وكيف تصح عبادتها ، وهم لمّا سمّوها آلهة ـ تشبيهاً بالله تعالى ـ قد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ؟ فكان حق الإلزام أن يكون

هـذا التـوكيـد والـنفـي في آنٍ مـعـاً : ﴿ أفـمـن يَخلق كـمـن لا يَخلق ﴾ ؟ ! . .

٥ ـ الله مولى المؤمنين والكافرون لا مولى لهم

قال سبحانـه وتعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ [١] .

إنها لفتـة عنيفة مـروعة ، فيهـا ضجة مثيـرة وهي تدعـو جميـع النـاس لكي يقـرأوا تـاريـخ الأرض ، أو يـذهبـوا إلى مـواطن مَن سبقوهم ، فيتحققوا مما فعل الله بأولئك السـابقين ، ومـا كانت عـاقبة من كفروا وصدُّوا عن سبيل الله ، إذ دَمَّر الله عليهم كل مالَهم ، وكل ما حولَهم ، فإذا هو أنقـاض متراكمـة ، وإذا هم تحت هذه الأنقـاض مطمورون ، ومأخوذون بذنوبهم ، منذ نزل بهم العذاب عندمـا سخطَ عليهم رب الأرباب ! . . وذلك المشهـد الذي يـرسمه التعبيـر القرآني مقصود بصورته وحركته ، وهو يحمل في إيقاعه وجرسـه صورة مشهـد الانقضـاض والتحطُّم ؛ وفي مشهـد التدمـير والتحـطيم والـردم يلوح للحـاضـرين من الكـافـرين ـ ولكـل من يتصف بصفـاتهم ـ بـأنها في انتظارهم : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ أي أن عاقبـة الذين من قبلهم هي الهلاك .

---

(١) محمد : ١٠ و ١١ .

وتفسير هذا الأمر الهائل المروع الذي يدمِّر الكافرين ، وينصر المؤمنين ، هو القاعدة الأصيلة الدائمة ﴿ ذلك بأن الله مولَى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولَى لهم ﴾ . والفارق كبير جدّاً بين من يكون الله تعالى مولاه ونصيره ، وبين من ليس له مولىً على الإطلاق ، كما هو الحال في معبودات الكافرين التي لا يمكن أن تكون مواليَ لهم ، لأنها أحقر من ذلك وأذل . .

٦ ـ لا شبيه لله تعالى في خلقه

قال تبارك وتعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

وإنه لَتقريرٌ حاسم . . وهو الأمر للعباد جميعاً ـ وخاصة للمشركين والكافرين ـ بأنه ليس لله مثال حتى تضربوا له الأمثالَ فلا تجعلوا له أشباهاً في العبادة ، لأنه ليس له شبيه ، ولا يستحق العبادة إلاَّهُ . . والله ـ سبحانه ـ يعلمُ ما تقعون فيه من المضرة والخسران بعبادتكم للأوثان والأصنام . وأنتم تجهلون ذلك ولا تعرفون عاقبة تلك العبادة الباطلة من دونه تعالى . ولو علمتم لَتركتم عبادةً من هذا

---

(١) النحل : ٧٤ ـ ٧٦ .

القبيل . . ثم ضربَ الله تعالى لهم مثلَين لتقريب الحقيقة الكبرى التي غفلوا عنها : حقيقة أن ليس لله مثال ، وأنه لا يجوز أن يساووا في العبادة بين الله وأحدٍ من خلقه ، وكلهم له عبيد .

أما المثل الأول فمأخوذ من واقع حياة الناس ، حيث يَرون أن العبيد المملوكين لا يملكون شيئاً ولا يقدرون على شيء ؛ والناس ـ بطبيعتهم ـ لا يساوون بين العبد المملوك العاجز ، وبين السيد المالك المتصرف. فكيف يساوون بين سيد العباد ومالكهم، وبين هؤلاء العبيد ، المملوكين له سبحانه ؟ . فالفوارق قائمة بين إنسان وإنسان ، كالعبد العاجز ، والحر القادر . وقد أبانَ سبحانه وتعالى في أدق تصويرٍ حالَ الأول العاجز عن الإنفاق ، وحالَ الثاني بما هو عليه من نعم الله تعالى ، وهو حر في التصرف بها ينفق منها في السر والعلانية ، ولا يخاف من أحدٍ ، لأنه يتوخى بذلك وجْهَ الله تعالى . فهل يعقل أن يستوي هذا مع ذاك ؟ وقد عبَّر الله سبحانه وتعالى عن الفارق بينهما بعبارة « هل يستوون » ولم يقل « يستويان » لأنه أرادَ بالعبد المملوك « الجنس » وليس التخصيص ، كما أراد بعبارة « ومَن رزقناه » الكل وليس الفرد . ويؤكد سبحانه وتعالى على ضرورة شكره بما لَه من فضل ونعم على العباد ، ولا سيما حمده على ما دلَّنا عليه لتوحيده ، ومعرفة حقيقة وجوده ، وعبادته دون سواه ، وهذا ما ينكره المشركون والكافرون الذين لا يعترفون بأن الفضل والنعمة والخير كله من الله فوجب له الحمد والشكر .

واما المثل الثاني فهو يصوِّر الرجل الأبكم الذي لا يسمع ولا يعقل ولا يدري شيئاً ولا يعود بخير، والرجل القوي المتكلم الفصيح

الآمر بالعدل ، العامل المستقيم على طـريق الخير . فـالأول عاجـز عن تدبير نفسه ، بل هو عبء على مولاه ، أينما يرسله بحاجة لا ينتفع بـه لأنه لا ينفع بشيء . والثاني عارف بـالحق ، داعٍ إليه ، وهـو مستقيم في المنهج والعمل ، فهل يتساوى هذان الرجلان ؟ لا . وما من عـاقل يسـوي بين هـذا وذاك . فكيف يمكن التسويـة بـين صنم أو حجـر لا يقدر على شيء ، وبـين الله سبحانـه وتعالى ، وهـو القادر ، العليم ، الآمر بالمعروف ، الهادي إلى الصراط المستقيم ؟ ! . . وعن ابن عباس قال : « إنه مثل الكافـر والمؤمن . فالأبكم هـو الكافـر ، والذي يـأمر بالعدل هو المؤمن » .

٧ ـ الله تعالى هو الذي يحيي ويميت

قـال تبـارك وتعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ [1] .

يبيّن الله سبحانه هنا ، أنه هو خـالقنا عـلى هذه الأرض ، وهـو مكثِّر عددنا وموزِّعنا في المعمورة هنا وهناك ، وأننـا سنكون بعـد ذلك محشورين إليه يوم القيامة ليجازينا على أعمـالنا . فهـل يمكن أن يكون خلْقنا إذن عبثاً ، وأن تـذهب أعمالنـا سدىً ، طـالما أننـا مبعوثـون ،

(١) المؤمنون : ٧٩ ـ ٨٢ .

ومحاسبون على كل صغيرة وكبيرة ؟ لا ، ولكن من يملك حق الحياة وحق الموت وحقَّ ذلك البعث والحساب ؟ . . الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي خلق ، وهو الذي يحي ويميت ويبعث ويحاسب . والحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة ، وليس إلاَّ الله يملك الموت والحياة . والبشر الذين هم أرقى الخلائق أعجزُ عن بث الحياة في خليَّة واحدةٍ ، وأعجز كذلك عن سلب الحياة سلباً حقيقيّاً عن حيٍّ من الأحياء . لأن الذي يهب الحياة هو ـ وحده ـ الذي يعرف سرها ، ويملك أن يهبها ويستردَّها . أمَّا البشر فقد يكوِّنون حالةً أو يستعملون أداةً لإزهاق الحياة ، ولكنهم ـ ليسوا هُمُ الذين يجرِّدون الحي من حياته على وجه الحقيقة ، وإنما الله تعالى هو الذي يحيي ويميت .

وكما يملك الله حق الحياة والموت ، كذلك له الفضل في إيجاد الليل والنهار ، وفي تقدير تعاقبهما على الدوام ، وفي إيجاد هذا النظام لهما ، حيث يبدوان ظلمةً ونوراً ، وطولاً وقصراً ، بزيادة ساعات النهار أحياناً وإنقاص ساعات الليل ، والعكس بالعكس . وفي تعاقب الليل والنهار دليل على اختلاف أوضاع الناس وتعاقبهم في الحياة والموت . والربط هنا فائق الروعة بين نور النهار الذي يدل على الحياة ، وبين ظلمة الليل التي تعبِّر عن السكون والموت . أفلا يعقل الناس هذه القدرة الإلٓهية ، ولا يتفكَّرون حتى يدركوا إدراك اليقين بأن لهذا الخلق ، بل وللكون بأسره ، صانعاً قادراً ، ومدبراً حكيماً له وحده الألوهية والربوبية ، ولا تجوز العبادة لسواه ؟ . . ومع ذلك ، ورغم هذه الأدلة والبراهين الحسية التي يدلُّنا الله تعالى عليها ، فإن الكافرين يقولون ، كما قالَ الذين سبقوهم ، حيث جاهروا بالكفر وعملوا المعاصي ، وأنكروا البعث وكذبوا به وادَّعوا ذلك زوراً وبهتاناً

إذ قالوا : أإذا متنا وكنا تـراباً وعـظاماً أإنـا لمبعوثـون ؟ فهذا التسـاؤل الإنكاري يدلُّ على مدى ضلالهم . ولو أنهم بعدوا عن هذا الضلال ، وعن هذا العنت والاستكبار لأَقروا بأنَّ الله تعالى ـ كما خلقهم ودبرهم في هذه الحياة الدنيا ـ قادرٌ على أن يبعثهم بعد موتهم ساعة يشاء ، وأيّاً كانت حالهم من التحلُّل والاندثار ، لأنَّـه تعالى هـو الخالق والمـوجد ، ومَن يقـدر على الخلق والإيجـاد أول مرة ، يسهـل عليه أن يعيـد هـذا الخلق متى يشاء ، وكيفما يشاء . .

٨ ـ اصطفاء الرسل من البشر لهدايتهم

قـال سبحانـه وتعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

إنه حوار رصينٌ هادىء ، فيه وضوح ودلالة لما يبـديه رسُـل الله تعالى من لطفٍ بالمدعـوِّين إلى الحق إذ هم مبعوثـون لهدايـة الناس من رب العـالمين . . وهـو يبـدأ بقـول رسـل الله للنـاس : أفي الله تعـالى شك ، والسماوات والأرض تنـطقان للفـطرة بأن الله أبـدعهما إبـداعاً

(١) ابراهيم : ١٠ ـ ١١ .

وأنشأهما إنشاءً ؟ إن السماوات والأرض آيتان هائلتان بارزتان ، ومجرَّد الإشارة إليهما يكفي لأن يردَّ الشارد إلى الرشد سريعاً بعد أن يتفكَّر ويتأمَّل .

وفي هذا الحوار دعوة للإيمان بالحق ، أي دعوة للإيمان بالله الخالق ، القادر ، وهي الدعوة التي تستتبع عبادة هذا الخالق الحق ، والإقرار بألوهيته وربوبيته . كما أنَّ هذه الدعوة تستتبع أيضاً خير المدعوِّين ، لأن الإيمانَ بالله تعالى - بعد الكفر والشرك - يؤدي إلى غفران الذنوب التي ارتُكبت إبَّان الضلال والضياع عن حقيقة وجود الله . ومثل هذا الغفران مفيد للمدعوِّين حتماً ، لأنه ينفعهم بما يخلصهم من العذاب ، ثم لا يضرهم لأنهم لا يخسرون شيئاً حين يؤمنون . ثم إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يستعجل إيمانكم ولا يجبركم عليه فور الدعوة ، بل ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب ، أيها الناس ، وإنما يمنُّ عليكم منَّة أخرى - بعد خلقكم والإنعام عليكم - فيؤخركم إلى أجل محدد ، إما أن يكون في هذه الدنيا بنزول العذاب ، وإما أن يؤخركم إلى يوم الحساب ، حيث تجدون أن ما وعدكم الله به حقّاً ، والله لا يخلف وعده ، فَاغْتَنِمُوا هذه الفسحة من الأجل وآمنوا قبل ضياع الفرصة .

ولكنَّ الكافرين أجابوا الرُّسل قائلين: هل أنتم إلَّا بشر مثلنا، ومن جنسنا ؟ لا ، لا نصدق بأنكم مرسلون من ربكم ، بل أنتم تدَّعون ذلك ادِّعاءً ، ومرادكم أن تمنعونا عن عبادةِ الأصنام والأوثان التي عبدها آباؤنا . . ثم ما هي حججكم المقنعة على صحة ما

تدَّعون ، وعلى بطلان عبادتنا ؟ هاتوا براهينكم التي تبين لنـا الحق من الباطل .

قـالت لهم رسلهم : نعم نحن بشر مثلكم ، في الصـورة والهيئة والخلق ، ونحن منكم يـا أقوامنـا ، كما تعـرفوننـا بصدقنـا ونُصحنا ، ولسنا ندّعي أننا ملائكة أو غير ذلك . . . ولكنَّ الله تعالى يختار لرسالاته من يشاء من عباده . وهذه منَّة منه وفضل عظيم علينا لاصطفائه إيَّانـا لحمل رسالاته ونشر دعـوته . وإن كنتم تطلبون البراهين على صحة ما ندعوكم إليه، فنحن لسنا بقادرين على أن نقدم أيَّ برهان ما لم يـأذن لـنا الله بـذلك ، ويـزوِّدنا بـالعلم وبالقـدرة على الإتيـان بـه . . وفي كـل الأحوال إنما نحن رُسلٌ نتوكل دائماً على الله ، وعلى الله وحـده يتوكـل المؤمن ولا يلتفت بقلبه إلى سواه ، ولا يرجو عوناً إلاَّ منـه ، ولا يركن إلا إلى حماه . ومن يتوكـل على الله ، ويصـدِّق رسله ، لا بد أن ينـالَ الجزاءَ الأوفى على إيمانه وتصديقه رُسل ربه الذين اختارهم الله تعالى ، واصطفاهم من عباده لهداية عباده .

٩ ـ آياتُـه تعالى تدل على أنه الحق :

قال تبارك وتعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[1] .

---

(١) الذاريات : ٢٠ ـ ٢٣ .

في هذه الآيات الكريمة لفتةٌ إلى آيات الله سبحانه في الأرض وفي الأنفس ، وتـوجيهٌ إلى السـماء بشأن الـرزق المكتوب والحظ المقـدور . والنصوص القرآنية معدة للعمل في جميع الأوسـاط والبيئات والـظروف والأحوال ، قادرة عـلى إعطاء رصيـد معينً لكـل نفس ، ولكل عقـل ولكل جماعة، كلٌ بقدر ما يتقبل منها ومـا يطيق . وكلما ارتقى الإنسـان في المعرفة ، واتّسعت مداركه ، وزادت معلومـاته ، وكثـرت تجاربـه ، واطّلع عـلى أسرار الكـون وأسـرار النفس ، ارتقى نصيبـه ، وتضخم رصيده ، وتنوَّع زاده الـذي يتلقّاه من نصـوص القرآن الكـريم ، هذا الكتاب الذي لا تنفد عجائبه ، ولا تفنى غرائبه ، ولا تنجلي الظلمات إلاَّ به . فالقرآن المبين ، يدلنا على آيات الله المبثوثة في كل الأشياء التي خلقهـا ، وقـد خصَّ المـوقنـين ، الـذين صـدَّقـوا رسله ، وأيقنـوا بربوبيتـه ، وآمنوا بتفـرُّده ووحدانيتـه ، بحقيقة النـظر في آياتـه . وما هـذا التخصيص إلاَّ لأن اليقين هـو التصديق الجـازم ، والموقنـون هم الصادقون المصدِّقون لحقائق آيات الله تعالى في خلائقه ، تلك الخلائق التي لـو وقف الناس عـلى دقة تـراكيبها ، وعجيب صنـائعها ، وكثـرة خصـائصها ، لأخـذت منهم بالألبـاب لما يجـدون من عـظم الجبـال ، وسعة البحار ، وتنـوُّع النباتـات والأشجار والثمـار ، وعالَم الحيـوانات والحشـرات . . وغيرهـا . . . وكلُّها تـدل على كمـال قدرة خـالقهـا ، وبالغ حكمته :

وفي كـلِّ شيءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ عـلى أنـه واحـدُ

ثم هذه النفس البشريـة ، التي تلبس ثوبهـا أبدانُنـا ، والتي هي روحانية الصنع والتركيب ، هل فكَّرنا كيف تتغيَّر من حالٍ إلى حال ،

ومن صفة إلى صفة ، ومن وضع إلى وضع ؟ بل إن أجسامنا التي تحمل تلك النفس ، هل تدبَّرنا كيف نشأت ، وكيف تطورت حتى استوت على ما هي عليه ؟ . . أولم يكن الإنسان نطفة ، ثم يصير جنيناً في بطن أمه ، ثم يولد طفلاً ، ثم يكبر ليصير شاباً ، فكهلاً ، ثم يُرد إلى أرذل العمر ؟ هل فكَّر الناسُ بذلك ، وهم المخاطبون بالتفكير في آيات الله وفي أنفسهم ؟ أم هل سألوا الأطباءَ عن تكوينهم الفيزيولوجي والنفسي ، وما وجَدَ أهل الطب من خلال تجاربهم ومعالجاتهم من غرائب الصنع ، ودقائق التنظيم لهيكلية الإنسان ؟ ألم يقولوا بأنَّ تركيب الإنسان أشدَّ ما يدهش العقول ؟ أفلا يُبصِرُ البشرُ ذلك ويتفكرون في عظمة الخالق ، والصانع ، والمدبِّر عزَّ وجل ، وهو الذي صرَّفَ الآيات والأنفس على مقتضى حكمته ، وكامل قدرته ؟ ! . .

﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ . . هذه الأقوات المذخورة في الأرض للأحياء التي تسكنها : سواء أكانت تسكن سطحها ، أو تسبح في أجوائها ، أو تمخر ماءها ، أو تختبىء في مغاورها وكهوفها ، أو تختفي في مساربها وأجوافها . . هذه الأقوات الجاهزة ، المركبة والبسيطة ، والقابلة للوجود في شتى الأشكال والأنواع ، نقول هذه الأقوات أوجدها الله سبحانه لتلبي حاجة هذه الأحياء التي لا تحصَى ، ولا تحصى أنواع غذائها أيضاً ، وجميع أسباب هذا الغذاء مصدره من السماء ، وكما قسَّمه الله تعالى لكم ، ومما هو مكتوب في اللوح المحفوظ ، أو مما قد يزيد الله تعالى فيه أو ينقص منه ، وبقدر ما يريد وما يشاء ، لأنه خبير بحاجاتكم ، عليم بحالكم . وكل ما تأملونه من رزق ، وما توعدون به من خير ، فهو من ربكم الذي هو

ربُّ السماوات والأرض . وعلى هذا يُقسم الله تعالى : فيقـول عزَّ من قـائل : ﴿ فـوربِّ السماء والأرض إنـه لحق ﴾ . . وهو قسم عـظيم ، تقشعرُّ له الأبدان ، لأنه منه سبحانه وتعالى وقد أقسمه بنفسـه على أن كلَّ ما ذكره لكم من الآيات المبثوثة حـولكم في الأرض ، والكائنـة في نفـوسكم ، ومـا وهبكم من الـرزق الـذي ينـزل عليكم من السـماء وتحصلون عليه في حياتكم . . كله حق ، لا شـك فيه ولا ريب ، ولا مجال لإنكاره ، وأن حقيقته والتصديق به قائمـان ، ثابتـان ، تمامـاً كما هـو ثـابت لـديكم أنكم تتكلمـون وتنـطقـون بكـلام يخـرج من أفواهكم . . . فإن كنتم في شك من أنكم تنطقون ، فشكُّوا في صـدق آيـات الله . وإذا كنتـم لا تشكُّـون بـأنكم تنـطقـون ـ ومن العبث أن تشكوا بذلك ، لأن النطق من خصـائص البشر ـ فلِمَ تشكُّـون ـ إذن ـ بأنَّ الله تعالى قادر على خلق كل شيء ؟ ولِمَ تشكُّون بأن القرآن كتـاب منزَّل من ربكم وفيه كلُّ شيء عن البدء والمعاش والمآل ؟

إنَّ الله ـ جلَّ شأنه ـ هو الحق، ومنه الحق، وإليه الحق . وهـذه حقيقة ثابتـة لا مجال لإنكـارها ، كـما هو حقيقي وثـابت النطق الـذي تنطقون به . .

القرآن كتاب الله المبين ـ القرآن يتحدى

التحـدي ـ لغةً ـ يعني المبـاراة والمغالبـة . . ويكـون بمعنى اتِّخـاذ الإنسان موقفاً في مواجهة موقف آخر يرمي إلى عكس موقفه. وقد يكون التحدي لإثبات حقيقـةٍ من الحقائق ، أو لمنـاصرة حقٍ يُـراد طمسُهُ أو القضاء عليه أو من أجل تثبيته والإقـرار به ، كـما قد يكـون التحدّي ـ عـلى العكس ـ أي مناصـراً للباطـل وضـد الحقيقـة ، في سبيـل تحقيق مآرب دنيئة أو أهداف ملتوية . . .

والتحـدّي قد يصـدر عن فردٍ من الأفـراد ، أو عن جمـاعـةٍ من الجماعات ، أو حتى عن دولٍ في مـواجهة دولٍ أخـرى ، وذلك تبعـاً للظروف التي تحكم العلاقات والمواقف ، وتبعاً للغايات التي يعمل من أجل الوصول إليها . . .

وللتحـدي صور وأشكـال عـديـدة ، كـما أنـه يستتبـع وسـائـل وأسـاليب وطرائق متعـددة ومتنوعـة أيضاً ، ولكنَّ أهم أشكـالـه يبقى التحدِّي الفكري مع ما يستلزم هـذا التحدي من إمكـانيات وقـدرات مادية ومعنوية . .

أما فيما يتعلق بالعقيدة ، فمن الثابت أن الكافرين والمشركين قد كذَّبوا المرسلين والنبيِّين ، بل وتحدَّوهم بوقوفهم في وجه الدعوات التي كانوا يحملونها إلى درجة وصلت لدى أكثر الأقوام إلى قتال رُسلهم ومحاربتهم ، ثم بلغت عند بعض الأقوام إلى حد قتل أنبيائهم . . . وهكذا درج الشرك والكفر على تكذيب الرسالات السماوية في شتى العصور التي نزلت فيها ، فلم يسلم نبيٌّ من أذى قومه ولا نجا رسولٌ من مواجهة جبابرة أهل زمانه . . . ولم يكن حال خاتم النبيين محمدٍ (ﷺ) أفضلَ ممن سبقوه ، لأنه لمَّا بعثَه اللَّهُ تعالى مبشراً ونذيراً للعالمين ، انبرى المشركون والكافرون في زمانه لمناهضته ومنعوه من نشر دين الله بين الناس . ولكنَّ الوحيَ الذي كان ينزل عليه (ﷺ) قرآناً مبيناً لم يسكت عن أولئك الكفرة والفاجرين ، بل كانت تتنزَّل الآياتُ بتحدٍّ يصفع وجوههم ، ويسفه أحلامهم ، ويبطل أكاذيبهم . وكان التحدِّي القرآني متطابقاً مع الذهنية البشرية ، فحيث ادَّعى الكافرون ـ مثلاً ـ بأن القرآن هو من تأليف محمد (ﷺ) تنزَّل الحكمُ الإلَهي بأنه من عند الله تعالى ، وأنه قول الله عزَّ وجلَّ ، بلسانٍ عربي مبين ، ثم كان الحكمُ تحدياً لهم صريحاً بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ، أو بعشر سور من مثله ، إن كانوا صادقين فيما يدَّعون . . فلمَّا ظهر عجزهم ، تحدَّاهم بالأقل ، وطلب منهم أن يأتوا ولو بسورة واحدة من مثل هذا القرآن . . ثم ما عتَّم هذا التحدِّي أن وصل إلى الذروة القصوى وهو يخاطب الإنس والجن ـ على حد سواء ـ أن يأتوا بشيء من مثل هذا القرآن ، حتى ولو تعاونوا ، وتعاضدوا جميعهم على ذلك .

١ ـ نزول القرآن متفرقاً

قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (١) .

لماذا أنزل الله تعالى القرآن منجماً ـ أي متفرقاً ـ ولم يُنزله دفعةً واحدة ؟

لقد جاء هذا القرآن ليربي أمةً ، وينشىء مجتمعاً ، ويقيم نظاماً . والتربية تحتاج إلى زمن ، وإلى تأثر وانفعال بالكلمة ، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع . والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد . وإنما تتأثر يوماً بعد يوم بالطرق التي حدَّدها هذا المنهج ، وتتدرج في مراقيه رويداً رويداً ، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً . وهذا ما شاءَهُ اللَّهُ تعالى في تنزيل القرآن منجماً . . ولكنَّ الذين كفروا لم يدركوا تلك الحقائق ـ ولن يستطيعوا إدراكها طالما عشش الكفر في قلوبهم ـ فانبروا يذيعون في الناس ، بخبث ودهاء ، أن هذا القرآن لو كان حقّاً من عند الله لَنزل على محمد دفعةً واحدة ، كما هي الحال في التوراة والإنجيل والزبور . . فجاءهم الردُّ خطاباً من الله تعالى لرسوله الكريم يقول فيه : نحن ننزِّل عليك القرآن متفرقاً لنثبِّت به فؤادك ، ونقوي به قلبك فتزداد بصيرة ؛ ثم لتبلِّغه إلى الناس آياتٍ متفرقات

(١) الفرقان : ٣٣ .

حتى يقـدروا عـلى التـأثـر والأنفعـال بهـا فتتـوطَّـد دعـوة الحق في نفوسهم، ويملأ الإيمان قلوبهم . وقد كان إنزاله عليك ـ يا محمد ـ بأن رتلنـاه ترتيـلاً ، أي بيَّنـاه تبييناً ، وأرسلنـا بعضَـه في أثـر بعض . . (والتـرتيل هنـا هو التتابـع والتـوالي وفق حكمـة الله وبحسب علمـه بحـاجـات تلك القلوب واستعـدادهـا للتلقي) . وروي أن النبي (ﷺ) قال : يا ابن عباس ، إذا قرأت القرآن فرتِّله ترتيلاً . قال ابن عباس : وما التـرتيل يـا رسول الله ؟ قـال (ﷺ) : بيِّنه تبييناً ، ولا تنثره نثر الـدقل[1] ، ولا تهـذَّه هذَّ[2] الشعـر . قِفُوا عنـد عجائبـه ، وحـرِّكـوا بـه القلوب ، ولا يكـونَنَّ همُّ أحـدكم آخـرَ السـورة . وإذا كـان الكـافـرون قـد عملوا عـلى مخـاصمـة محمـدٍ (ﷺ) بـالحجـة أو بمثلٍ يضـربـونَـهُ لـه ، فـإنَّ الله تعـالى كـان ينـزل عليـه الحجـج والبراهين والأدلة الحقة التي تدحض حججهم وأمثالهم وأقـوالهم ، بل وأحسن تفسيـراً للدعوة التي كـان يحملهـا ، ولـلأمـر الـذي ينشـره ، وأحسن بياناً وكشفاً مما أتوا به من الأمثال .

٢ ـ التحدّي بأن يأتوا بمثل القرآن

قال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾[3] .

وانطلق التحدّي القـرآني بالـردِّ على الكـافرين في كـل ما قـالوه.

---

(١) الدقل : التمر الرديء .

(٢) هذَّ الحديث : قطعه سريعاً ، سردهُ ، وهذَّ به : لهج به .

(٣) الطور : ٣٤.

وزعموه ، ليبطل افتراءاتهم وادِّعاءاتهم . فعندما ادَّعَوا بأن النبيَّ (ص) يتكلَّف القول ويسميه قرآناً مُوحىً إليه به ، جاءهم البرهانُ على كذب دعواهم .

والتقوُّل هو التكلُّف في القول ، ولا يكون إلَّا في الكذب ، لأن من أراد أن يتقوَّل شيئاً ، فإنما أرادَ أن يكذب به . ولذا نزل الذكرُ الحكيمُ يسألهم في استنكار ، إن كانوا يقولون ﴿ تقوَّله ﴾ ، فإن هذه الكلمة لا يمكن أن تقال عن محمدٍ (ﷺ) ولذا جاء السؤال عنها استنكاراً : ﴿ أم يقولون تقوَّلَهُ ﴾ ، ومبادراً ببيان علة هذا القول الغريب ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ . إذن فليس الأمر مجرد كذبٍ وادِّعاء منهم وحسب ، بل هو إصرارهم على الكفر والشرك ، لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا ؛ فعدم استشعار قلوبهم للإيمان هو الذي يُنطقهم بمثل ذلك القول الغريب ، بعد أن يحجبهم عن إدراك حقيقة القرآن . ولو أدركو لعلموا أن القرآن ليس من صنع البشر ، وأنه لا يحمله إلَّا رسولٌ صادقٌ أمينٌ ، أظهروا له البغضاء والحسد ، فكان هذا الحسد من جملة الدوافع التي عملت على أن يرموه بالتقوُّل . فأظهرَ الله تعالى أنهم هم الكاذبون بتقوُّلهم ذلك ، وليس محمداً (ﷺ) ؛ ثم طرَحَ التحدِّي إبطالاً لادِّعائهم وكذبهم ، عندما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ . . . فهؤلاء الكافرون يدَّعون بأن القرآن من تأليف محمد (ﷺ) ؛ وهو واحد منهم ، وما يقدر هو عليه من تأليف ، فهم أيضاً قادرون على تأليف مثله لأنهم أهل بلاغة وفصاحة وبيان . . وها هو القرآن ، فليأتوا بشيء من مثله إن كانوا صادقين في زعمهم . . . والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أنهم لن

يقدروا على الإتيان بمثل القرآن ، ولكنه شاء أن يتحداهم بالاستطاعة التي يتّصفون بها ؛ فإذا ثبت عجزهم عن ذلك ، لزم عليهم أن يكفُّوا عن الكذب ، فلا يقولون زوراً وبهتاناً إنَّ محمداً يتقوَّلُ القرآن ، بل يكون لزاماً عليهم بالتالي أن يُقرُّوا بأن القرآنَ منزلٌ من عند الله تعالى ، لأنه لا يمكن أبداً أن يكون من تأليفٍ بشريٍ ؛ وأخيراً وجب عليهم تصديق محمدٍ (ﷺ) بما يدعو إليه من أن اللَّهَ واحدٌ أحد ، لا شريك له ، وأنَّ له وحَدَه الملك ، وله وحده الألوهية والربوبية على الإطلاق .

٣ ـ التحدّي بأن يأتوا بعشر سور مثله

قال تعالى :﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (١) .

عندما نزل قوله تعالى : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ كان تحدِّياً لهم على وجه عام ، أي كيف يشاؤون وبالطريقة التي يريدون ، وعلى المقدار الذي يستطيعون . . وطبعاً فقد عجزوا عن ذلك . ولكنهم رغم عجزهم ذاك تابعوا دعواهم الباطلة ، ولكن بأسلوبٍ جديد ، عندما ادَّعوا بأن محمداً (ﷺ) يفتري القرآن افتراءً ، أي يدَّعي تنزيله من عند ربِّه سبحانه ، بينما هو من تأليفه ، فجاءَهم التحدِّي على وجهٍ محدَّدٍ ، وذلك بأن يأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات : أي على نفس المستوى من التأليف الذي اتَّهموا به الرسولَ الكريم (ﷺ) .

---

(١) هود : ١٣ .

إذن فالأمر واضح ، وهو أن أولئك الكافرين قالوا إنَّ محمداً افترى القرآن ، فجاء الردُّ عليهم خطاباً للرسول (ﷺ) بأن يقول لهم بتحدٍّ : إن كان هذا ادِّعاؤكم ، فأتوا بعشر سورٍ على نفس الخط الذي تزعمون أنني افتريت به القرآن ؛ وأنتم عربٌ فصحاءُ سادةٌ في البلاغة . . ثم يعنف التحدِّي عندما يجبههم بأنَّ لهم أن يدعوا لمساعدتهم في ذلك من يريدون من جهابذة الفصاحة والبلاغة والبيان وحسن النظم والتأليف ، إن كانوا صادقين في دعواهم . .

أما من حيث الدعوة إلى الله تعالى ، فهذا التحدِّي مؤازرة من الله تعالى لنبيِّه الكريم ، على الثبات في وجه الكافرين ، ومحاجَّةٌ للقوم بما يقطع أعذارهم ؛ كما أنَّ فيه كبحاً لجماح عنادهم، ورداً لكل افتراءاتهم ؛ ليعلموا أن النبيَّ العظيم (ﷺ) معصومٌ عن الافتراء والتقوُّل ، وأن القرآن الكريم منزَّه عن الافتراء والتقويل لأنه كلامُ ربِّ العالمين ، وإن نزل بلسانٍ عربي ، فالقرآن لا يدانيه لسانٌ آخرٌ لا عربي ولا أعجمي . .

٤ ـ التحدِّي بأن يأتوا بسورة واحدة مثله

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1] .

ومن جديدٍ ، يضع القرآنُ الكريمُ الناسَ جميعاً أمام الحقيقة المطلقة التي لا مناص من الاعتراف بها ، ولا مجال لإنكارها ، ألا

---

(١) البقرة : ٢٣ .

وهي حقيقة أن الله تعالى هو الذي أنزل القرآن ، بلا ريبٍ في ذلك ولا شك . وهي حقيقةٌ موجَّهةٌ للناس جميعاً ، ـ ولا سيما الكافرين والمعاندين منهم ـ لكي تزيل كلَّ شك من نفوسهم ، وتبعد كلَّ ريبٍ عن عقولهم .

ولَّما كان الكافرون غير مصدِّقين بما يدعوهم إليه محمد (ﷺ) ، كان لا بد من تحدِّيهم بأن يأتوا ولو بسورة واحدة من مثل هذا القرآن الذي يرتابون في نزوله من عند الله تعالى على عبده ورسوله (ﷺ) . . إذن فتحديهم محدَّدٌ ومحصور ، وهو بأن يبذلوا كل جهدٍ ، وأن يفعلوا كل ما يستطيعون ـ هُمُ وكلٌّ من يشهدون معهم أن القرآن ليس من عند الله ـ لكي يأتوا بسورة واحدة فقط تكون على نظمه ، وجزالة لفظه ، وبلاغة معناه ؛ وبما تحتوي السورةُ الواحدةُ من مفاهيم وتعاليم وحقائق ليست في غير القرآن : إن في كتب السماء ، أو في كتب أهل الأرض ، والتي لن تكون في أي كتاب آخر على الإطلاق . .

هذا هو التحدِّي القرآني العظيم لأهل الفكر والمعرفة ، ولذوي العقل والاختصاص من أهل الكفر . بل ليسوا وحَدهم المعنيين بهذا التحدِّي ، وإنما هم وجميع أعوانهم وأنصارهم الذين وصفَهم الله تعالى بالشهداء ، أي المناصرين أو الجلساء ، أو المشاهدين للحدَث الذي يقع ، ولا فرقَ بين أن يكون هذا الحدثُ موافقاً لرغباتهم أم مخالفاً لها ، أو هو مع الحق أو ضده ؛ فالمهم أن شهداء الكفار ، الذين يشهدون لصالحهم ضدَّ القرآن الكريم ، وضد محمدٍ (ﷺ) ، هم على حدِّ سواء مع أولئك الكفار في هذا التحدّي ، يضاف إليهم

غيرُهم أيضاً ممن يستعينون بهم ، من دون الله تعالى . . فإنْ لم يستطيعوا مواجهة التحدِّي ـ ولن يستطيعوا ـ كان عليهم الرضوخ ، وعدم التمادي في الكفر والمعاندة . .

٥ ـ ما يؤكده التحدِّي القرآني :

تلك هي الآياتُ القرآنية التي وردت في سور ثلاث متفرقة تحمل التحدِّي للمشركين والكافرين ، وكانت تهدف لتأكيد أمرين جوهريين :

ـ الأول أن القرآن من عند الله تعالى بلا ريب .

ـ والثاني أنَّه منزَّل على محمد (ﷺ) لأنه نبيٌّ الله ورسولُه للعالمين .

أما وجْهُ التحدّي فيها ، فهو أنه ـ سبحانه ـ أنزل القرآن بلغة رسوله محمد (ﷺ) ، أي بلغة العرب ، الذين اشتهروا بالبلاغة والفصاحة والبيان ؛ والذين كانوا يعتقدون أنفسهم أنهم بلغوا الغاية القصوى في فصاحتهم ، وتسنموا الذروة العليا في بلاغتهم ؛ فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ كلاماً من جنس كلامهم ، وتحدَّاهم بأن يأتوا بشيء من مثله ، حتى ولو كان قَدْراً بسيطاً ، لا يتعدَّى السورة الواحدة من القرآن . فكان في هذا التحدِّي إبرازُ عجزهم عن ذلك ، وكان هذا العجز منهم حجة عليهم ؛ ودلالة على صدق بعث محمد (ﷺ) ،وصحة الرسالة التي يحمل . ذلك أن القرآن الكريم نزل على نظم مخصوص وبلاغةٍ وفصاحةٍ هما من ميزات إعجازه . . والبلاغة

تكون على ثلاث طبقات ، فأعلى طبقاتها معجز ، وأدناها وأوسطها ممكن . . والتحدِّي القرآني إنما وقع في الطبقة العليا . . فإذا أخذنا قوله تعالى : ﴿ فأتوا بعشر سور مفتريات ﴾ ، نجد أنه ليس المراد به مثلَهُ في الجنس ، لأن مثلَهُ في الجنس يكون على نفس المقدار والشكل والمضمون فلا يقع فيه التحدِّي ، فهو إذن يتناولُ الكلَّ من خلال الجزء ، ثم يرجع فيه إلى واقع المدَّعين بافتراء القرآن ، وتحدِّيهم لبعضهم كما حَصَلَ من قبلُ ما بين امرىء القيس وعمرو بن كلثوم ، وكما حصلَ بعدُ ما بين جرير والفرزدق ، وغيرهم من العرب الذين اشتهروا بالفصاحة والبيان شعراً ونثراً . . .

وأما لماذا ذكر الله تعالى التحدِّي مرةً « بحديث مثله »، ومرةً « بعشر سورٍ » ، ومرةً « بسورة واحدة » فلأن التحدي إنما وقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام ، فتحدى مرة بالأكثر ، ومرة بالأقل . . .

ثم إذا علمنا بأن الكافرين والمشركين ـ بل وبأن الكثيرين من أهل الكتاب ـ قد بذلوا أموالهم النفيسة ، وضحَّوا بمهجهم الغالية من أجل محاربة محمد (ﷺ)، ومن أجل معارضة القرآن، فقد أدركنا كَمْ كان التحدِّي صارخاً في وجوههم ، وكم كان عظيماً في إثبات هزيمتهم ، وتأكيد عجزهم . . فالقتالُ الذي أعلنوه على محمد (ﷺ) وعلى الإسلام ، حرباً لا هوادة فيها ، فيه تكلُّف الأمور الشاقة الباهظة ، ماديّاً ومعنويّاً . . وتلك الحربُ هي الدليل الواضح على عجزهم ، إذ لو قدروا على معارضة القرآن ، والإثبات بمثله ، لَكان ذلك أهون وأيسر عليهم ، من أي قتالٍ أو حرب ؛ فالإنسان ـ بطبيعته ـ لا يعدل عن الأمر السهل ـ الذي هو هنا معارضة القرآن ـ

إلى الأمر الصعب ـ الذي هو قتال محمد (ﷺ) الذي يتسلَّح بالقرآن ـ فإذا اختاروا الحربَ على التأليف والتعبير ليأتوا بمثل القرآن ، كان اختيارهم برهاناً قاطعاً ، وحجة دامغة على عجزهم وإفلاسهم عن الإتيانِ بمثل القرآن .

ومن ميزات التحدِّي القرآني ما نجده فيه من جمال التعبير ودقة الدلالة في آنٍ واحد ، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موقعه ؛ وبحيث لا يجور الجمال على الدقة ، ولا الدقة على الجمال ، فيبلغ من ذلك كله مستوىً لا يدرك إعجازه أحدٌ ، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً ، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال .

وظاهرة أخرى في الأداء القرآني ، هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة ، متناسقة في النص ، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح ، دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات ؛ وكل قضية ، وكل حقيقة تنال الحيِّز الذي يناسبها ؛ بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى ، ويبدو في كل مرة أصيلاً في الموضع الذي استُشهد به فيه ، وكأنما هو مصوغ ابتداءً لهذا المجال ، ولهذا الموضع ، كما نرى في الآية (٢٣) من سورة البقرة[1] ، حيث نجد نفس النص تقريباً مع الآية (٣٨) من سورة يونس ، بقوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . .

---

(١) البقرة : ٢٣ ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

على أن التحدِّي القرآني لا يقف عند حدود سورة من سور القرآن أو آيةٍ من آياته، فهو ينتصب في مطلع سُوَر كثيرةٍ مُفْتَتَحَةٍ بالأحرف النورانية ، بمعنى أن هذا الكتاب المنزَّل من عند الله ، هو مصوغٌ من تلك الحروف التي في أيديهم ، فإن كانوا يرتابون في تنزيله ، فدونهم ، فليأتوا بشيء من مثله ، أو بسورة من مثله ، وليدعوا من يشهد لهم بهذا ـ من دون الله ـ فالله تعالى قد شهد لنفسه بأنه الحق ، وأنه قد أنزل الحق ، وشهد لعبده بالصدق في دعواه .

وهذا التحدّي ظلَّ قائماً في حياة رسول الله (ﷺ) وبعدها ، ولا يزال قائماً إلى يومنا هذا ، وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيها ، إذ ما يزال القرآن يمتاز عن كل كلام يقوله البشر تمييزاً واضحاً قاطعاً ، وسيظل كذلك أبداً تصديقاً لقوله تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١) .

﴿ ولن تفعلوا ﴾ . . هذا هو التحدي الأشدّ . . . بل إن التحدي هنا عجيب . والجزم بعدم إمكانه أعجب . . ولو كان في طاقتهم تكذيبه ـ ماضياً وحاضراً ـ لما توانَوا عنه لحظة . وما من شك أن تقرير القرآن الكريم ﴿ أنهم لن يفعلوا ﴾ وتحقُّق هذا حتى بعد نزوله بأربعة عشر قرناً ونيف ، هو بذاته معجزة لا سبيل إلى المماراة فيها . ولقد كان المجال أمامهم مفتوحاً ، فلو أنهم جاؤوا بما ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجية القرآن الكريم ، ولزالت أعجوبته ؛ ولكنَّ هذا لم يقع، ولن يقع . . والخطاب إنما هو للناس جميعاً . . .

---

(١) البقرة : ٢٤ .

ولو أنه كان في مواجهة جيل من أجيال الناس ، لكانت هذه المواجهة وحدها تكفي لأن تكون كلمة الفصل التاريخية ، فكيف إذا كان الخطاب موجهاً ، والتحدي قائماً ، لجميع الأجيال ، وعلى مر العصور ؟ . . هذا فضلاً عن أن كل من له دراية بتذوق أساليب الأداء ، وكل من له خبرة بتصورات البشر ، وجميع الكائنات الحية ، والجماد ، وكان له خبرة بالنظم ، وبالمناهج والنظريات النفسية والمجتمعية التي ينشئها البشر ، لا يخالجه شك في أن ما جاء به القرآن في هذه المجالات كلها شيء آخر ليس من مادة ما يصنعه البشر . والمراء في هذا لا ينشأ إلا عن جهالةٍ لا تميز ، أو غرض يلبس الحق بالباطل .

التحدّي للثقلين بأن يأتوا بمثل القرآن

قال تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾(١) .

لقد رأينا أن معارضة القرآن متعذرة لأنه شاءه اللَّهُ تعالى - حين أنزله من عنده - أن يكون المعجزة الحسية الدائمة التي يراها الناس بأم العين ، ويسمعونها بالأذن ، ويلمسونها بالأيدي ، لتكون الشاهد الدائم على حقيقة أنَّ القرآن منزَّل من عنده تعالى ، وأنه لا يستطيع أحَدٌ أن يغيِّر فيه لفظة أو عبارة ، أو سورة إلى يوم الدين . . وقد

---

(١) الاسراء : ٨٩ .

تحـدَّي القرآن كـلَّ من عانـدَ وكـابـرَ من النـاس ، حتى ثبت عجـزهم جميعاً . . ولكنَّ هذا التحـدي القرآني لم يقف عنـد طرح المسـألة عـلى ساحة الإِنس وحدهم ، بـل تعدَّى هـذه الساحـة ليطرح المسـألةَ عـلى ساحة الجـنِّ معهم ، ليتعاون الثقلان ، في آن واحد ، على الإِتيان بمـا يشبـه القرآن الكـريم . ذلك أن الجـنَّ ، كما تـروي الأخبـارُ عنهم ، يأتون بالمعجزات والخوارق ، ويقومون بأشياء لا يستطيـع البشر القيـام بها . ومن قبيل ذلك إخبار القـرآن الكريم ذاتـه عن عفريتٍ من الجن قال لسليمان عليه السلام : أنـا آتيك بعـرش ملكة سبـأ من اليمن إلى القدس ، قبل أن تقوم من مقامك . .

ولئن كان الله تعالى قد حبا الإِنسان بالعقـل ، وبميزة التفكـير ، فجعله بذلك سيد المخلوقات على الأرض ؛ فقد أعطى سبحانه وتعالى الجـنَّ القدرات الفـائقة التي تمكِّنهم من إتيـان المعجـزات ـ في تقـديـر البشـر ـ ثم كان هـذا التحـدِّي للثقلَين ـ الإِنس والجـنِّ ـ مجتمعَـين ؛ لكي يتعـاضدا ويتعـاونا سـويةً عـلى الإِتيان بمثـل القرآن . ثم يـظهـر بالنتيجة أنهما لم يقدرا على ذلك ، وعجزا عجزاً مبيناً . . نقول إذا كان الأمـر كذلـك ، تبيَّنت لنا عـظمة القـرآن في طرح التحـدّي على هـذه الصورة المعجزة .

وإنَّ ما بين الإِنس والجن تفاوتاً كبيراً في الخصائص والقدرات ، لأنهما من جنسـين مختلفين ؛ ونحن وإن كنـا لا نـدري حقيقـة تكـوين الجـنِّ ، إلاَّ أنه من الثابت أنَّ اختلافاتٍ كبيرة تقع بينهم وبيننا . ولـذا لم يثبت حتى الآن وجود تعاون وائتلاف بين الجنسين . . ومن هنا جاء التحدّي القرآني ، بـأنه لـو اجتمعت الإِنس والجن على أن يـأتوا بمثـل

القرآن - بعد إزالة الاختلاف والتناقض بينهما ، واتفاقهما على التعاون فيما بينهما - فإنهم لن يقدروا على ذلك ، ولن يأتوا بمثل القرآن ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً أي نصيراً ، ومعيناً . . . وكيف يقدرون على ذلك ، والقرآن عَلَمٌ فريدٌ في المبنى والمعنى ، لا يقف عند حدِّ كونه في الطبقة العليا من البلاغة والنظم ، وتصوير المعاني ، وتهذيب العبارة ، ولا عند حدِّ خلوِّه من التناقض واللفظ المسخوط ، والمعنى المدخول ؛ بل يتكامل أيضاً ليقدِّم للناس الدلائل والبراهين ، والعظات ، والأحكام ، وأخبار الأمم الغابرة ، وطرائق عيشها ، ومصائرها . . . أي ليبيِّن كل الأمور والقضايا التي يبرزها القرآن الكريم نفسه بقوله تعالى : ﴿ولقد صرَّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ ، وهي الأمور والقضايا التي لا تقدر عليها طاقات البشر ، ولا قدرات الجن ، لأن ذلك سابقٌ في علم الله الخبير العليم ومرتبطٌ بقدرته - سبحانه - وحده ، التي لا يقدر الإنس ولا الجن على تصوُّرها ، ومعرفة كنهها . . فإذا كان القرآن كذلك ، فكيف تقدر مخلوقات ، مهما كان نوعها أو جنسها ، على الإتيان بمثله ؟ ولذلك كان التحدِّي للثقلَين معاً . . .

أجل هذا هو القرآن الكريم الذي أنزلَ فيه اللَّهُ تعالى الأمثالَ ، ليصيِّره دائراً في معاني تلك الأمثال التي يقتضي أن تتفكَّر فيها خلائقه . . والتصريف هنا للمثل هو التصيير له ، لأن المثل قد يكون الشيء بعينه ، أو قد يكون صفة للشيء أو شبهه ، والله تعالى قد صيَّر كتابَهُ المنزَّل على رسوله ، على هذا النحو الشامل ، الجامع لكل مَثَلٍ ، ولكل شيء . . ولكن رغم كماله هذا ، فقد أبى أكثر الناس إلَّا كُفراً وعناداً . . ولم يصدِّقوا ما يتَّصف به القرآن المجيد ، وما يتفرَّدُ

به من صفاتٍ ومزايا ، باعتباره كلام الله الحق . .

وهكذا ـ ورغم عجز الإنسان أمام التحدّي القرآني وصغره أمام عظمة هذا الكتاب المجيد ـ فقد ظلَّ ملحاً في عناده ، مستنكفاً عن التصديق بآيات الله العظام ، لأن الإنسان بطبيعته يحبُّ الجدل والنقاش ، حتى كان أكثر شيء جدلاً ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾(١)

نعم لقد أثبت الله تعالى في كتابه العزيز حقائق لا تُعد ولا تُحصى ، وقدَّم عليها الأدلة والبراهين الكافية ، وضربَ الأمثال لتقريب معانيها من أفهام الناس ، إلاَّ أن أكثرهم أبوا إلاَّ الخصومة للحق ، والمجاراة للباطل لأنهم أكثر شيء جدلاً . . فهذا هو التحدِّي الذي تنزَّل به القرآنُ الكريمُ مخاطباً به الضمائر والعقول والنفوس ، فسما القرآن بصدق آياته ، وعظيم أمثاله ، وروائع دلالاته . . ولذا كان هذا القرآن منهجَ حياةٍ كاملٍ ، يجد فيه الباحث منهج نواميس الفطرة التي تصرِّف النفس البشرية في كل أطوارها وأحوالها . فهو يعالج النفس المنفردة ، كما يعالج الجماعة المشتركة بالقوانين الملائمة التي تشد أواصرها وتقوِّي وشائجها وتُنير دروبها وتجنِّبها المزالق في منحنياتها الكثيرة ، ويعالج مشاكلها علاجاً متكاملاً ، متناسق الخطوات في كل جانب من جوانب حياتها . ذلك أن مشرِّع هذه القوانين هو العليم بالفطرة ، وفي كل أحوالها وملابساتها المتشابكة . ولذا كان إعجاز منهج القرآن أبعد مدىً من إعجاز نظمه ومعانيه . فعجزُ الإنس والجن

---

(١) الكهف : ٥٤ .

عن الإتيان بمثله هو عجزٌ كذلك عن إبداع منهج كمنهجه ، يحيط بما يحيط به . . وهكذا قصر إدراك الكافرين عن التطلع إلى آفاق الإعجاز القرآنيّ ، فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية ، ويتعنَّتون في اقتراحاتهم الدَّالة على الطفولة العقلية ، فقالوا لرسول الله (ﷺ) :

﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١)

أي قل لهم أيها الرسول : لو شاء الله ألَّا ينزل عليَّ قرآناً من عنده ، وألَّا أبلغكم إياه ، ما أنزله ، وما تلوته عليكم ، ولا أعلمكم الله تعالى به . لكنه نزل ، وأرسلني به ، وتلوته عليكم كما أمرني . وقد مكثت بينكم زمناً طويلاً قبل البعثة ولم أدَّع فيه الرسالة ، ولم أتلُ عليكم شيئاً ، وأنتم تشهدون لي بالصدق والأمانة ، ولكن لما جاء الوحي به أُمِرتُ بتلاوته فاعقلوا الأمور واربطوا بين الماضي والحاضر لتعرفوا الحق . .

وهكذا لم ينفعهم تقوُّلهم في حقِّ كتاب الله ، ولا طعنُهم الذي ظهر بلا أدبٍ ولا تحرُّجٍ ، ولم ينفعهم ـ في الوقت نفسه ـ تصريف القرآن الكريم للأمثال ، كعرض حقائقه بأساليب متنوعة تناسب شتى العقول والمشاعر ، وشتى الأجيال في مختلف الأزمان . . « فأبى أكثر الناس إلا كفوراً » . وما عاقبة الكفر إلا جهنم يخلد فيها المكابرون أبداً . .

---

(١) يونس : ١٥ ـ ١٦ .

عظمة الخلق برهان ساطع على عظمة الخالق

١ ـ مرد جميع القوى لله تعالى :

يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم :

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾(١) .

القوة والضعف ، حالتان تعتريان الأفراد ، كما تصيبان الأمم والدول على حد سواء . . ولو أنعمنا النظر في تاريخ الجنس البشري على امتداده لَوجدنا أن كل حيٍّ يسعى لامتلاك القوة ـ فرداً كان أو جماعةً ـ ليتخذ من هذه القوة حجةً على التصرف بما يؤمِّن له مصالحه ، وبما يحقق له السيطرة ، والتسلط والتحكُّم في الأشياء . . .

---

(١) العنكبوت : ٤١ ـ ٤٣ .

ومن القوى الظاهرة التي شغلت الإنسان في عصرنا الحاضر قوة العلم التي قدَّر الناسُ أنها أصل سائر القوى ، وتتبعها قوة المال التي حَسِبُوا أنها الطريق لاختراق كافة المجالات . . بالإضافة إلى قوة السلاح ، ولا سيما السلاح الحديث المدمِّر الفتـاك الذي سعت الدول الكبرى لامتلاكه من أجل فرض مبادئها الدنيوية ، والإمساك بزمام المبادرة في فرض سياساتها وتسيير الدول الأخرى وفقاً لأهوائها ومطامعها . . وعلى أساس تقدمها في العلوم وغناها بالمال وامتلاكها للسلاح المتطور المدمِّر دعت نفسها أو دُعيت بالدول العظمى ، كبرياءً وعجرفةً !!! . .

وهذا المنطق الذي يسود المعمـورة الآن، هو منطق شريعة الغاب الذي تتَّبعه الحيوانات الكاسرة في البراري والغابات ، والذي قد يكون له ما يبرره بالنسبة للحيوانات . . ولكن ما هي مبرراته بالنسبة لحياة الجنس البشري ؟ ! بل ماذا جلب على البشرية غير العذاب والألم ، والخراب والدمار ؟ فجميع تلك القوى الظاهرة تعاني من ويلاتها ومصائبها جميع الشعوب سواء في البلاد المتقدمة أو المتخلفة على حد سواء ، كما نرى بأم العين من جرّاء تنافس الدول على النفوذ، وتسابقها على حكم الضعفاء، أو انقيادهم هم أنفسهم لخدمتها . .

ونحن على يقين بأنه لم يكن لتلك القوى مثل هذه الفاعلية الهامة ، إلاَّ لأن الإنسان نسيَ ـ أو تناسى ـ حقيقةً لا مناص من الإقرار بها ، ألا وهي أنّ جميع مصادر القوى ، تعود إلى فضل الله تعالى وحده ، لأنه على كل شيء قدير ، وهو وحده ـ سبحانه ـ الذي يقول للشيء : كن . . فيكون . لأنه هو الذي خلق سائر القوى ، وهو الذي يملكها ، ويسخرها كما يريد ، وحيثما يريد وقد قال الله

تعالى : ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً﴾ (١)

ولذلك فإن الإنسان الذي يحاول أن يدّعي امتلاك القوة ، نؤكّد أنه لم يمتلك سوى مظاهرها التي قضت مشيئة الله تعالى له بامتلاكها وشاءت ذلك . أما لماذا ، وكيف ، فهذا عائد إلى حكمته السنية التي لا مجال للنقاش فيها . .

فالإنسان ـ على مر الزمان ـ قد أغفل هذه الحقيقة ، وربما كان لا يعرفها أو يتجاهلها ، فكان أنِ اتَّخذ له أولياءَ من دون الله ، فعبدها ، وتمسك بها ، ثم حَسِبَ أن قواه الذاتية هي التي تخوِّله التفكير والقول والفعل ، متوهماً أنه مالك للطاقة التي تنبع من ذاته ، وقادر على أن يسيّرها ويتحكم بها وفق هواه ! . . .

هذا الاعتقاد ، أو ذلك الإغفال الخاطىء ـ بل القاتل ـ من الإنسان ، ردَّ عليه القرآن الكريم بالآيات المباركات (٤١ ـ ٤٣ من سورة العنكبوت) التي تدحضه دحضاً تامّاً ، لتضع الإنسان أمام الحقيقة التي يجب ألَّا تغيب عن باله أبداً ، فيدرك أنَّ ما يدّعي من قوة ذاتية ، أو ما يتخذ من أولياء ، من دون الله تعالى ، كلها عبث وليس لها شأن ، في مقياس الله تعالى واهب القوى وخالقها ، لأنَّ مثلها كمثل بيت العنكبوت ، يُنسج من خيوط دقيقة ، واهية لا تقدر على مقاومة أي شيء : ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ . أي أضعفها وأوهاها . نعم لو كانوا يعلمون ذلك حقاً ما عبدوا من دون الله تعالى لا كواكب، ولا أصناماً، ولا أوثاناً ولا غيرها، لأنها

---

(١) الدهر : ٢٨ .

لا تملك أية قوة . ولو فكَّروا قليلاً لَعرفوا ذلك ولَمَا كانوا عبدوها ، ولا اتَّخذوها أولياء لهم ، لأنها ضعيفة ، وضعيفة جدّاً ولا تملك لهم أيَّ نفع ولا تدفع عنهم أيَّ ضرر . . ولكي يظهر الله تعالى مدى ضعفها أعطى هذا المثل الذي تناولها بتصوير عجيب ، وصادق ، عندما قارن الْتجاءهم إليها كالْتجاء العنكبوت عندما تبني بيتاً لتحتمي به . . فهل يقدر هذا البيت الواهي أن يحميها ؟ إذن فالقوى التي يلجأون إليها هي ـ أمام قدرة الله سبحانه ـ هزيلة ، ضعيفة ، لمن أراد أن يحتمي بها ، ومثلُها كمثَل بيت العنكبوت الضعيف الواهي الذي لا يحميها ، ولا يدفع عنها غائلة . . وهكذا قوى الأفراد والأمم والدول ، فإنها إذا أريد منها أن تكون هي الحامية والملاذ من دون الله تعالى ، فإنما هي ـ جميعاً ـ قوىً أرضية خاضعة لإرادة الله تعالى وحكمه ، وربما ضربها بنكسة غير منتظرة فجعلها وبالاً على أهلها ، فدمَّرهم بها قبل أن يدمِّروا بها غيرهم ، لأنه سبحانه ـ في النهاية ـ له وحده القوة ، وهو وحده القويُّ والمريد ، وليس من حماية إلا في حماه ، ولا مهرب إلاَّ باللجوء إلى ركنه الركين . .

فعلى الإنسان أن يفقه هذه الحقيقة التي قرَّرها القرآن الكريم ، وأن يعمل بوحيها ، وإلاَّ فإن البشرية تظل تتخبط بمآسيها ومشاكلها . . وسوف تزداد أحوالها سوءاً ، أكثر مما نرى اليوم ، وستصل بالنهاية إلى الهاوية السحيقة التي تنذر الناس جميعاً بالويل والثبور ، دونما أي فرقٍ بين من يدَّعي القوة أو من يحتمي منها لضعفه . .

من هنا كانت ضرورة التأكيد على الإنسان بأن يؤمن ، بصورة

مطلقة، بأنَّ الله تعالى هو خالق الكون الفسيح ، بكل من وما فيه ، وأنه تعالى القادر العظيم ، الذي دلَّنا على بالغ قدرته وسرّ عظمته بما بثَّ في الكون ، وفي أنفسنا ، وفي كلٍّ ما نرى حولنا أو ما يحيط بنا ، من خلائق هي آيات وعظات على أنه العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ، وما ضربَ سبحانه لنا في القرآن من أمثال إلَّا لنتدبرها ونعمل بهديها ؛ ولكن ـ بالحقيقة ـ لا يعلمها ولا يتدبرها إلَّا العالِمون بحقيقة وجود الله تعالى وسرٍّ عظَمته . .

٢ ـ معجزات القرآن أدلة على قدرة الله تعالى :

وفي القرآن الكريم كثيرٌ من الآيات البيّنات التي تدلّنا على قدرة الله تعالى في خلقه ، ومنها : معجزات خارقة حصلت لأقوام غابرة هذه بعضها .

أ ـ معجزة أصحاب الفيل

قال الله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (١) .

ونرى في هذه الآية الكريمة توجيه الله تعالى لنبيِّه الكريم محمد (ﷺ) وتنبيهاً له على عظمة المعجزة التي حققها يوم جاء أبرهة الحبشي بجيشه لهدم الكعبة الشريفة ، وكان معهم فِيَلةٌ ، فأبتِ الفِيَلَةُ التقدمَ باتجاه الكعبة عندما صاروا على مشارفها ، مما أوقع أبرهة في

---

(١) الفيل : ١ ـ ٥ .

ورطة شديدة ؛ ولكنَّ الأعجوبة التي حدثت لم تكن فقط بـامتناع تلك الحيـوانات عن التـوجه صـوب بيت الله الحرام وحسب ، وإنمـا كانت العبرة فيما حلَّ بالجيش بأسره عندما جاءَهُم أمر الله سبحـانه ، ليبـطل كيدهم ويذهب بمكـرهم ، إذ بعثَ فوقهم أفـواجاً من الـطير ، تتتابـع فوجاً بعد فوج كأنما هي كتائب من الجيش المدجَّج بالسـلاح (كما جـاء وصفها على لسان امرئ القيس حيث يقول :

تراهمْ إلى الداعي سِراعاً كـأنَّهم أبابيل طيرٍ تحت داجنِ مُدْجنِ) .

أمـا لماذا بعثَ اللَّهُ تعـالى تلك الأفواج من الـطير ، فلكي تذيق جيشَ أبرهة الموت الزؤام ، إذ كـانت تحمل حجـارة من سجيل (أي من الطِّين المجفَّف الذي صار كالزجاج) ترميهم بها فيدخل الحجرُ في رأس الرجل ويخـرج من قفاه فيقـع قتيلاً للحـال ، حتى صاروا مثـل الزرع الذي جُزَّ وأُكِلَ ، أو كمثل تِبنِ الزرع الذي أكلته الدواب ثم راثتـه ، وديست من بَعـدُ أجزاؤه فتفـرَّقت . . وحلَّ الاهتـراء بجسم كل فـرد فيـه ، عندمـا كانت الـطير تقـذفـه بتلك الحجـارة التي حملتهـا ، وقـد أرسلها الله تعالى لعذابهم وقتلهم لمَّا أرادوا هدم بيته الحرام .

ب ـ معجزة انفلاق البحر لموسى (ع) :

وهذه معجزة أخرى أهم وأعظم يسوقها القرآن الكريم للتـدليل على قدرة الله تعالى ، وامتلاكه وحده القوة . وهي قوله تعالى :

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (١) .

فمتى ، وكيف حصلت تلك المعجزة ؟

لقد ظلم فرعون مصر بني اسرائيل ، واضطهدهم أشدَّ اضطهاد عبر فترةٍ طويلةٍ من الزمن ، واستذلَّهم وقتل أكثر رجالهم ، فأوحى الله تعالى لنبيه موسى (ع) أن يخرج بقومه من ديار مصر . وبالفعل امتثل موسى (ع) لأمر ربه وخرج ببني قومه ، حتى وصلوا قربَ البحر ؛ وفي تلك الأثناء كان فرعون المستبد الظالم قد جهَّز جيشاً كبيراً وجاء على رأسه منطلقاً به يريد اللحاقَ ببني اسرائيل لإبادتهم جميعاً وقَتْل موسى (ع) معهم ؛ فلما صاروا على بعدٍ قليلٍ منهم ، بحيث يرى كلُّ جمعٍ الآخر ، قالَ أصحاب موسى بألمٍ وخوف : ماذا نفعل الآن وقد أدركنا فرعون وجنوده ؟ وإلى أين نفرُّ منهم ؟ ها هُم وراءنا ، وليس أمامنا إلَّا البحر ؟

قال موسى (ع) : كلَّا ، يا بني اسرائيل ! لن يدركونا ، ولن يبطشوا بنا كما تتوهمون ، فالله ربي معي وسيكفيني شرَّهم ويرشدني إلى طريق النجاة ، فلا تخافوا ولا تحزنوا . .

سرعان ما نزل الوحيُ على موسى (ع) : أنِ اضْرب بعصاك البحر (وقيل هو نهر النيل ما بين أيلة ومصر . . وقيل هو البحر الأحمر) . . ففعل موسى (ع) وضربَ البحر بعصاه ، فإذا به قد انفلق ـ أي انشقَّ ـ وظهر فيه اثنا عشر طريقاً ، وقامت الأمواج على

---

(١) الشعراء : ٦١ ـ ٦٧ .

جانبي كل طريق مثل الجبل العظيم في العلو والارتفاع ، وقد أمسكها اللَّهُ تعالى من أن تتصدَّع أو تهبط على أيٍّ من تلك الطرق ، حتى سلكها بنو اسرائيل ، وانتقلوا إلى الضفة الأخرى ، ونجَوا من بطش فرعون وجيشه .

ونتوقف قليلاً عند هذا المشهد قبل متابعة القصة .

فهاهم بنو اسرائيل أمام البحر ، وليس معهم سفن ولا مراكب ، ولا هم يستطيعون خوضه ، ولا هم بمسلَّحين . . . وهاهم فرعون وجنوده قد قاربوهم ، شاكي السلاح ، يطلبونهم ولا يرحمون . . فكل الدلائل تشير أن لا مفرَّ من هلاك بني اسرائيل والبحرُ أمامهم والعدو خلفهم . .

وبلغَ الكربُ مداه : فمن خوفٍ واحتقان ، إلى لوعةٍ ومأساة . . ربما كانت تتمُّ كلُّها في دقائق . . ثم يهجم عليهم الموتُ الذي لا مناص منه .

وها هو نبي الله موسى ، لا يشكُّ لحظةً بقدرة الله تعالى ، وملء قلبه الثقة بربِّه ، واليقين بعونه ، والتأكُّد من النجاة ، وإلاَّ لَما كان ربُّه أوحى إليه أن يخرج بقومه من مصر . . إذن فالنجاة لا بد كائنة ، والله تعالى هو الذي يوجهه ويرعاه .

وفي تلك اللحظة العصيبة يُلهم الله تعالى موسى (ع) أن يقول لبني قومه :

« كلاَّ ، إن معي ربِّي سيهدينِ » . .

وقد قال (ع) : كلا ! . . في شدة وتوكيد . كلا ، لن نكون

مدرَكين . كلا ، لن نكون هالكين . وبهذا الجزم والتأكيد واليقين ينشق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب ، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون . . إذ نزل أمرُه تعالى :

﴿ فأوحينا إلى موسى أنِ اضْرب بعصاك البحر ﴾ .

ولا يتمهل السياق القرآني ليقول إنه ضرب بعصاه البحر . فهذا مفهوم . وإنما يعجل ليأتيَنا بالنتيجة :

﴿ فانفلق . فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ .

ووقعت المعجزة ، وتحقق الذي يقول عنه الناس إنه مستحيل . . لأنهم يقيسون سنَّة الله تعالى على المألوف من سُننهم . . والله تعالى هو الذي خلق السنن ، وهو القادر على أن يجريَها وفق مشيئته عندما يريد .

فقد وقعت المعجزة ، وانكشف بين فرقَي الماء طريق النجاة . . ووقف الماء على جانبي هذا الطريق كالطود العظيم ، حيث تمكَّن بنو إسرائيل من الخلاص .

ووقف فرعون مع جنوده مبغوتاً ، مشدوهاً بذلك المنظر الخارق ، وذلك الحادث العجيب . . ولكنَّ ظلمه سرعان ما أعادَهُ إلى طغيانه ، فأصدر الأوامر لجيشه بأن يسلكوا مسلك بني إسرائيل ليلحقوا بهم ويدركوهم ، ولكنه لم يَدُرْ في خلده أن الله تعالى استقدمه وقومَهُ ، ليسلكوا ذلك المسلك ، حتى إذا صاروا جميعهم داخل البحر ، جاءَ أمرُهُ تعالى فأطبق الماء عليهم وأغرقهم . .

وهذا هو الذي حصل في ذلك اليوم .

ومضتْ هذه الآية على الزمان تتحدث عنها القرون ، فهل آمَنَ بها المستكبرون ؟

إنها لآية معجزة حقّاً ، وبرهان ساطع فعلاً على عظمة الله تعالى الذي أمَرَ البحر فانفلق ليَعبره عبادُه وينجوا من القتل ، ثم أعادَه إلى حالته الأولى حين عَبَرهُ أعداؤه ، ليغرق القوم الظالمين . ومع ذلك لم يؤمن أكثرُ بني إسرائيل حين رأوا بأم العين المعجزة الخارقة ، لأنهم أهل عناد وضلال ومثلهم كلُ مستكبر ، معاند ، ضالّ . .

فهذه أحداث غابرة يسوقها القرآن الكريم شواهِدَ على قدرة الله تعالى في خلقه . . فإذا لم يؤمن بها البعض فالشواهِدُ كثيرة وهي أدلُّ وأظهر للحقيقة . . فاستمعْ إلى دليلٍ أعظم ، وهو خلقُ الإنسان ، وخلقُ الجان منذ القدم .

٣ ـ نعمة الخَلْق والإنشاء :

يقول تبارك وتعالى :

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١) .

إنها نعمة الخلق والإيجاد والإنشاء من العدَم . فحين يمنُّ الله تعالى على الإنس والجن بهذه النعمة ، فإنما يمنُّ عليهما بالنعمة التي تفوق حدَّ الإدراك . وإذا كان السياق مقتصراً على الإنس والجن ، فلتذكيرهما بنعمة الوجود هذه ، وبأنَّ كلاً منهما من الأصل الذي أنشأه

---

(١) الرحمن : ١٤ ـ ١٦ .

الله تعالى منه . فتكون إذن هي النعمة التي تقوم عليها سائر النعم .

فالصلصال هو الطين اليابس الذي تُسمع له صلصلة إذا ضُرب بشيء . والفخار هو الطين الذي طبخ على النار حتى صار خزفاً . وفي هذا تأكيد على أن أصل نشوء الإنسان إنما كان من طين ، لأنَّ آدم (ع) أبو البشرية ، كان خلقه من هذا الطين .

أما خلقُ الجان فكان من مارجٍ من نارٍ . والمارج يعني المضطرب والمتحرك ، و هو الصافي من لهب النار الذي لا يختلط فيه الدخان . .

وهكذا يبين القرآن الكريم طريقة الخلق ، لكل من الإنس والجن ، وفق ما قدَّر الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده أن يكونوا إنْ من حيث الأصل الذي نشأوا منه ، وإن من حيث الهيئة التي صاروا عليها . . فهل يجوز للثقلين ـ الإنس والجن ـ أن يكذِّبا بقدرة الله تعالى على الخلق ؟ . وذلك الخلق ، وهذه الصورة ، ألا يستأهلان حمدَ الله تعالى وشكرَهُ الدائمين ؟ . .

وإذا كانت حياة الإنسان الشاهِدَ الحسيَّ الدائِمَ على جميل صنع الله تعالى ، بما وهَبَهُ من قدراتٍ وطاقات لا تُعدُّ ولا تُحصى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ، فإنَّ في خلق الجن ، وما منحه من القوى الخارقة لَدليل أيضاً على جميل هذا الصنع وعظمته . وقد بيَّن القرآن الكريم هذه القوى الخارقة للجنِّ ، بقوله تعالى متحدِّثاً عن نِعَمِه التي أفاضها على سليمان عليه السلام :

يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ

رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ [1] .

حيث يذكر سبحانه ما سخَّر لنبيِّه من قوىً عجيبة يستخدمها ، ثم يذكِّر الآخَرين بأن عليهم أن يعتبروا هذا المثال مصداقاً لما سخَّر للإنسان عامة من تلك القوى أو غيرها ، ليُقرَّ بحقيقة وجود الله تعالى ، وبقدرته في الخلق ، فيكون شاكراً حامداً . . فها هي الجنُّ - إحدى تلك القوى التي أمرها الله تعالى أن تعمل بين يديْ رسوله سليمان (ع) - تعمل له ، ما يشاءُ من محاريب - أي أماكن للعبادة ، أو أبنية مرتفعة - وتماثيل من نحاس وزجاج ورخام على أنواع شتى من الصور والأشكال ؛ وجفانٍ - أي صحافٍ - كالجواب - أي كالأحواض الكبيرة - . وهذه الصحاف لكبرها يمكن أن يجتمع عليها رجال كثيرون يأكلون منها . كما يعملون له القدور الثابتات ، القائمات على قوائم ، لا تتحرك عن أماكنها . .

هذه أمثلة عمَّا كان الجنُّ يصنعه من الأشياء التي احتاج إليها النبي سليمان (ع) في بناء الهيكل في القدس . وهي إن دلَّت فإنما تدلُّ على العطاء الرباني للعباد المؤمنين ، فعليهم - بالمقابل - أن يكونوا شاكرين لربهم الذي منحهم ذلك العطاء ، وأفاضَ عليهم تلك النعمة . وآل داود (ع) كانوا يومئذٍ أولى بالشكر على ما آتاهم اللّٰهُ تعالى ، وما سخَّر لهم من قوىً عملت على خدمتهم . .

فَنِعَمُ ربِّنا علينا جزيلةٌ وكبيرة . . ولكن مَنْ هو مِنْ عِباد الله « الشكور » ؟

وليس أعظم من هذا التعبير القرآني الذي استعمل لفظ

---

(١) سبأ : ١٣ .

« الشكور » . . فإن « الشكور » هو كثير الشكر ، بينما « الشاكر » هو من يقع منه الشكر عند نزول النعمة عليه فقط . . فيكون المعنى أن القليلين من عباد الله هم الذين يشكرونه على فضله ونعمه بصورة دائمة ، أي الذين يكثرون من شكر ربهم في الغدو والآصال ، وفي كل وقت وحين . . في حين أنَّ الإنسان ـ وهو عبدٌ لله تعالى ـ لو وعى حقيقة أَنْعُمِ الله عليه ، لَما عَقَلَ لسانَهُ عن الشكر ، ولا توانى قلبُه لحظةً عن ذكر ربِّه ، وحمده ، إقراراً منه بفضله عليه ، وبقدرته ـ سبحانه ـ على منحه هذه القدرات ، وعطائه هذه النعم .

٤ ـ عوم السفن دليل على قدرة الله :

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾(١) .

ومن الأدلة الحسية أيضاً على أنَّ مردَّ القوى جميعها إلى الله سبحانه ، ما ضربَه لنا من مثلٍ بتلك السفن الضخمة التي تجري في البحار بأمره حتى ليحسبها الرائي كأنها الجبال العائمة .

فلمن القدرةُ في هذه السفن الضخمة التي تجري في البحر كالجبال عظماً وارتفاعاً ؟ ! . .

ومَن هو خالق خواص الماء ، وخواص الأحجام ، حتى يتمَّ عومُ تلك السفن والبواخر العظيمة وفق تلك الخواص ؟

الجواب القاطع : هو أن الله تعالى هو صاحب القدرة التي أودعت في الأشياء هذه الخواصّ . . وأنه هو الذي وهبَ الإنسان

---

(١) الرحمن : ٢٤ .

العقـل ، ودلَّه عـلى طرق العلم ، حتى يكتشف وينشىء ويحـدث هذه السفن وغيرها ، وعلى هذا الشكل من الكبر والضخـامة . . فلنتـصوَّر ما في البحار والمحيـطات من أساطيـل تجاريـة وحربيـة ، والكميَّة التي يتشكَّل منها كـلُ أسطولٍ وعـددَ السفن التي تمخر عبـاب المياه لتـأمين المـواصـلات ولنقـل البضـائـع بـين القـارات ، أو لتـأمـين الأهـداف الاستراتيجية التي تحرص الدول ذات الشـأن على تحقيقهـا بما تملك من أساطيل حربية ، وما تحملُ كل سفينة في هـذه الأساطيـل من الرجـال والعتاد . . . لندرك ما تحمله هذه البحار والمحيطات على سطح مياهها مما يدلُّ على القوى الظاهرة التي يدّعي الناسُ امتلاكها . ولكنَّ القرآن الكريم يعيد الناسَ إلى الأصل ، وإلى الحقيقة ، ألا وهي أن الله تعالى هو ـ وحدَه ـ مالك الملك ، ومصدرُ القوى . ونلاحظ أن التدليـل على قـدرته وعـظمته يـأتي باللفـظة البسيـطة ﴿ ولـه ﴾ . . أي ولـه وحـدَه سبحانه كل ما تملكون ، وما تنشئون وتقيمون . . ثم يـأتي التعقيب في السياق ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ (١) فلماذا هذا التعقيب ؟

لأنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يريدُ أن يبيِّن لنا أن كـل أمر مـردُّه إليه ، وأنـه هو الـذي أوجَدَ لكـلِّ شيءٍ نظامـاً خاصـاً ، وسنـة معينـة يسـير عليها . فتلك السفن التي تعومُ على سطح ميـاه البحار مـا كان لهـا أن تـرتفع وتعـوم لولا عـظيم صُنعه ، وبـالغ حكمتـه بأن أوجَـدَ في المـاء خاصية حمل تلك السفن الثقيلة الوزن ، ولـولا تلك الخاصيـة لغرقت تلك السفن في لجج البحار وابتلعتها الأعماق . . ومـع ذلك فـإنَّ هذه

(١) الرحمن : ٢٥ ـ ٢٧ .

السفن رغم ما هي عليه من المتانة والمناعة ـ فإنّها لا تدوم إلّا لوقت محدَّد ، ثم تهترىء بعده وتزول . . وهكذا كل شيء إلى زوالٍ كهذه السفن ، بحيث يفنى كل شيء على الأرض ، بما في ذلك الإنسانُ وسائر المخلوقات الأخرى . ومن هنا جاء هذا التعبير البليغ الشامل ﴿ كلُّ مَنْ عليها فانٍ ﴾ أي كلُّ مَنْ على الأرض . . وبَعْدَ الفناء ـ سواء في الأرض أم في غيرها من أجرام الكون ـ لا يبقى إلّا وجه الله تعالى ، الذي هو ذو الجلال والإكرام ، فقد تنزَّه عن الفناء وتعزَّز بالقدرة والبقاء ، وتوحَّد بأنه واهبُ الحياة وجاعلُ الفناء . وأما التعبير القرآني : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ فيعني ويبقى ربك الظاهر بأدلته ظهورَ الإنسان بوجهه ، لأنه تعالى جلَّ شأنه عن التشبيه والتجسيد ، وقد جاءَ التعبير جرياً على لغة العرب (توضيحاً للأفهام) كما في قول الشاعر :

أستغفر اللَّهَ ذنباً لستُ مُحْصِيَهُ ⁂ ربَّ العبادِ إليهِ الوَجْهُ والعَمَلُ

فالله تعالى هو الحيُّ ، القيوم ، وما عداه فانٍ ، وربما كانت بهذا الفناء النعمة الكبرى للإنسان ، لأن في فنائه عن سطح الأرض تكمن التسوية الحقيقية بين الناس لأن الموت يساوي بين الكبير والصغير ، وبين الغنيِّ والفقير ، وبين الملك والمملوك . . ثُمَّ إنَّ في تنبيه القرآن الكريم لنا بأن دنيانا هذه زائلة ، فانية ، موعظةً دالةً ، وحكمةً بليغة ، كي لا يتعلقَ الإنسان بدنياه الفانية ويجدَّ ويعملَ للحياة الأبدية ، لا سيما وأن هذه الدنيا دار شقاء وبلاء ، بينما تكون حياةُ الخلود حياة النعيم والهناء إن أحسن الإنسان العملَ ، وسار على هدى الله العليم الحكيم . .

٦ ـ إحاطة الله تعالى بالسماوات وبالأرضين :

يقول تبارك وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[1] .

ويدلُّ ظاهرُ الآية المباركة ، أنه سبحانه خلق سبع سماوات ، ومن الأرض مثلهن ، أي سبع أرضين . وليس في القرآن الكريم آيةٌ غير هذه تشير إلى خلق سبعٍ من الأرضين . ولا خلاف في أن السماواتِ هي سماءٌ فوق سماء ؛ أما الأرضون فتحدث عنها ابن عباس (رض) فقال : « إنها سبع أرضين ليست بعضُها فوق بعض ، يفرق بينهنَّ البحار ، ويُظلُّ جميعهن السماء » وقد يكون ابن عباس (رض) قد قصد أقسام اليابسة على هذه الأرض . . والله تعالى أعلمُ بصحة ما استأثر به علمُه ، واشتبه على خلقه ، فلا يعلم معنى ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ إلاَّ هو سبحانه ، إذ لم يميّز أحدٌ حتى الآن بين وجود الأرضين ، كما لم يميّز أحدٌ بين السماوات ، ولم يجرِ تحديدٌ لهذه السماء أو تلك ، وإن كانت اكتشافات علم الفلك تتحدث عن النجوم ، والمجرات الكبيرة التي لا تحصى في الكون العظيم . .

فالمهمُّ أنَّ هنالك كوناً شاسعاً ، مترامِيَ الأطراف لا تحدُّهُ إلى الآن معرفة الإنسان . وهذا الكون ـ بخلقه الهائل وسعته العظيمة ـ غير متروكٍ بلا تدبير ، بل هو محكوم بنظام دقيق ، محكم ، قوي ، لم يتطرق إليه الخلل ، ولا أصابَهُ العطل ؛ وهذا بحد ذاته أعظم دليل

---

(١) الطلاق : ١٢ .

على قدرة الله تعـالى ، التي أعلمنا هـو سبحانـه وتعالى عنهـا بقولـه عز وجلَّ ﴿ لتعلموا أنَّ الله على كل شيء قدير ﴾ . فهو أعلمُ بما صنـع ، وبما خلق ؛ وقد أحاط علمُه بكلِّ شيء ، فلا يفوتُهُ علمُ شيء ، فعَلا بذلك شأنه ، وتجلَّت قدرته ، وما فات شيئاً علمُه . . .

٧ ـ لا حدود لآيات الله الدَّالة على عظمته :

وهو تبارك وتعـالى يقول:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (١) .

المخلوقات التي نعرفهـا في الأرض وفي الكون بـأسره ، والتي لا نعرفها ـ من الذرة إلى أكبر جسمٍ أو هيكل أو تكوين ـ مـع ما يحتـوي كـلٌّ منها من الخصـائص والمـزايـا ، ضمن السنن والقـوانـين العـامـة والخاصة التي أوجدها لها الخالق العـظيم . . . كلها تُنبىء بعـظمة الله تعالى وقدرته على الخلق . ولكي يعطينا القرآن الكريم الصورة الحسية عن المخلوقات التي لا حدَّ لهـا ، يضربُ لنـا مثلاً بميـاه البحر التي لـو استعملناها حبراً أو مِداداً لإحصاء مخلوقات الله (مـع ما يشتمـل عليه تعبـيرُ البحر من المحيـطات والبحار والبحيـراتِ والأنهار الكبيرة) فـإنَّ هذا الحبر لا يكفي لذلك الاحصاء ، ولو استعملنـاه كلَّه ، واستعملنا

---

(١) الكهف : ١٠٩ و ١١٠ .

مثله وعلى مقداره معه . . وبعد هذا البيان لقدرة الله تعالى في الخلق ، يبين القرآن الكريم أن الخالق هو الله ، إلٰهُ الناس ، وإلٰهُ جميع المخلوقات ، الواحد الأحد ، الذي ينبغي عبادته والذي يُرتجى لقاؤه بالعمل الصالح، وبعدم الإشراك بعبادته . .

والمقصود بتعبير ﴿ كلمات ربي ﴾ مخلوقاته أو معاني كلامه الذي ضمّنه القرآن الكريم ، كما أن المقصود بالمداد ، الحبرُ لإمداده الكاتب حين تسجيل أفكاره .

ولو حاولنا تصوَّر المعنى الكلي في الآيتين الكريمتين لظهر لنا عجزنا عن إدراك ما لم يتمثل لنا في صورة محسوسة . . ذلك أنه مهما أوتي العقل البشري من القدرة والتجريد فإنه يظل في حاجة إلى تمثّل المعنى المجرد للصور والأشكال ، والخصائص والنماذج التي يجهلها ، فكيف يكون شأنُه مع المعاني المجردة التي تمثِّل المحدودَ الذي يجهل حدودَه ، أو غيرَ المحدود كما في خلق الله تعالى ؟

لذلك يضرب الله تعالى الأمثال للناس في القرآن الكريم ، كي يقرِّب إلى حسهم معانيَهُ الكبرى ، بوضعها في صور ومشاهد ، ومحسوسات ذات مقوِّمات وخصائص وأشكال على نحو هذا المثال: « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » . .

والبحر في هذا المثال قد يمثل علم الإنسان الذي يرى البحر أنه واسع غزير ، وهو ـ على سعته وغزارته ـ محدود . . أما كلمات الله تعالى ، فهي تمثل العلم الإلٰهي الذي لا حدود له ، والذي لا يدرك البشر نهايته ، بل ولا يستطيعون تلقِّيه وتسجيله ، فضلاً على عدم

إمكانيتهم لتحديده والإحاطة به .

وقد يدرك الإنسان غرورٌ بما يصل إليه من اختراعات واكتشافات ؛ أو ما يصل إليه من أسرارٍ في نفسه وفي الآفاق ، فتأخذه نشوة الظفر العلمي ، ويحسب نفسه أنه توصل إلى علم أكثر الأشياء ، أو أنه على طريق الوصول .

ولكن المجهول يرافقه بآفاقه المترامية التي لا حدَّ لها ، فإذا هو ما يزال على خطواتٍ من الشاطىء ، والخضمُّ أمامه أبعد من الأفق الذي تدركه الأبصار . .

فليعلم الإنسان ما يعلم ، وليكشف من أسرار هذا الكون ما يكشف ، ولكن عليه أن يخفف من غروره العلمي ، فسيظل أقصى ما يبلغه علمه أن يكون البحرُ مداداً له ، وسينفد البحر وكلمات الله لا تنفد . . ولو أمدَّ الله تعالى الإنسانَ ببحرٍ مثله ، فسينتهي البحر وكلمات الله تعالى لاتصير إلى نفاد . .

وفي ظل هذا المشهدالذي يتضاءل فيه علم الإنسان بالقياس إلى علم ربِّه ، ينطلق الإيقاع الثاني فيرسم أعلى أفق للإنسان ، وهو أفق الرسالة الكاملة الشاملة ، فإذا هو قريب محدود بالقياس إلى الأفق الأعلى الذي تعجز عنه الأبصار ، وتنحسر دونه الأنظار .

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ إنما إلهكم إلهٌ واحد ﴾ . .

إنه أفقٌ متصلٌ بأفق الألوهية الأسمى . . وهو أفقُ النبوة التي هي على كل حال آفاق بشرية ؟

فالنبيُّ بشر يتلقّى من العليِّ الأعلى . .

ويستمد من ذلك المعين الذي لا ينضب . .
ثم لا يتجاوز الهدى الذي يتلقّاه من مولاه . .
بل يتعلم فيَعلَم . . فيُعلِّم الآخرين .

هذا ما يشير إليه النص القرآني الذي أمرَ الرسول (ﷺ) أن يقول للناس : ﴿ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ ﴾ ، ولكنَّ إلهكم هو الله ، الواحد الأحد الذي يستحق وحده الألوهية ، والربوبية . . فمن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى ، فلينتفع بما يعلمُ من الرسول الذي يتلقّى الوحيَ ، لينتفع بما في قرآن الله المجيد المتضمِّن لذلك الوحي . . . وإذن :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء العظيم .

فجواز المرور هو العمل الصالح، وعدم الشرك بوحدانية الله عز وجل ، من غير رياءٍ ـ لا سرّاً ولا جهراً ـ في عقيدته وفي عبادته . . وقد روى عبادة بن الصامت وشداد بن الأوس ، فقالا : « سمعنا رسول الله (ﷺ) يقول : « من صلَّى صلاة يرائي بها فقد أشرك . ومن صام صوماً يُرائي به فقد أشرك » . . وروي عنه (ﷺ) أنه قال : « قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء . فهو والذي أشرك » (أورده مسلم في الصحيح) .

هذه بعض آيات القرآن الكريم التي تنبىء بقدرة الله تعالى وتفرُّده بالخلق والإيجاد والتكوين . . فهو مالك كلِّ القوى ، وخالقُ

الإنس والجن ، وهو مالـك الملك ، وخالق السمـاوات والأرضين . . وعلمُه لا ينتهي ، وقدرتُه لا تحدُّ ، وعظمتُه لا تُـدْرَك . . زوَّد الإنسانَ بالعلم ، فكان حرّياً به أن يسخِّر هذا العلم للعمل الصالح . . وزوَّده بـالقلب ، فكان حـرّياً بـه أن يجعل هـذا القلب موطنـاً للإيمـان الحق بألوهية الله عزَّ وجلَّ . . أما أن يشرك ، وأن ينافق ويُلحـد ، فقد تـاهَ عن الحق وضاعَ ، وما ربحَ الدنيا ولا فاز في الآخرة .

الإيمان بقدرة الله تعالى وهداه

الإيمان مستقرُّه القلب ؛ هذه حقيقة راهنة لا يمكن إنكارها . . ومهما حاول الإنسان أن يعطي للعقل أو للفكر من قيمة ليقدم الأدلة والحجج والبراهين على مقرِّ الإيمان ، فإنه لا بد له من الرجوع إلى القلب حيث تنمو بذور الإيمان وتترعرع من خلال النور الذي يقذفه اللَّهُ تعالى فيه ، لينير قلب المؤمن وينقِّي سرائرَهُ ، ويهديَهُ أقومَ السُّبل . .

ولقد أدرك القلب البشري ـ بالفطرة التي فطر الله تعالى عليها الإنسان ـ أن نور الله هو قوام السماوات والأرض ، ومنه تنبثق قوانينها وأنظمتها وسننها ، فلا يخلو شيء من هذا النور ، ولا يمكن لشيء أن يعيش أو يحيا بدونه . ولكي يتزوَّد الإنسان بالأدلة والبراهين التي توصله إلى حقيقة وجود ربِّه عزَّ وجلَّ ، ولطفاً بالعباد ورحمةً بهم ، بعثَ سبحانه النبيين والمرسلين مزوَّدين بالرسالات السماوية التي تحمل مشاعِلَ الهداية ، وتدلُّ على طريق الإيمان الحق ، فلا يضيعُ العباد في

مقـولاتٍ واستنتاجـات عبثيـة ، ولا ينصـرفـون إلى مقـاييس ودلالات ظنّية . . .

والقرآن الكريمُ ، وهو خاتَمُ الرسالات السماوية ، يـدلُّ بآيـاته المبيِّنات على حقيقة الإيمان ، بما تحمل من هـداية للعبـاد وبما تحفـل به من عـظيم العظات والأمثـال التـي تـؤكد ألـوهية الله تعـالى وقـدرتـه وتفضُّله على الإنسان بالنعم التي أنعمها عليـه ، إنْ في خلْقه ، وإنْ في المـوجودات التي سخَّـرها لـه ؛ فهي جميعُها الشـاهِدُ الحيُّ عـلى جميـل صنعه تعالى ، وعلى سناء رحمته بما فيها من هُدىً وخيرٍ للإنسان .

١ ـ مَثَلُ نور الله تعالى في السماوات والأرض .

يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

لقـد أنـزلَ اللّهُ تعـالى الآيـات ، وضـربَ الأمثـالَ ، وقصَّ القصص ، لتكـون سبيل هـداية للمتقـين ، وأداة زجرٍ للعـاصـين . .

---

(١) النور : ٣٤ و ٣٥ .

فهـو ـ سبحانـه ـ نـور السمـاوات والأرض يهـدي بنـوره الخـلائق إلى الإيمان، وينيرُ بنوره السماوات والأرض كي تهتديَ إلى مسارهـا وتَسير وفق انتـظامها ، فـلا تتعثر ولا تتخبط في المصـادفات . . والإنسـانُ ، هـذا المخلوق على الأرض ، مـاذا يريـدُ غيرَ نـور الله سبحانـه ليشعـر بـالاطمئنان القلبي ، وبـراحة الضمـير ، وليحـرك طـاقـات الفكـر ، وينمِّي المـدارك التي جُبِلَ عليهـا ، فينتـج ، ويعـطي من أجـل حيـاة أفضل ؟

ما من شك بـأنَّ من يقف على دلالـة النور الـذي يريـدُهُ النص القـرآني ، يتجلَّى لـه ذلك النـور الوضيء الهـادي ، الذي يفيض حتى يغمر الكون كله ، ثم ينفذ إلى جميع الجـوارح ويثير المشـاعر ، ويحـرك الحنايا ، ويوقظ الحواس بكاملها ، فيتجرَّد ناسوتُ الإنسان من كثـافته وثقله ، ليستحيـل روحـانيـةً وانـطلاقـاً ، ومعـرفـةً ، وراحـةً نفسيـةً وحبـوراً ، فإذا الكـون كله ـ بما فيـه ومن فيه ـ نـورٌ طليق من القيـود والحدود ، تتصل فيه السماوات بالأرض ، والأحياء بالجماد ، والبعيد بـالقـريب ؛ وتلتقي فيـه الشعـاب والـدروب والـطوايـا والـظواهـر ، والحـواس والقلوب . . ﴿ اللَّهُ نورُ السمـاوات والأرض ﴾ . ومن هذا النور كان قوامها ونظامها ؛ وهو الذي وهبها جوهرَ وجودها ، وأودعها نواميسها . . .

ولقد استطاع البشر في أيامنا أن يدركـوا بعلمهم طرفـاً من هذه الحقيقة الكبرى ، عندما استحالَ في أيديهم ما كان يُسمى بالمادة ـ بعد تحطيم الذرة ـ إلى إشعاعات منطلقة لا قوام لها إلاَّ النور ، ولا مادة لها إلاَّ النـور . فذرة المـادة مؤلفة من كهـارب والكترونـات تنـطلق عنـد

تحطيمها في هيئة إشعاع قوامُهُ النورُ .

وقبل العلم واكتشافاته ، كان القلب البشري يدرك هذه الحقيقة الكبرى كلما شفَّ ورفَّ وانطلق إلى آفاق النور . ولقد أدركها كاملةً شاملةً قلبُ محمدٍ رسول الله (ﷺ) ففاضَ بها وهو عائد من الطائف ، نافضاً كفَّيه من الناس ، عائذاً بوجه ربه ، يقول : ﴿ أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة ﴾ . وفاض بها أيضاً قلبُه الشريف في رحلة الإسراء والمعراج ، فلما سألته السيدة عائشة (رض) : هل رأيت ربك ؟ قال : « نورٌ ، أنَّى أراه » . .

ولكي ندرك معنى هذا النور الربانيّ ، فقد ضربَ لنا القرآن الكريم المثلَ بنور المصباح الذي نجده أمامَنا ، سواء أكان مصباح الزيت الذي استعمله الإنسان في الماضي ، أم مصباح الكهرباء الذي يستعمله الآن . .

نعم إن النص القرآني يُريدُ أن يقرِّب معنى ذلك النور إلى الإدراك البشري المحدود بالمثل المحسوس الذي يؤلف المشكاة والمصباح والزجاجة ، فالمشكاة هي الكوة في الحائط وقد وُضِعَ عليها زجاج ، وخَلْفَ هذا الزجاج وضع المصباح ليحصر نوره ويجمعه فيبدو قويّاً متألقاً من شدة صفاء ذلك الزجاج الذي هو مثل الكوكب الدُريِّ النقيِّ الصافي المضيء ، حتى ليبدو بذاته شفافاً منيراً ، فكيف إذا انعكس عليه النور ! .

وهكذا يصل التعبير القرآني ما بين الحقيقة والمَثَل ؛ فيرتقي من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير كي لا ينحصر التأمل في النموذج

الصغير الذي ما جُعل إلا لتقريب الأصل الكبير إلى الفهم ؛ ويظل الضوءُ يسطع بالأنوار المتلألئة طالما قام المصدر الذي يمدُّهُ بعوامل الإضاءة والنور ، أما هذا المصدر فهو آتٍ من شجرة الزيتون المباركة التي لا يعرف كنهها غير الله لأنها لا تنتمي إلى شرقٍ ولا إلى غرب ، والتي لها خاصيّة ذاتية بحيث تُعطي زيتَها الذي يصدر منه الضوء من غير أن تمسسه نار أو يَقْرُبَ منه اشتعال . . أما مزيَّتُها فهي كما وصفها الله تبارك وتعالى بأنها « مباركة » لأن في شجرة الزيتون عادة منافع جمة للناس بثمرها وزيتها وخشبها وورقها . . وهي التي نبتت في الأرض بعد الطوفان . . وهي أخيراً مباركة لكونها موجودة عند المسجد الأقصى الذي قال تعالى فيه ﴿ المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ .

ومما قاله المفسرون في التأويلات المعنوية لهذه الشجرة المباركة :

أولًا ـ أنها مَثَلٌ ضربه الله تعالى لنبيه محمدٍ (ﷺ) . . فالمشكاة هي صدره ، والزجاجة قلبه ، والمصباح نبوته . . وهي لا شرقية ولا غربية أي لا يهودية ولا نصرانية . توقد من شجرة النبوة التي هي إبراهيم (عليه السلام) . يكاد نور محمدٍ (ﷺ) الذي يحملُ النبوة ، يَبين للناس ولو لم يعترف به أهل الكتاب ، وقد دُعوا من ربهم تعالى كي يُبشروا بمجيئه والتحدث عنه قبل بعثه .

ثانياً ـ أنها مثل عن شجرة النبوة . . فالمشكاة هي إبراهيمُ (ع) ، والزجاجة ابنُه البكرُ اسماعيل (ع) . والمصباح محمد (ﷺ) الذي هو من نسلهما ، وهي لا شرقية أي لا نصرانية لأن النصارى كانوا يصلون إلى الشرق ، ولا غربية أي لا يهودية لأن اليهود كانوا

يصلّون إلى الغرب . ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ يعني أن محاسن صفات وأفعال محمد (ﷺ) تظهر للناس قبل أن يوحى إليه . و ﴿ نور على نور ﴾ أي أن محمداً (ﷺ) هو نبيٌّ من نسل نبيٍّ . .

ثالثاً ـ إنها تعبير عن القرآن بنور هدايته . فالقرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويكنّى عن القرآن بالنور . فكما أن المصباح (المشبَّه به) يُستضاءُ به ، فكذلك القرآن يُهتدى به ، ويُعمل به ، ولا ينتهي مدى هداه . فالمصباح يكون إذن القرآن الكريم ، والزجاجة قلب المؤمن ، والمشكاة لسانُهُ وفمه ، والشجرة المباركة هي شجرة الوحي الذي أنزل بواسطته القرآن ، بحيث تتضح حججه وبراهينه للناس حين تدبّر معانيه ، والتفكّر بآياته العظام .

هذا النور الرباني هو نورٌ على نور . . أصله من نور، وضوءه من نور ، وهو يسري في كل شيء خلقَه الله تعالى حتى يهب له الحياة والوجود . . وهو دائم في السماوات والأرض ولا ينقطع ، ولا يحتبس ولا يخبو ، فحيثما توجه إليه القلب رآه ، وحيثما تطلع إليه الحائر هداه ، وحيثما اتصل به المؤمن وجَدَه . .

وهكذا يظهر المثل في النص القرآني حاملاً أعظم الدلالات والمعاني موحياً بما للإيمان من عظيم الأثر والفعل في قلب المؤمن ، لأنَّ أمره منوطٌ بالله تعالى الذي يهدي لنوره من يشاء ، ويوفقه في إصابة الحق بالنظر والتدبّر فلا يضل عن الصراط المستقيم . . أما من لم يتدبَّر ولم يؤمن ، فمثَله كالأعمى سواءٌ عليه جنحُ الليل الدامس أو ضَحْوَةُ النهار الشامس . فالله تعالى يهدي لدينه القويم الذي لا تخبو أنواره ؛ والذي حيثما توجَّه إليه القلب أصابَ رشدَه ، وحيثما اتصلَ به الإنسانُ

المؤمن وجَدَ نورَ الله تعالى في قلبه .

على أن هذا المثَلَ الذي ضربَهُ الله تعالى للناس (بالمشكاة والمصباحِ والزجاجة) إنما كان لإفهام الناس حقيقة نوره السنيّ . وهو مِثْلُ كلِّ الأمثال التي احتواها القرآن الكريم ، وضربها للناس كي تقرِّب معاني هذا القرآن إلى العقول والمدارك والقلوب ، وقد أنزل سبحانه هذه الأمثال لعلمه بأنَّ طاقة البشر لا تستوعب معاني القرآن بكاملها فكان لا بد من ضرب الأمثال لإيصال هذه المعاني إلى عقول العباد وقلوبهم . .

٢ ـ تقْديرُ الله تعالى في الخلق :

قال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[١] إن أمر الخلق حيَّر العقولَ والألبابَ ، فآمن من آمن حين فكَّر به واهتدى عن بيِّنة ،ووقع في الشرك من وقع حين لم يعِرْ ذلك أي اهتمامٍ وضلَّ تائهاً في عماه . . وعلى امتداد الزمان ، ظلَّ الإنسانُ يتساءل ! لِمَ خلقتُ؟ وما هو سرُّ وجودي؟ . . .

فجاءت رسالات السماء تُنْبئه بالجواب على ما يشغل باله لينصرف إلى غير ذلك من التفكير بما يُصلح شأنه ويُسعد حياته في الدارين ، إلاَّ أنه لم يقتنع بأجوبة الغيب وظلَّ الشك يحومُ في رأسه ويَغمر قلبه . فلما نزل القرآن الكريم أوضَحَ حقيقة الخلق وآياتها

---

(١) القمر : ٤٩ و ٥٠ .

فتساءل الكافرون : إذا سلَّمنا بأنَّ الله خلقنا أطواراً : نطفةً ، فعلقةً ، فمضغةً ، فعظاماً ، فلحماً ، وسوَّانا بشراً في أحسن تكوين فكيف نسلّم بأنَّه يبعثنا خلقاً جديداً في لحظة واحدة ؟ ! . .

ولذلك بيَّن الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة التي غفلوا عنها وعرَّفهم أنَّ مردَّ الخلق إليه سبحانه وأنَّ كلَّ شيء كان مقدراً في علمه ، وأن ذلك قد يسبقُ خَلقهم وخلق غيرهم فلم يخلق شيئاً عبثاً ، بل بتقديرٍ وبحكمة بالغين .

نعم إنَّ كل شيء . . وكل صغير وكبير . . وكل ناطق وصامت أو متحرك أو ساكن . . وكل ماضٍ وحاضر ، ومعلوم ومجهول . . وجميع ما خلقه اللَّهُ تعالى كان بقدرٍ: محدَّدةٌ حقيقتهُ، ومعيَّنةٌ صفتهُ، ومقرَّرٌ زمانه ومكانه ، ومنظَّم ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء ، وتأثيره في كيان هذا الوجود وتأثيرُ ذلك الوجود فيه .

ولعلَّ من المفيد أن نشير إشارة سريعة إلى شيء من هذا التوازن بمَثَلٍ عن علاقة الرضيع بأمه ـ فالثديُ يفرز قبل الحليب في نهاية الحمل وبدء الوضع سائلاً أبيض مائلاً إلى الاصفرار . ومن عجيب صُنع الله تعالى أن هذا السائل عبارة عن مواد كيماوية ذاتية تقي الطفل من عدوى الأمراض ، وفي اليوم التالي للولادة يبدأ الحليب في التكوين . ومن تدبير الله العظيم أن يزداد مقدار هذا الحليب الذي يفرزه الثدي يوماً بعد يوم وحسب حاجة الطفل الرضيع حتى يصل إلى حوالي ليتر ونصف الليتر في اليوم بعد سنة ، بينما لا تزيد كميته في الأيام الأولى على أوقياتٍ قليلة . . ولا يقف الإعجاز عند كمية الحليب التي تزيد على حسب زيادة الطفل ، بل إنَّ تركيب الحليب

كذلك تتغيّر مكوِّناته وتتركّز مواده فهو يكاد يكون ماءً به القليل من النشويات والسكريات في أول الأمر ، ثم تتركّز مكوناته فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى ، بل يوماً بعد يوم بما يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النموِّ .

أفلا ترى معي أيها الانسان المفكر ، أن النملة السارية ، والهباءة الطائرة ، والخلية السابحة في الماء ، لها تقديرٌ في الزمان وتقريرٌ في المكان، وتعيينٌ في المقدار والصورة، وتناسقٌ مطلقٌ مع جميع الملابسات والأحوال التي تحيط بها ؟ . . إنه تقدير الله الشامل الدقيق ، النافذ لكل حادث ، ولكل نشأة ، ولكل مصير . . وهو وراء كل ورقة تسقط عن شجرها ، وكل نقطة ماء تنزل من السماء ، وكل عمل يتبعه تبديل أو تغيير .

وأحياناً يرى البشر طرفَ الخيط القريب ، ولا يرون طرفه البعيد . وأحياناً يتطاول الزمن بين المبدأ والمصير في عمرهم القصير ، فتخفى على الناس حكمة تدبير الله العلي القدير ، فيستعلمون أو يقترحون ، وقد يسخطون أو يتطاولون . . والله سبحانه وتعالى يعلمهم في هذا القرآن المجيد ، الذي ضربَ فيه للناس من كلِّ مثل ، أن كلَّ شيء مقدَّرٌ تقديراً ، ليسلموا الأمر لصاحب الأمر ، فتطمئن قلوبهم وتستريح ، ويسيروا مع قدر الله في توافق وتناسق ، ويخطون خطوة المطمئن الواثق .

ومع تقدير الله تعالى وتدبيره ، تأتي قدرته التي تفعل أعظم الأحداث بأيسر الإشارات : ﴿ وما أمرنا إلَّا واحدة كلمح بالبصر ﴾ . . فإنْ هي الا إشارة واحدة ، أو مرة واحدة أو كلمة

واحدة ، يتمُّ أثناءها كلُّ أمرٍ ، جليلاً كان أو حقيراً ، وكبيراً كان أو صغيراً . . فليس عند قدرته ومشيئته سبحانه جليل ولا صغير . . . وإنما قال تعالى ذلك على سبيل التقدير للبشر ، إذ أمرُه سبحانه لا يحتاج إلى زمن ولا إلى ما يعادل لمح البصر ، وقد جاء بهذا التشبيه لتقريب الأمر إلى حسِّ البشر . فالزمن بحدِّ ذاته تصوُّرٌ بشري ناشىء عن دورة أرضهم الصغيرة تحت الشمس ، ولا وجودَ في حساب الله تعالى ، المطلق لهذه التصورات المحدودة !

فإرادةٌ واحدةٌ تنشىء هذا الوجود الهائل . . وواحدة تبدل وتغير . . وستكون واحدةٌ أخيرةٌ تذهب بهذا الوجود كلِّه حين يشاء العزيز العظيم . . ثم تتلوها واحدة تجمعهم إلى يوم الحشر والحساب . .

فمفهوم « الواحدة » هنا هو : «كن فيكون » . . التي لا تحتاج إلى جهد ولا إلى زمن ، ويكون معها التقديرُ والإيجاد . . هذه هي صورة لقدرة الله تعالى في خلقه ، وهذا هو أمرُه الذي يصدر إلى كل شيء ليكون ، فإذا كان سار بحسب مشيئة خالقه ، فإن أدرَك قيمة خَلْقه ، وحَمد الله تعالى على هذا الخلق ، كان من المهتدين ، وإلَّا تاه عن الحق وكان من الضالِّين .

٣ ـ خلقُ الواحد والكثير عنده تعالى سواء

قال تبارك وتعالى :

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(١) .

---

(١) لقمان : ٢٨ .

إن إرادة الله تعالى التي تخلق بمجرد توجُّه المشيئة إلى الخلق ، يستوي عندها الواحد والكثير ، لأنها لا تستدعي جهداً محدوداً في خلق كلِّ فرد ، ولا تضاعف الجهد مع كلِّ فرد . وعندئذٍ يستوي خلق الواحد وخلق الملايين وبعث الواحد وبعث جميع المخلوقات ، لأنها إنما هي الكلمة . . أي المشيئة . . وهي كلمة الله تعالى ، ومشيئة مَنْ وسع كرسيُّه السماوات والأرض ، وأمرُه الذي يتلخَّص في أنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . ومع قدرته عزَّ وجلَّ على الخلق ، له سبحانه العلمُ والخبرة بكل المخلوقات ، حيث يكونان مصاحبَين للخَلْق والبعث وما وراءهما من حساب وجزاء . فالله تعالى سميع ، يسمَعُ كلَّ مسموع بلا أداة سمعٍ ، وبصيرٌ يُبصرُ كل مبصر بلا آلة بصر ، ولا يشغله شيء عن شيء . .

٤ ـ الفُلك آيةٌ على قدرة الله تعالى

قال عزَّ وجل : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١) .

ففي كل شيءٍ آيةٌ تدل على الخالق . ودلالتُها شرطٌ على العاقل أن يتَّبع هدى ربِّه ، وأن يؤمن بقدرته على الخلق والبعث . . وقد ضرب اللّهُ تعالى مثلاً بالسُّفن التي هي بعضُ آياته تعالى للعباد ، وجعل الحديث عنها بمناسبة يوم الطوفان في عهد نوح عليه السلام ،

---

(١) يس : ٤١ ـ ٤٤ .

خاصة . وذلك أن الطوفان كان من بعض آيات غضبه ، وسفينة نوح عليه السلام كانت من بعض آيات رحمتِه لعباده . . فإنه تعالى يومَ بعثَ الطوفانَ ليغسل سطح الأرض من أدران الكفر والشرك ، أوحى إلى نبيِّه نوحٍ (ع) أن يصنع السفينة لتكون أداة نجاةٍ للمؤمنين ، ولتحمل - مع الناس - من كل زوجٍ من الحيوان والطير ، حتى تتوالد فيما بعدُ ، ويكون لهؤلاء المؤمنين الناجين مصدر سريع للرزق والعيش ، فضلاً عن حكمته تعالى في إبقاء الأنواع التي اعتادوا عليها ، لتستفيد ذراريهم منها فيما بعد . . ولذا فقد شُحنت سفينةُ نوحٍ (ع) بتلك الأحمال والأثقال ، وكانت سبيل النجاة من غضب الله ، بينما غرق الكافرون بالطوفان وهلكوا . . فهذه إذاً آية لها دلالاتها الهامة في التاريخ البشري . . ومن دلالاتها أنه جعل سبحانه وتعالى للعباد عِلماً يهتدون به إلى صناعة مثل تلك السفينة ، فعملوا على شكلها سُفناً صغاراً وكباراً ، ثم توصَّلوا إلى صُنع أساطيل عامرة من السفن ، تجوب البحار وتمخر عباب اليم عائمةً على سطح الماء ، وصنعوا كذلك غوَّاصاتٍ أخرى تعوم في قلب الماء وتسير من تحت سطحه ، محمَّلةً بالناس وبشتى الأشكال من السلاح ومختلَف الأنواع من المؤن والذخائر . .

وهذه السفن لو شاء اللَّهُ تعالى لَنقضَ جميعَ القوانين التي جعلتها محمولةً على الماء ، ولأغرقها وأغرق مَن فيها - بموج عاتٍ أو بعاصفةٍ هوجاء أو أيِ سبيل آخر - فلا يُسمعُ للغرقى صريخ ، ولا يُغاثون من أحدٍ ، ولا يكون لديهم وسيلة للإنقاذ ، إلَّا أن يبعث اللَّهُ تعالى رحمةً منه عليهم ، فتكون وحدَها طريق النجاة ومانحة الحياة إلى أجلٍ يقدِّره هو جلَّ وعلا . .

فتلك السفن لم يحملها غيرُ أمر الله العظيم ونواميسه التي تحكم الكون وتصرِّفه ، وتجعل الفُلك تعوم على وجه الماء ، بحكم خواص الفُلك وخواص الماء ، وخواص الريح أو البخار أو الطاقة المنطلقة من البترول أو الذرة أو غيرهما من القوى. . . ثُمَّ من يقدر على حبس تلك السفن غيرُ الله تعالى إذ لو شاء لأسكن الرياح فيظللن رواكد على سطح الماء ؟ أليس في هذه الفُلك إذن آيات وشواهد واضحة على قدرة الله تعالى في الخلق ؟ فليتقِ عبادُ الله ربَّهم العظيم ، وليدركوا أسرار آياته ، ليعرفوا ما أحاطهم به من النعم والأفضال.

٥ ـ براهين النَّبيين الدالة على قدرته تعالى .

قوله تعالى :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾ (١) .

ما بعثَ الله سبحانه نبيّاً ولا رسولاً إلاَّ وزوَّدهُ بالقدرة التي تمكّنه من إبلاغ رسالة ربِّه إلى الناس . . فالأنبياء والمرسلون بشَرٌ مثلنا ، وهم يحتاجون إلى آياتٍ ومعاجزَ تُثْبِتُ صدقهم ، وتثبِّت أقدامهم في حمل الدعوات التي بُعثوا بها . . ولو أمعنَّا الفكر في آيات القرآن الكريم لَوجدناه يعيد ويكرر قصة موسى (ع) في أكثر من سورة ، تقريراً للحجة على أهل الكتاب ، واستمالةً لهم نحو الحق الذي يدعوهم إليه محمد (ﷺ) . . على أن كل موضع من مواضع التكرار

---

(١) القصص : ٣١ .

لا يخلو من زيادة فائدة علماً وبياناً ، وذلك كالذي نجده مثلاً في هـذه الآية الكريمة حيث أرادَ سبحانه أن يقدِّم لنبيه موسى (ع) البرهان على قدرته ، ليثبِّت عزمَهُ فيكون قادراً على حمل التكليف .

فقد كان موسى (ع) عائداً بأهله من مدينَ إلى مصر عندما أتاه التكليف من ربِّـه . ويبدو أنَّ عـودتَهُ تلك كـانت عن طـريق صحـراء سيناء ، وقد أظلم الليلُ واشتدَّ البردُ ، فرأى ناراً على جـانب الطور، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١)

وكـانت عصـاه بيـده يتـوكـأ عليهـا ، ويسـوق بهـا أغنــامـه ، ويستعملها لمآرب أخرى ، فأرادَ سبحـانَهُ أن يبـيِّنَ له أول بـرهانٍ عـلى بعثه ، فجاءَه النداءُ العلوي :

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (٢)

قال : هي عصايَ . . .

قال : ألقِها يا موسى ، فألقاها . .

ورأى موسى (ع) عصاه تنقلب إلى حيَّة تتحرك وتهـتزُّ بسرعـة

---

(١) طه : ٩ ـ ١٣ .

(٢) طه : ١٦ .

عجيبة كأنها جانّ ، فاستولى الخوف عليه فولّى هارباً لا يريد الرجوع إلى حيث هي .

فلنتصوَّر هذا المشهد المرعب . . إنها المفاجأة التي لم يستعدَّ لها موسى (ع) مع الطبيعة الانفعالية التي تأخذها الوهلة الأولى ، فكان لا بد أن يولّي هارباً ، وألّا يفكر في العودة إليها ليتبين ما حلَّ بها ، وليتأمل هذه الظاهرة العجيبة التي حصلت على يده . وهذه هي سمة المفاجأة المروعة التي تُحدث الانفعال الذي لا يبرز ولا يتجلَّى إلا في موعده . .

ثم استمع إلى ربِّه عزَّ وجلَّ الذي قال له :

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ (١) . ذاك أن الأمن والخوف يتعاقبان سريعاً على هذه النفس ويتناولانها في مراحل حياتها جميعاً . ولذا هدأ روع موسى (ع) واطمأنَّ بعد قول ربِّه .

وكيف لا يأمن مَن كانت عين الله ترعاه ؟

فقصة عصا موسى (ع) برهانٌ يحتوي معجزةً دالةً على قدرة الله تعالى الذي يستطيع تغيير طبائع الأشياء وإحالتها إلى غيرها ، ثم يعيدها إلى حالتها الأولى في لحظات يسيرة . . فهل أدلُّ من هذا المثل على قدرة الله تعالى ؟ وهل أقوى وأشَدُّ منه مثلاً على هداية الله تعالى لمن أرادَ أن يهديَه ؟ فسبحان الله ما أعظم آياته المبثوثة الدالة على عظمته وقدرته اللتين نهتدي بهما ؛ ومن يهدِ اللّهُ فلا يضلُّ ولا يشقى . .

---

(١) القصص : ٣١ .

البعث

١ ـ البعث والحساب ضرورتان عدليتان .

يقول تبارك وتعالى :

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) .

أَلا إنَّ وعد الله بالبعث والجزاء حق ثابت . .

وقضيـة البعـث من أهم القضايا التي واجهها الإنسان منذ فجر وجوده ؛ فقد حيّرت هذه القضيـةُ عقلَه ، وأضنتْ نفسَهُ ، إذْ مـا زال دائماً وأبداً يتسـاءل متعجباً : وهـل فعلاً سـوف أبعث بعد مـوتي من جديد ؟ وكيف أعود كما كنت بعـد الموت ، وقـد فني جِسمي وصار تُـراباً أو هبـاءً منثوراً ؟ وهـل هـو صحيـح مـا سيكـون وراء بعثي من حساب فيه ثواب وعقاب ؟

طبعـاً لا نريـد أن نـدخـل هنـا في بحـوثـات فلسفيـة ، ولا في

---

(١) يونس : ٥٥ و ٥٦ .

دراسات جدلية ، حول هذه القضية ، ولكن نتوجه بالسؤال إلى هذا الإنسان الحيّ ، الواعي ، الحساس ، المفكر : هل تحس فعلاً بأنك موجود في هذه الحياة ، وهل أنت تدرك هذا الوجود إدراكاً عقلانيّاً ؟ وهل تعتقد أنك ميت حتماً ، ولا مناص من موتك ؟

لا أحد يستطيع الإجابة بالنفي عن هكذا تساؤل ، لأن الإنسانَ موجود فعلاً ، وهو كائن حيٌّ ، وهو يعي ذلك ويُحسه ، ثم هو يعلم أنه ميت بعد هذه الحياة بلا أدنى شك . .

وعلى هذا ، فإنَّ من بديهيات الأمور الإقرار والاستيقان بما قاله القرآن الكريم ، وهو أنَّ من خلق الإنسان وأوجده أول مرة - وهو ما يُسمى بالنشأة الأولى - قادر على أن يحييه مرة أخرى - وهذه هي النشأة الثانية - أي إعادة الأمواتِ أحياءً . . وهذا هو البعث . .

وببداهةٍ أكثر نقول : من المفروض أن يكون في هذه الحياة الدنيا عدل ليتمكن الناس من إعطاء كل ذي حقٍ حقه؛ وهذا أصلاً ما تتغنَّى به القوانين والأنظمة الوضعية ؛ بل إن العدل ضرورة ماسَّة في حياة المجتمعات البشرية ، لأنها إن خلت من العدالة التي تحفظ حقوق الناس ، وتفرض العقوبات والقصاص على المخلين ، والمخالفين ، والمفسدين ، لاضطربت أحوال البشر ، واختل توازن وجودهم ، فعاشوا في الفوضى والقلق القاتلين ؛ وأية عيشة هذه وإلى متى تدوم ؟ ! . .

ولكن رغم هذه العدالة المسنونة في القوانين الأرضية ، نحن نتساءل : كم وكم أفلت أناس من قبضة العدالة ، فكذبوا ، وظلموا ، واستباحوا الكثير من حقوق الآخرين ، بل وتعدّوا على

مقومات الحياة الأساسية لبني البشر دون أن يفكروا بعدل أو بظلم ، بل ودون أن يحاسبهم أحدٌ على ما صنعوا ، بل كانوا هُمُ الذين يُحاسِبون ولا يُحاسبون ؟ ! . فإذا تسنّى لهؤلاء أن يفلتوا من عدالة الأرض - بالحيل أو بالمكر والخداع ، أو بالقوة - فإن التقدير الصائب ، والحكمة الرشيدة ، تحتّمان ضرورة وجود عدالة حقيقية ثانية ، يمثلون أمامها لتحاسبهم ، وتنصف المظلوم من ظالمه . . وإلّا ، لو قلنا بخلاف ذلك ، وأنكرنا وجود هذه العدالة الثانية ، لاستوى كل شيء مع بعضه البعض بحيث يكون الصادق كالكاذب ، والظالم كالمظلوم ، والعادل كالجائر ، والعالم كالجاهل ، والمؤمن كالكافر ؛ ولانتفى بالنتيجة أي تمييز بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل ، وبين الفضيلة والرذيلة الخ . . .

ولو أقررنا جدلاً بذلك - مع أنه يخالف منطوق الحياة برمتها - لكان أساسُ هذه الحياة مبنيّاً على الخطأ ؛ ومع وجود هذا الخطأ لا يمكن أن يستقيم شيء على سطح هذه الأرض ، لأن ما بني على الفاسد يكون فاسداً ! . . . إلّا أن منطوق العقل يقول بخلاف ذلك ؛ أي أن أساس هذه الحياة مبنيٌّ وفق نظامٍ محكمٍ ، قائمٍ على الحق والصواب ، وهو مرتكز على منهجٍ مستقيمٍ متكامل يفرز الناس ، ويميّز فيما بينهم . . ولذا ما نزال نقول: فلانٌ عادلٌ مثلاً ، وفلانٌ جائر ؛ أو نقول فلانٌ ذو صفات حميدة وأخلاق كريمة ، وفلانٌ الآخر ذو صفات مذمومة وأخلاق فاسدة . . .

وما دام أساسُ الحياة مبنياً على الحق والنظام ، لا على الباطل والخطأ ، فقد تحتَّم أن تكون النتائجُ المترتبةُ على هذه الحياة هي على

نفس المنهج ، أي أن تستقرَّ مع ما يتوافق ويأتلف مع الأساس الذي بُنيت عليه .

وما دام الموتُ هو أحد النتائج التي تفضي إليها الحياة ـ كما هو ثابت عقليّاً ، وبالبرهان المحسوس ـ فإنَّ المنطق يقود إلى ضرورة محاسبة الناس على ما عملوا في حياتهم الأولى ، حتى لا يفلت أحدٌ من العدالة . وهذا لا يكون إلاَّ بإعادة الناس أحياء من جديد ، أي بالبعث . .

فالبعث إذن هو من مستلزمات الوجود البشري ، وإلاَّ كان هذا الوجود عبثاً ، لا حكمة فيه ، بل ولا معنىً له في الأصل ؛ فإذا أقررنا بضرورة البعث ، كان لزاماً الإقرار بأنه نتيجة حتمية لما يرافق حياة الناس ـ المادية والمعنوية والروحية ـ من قضايا وأمور على شتى أنواعها واختلافها . . هذا فضلاً عن أن تلك الثلة من بني البشر ، الذين كانت لهم صفة الأنبياء والرسل ، قد حملوا رسالات الله تعالى التي تؤكد حتمية البعث ؛ وهذه الرسالات آمن بها أناس واتبعوها ، وأنكرها آخرون . . بل إن الذين أنكروا ولم يعترفوا برسالات الله لعباده في الأرض ، ولم يؤمنوا بالدعوات التي حملها الأنبياء والرسل ، لم ينكروا جميعهم حقيقة البعث ـ رغم المعتقدات الباطلة التي كانوا يدينون بها ـ أي أن المشركين ومعظم الكافرين أنفسهم كانوا يؤمنون بالحياة الأخرى بعد الموت ، كما تدلُّ على ذلك آثار الأمم الغابرة ، حيث أظهرت اكتشافات علماء الآثار الشواهد الكثيرة على اعتقاد تلك الأمم بالحياة الثانية ، وما كانوا يُعدون لها من تجهيزات يضعونها في قبور الموتى . .

ولئن كانت جميع الرسالات السماوية قد تضمنت الأحكام الدالة على حقيقة البعث ، فإن القرآن الكريم الذي هو آخر كتاب سماوي أنزل إلى الأرض ، قد أثبت ، بالأحكام وبالأدلة والبراهين وبالأمثال الكثيرة ، أن البعث حقيقة لا ريب فيها ، وأنه لا مناص لإنكارها ، مهما حاول المنكرون والجاحدون أن يدَّعوا هذا الإنكار . .

فالقرآن الكريم يبين لنا مثلاً ، كيف أن عيسى بن مريم - عليه السلام - كان يُحيي الموتى - بإذن الله تعالى - ومن قبلُ ، سألَ أبو الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - ربَّهُ أن يريَهُ كيف يُحيي الموتى . . فلما سأله ربّهُ تعالى : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [1] . . وفعل إبراهيم الخليل (ع) ما أمرَهُ به ربه ، فقطع أربعة من الطير ،ووزَّع أجزاءها على جبال متفرقة ، ثم دعاهنَّ إليه ،فعادت بإذن ربها كما كانت ،أربعةً من الطير حيةً كاملة ؛ فكانت برهاناً حسّياً على قدرة الله تعالى في البعث . .

ومن الأمثلة الدالة أيضاً في القرآن الكريم على البعث ، وأنَّ الله تعالى يُحيي ويميت ، ما نجده في « سورة البقرة » حيث أحيا - عزَّ وجلَّ - القتيل - وكان ذلك في أيام بني إسرائيل - ليدلَّ على قاتله . .

وفي « سورة الكهف » نجد أنه سبحانه قد أمات بعض أشخاص ومعهم كلبهم ، وهم المعروفون بأهل الكهف ، ثم أحياهم

---

(١) البقرة : ٢٦٠ .

من جديد ، فعادوا ، هم أنفسهم ، بنفس أجسادهم وهيئاتهم وأشكالهم ، بل وبنفس الثياب التي كانوا يلبسونها ، بعد أن انقضى على إماتتهم ثلاثمئةٍ وتسع سنين . .

وفي القرآن أيضاً مثالُ العُزير ، الذي أماته اللَّهُ تعالى مئة عام ، ثم أحياه ، فلما بعثَهُ سأله : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم . قال : بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه (لم يتغير) ، وانظر إلى حمارك . . . أليس هو أيضاً على حاله لم يتغير ؟ ! . . فأين ذهبت إذن أقوال الجاحدين والمنكرين للبعث ، بعد هذه الأدلة والشواهد الحقة ؟ ! .

الحقائق والشواهد كثيرة ، وما على الإنسان إلَّا أن يتفكَّر بها ليهتدي . . ولعلَّ أبسط تلك الحقائق ما نجد من فوارق بين الناس وبين البهائم . . فالإنسان قد خُلق في أحسن صورة ، وأحسن تقويم ؛ وقد مَنَحَهُ خالقُهُ من الخصائص والمزايا ما لم يمنح لغيره من مخلوقات الأرض الأخرى ، سواء الحية منها أو غير الحية . . فلماذا يجب أن تكون هذه الفوارق بين بني البشر وبين المخلوقات الأخرى ، لو لم يكن هنالك بعثٌ وحسابٌ للناس ؟ ! . . ثُمَّ ما هي الغاية من خلق البشر لو لم يكن هنالك بعثٌ ونشور وثوابٌ وعقاب ، ونعيمٌ للطائعين وعذابٌ للعاصين ؟

فالبعث يقود إليه العقل ، وتقود إليه الأحداث والوقائع ، كما تقود إليه العقائد الدينية السماوية . . وإن أنكر ذلك المنكرون ، وكذَّب به الجاحدون . .

٢ ـ مثل العُزير آيةٌ دالَّةٌ على البعث .

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] .

إن حقائق القرآن ثابتةٌ بصدق ما تقدم من أدلة وبراهين ، وبما تبيّن من أمثال تتناول حياة الإنسان ، وتخاطب عقله وقلبه . ومن تلك الأدلة التي يقدمها الذكرُ الحكيم ، قصة إنسانٍ مؤمن ، مرَّ على قرية ، فرآها خاوية ، مهدَّمة ، لا أثَرَ فيها للحياة ، فتساءل في نفسه : هل يُمكن أن يحيي الله هذه القرية بعد موتها ؟ فجاءه البرهان العاجل القاطع ، بإماتته هو نفسه ، ثم بإحيائه بعد مئة عام . .

ولم يكن هدف القرآن من إيراد قصة ذلك الإنسان المؤمن الإخبار بما حدث لفرد من الناس ، وإنما ليكون هذا الإنسان آيةً وشاهداً لكل إنسانٍ مثله ، في كل زمان ومكان ، يعتبر بمَثَله ، ويؤمن بأن البعث بعد الموت ، هو حقيقة ثابتة ، كثبوت القرآن في واقعه الحسيّ ، بين ظهراني الناس . .

إذن فمَثَلُ العزير ـ الذي نحن بصدد قصته ـ في القرآن ، كمثل

---

(١) البقرة : ٢٥٩ .

كـل إنسان يتسـاءل عن البعث ؛ وقصته ـ كـما تُرى في سيـاق الآيـات الكـريمة ـ تـدور حول تَـوْقِهِ النفسي والفكـري لمعـرفـة حقيقـة البعث وكيفيته ، وذلك عندما مرَّ على بيت المقدس ، بعدما هدمهـا وأحرقهـا بختنصَّـر ، ملك الفـرس يـومئـذٍ ، إذ رآهـا العـزيـر ﴿ خـاويـة عـلى عروشها ﴾ ، خالية من الحركة . بنـاؤ ها مهـدوم ، وزرعها محـروق ؛ والنـاظر إليهـا لا تقع عينـاه إلَّا على خـراب ، فقال متسـائلاً : ﴿ أنَّى يحيي هـذه اللَّهُ بعد مـوتها ﴾ ؟ وكيف يمكن أن يعيـد إليها الحيـاة مـرةً أخرى بعد كل هذا الـذي أصابهـا ، أو أن يعيد أهلهـا أحياء بعـد أن أماتهم ؟ ! . .

ولم يكن تفكير العزير ـ وهو المؤمن الصـادق ـ إنكاراً لقـدرة الله تعالى على الإحيـاء ، ولا تعجباً أو ارتيـاباً بـالحق ، وإنما أرادَ أن يثبت لـديه الـدليل الحسيّ الملمـوس على حقيقـة البعث . . وهـو قـد فعـل ذلـك ، كما نفعله نحن الآن في كثـير من الأحيـان ، عنـدمـا نفكـر في الموت الذي يتخطّف العباد ، وبما سيؤ ول إليه النـاسُ بعده . . وكيف يكـون يوم القيـامة ، وكيف تكـون حال أهـل الجنة في الجنـة ، وحال أهـل النار في النـار ؟ ! . . . فهذه أفكـار تراودنـا ، وهي قـد راودت الأنبياء والصديقين من قبل ، مثل أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه السـلام ـ ومثل العُـزير .

وهـذه الأفكـار إن دلت عـلى شيء ، فهي تـدل ـ عـلى امتـداد التـاريخ البشـري ـ على الـدافع عنـد الإنسان بـأن يحصل لـديه العلم بحقيقـة البعث عن طريق الـواقع المحسـوس ، لأن العلم الاستدلالي ربمـا تعتـوره الشبهـة . ومن أجـل إزالـة هـذه الشبهـة ، من العقـول

والنفـوس ، ساق القـرآن الكريم شـواهده ، وأمثلتـه ، مما حصـل في المـاضي ؛ لتكون عبـرة لـلآتي ، إذ ليس ضـروريّـاً أن يحصـل العلم بالواقع المحسوس لكل من أراد هذا العلم في قضيـة من القضايـا ، ما دام أنَّ لـديـه القـدرة عـلى التفكـير ، وتمحيص الـوقـائـع والأحـداث المـاضية ، لـلاستدلال بهـا عـلى الحقـائق التي يـريـد ؛ فيكـون العلم الاستـدلالي ، والنظر الفكـري ، كافيـين لإقنـاعـه . . فـإذا ثبتت لـه الحقيقــة بـالعلم الاستــدلالي ولم يقتنـع كــان عبء المسؤوليـة عــلى عاتقه . . .

فـالعُـزيـر تفكَّـر ، وســأل ، ولم يـدر في خلده أن يميتــه اللَّهُ ـ سبحـانه ـ ثم يحييـه ، ولا خطر ببـاله أنـه سيكون الشـاهدَ عـلى نفسه بنفسه ، وأنَّ الله سيجعله المثال لكل من يتفكَّر كـما تفكّر . . لقـد أراد أن يعلم ، ففكَّـر . . ثم أخذتـه غفوة ، فغـاب عن الزمن ، في نـومٍ هانىءٍ طويل . . ثم أفاق أخيراً من نومه . . ولكنَّه عنـد عودة الإدراك والشعور لديه ، فاجـأه نداءٌ من السـماء ، يقول لـه : « كم لبثت » في نـومك ؟ قـال العزيـر : لبثت يومـاً ، أو بضع سـاعات من اليـوم . . هكذا ظنَّ ، أنه كان في نوم عادي . . ولكنَّ النداءَ قال له : بل لبثت في مكانك هذا ، الذي أنت فيه ، مئـة عام ؛ ثم عدتَ الآن مستيقظاً بعـد هذه المـدة الطويلة ، وأنت الآن كـما كنت ؛ ثم إنَّ هذا الـدليـل أمـامك : ﴿ فـانظر إلى طعـامـك وشـرابـك لم يتسنَّـه ﴾ ، فلم تغيّـره السنون ، ولم تفسده العوامل الطبيعية ، بل بقي على حـالـه .

أمـا الآن ، ﴿ فانـظر إلى حمارك ﴾ أين هـو ؛ هل مـا زال يقف بقـربك ؟ لا . . فـأنت لم تره ، لأننـا قد أمتنـاه ، وقد اهتـرأ لحمـه ،

وتبددت عظامـه ، ولكن أبقينا بعضـاً من هذه العـظام لترى فيـه الأثر الباقي من حمارك . . أو لا تعلم أنه ما كان ليحلَّ بحمـارك ما حـلَّ به من فناءٍ لو بقيت يوماً أو بعض يوم ؟ . . فهذه هي الأدلة ، يا عزير ، على قدرة الله تعـالى ، بأنـه يميت ويحيي . . وهي ظاهـرة لك في هـذا الطعام والشـراب ، الذي لم يتغـير بل ظـلَّ على نفس الحـالة والـطعم والرائحة ، كـما كان تمـاماً قبـل مئـة عام ؛ ثم انـظر الآن إلى الدليـل الـذي يُقنع ، فـأنت لا ترى من حمـارك إلَّا بعضـاً من عـظام هشَّـة ، تتفتَّت لمجـرد ملامستهـا ، فتأمَّـل كيف نعيـد تـركيب هـذه العـظام ، وكيف نكسوها لحماً ، ونضع كل جزء من أجزاء جسمه في مكانه ، ثم نبعثه حيّـاً من جديد . . وها هوذا الآن حمارك يقف أمامك بشكله التام الذي عهدته فيه . . أو لم يحصل ذلك كله كلمح بالبصـر ؟ بـلى : لأن أمرنا أن نقول للشيء : كن . . فيكون . . ولم نفعـل ذلك إلَّا لنـريك قدرتنا على الخلق ، والإماتـة ، والبعث . وما مشيئتنـا إلَّا لنجعلك آية للنـاس ، يستدلـون بها ، وخبـراً تتناقله الأجيـال ، ويحفـظه التـاريـخ البشـري على امتـداده أبداً ، لتـروي هذه الآيـة قصة البعث ، وكيف يحيي اللَّهُ العظام وهي رميم . .

فلما ظهـرت للعزيـر حقيقة الأمـر ، وتبـين لـه الحق من ربـه ، وأيقن أنـه قد مـات مئـة عام ، إذ رأى من حـوله ، أن معـالم الأشياء كلها قد تغيـرت ، ولم تبقَ على حـالها ، بفعـل مرور الـزمن ، عندهـا قال : ﴿ أعلم أن الله على كـل شيء قديـر ﴾ . ومن قبـلُ كنت قـد علمتُ ذلـك ، والآن وبعـدمـا أكـرمني ربي بهـذه الآيـة المعجـزة ، علمتُ علمَ اليقين بقدرته تعالى أن البعث حق ، وأنَّه حقيقة لا مناصَ

منها ؛ فتبارك سبحانه وتعالى الخالق ، القادر ، اللطيف ، الخبير ، السميع العليم ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، والذي يقول للشيء : كن ، فيكون . .

٣ ـ حجة المكذبين بالبعث ودحضها .

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾(١) .

لقد حارب المشركون والكافرون دعوة الإسلام بشتى الوسائل المادية والفكرية/التي كانوا يملكونها ؛ وقاموا بمحاولات ومناورات عديدة ، وبذلوا جهوداً مضنية ، ليصدوا الناس عن هذا الدين القويم ، إلَّا أنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً ، وماتوا بغيظهم . .

ومن الحجج التي اعتمدوها لمحاربة الإسلام إنكارهم للبعث ، وادعاؤهم بأنه أمر غير محسوس ، وهو يدخل في علم المجهول . وقد أدى بهم تفكيرهم القاصر إلى التندّر بأنه لا يجوز أن يعوَّلَ على الأقوال في مثل هذا الأمر الخطير . بل وصل بهم الحال في محاجة النبي (ﷺ) إلى الاستهزاء به ، وبما يدعو إليه . ولكنَّ التنزيل العزيز أجابهم بما يدحض حججهم الواهية .

---

(١) الاسراء : ٤٨ ـ ٥١ .

فهذه الآيات الكريمة ، تبين الحوارَ الذي كان يدور ما بين النبي (ﷺ) والمشركين ، وما أبداه كفارُ قريش (وهم رمز للكافرين على مدار الزمان) من جدال وادعاء حول البعث ، والردَّ عليهم من صاحب الشأن ـ عز وجل ـ الذي يعلم ما في النفوس ، وما تخبىء الصدور ، وهو يخاطبُ رسوله الكريم قائلاً له : انظر يا محمد كيف ضربوا لك الأمثال ، وهم يناقشونك ويشبهون الأشياء كما يحلوهم . . ولقد ضلُّوا بذلك ، وأعرضوا عن الحق ، فتاهوا عن الطريق المستقيم ، ولم يعطواأي برهان على ما يزعمون ويدعون ، حتى تاهوا في ذلك الضلال ، فلا هم دخلوا في الإسلام وأقروا بالبعث ، ولا هم وجدوا أي سبيل يؤيد إنكارهم وجحودهم . . فإذا قالوا : أإذا كنا عظاماً نخرة ورفاتاً هشة بعد أن فنيت أجسادنا ،وتحلّلت إلى تراب ، فهل نبعث ونعود خلقاً جديداً ؟ فقل لهم يا محمد : كونوا على أية حالة تتصورونها من حجارة قاسية ، أو من حديد صلب ، أو من كل شيء يصعب تفتُّتُهُ . . أو كونوا من أي نوع أو جنس من الخلق ، تتخيَّلُهُ أذهانكم (عمالقة أو جبابرة أو خلائق فوق مستوى البشر) ، بل وكونوا على أعظم من هذا التكوين الذي أنتم عليه،علماً بأنه تكوين فوق ما تتصورون ، وهو الذي جعلكم تحاجون وتجادلون، فإنَّ أيّ خلق تتصورونه ، وأنتم منه ، كله مخلوق لله تعالى ، ومن قدر على هذا الخلق فهو قادر على أن يميته وأن يعيده بعد الموت ، ويبعثه من جديد . . فإذا تجاوزوا في الغيِّ وأصرّوا قائلين : من يعيدنا ؟ فقل لهم : يعيدكم اللَّهُ الذي فطركم أول مرة ، على نفس هذا الوضع الذي ترون أنفسكم فيه ، لأن القادر على ابتداء الشيء يكون أقدر على إعادته ؛ إذ الابتداء والإنشاء من العدم أصعب من إعادة الشيء

بعد أن يكون . . ومتى جئتهم بهذه الحجة البالغة ، فسوف يحركون رؤوسهم تحريك المستهزىء ، المستخف بما أبديت ، ويقولون : متى هو هذا البعث ؟ فقل لهم يا محمد : عسى أن يكون قريباً . بل أقرب مما تتصورون ، فلا داعي لإثبات ساعته ، لأن علمها عند الله وحده ، ولا ضرورة لتصديقكم بهذه الحقيقة التي يرشدني إليها ربي ، طالما أنتم تستهزئون ، ولا تصدقون . فالبعث آتٍ لا ريب في ذلك . وكل آتٍ قريبٌ مهما كان بعيداً ، وسيرى الظالمون أي منقلب سينقلبون .

ومن كلام للإمام الحسن (ع) بهذا المعنى : « كأنك بالدنيا لم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تزل » .

٤ ـ وجوب التصديق بالبعث .

يقول تبارك وتعالى : ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١) .

من صلب العقيدة الإسلامية الإيمان بالبعث ؛ ولذلك أنكر الكافرون والمشركون حقيقة البعث لَمَّا رفضوا التصديق بالإسلام . وفي التنزيل الحكيم آيات بيّنات على أنَّ الله تعالى وضع نظام الخلق بين الزوجين ، ثم سنَّ شرعة الموت على عباده ، ليعيدهم تارة أخرى .

---

(١) الواقعة : ٥٧ ـ ٦٢ .

فما دام أن خَلْقَ الإنسان وموتَه هما من الأمور المنظورة والمألوفة ، التي تقع يوميّاً في حياة الناس ، فكيف لا يصدّقون بأنَّ الله تعالى هو خالقهم ؟ إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة البشرية أضخم وأثقل من أن يواجهه الكيان البشري أو يجادل فيه ، لأنه تعالى يقول : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ . . فهذا احتجاج منه ـ سبحانه ـ على المنكرين من عباده ، الذين خلقهم ، ولم يكونوا شيئاً . ثم نبَّههم تعالى بعده ، على وجه الاستدلال ، على صحة الخلق ، بدليل حسيٍ ملموس ، نابع من أنفسهم ، وهو هذا المني الذي يقذفونه في الأرحام نطفاً فتصير أولاداً ، ولا يتعدى دور الزوجين ، في أمر هذا الخلق ، بأن يدع الرجل ما يمني في رحم المرأة ، ثم ينقطع عمله وعملها ، وتأخذ يد القدرة الإلْهية في العمل وحدها ، في هذا الماء المهين ، فتنقله من طور إلى طور ، وتنمّيه وتبني هيكله ، بعد نفخ الروح فيه . . . ثم بعد هذا التأكيد على الخلق ، وفق هذا النظام الدقيق الذي وضعه الله تعالى لبني البشر ، يعود الخالق وينبّه إلى الحقيقة المرئية ألا وهي الموت الذي يقضي به وفق حكمته ومشيئته ، فمن الناس من يموت جنيناً ، أو صبيّاً ، أو يافعاً ، أو شابّاً، أو كهلاً ، أو شيخاً ، أو هرماً ؛ بل وفي هذا الموت يستوي المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي ، والغني والفقير ، والحاكم والمحكوم ؛ وكل أهل الأرض والسماء ، لأنَّ كل نفس ذائقة الموت ، ولا يفلت منه أحد . . وأمر الموت هو بيد الله تعالى وحده ، وهو غير عاجز ، ولا يسبقه سابق ، على أن يميت أهل الأرض جميعاً ، وأن يستبدلهم بآخرين غيرهم . وكما أنه ـ سبحانه ـ كان قادراً ، عند خلقهم ، على تغيير أحوالهم من طور إلى طور ، فكذلك هو قادر ـ سبحانه ـ على تغيير

أحوالهم من الموت إلى الإحياء مرة أخرى ، بالبعث ، لا سيما وأنهم قد علموا النشأة الأولى ، وعرفوها معرفة يقينية فهلّا يتذكّرون ويعتبرون ويستدلون بها على البعث ، الذي هو النشأة الثانية ؟

ومن قولٍ لعلي بن أبي طالب (ع) « عجبت لمن آمن بالنشأة الأولى كيف ينكر النشأة الأخرى »؟!

٥ ـ آيات الله أدلّة على البعث

يقول تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [1]

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح ، الذي يقرأ بكل لغة ، ويدرك بكل وسيلة ؛ ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ ، والمتحضر ساكن العمارات والقصور ، كما يستطيع أن يطالعه الأمي ، والمثقف والعالم . . وكلٌّ يطالعه بقدر إدراكه واستعداده ، فيجد فيه زاداً من الحق حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق . . وهذا الكون شاهد ، قائم مفتوح في كل آنٍ ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ . ولكن أهل الكفر لم يطالعوا كتاب الكون بروح التبصرة ، ولم يتطلعوا إلى الحق الذي هو فيه بنور الهدى

---

(١) ق : ٦ ـ ١١ .

والمعرفة . وهذه الأمور العظيمة التي تذكرها الآيات المباركات ، يقيمها ـ سبحانه ـ مدلولات صادقة مرئية على كونه قادراً على البعث ، مثل كونه قادراً على إنزال المطر الذي يحيي به بلدة ميتة ، بإنبات ما حوته في جوفها من البذور . فكما أنه ـ سبحانه ـ قادر على هذا الإنبات ، كذلك هو قادر على إحياء الأجساد المزروعة في الأرض بعد موتها يوم القيامة .

ففي الآيات الكريمة حَثٌّ على النظر إلى السماء ، والتفكر في خلقها ؛ فمن أمعن الفكر وجَدَ أنَّ هذه السماء فوقنا ، وما فيها من زينة بهيجة ، تتمثل بأجرامها ونجومها وشموسها وكواكبها التي انتثرت كحبات اللؤلؤ الصافية التي تشع بالأنوار الساطعة ، وتنير بالأضواء المتلألئة . . . هذه السماء ، لا يمكن أن يكون بنيانها إلَّا بمقتضى صنع عظيم ، وإتقان شديد ، حتى تكون خالية من التركيب المغلوط ، ليس فيها وهَنٌ ، ولا فوضى ، ولا شروخ في الانتظام ، تؤدي إلى الاضطراب ، والتقلّب ، والانهيار . .

أما هذه الأرض التي نحن عليها ، والتي هي جزء يسير من هذا الكون الفسيح ، حيث جُعلت كرةً تسبح في نطاق النظام الشمسي ، فقد جعل الله تعالى فيها سهولاً ممتدة ، وأقام فوقها الجبال الرواسي الثابتة ، لتمسك أجزاءها ، وتقيم التوازن بين تضاريسها ، فلا تميد وتضطرب بأهلها . .

ثم تربط الآيات الكريمة ما بين السماء والأرض ، بهذا الماء الذي ينزله الله تعالى ماءً مباركاً لإنبات كل شيء ، مما يرفد الحياة البشرية بمقومات العيش كلها ؛ فهذه الجنات والبساتين والزروع التي

تملأ الأرض من أدناها إلى أقصاها فيها من كل شيء حي ، من الأزهار المتفتحة ذات المنظر الحسن ، والجمال الرائع ؛ إلى الحبوب ، والخضار ، على شتى الأنواع والأشكال ، إلى الأشجار المثمرة والفاكهة اللذيذة التي زاد تنوعها إلى أعداد كثيرة ، والتي كنَّى عنها النص القرآني ، بالنخل العالي ، ذي النتاج النضيد ، أي المتراكم في عناقيده ، بعضه فوق بعض . . كل هذه الأنواع والأجناس من النبات جعله الله تعالى رزقاً لعباده ، وهو ناتج عن ماء المطر المبارك الذي ينزل من السماء ، وهو نفسه هذا المطر الذي يحيي كل أرض يباس أو مواتٍ ، أو كل بلدة ميتة لشدة الجفاف والقحط . . إذ ما أن يختلط هذا المطر بترابها ، ويرويه حتى تهتزَّ أرضها وتنبت من جديد ، فتصير مليئة بالحيوية ، ضاجةً بالحياة . .

هذه الشواهد التي يراها الإنسانُ إن هي إلاَّ أمثلة فقط على قدرة الله تبارك وتعالى ، الذي يخرج الحيَّ من الميت ، ويخرج الميت من الحي ؛ فكما أحيا الأرض الموات ، والبلدة المقفرة بالماء ، فكذلك يخرج الأموات من القبور أحياءً ، يوم البعث . فإذا دخلت الشبهة على عقول الكافرين والملحدين ، لأنهم لا يرون إحياء الموتى بالعين المجردة ، فلا بدَّ لهم من أن يتفكَّروا بالشواهد التي تملأ الوجود من فوقهم ، ومن حولهم ، فيدركوا من خلالها أن من قدر على إنبات الزرع ، وإحياء الأرض ، هو قادر على الأمر الآخر ، الذي هو بعث الآدميين أحياءً . .

ويؤكد القرآن الكريم على هذا الجانب الطبيعي الذي تتفاعل به الحياة على الأرض ، بآيات ثانية ، تتناول الرياح والسحاب ،

وإنـزال المـطر ، وإخـراج النبـات والثمـرات ، وغيـرهــا من الأشيـاء الأخـرى ، وكلها محسـوبة وفق قـوانـين قـدرهـا لهـا خـالقهـا منـذ أن أوجدَها ، وهي مـا تزال تسـير ، بمقتضى الحكمة الإلهيـة ، على هـذه القـوانين والسنن إلى أن يشـاء الله سبحانـه وتعالى تغييـرها . أمـا هذه الآيات فهي قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

ففي هاتين الآيتين العظيمتين تركيـز ثانٍ عـلى أهمية المـاء الذي يخرج به الله تعالى كل أنواع الخير والرزق ؛ ولكن يزيد هنا في توضيح العوامل الطبيعية التي ينتج عنها المطر ، وذلك عن طريق تفاعل الرياح والسحاب الثقال (أي المليئـة بالمـاء) فإذا تـوفرت لهـا عوامـل البرودة هطلت بالماء الغزير الذي تحيا به الأراضي العطشى الجافة ، وتخرج به كل الثمرات رزقاً كبيراً . . ولكن اللفتة القرآنيـة الجديـدة هنا هي أن كل تلك العوامل ما كانت لتحدث لولا رحمة الله تعالى بعباده ، ومنحه لهم القوتَ والغذاء . . ثم يعود التأكيد على أنَّ الله تعالى كما يحيي كـل شيء في الأرض بإنزال الماء ، كذلك هو يخرج الموتى من القبور ، بعد

(١) الأعراف : ٥٧ و ٥٨ .

أن يمدَّهم بأسباب الحياة من جديد ، فيبعثون أحياءً ؛ وذلك عندما ينفخ في الصور يوم القيامة . وكأنما أراد ـ سبحانه ـ أن يربط بين حركة الرياح التي تقل المطر وهي تنفخ السحابَ وتدفعه ، وبين تلك النفخة في الصور التي تدفع الأموات ، بحيث تنتج في الحالتين حياة جديدة . فتلك حياة النبات وهذه حياة الأموات .

ثم يبيّن اللَّهُ ـ سبحانه ـ أن البلد أو الأرض التي يكون ترابها صالحاً إنما يخرج نباتها نامياً ، زكيّاً ، بينها البلد أو الأرض التي يكون ترابها فاسداً ، تكون سبخةً ، فلا يخرج منها إلَّا النبات الخبيث الذي لا ينفع . وفي هذا باعث للإنسان على التفكر الحصيف لكي يكون وعاءً طيباً لعمل الخير يطلبه من مظانه ، ولكي يبتعد عن الشر ويفلت من ربقته التي لا تورث إلَّا الندم والحسرة . . ولكنَّ الناس ، وإن كانوا مخلوقين من نفس الطينة ، ومن لحم ودم ، إلَّا أنه يظل بينهم المؤمن الصالح ، والكافر الطالح ، فيكون التشبيه القرآني للإنسان المؤمن بالأرض الطيبة ، وللإنسان الكافر بالأرض الخبيثة .

فالسماء والأرض وما فيهما، كلها تدل على آثار الربوبية في الكون ، وهي آثار الفاعلية والسلطان ، وآثار التدبير والتقدير ؛ وهي جميعها من صنيع الله الجميل الذي لا ينبغي أن يكون للناس ربٌّ سواه . .

والتصور الإسلامي ـ من خلال هذه الآيات وغيرها مما ورد في القرآن الكريم ـ ينفي العفوية والمصادفة في كل ما يجري في الكون ، ابتداءً من نشأته وبروزه ، وكل حركة فيه ، إلى كل تغيير وكل تعديل يطرأ عليه ، كما ينفي الجبرية الآلية التي تصور الكون كأنه آلة فرغ

منها صانعها ، وأودعها القوانين التي تتحرك بها ، ثم تركها تتحرك بجبرية حتمية آلية ، وفق هذه القوانين التي قد تصبح بذلك عمياء .

وهذه الالتفاتة إلى أسرار الوجود ـ من إنزال المطر ، إلى تفاعل الرياح والسحاب ، إلى إخراج الثمرات والأرزاق ، إلى خلق السماء وتزيينها ، إلى إحياء الأرض الموات ـ هي للتدليل على قدرة الله في الخلق وفي البعث ،وللحثّ على التفكُّر والتأمل في هذه الرحلة الطويلة التي تتناول أسراراً كثيرة من الغيب . والسياق القرآني يختتمها بمثل يضربه للطيب والخبيث من القلوب ، ينتزعه من جو المشهد المعروض مراعاة للتناسق في المرائي والمشاهد ، وفي الطبائع والحقائق . .

فالقلب الطيب يُشبَّه في القرآن الكريم ، وفي حديث الرسول الأعظم (ص) بالأرض الطيبة ، وبالتربة الطيبة ؛ والقلب الخبيث يُشبه بالأرض الخبيثة، وبالتربة الخبيثة؛ فكلاهما ـ القلب والتربة ـ منبت زرع ، ومأتى ثمر ؛ لأن القلب ينبت نوايا ومشاعر وانفعالات واستجابات واتجاهات وأعمالاً ، وبعد ذلك آثاراً في الحياة ؛ والأرض تنبت زرعاً وثمراً مختلفاً أكله وألوانه ومذاقه وأنواعه . ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ طيباً خيّراً ، وسهلاً ميسراً . ﴿ والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ في إيذاء وجفوة ، وعسر ومشقة . . فتعالى الله الخالق العظيم ، المدبِّر الحكيم . .

٦ ـ واقع خلق الإنسان دليلٌ على الوعد بالبعث

قال اللّهُ تعالى :أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ

وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ
عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾
أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ
وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(١)

وإنها لتخشع القلوب ، وتذعن النفوس لعظمة هذه الآيات التي تشع بالحقائق كاللآلىء المنيرة ، حيث ينطلق منها الإعجاز القرآني على هذا النحو من اليسر في التعبير الذي لا يقدر عليه غيره . . فهي آيات لمن تذوق طعم حلاوتها، وذابت نفسه إيماناً في ثناياها، فانبرى يسبّح خالقه الذي يستحق الثناء والحمد والتسبيح ، على ما أودع في نفوسنا من أحاسيسَ رهيفة، وما أغدق علينا من نعمٍ جزيلة . .

فالآيات تبدأ بمواجهة الإنسان في دعوته إلى رؤ ية خلقه بالبصيرة النافذة ، لأنَّ هذا الخلق هو خير تعبير عن واقعه الذي يعيشه ، والذي تتمثل فيه نشأته وصيرورته كما يراه واقعاً ملموساً في حياته ، ويشهده بعينه وحسّه مكرراً معاداً ، ثم هو لا ينتبه إلى دلالته ، ولا يتخذ منه مصداقاً لوعد الله ببعثه ونشوره ، بعد موته ودثوره . .

أولم يرَ الإنسان أنَّ الله تعالى خلقه من نطفةٍ هي عبارة عن منيّ يُمنى ؛ ثم جعله من بعد هذا الخلق بشراً سويّاً ، بأن أخرجه من بطن أمه ، مكتمل الخلقة والهيئة والجسم ، مودعاً فيه الروح

---

(١) يس : ٧٧ ـ ٨٣ .

والنفس ؟ ! . . أولم يَرَ الإنسان أنَّ خالقه يقلّبه من طورٍ إلى طـورٍ حتى يصير في تمام العقل والإدراك والشعور ؟ فلمـاذا إذن يتنكر لهذا الخالق العظيم ، ويخاصم اللَّهَ ربَّهُ وهو يستعمل عقله القاصر ، مدلياً بنكرانه للبعث ، وقـد كان حـريّاً بـه وأجـدر ، أن يثني عـلى خـالقـه اللطيف العليم بما أنعم عليه ؟ ! . .

أما مخاصمته فتظهر بما يضربُ من الأمثال البسيـطة ، وبما يقـدِّم من الحجج الواهية ، والبراهين الهزيلة ، بعـد أن نسي خلقه وإنشـاءه من تلك النطفة ، فيقول : من يحيي هذه العظام بعد أن تصبـح باليـة رميماً ؟ . .

ويروى أن أُبيّ بن خَلَف أخذ عظماً بيده ، ثم اقترب من رسول الله (ﷺ) وهو على الصفا يدعـو الناس للدخـول في الإسلام ، وفتَّ ذلك العظم في كفه ثم نفخه وقال : يا محمد ! أيبعث اللَّهُ هذا بعـدما أرمّ ؟ فأجابـه الرسـول الحكيم (ﷺ) على الفـور : نعم ، يبعثه اللَّهُ وإياك ، ثم يدخلك اللَّهُ النار » . فأنزل اللَّهُ تعالى عـلى النبي (ﷺ) هذه الآيات المبينات التي تردُّ على ذلك الكافر ، وعـلى جميع الكـافرين والملحدين من أمثاله ، وذلك بقوله تعـالى : ﴿ قل (يـا محمد) يحييهـا الذي أنشأها أولَ مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ .

وإلَّا فمن يحييها غيرُ الـذي أنشأهـا أول مرة ؟ فهـو ـ سبحانـه ـ عليم بكل مخلوقاته ، وعلى أيـة صورة أو شكـل يكون كـل مخلوق قبل أن يخلقـه ، وبعد أن يخلقـه ، وكيف يكون عنـدما يعيـده للحساب ، بعد الممات . .

ويعطينا الخـالق العظيم الأمثـالَ الحسية ، والآيـات الدالـة على

قدرته في الخلق ، ومنها هذا الشجر الأخضر الذي أودع فيه ناراً ، نحن نوقد منه ، ونصنع الحرارة التي نستخدمها في أمور كثيرة من لوازم حياتنا . .

وقد يكون عجيباً أن نجد تولد النار الحامية من الشجر الأخضر الرطب ؛ إلَّا أنه لا ينبغي أن نمرَّ على هذه العجيبة مروراً عابراً ، بمشاهدة أولية ساذجة ، لأنها تتضمن الحقيقة التي يغفل عنها كثير من الناس . فهذا الشجر الأخضر ، الريان بالماء ، قد يحتك بعضه ببعض فيولّد ناراً ؛ ثم عندما يجفّ يصير هو وقود النار ، بعد اللدونة والاخضرار . . والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي يختزنها الشجر تثبت أنها ناتجة عن الطاقة الشمسية، التي يمتصها ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر الخضرة، تلك الطاقة هي التي تولد النار عند الاحتكاك، كما تولد النار عند الاحتراق. . فالعجيبة تكمن هنا إذن ، أي في احتواء الشجر لطاقة الشمس ؛ والخالقُ هو الذي أودع الشجر خصائصه ، ومنها هذه الخاصية في احتواء الطاقة ، غير أننا من حيث لا نرى الأشياء بالعين المفتوحة الثاقبة ولا نتدبرها بالعقل الواعي المدرك ، نبقى بعيدين عن اكتشاف أسرارها الغريبة ، فلا تدلنا على مبدع الوجود . . ولو تدبرتها عقولنا ، وفتحت لها قلوبنا ، لباحت لنا بأسرارها ، ولعشنا معها في عبادة دائمة ، وتسبيح مستديم لخالقنا وخالقها العظيم .

٧ ـ حقيقة البعث تصدم الكافرين

يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ

جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوۡمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿٥٥﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ
فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا
ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا
مُبۡطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصۡبِرۡ
إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (١) .

يمرُّ الإنسان ، أثناء رحلة العمر ، بأطوار مختلفة ، تبدأ عند تكوين الجنين ، وتنتهي عند حفرة القبر . وهذه الأطوار التي يتقلَّب فيها الإنسان كفيلة ، لو تفكَّر بها وقدَّرها حق تقديرها ، بأن تجعله يوقن بلقاء ربه يوم الحساب ، حيث يجد الكافرون أن البعث الذي كذبوا به في الدنيا ، هو حقيقة راهنة ، فيحاولون أن يعتذروا عن تكذيبهم ولكن لا تقبل منهم أعذارهم . . .

ولكن قبل الولوج إلى دار الآخرة ، كيف يكون خلق الإنسان من بدايته إلى نهايته ؟

يقول الله تعالى بأنه خلقنا من ضعف ، وليس ضعافاً ، ولا في حالة ضعف . وإنما كان الخلق من ضعف في مادتنا الأولى التي صيغ

---

(١) الروم : ٥٤ ـ ٦٠ .

منها كياننا . إنه ضعف البنية التي ينشأ منها الجنين ، ثم يكون الضعف في الجنين ، ثم في الطفل والصبي حتى يصل الإنسان إلى سن الفتوة . ففي هذه المرحلة ، جعل له الله تعالى ، من بعد الضعف قوة : قوة في الجسد ، وقوة في العزم ، وقوة في التفكير ، وقوة في الشعور ، وقوة في الإرادة . . . إلى آخره . . ثم جعل من بعد هذه القوة ضعفاً ، حين يصير الإنسان إلى طور الكهولة والشيخوخة ، ويُردُّ إلى أرذل العمر ، حيث ينحدر به الضعف إلى عهد الطفولة بكل أطوارها ، وقد يصاحبه انحدار نفسي ناشىء عن ضعف الإرادة حتى ليهفو الشيخ أحياناً كما يهفو الطفل ، ولا يجد من إرادته عاصماً . . فهذا الخلق ، بما فيه من ضعف وقوة وضعف ، إنما مردُّهُ إلى الله العلي القدير ، العليم بما يخلق ، وبما يقدر للخلق وفقاً لمقتضيات الحكمة الإلهية . .

وبعدما تقرر الآيات القرآنية أن أمر الخلق يعود إلى الله تعالى وحده ، تنتقل إلى بيان يوم البعث ، حيث يحيي اللَّهُ تعالى الناس للحساب ، فإذا قامت الساعة وأدرك المجرمون أنهم كانوا حقّاً أمواتاً ، ذهلوا وامتنعوا عن الإقرار بأنهم محشورون في يوم القيامة ، فيقولون مقسمين : ما لبثنا في قبورنا إلَّا ساعة . كذلك يكون كذبهم وإفكهم ، إذ لو نظروا فيما حولهم لوجدوا أن كلَّ شيء مختلف عما عرفوه في الحياة الدنيا ، ولا يمكن أن يحصل مثل هذا الاختلاف ، وأن يطرأ كل هذا التغيير في ساعة ، مما يدلُّ على أنهم يتصرَّفون تصرُّفَ الجهل للحق في الدارين . . ذلك أمر المجرمين المكذبين بيوم البعث . أما أهل العلم والإيمان فهم يتصرفون على خلاف أولئك تماماً . فهم ، قبل كل شيء ، قد آتاهم العلم بما انتصب لهم من الأدلة الموجبة على

حقيقة وجود الله تعالى ، فنظروا فيها وتبصَّروا ، فحصل لهم العلم ، ثم اقترن هذا العلم بالإيمان الذي ملأ قلوبهم - إذ صدَّقوا بآيات الله ، وبما آتاهم رسوله الكريم ، فكان لذلك تصديقهم بيوم البعث - فلما حلَّ هذا اليوم قالوا للمنكرين الكافرين : لا ، أنتم لم تموتوا منذ ساعة كما تتوهمون ، بل لقد لبثتم في قبوركم ما هو مقدر لكم في كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ ، وبقيتم أمواتاً إلى يوم البعث . فهذا هو يوم البعث . ولكنكم كنتم في الحياة الدنيا لا تعلمون أنه واقع فعلاً ، بل لقد أبيتم الإقرار به ، وبحدوثه حقّاً مصدَّقاً . . وها أنتم تجدونه حقّاً كما وعدكم ربكم ، وتعلمونه الآنَ علم اليقين ، فماذا تقولون بعد هذا الحدث الذي أنتم فيه ؟ اليومَ لا ينفع الذين ظلموا أنفسهم - بما أنكروا من الحق - معاذير يبدونها ، ولا هم مُعاتبون لعدم اتباعهم الحق ، لأنَّ المجال كان مفتوحاً أمامهم في الحياة الدنيا لكي يحاسبوا أنفسهم ويعودوا عن غيّهم . أما اليوم فيوم الدينونة ، وهو اليوم الذي يحاسبُ فيه اللَّهُ تعالى عباده على ما أَتَوْهُ في دنياهم ، فلا حاجة إذن للعتاب ، أو لتقديم الأعذار . . .

أما لماذا عدم قبول الأعذار ، وعدم الاستعتاب ، فذلك لأن الله - سبحانه وتعالى - قد أنزل القرآن الكريم وضربَ فيه للناس من كل مثل ، وقصَّ فيه من كل القصص ، ليجتنب الناسُ الكفر والعناد ، وليؤمنوا بآيات الله . إلَّا أنهم لقسوة قلوبهم ، ونفور أسماعهم عن حديث الآخرة ، لم يعبأوا بالأمثال والعظات التي امتلأَ بها كتابُ الله المجيد ، ولم يُقروا بدعوة الرسول (ﷺ) لهم إلى التوحيد والإيمان ، بل ضربوا عرض الحائط بكل ذلك ، وانصرفوا عن القرآن وما قدَّم من أمثالٍ انصرافاً كاملاً ، فحق عليهم العذاب ،

بما كانوا به لأنفسهم ظالمين . .

وبعد هذا البيان لأحوال المجرمين ، والمؤمنين ، يخاطب ربُّ العزة والجلال نبيَّهُ محمداً (ﷺ) بقوله تعالى : ﴿ ولئن جئتهم بآية ﴾ أي بقول الله الذي فيه الحجة الدامغة ، أو بالتفسير الذي فيه الصدق والاستقامة ، أو حتى لو جئتهم يا محمد بمعجزة باهرة ، فهم لن يصدقوك و﴿ ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ ، وهذا دليلٌ على شدة عنادهم وتكذيبهم بالآيات القرآنية ، لفرط كفرهم وجهالتهم ، حتى صار ديدنهم التكذيب والاستهزاء ، بحيث صدئَت قلوبهم على الجهل والعناد ، ولم تنشرح صدورهم لقول الحق ، حتى طبع اللَّهُ تعالى على قلوبهم فلم يفقهوا ، ولم ينفع معهم بشير أو نذير . . ولذا يخاطبُ اللَّهُ تعالى رسولَهُ الكريمَ داعياً إياه إلى الصبر . « فاصبر » يا محمد على أذى هؤلاء الكفار ، وإصرارهم على كفرهم ؛ فقد وعدهم اللَّهُ تعالى بالعذاب الأليم ، ووعدك بالنصر المبين . وإن وعد الله حق ثابت ، مؤكد ومحقق ، ولئن عاند المعاندون ، وكابر المستكبرون . . فلا يستفزَّنك يا محمد هؤلاء ﴿الذين لا يوقنون﴾ يقيناً قاطعاً ، ولا يصدقون تصديقاً جازماً بما أنزل في القرآن ، وبما تبيّنه لهم وهو أن الساعة ، أي يوم القيامة ، آتيةٌ لا ريب فيها ، وأنَّ اللَّهَ يبعث من في القبور . .

٨ ـ حالة الكافرين يوم البعث

يقول تبارك وتعالى : فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ (١) .

كلُّ نفس بما كسبت رهينة . هذه هي القاعدة الإلهية التي لا تحول ولا تزول . فمن أطاعَ الله تعالى واتبع هداه كان ثوابه في الآخرة بأن يوفيهُ ربُّهُ جزاء عمله ، فيدخله جنات عرضها السماوات والأرض ؛ ومن أعرض عن ذكر الله تعالى ، وعصى أوامره ، كان جزاؤه عذاباً شديداً ، فيدخله جهنم خالداً فيها أبداً . .

إذن فمن اتبع هدى الله فلا يضل ولا يشقى . والضلال دائماً يلازمه الشقاء ، لأنَّ هذا الشقاء هو ثمرة ذلك الضلال ؛ فكم يَبعُدُ الإنسان ، باتباع هدى الله ، عن التعاسة والقلق ، وعن الحيرة والتهور ، وعن عدم الاستقرار والضياع ؟! فهدى الله تعالى هو النور الذي يشرح الصدور ، ويضيء النفوس ، ويريح القلوب ، واتباعه واجب مقدس على بني البشر ، حيث يلهج المؤمن دائماً بذكر الله تعالى . أما من أعرض عن ذكر الله الواحد الديان فإن له معيشة ضنكاً من التعب والشقاء والألم ؛ ذلك أن الحياة المقطوعة الصلة بالله وبرحمته الواسعة كلها عذاب مهما يكن فيها من سعة وملذات . فالضنك حالٌّ ، لا محالة ، بالانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه . بل هو ضنك الحيرة والقلق والشك ، وضنك الحرص والحذر : الحرص على ما في اليد ، والحذر من الفوت . وهو أيضاً الجري وراء بارق المطامع ، والحسرة على كل ما يفوت . فإن القلب لا يشعر

---

(١) طه: ١٢٤ - ١٢٦.

بطمأنينـة الاستقرار إلا في رحـاب الله ، ولا يحس راحة الثقـة إلا وهو متمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصـام لها . فـذكر الله ، إذن ، فيـه السعة والاطمئنان، والإعراض عن ذكر الله فيه الشقاء والبـلاء . وعن ابن عباس قال : « ضمن الله سبحانه لمن قرأ القرآن وعمل بما فيـه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة » ؛ فقراءة القرآن ، والعمل بما فيه ، أحق الذكر لله تعالى ، لأن هـذا القرآن هـدى ورحمة للعـالمين . فمن قـرأ القرآن ، وتـدبَّره ، هـداه اللَّهُ تعالى فـلا يضـل بعـدهـا ولا يشقى . ومن أعـرض عن ذكر الله ، وقـراءة قرآنـه والتبصُّر بمـا فيه ، أشقاه الله تعالى ، وحشره يوم القيامة أعمى البصـر والبصيرة ، وفـاقد الحجـة بسبب إعراضـه عن ذكر ربـه . فإن سـأل ربَّهُ يـومئذٍ : ربي لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت في الدنيا بصيـراً ؟ جاءه الجـواب الحق : قد قضينا عليك بالعمى لأنك أعرضت في الدنيا عن آياتنا التي تدلك على الهدى وتبعدك عن الضـلال ولم يُفِدْك هـذا البصر ونسيت الـذي أنعم عليك به ؛ فكذلك اليوم تُنسى ، وحقَّ عليك أن تُحـرَم في الآخرة من رحمتنا ، فتصير إلى عذاب لا ينتهي ، وحكم عليك بـالنسيان ، قـابعاً بالعذاب أبداً . .

٩ ـ حال المجرمين وحديثهم يوم البعث

يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ (١) .

(١) طه : ١٠٢ ـ ١٠٤ .

تصوّر لنا هذه الآيات الشريفات حالَ المعرضين عن ذكر الله ، الكافرين بما أنزل من قرآن مجيد ، المعارضين لرسله وآياته ، وكيف يتحدَّثون يوم الحشر . . . فيما بينهم . ويسمَّيهم الذكر الحكيم بالمجرمين ، وهو يرسم لنا مشهداً يبرزون فيه عند قيام الساعة ، وقد حملوا جرائمهم وأثقالها ـ ويا لسوئها من أحمال ـ على ظهورهم كما يحمل المسافر متاعه في سفره . .

ثم يتراءى المشهد وقد نفخ في الصُّورِ ، ثم كان قيام الموتى من قبورهم ، فإذا بأولئك المجرمين محشورين وحدهم ، وقد بدت وجوههم بلون أزرق لشدة الكدر والغم والخوف في نفوسهم ، مما يدلُّ على التشويه الذي يحلُّ بهم من أثر الصدمة التي تعتريهم . . وإنهم لفي هذه الحال يتحدثون فيما بينهم بحديث خافت ، لا يجرؤ ون على الجهر بالصوت من الرعب والهول ، ومن الرهبة المخيمة في ساعة الحشر . وبم يتخافتون في تلك الساعة يا ترى ؟ لقد أغشى الله تعالى على بصائرهم ، فتصوَّرت لهم حياتهم الدنيا ، وشغلت أذهانهم بالحديث عنها ، فيتساءلون عن المدة التي قضوها فيها ؛ ولكنهم يتيهون في عمى بصائرهم ، فيحاولون أن يتناسَوْا كم دام لبثهم في تلك الحياة ، حتى ليحسُّوا بأنها قصيرة لا تزيد على عشرةٍ من الأيام . أو كأنهم يريدون في أعماقهم أن يجعلوا مدة حياتهم قليلة جدّاً حتى يكون عذابهم خفيفاً ، إذ كلما أحسُّوا بطول بقائهم في الدنيا كلما كانت جرائمهم أكبر ، وكان حسابهم عليها أشدّ . . أما أوفرهم عقلاً وأرجحهم رأياً ، فيتمنَّى ألَّا تكون الحياة الدنيا أكثر من يوم واحد ، لأنه يطمع بأقل ما يمكن من العذاب . . هكذا كانوا يتهامسون فيما بينهم ، وهم يظنون أن لا أحدَ يعلم بما يقولون . ولكنَّ اللَّهَ ـ

سبحانه ـ يبيّن أنه أعلم بما يقولون ، لأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض والسماء ، وهو أعلم بما تخفي الصدور . . .

ومهما يكن حديث المجرمين يوم الحشر ، فإن الأعمار تنطوي ، وتنقضي العهود التي يعيشها أبناء البشر على الأرض ، حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الذي يتضاءل فيه متاع الدنيا وهمومها ، وتبدو تلك العهود فترة وجيزة من الزمان ، وشيئاً ضئيلاً في التقدير . إذ ما قيمة أعمارهم كلها ، وما أهمية حياتهم بأسرها ، مهما حفلت به من أنواع الأطايب واللذائذ ، ومهما امتلأت به من المسرة والسعادة ؛ ما قيمة ذلك كله أمام الآماد التي لا نهاية لها ، والتي تنتظرهم بعد الحشر بامتدادٍ لا انقطاع له ، وهم خالدون إما في دار النعيم أو في العذاب المهين .

١٠ ـ مشهد الجموع وهي خارجة من القبور :

يقول الله تعالى :

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ (١) .

كان رسولُ الله (ﷺ) يتلقّى الوحيَ ، ويوصله إلى الناس آيات مبينات تهدي للتي هي أقوم . ولكنَّ المشركين والمعاندين أبوا الانصياع لدعوة الحق ، ولجّوا في عتوهم ونفورهم وسفههم ؛ فنزل الأمر الإلهي الذي يدعو النبيَّ (ﷺ) للإعراض عنهم ، ولتركهم من

---

(١) القمر : ٦ ـ ٨ .

غير أن يقابلهم على سفههم ، فيوم الحشر ينتظرهم ، وسـوف يلاقـون فيه نتائج سوء فعالهم

وإذا نحن تأمَّلنا في قـول الله تعالى لتـراءى لنا ذلـك المشهد من مشاهد يوم القيامة ، بسرعة حدوثه ، وبشدة هوله ، وكأنه في سـرعته وهـوله متحـرك مكتمل السمـات والحـركـات . . فمـا أن يـأتي أمـر الله تعالى ، يوم يـدعو الـداعي إلى القيامـة والحساب ، وهـو الحساب الـذي أنكرتـه النفـوس الضّـالـة وكـرهتـه ، حتى تخـرج الجمـوع من الأجـداث كأنهم جـراد منتشر لكثـرة أعـدادهم التي لا تحصى ، والتي يساعد على تصورها مشهد الجراد المعهود ، وهـو يكسو الفضـاء الذي يحوم فيه ؛ وتلك الجموع التي تشتمل عـلى كل بني البشـر الذين مـرّوا على الأرض ، وفق تقديرنا ومعرفتنا ، تكون أبصارها خاشعة من الذل والهول ، وهي تسرع في سيرها نحو الداعي الذي يدعـوهم للحساب الـذي يخشونـه ، ويخافـون على مصيـرهم منه . . وفي ذلـك الاجتماع الكبير ، وأثناء ذلك الإسراع نحو الداعي ، يقول الكافرون : ﴿ هذا يوم عسر ﴾ . ومن يقـول ذلك غـير المكروب المجهـود ، الذي يخـرج ليواجه الأمر الصعب المرعب !! . .

ذلك هو يوم الحشر الذي كانوا به يكذبون ، فمن آمن واهتـدى وقـاه ربُّه ـ عـزَّ وجلَّ ـ هـولَ ذلك اليـوم العـظيم ، ومن كفـر وغـوى أذاقـه اللَّهُ تعالى عـذاب ذلك اليـوم ومـا يعقبـه من جحيم . . فليعلم النـاسُ أن يوم البعث حقٌّ مثلما أنهم ينـطقون ، وأنَّ السـاعـة آتيـة لا ريب فيها ، وأن اللَّهَ يبعث من في القبور .

الموت ويوم القيامة

كثير من الناس ، ومن أهل الكتاب بالذات ، يرون أن الموت دخيل على البشرية ، لأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان للحياة وأراد له الخلود ، ولكنَّ الإنسان ارتكب الخطيئة ، فكان الموتُ عقوبة له على خطيئته ، بعد أن يسلك رحلة عذاب الأرض تكفيراً عن الخطيئة . . والحق أن الموت ليس دخيلاً على بني آدم ، وأن الإنسان لم يخلق للبقاء بدليل قوله تعالى في محكم التنزيل : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (١) .

فالنص القرآني يصرّح بأن الله سبحانه وتعالى له الملك مطلقاً ؛ وأن له السلطان والقدرة والتصرف . . فلا جدال في ذلك عند أحد يؤمن بالله سبحانه وتعالى وكتبه ورسله ، لأنه تعالى على كل شيء قدير ، وقد تفرَّد بالخلق ، كما تفرَّد بالملك ، يفعل ما يشاء ، كيفما

(١) تبارك : ١ ـ ٢ .

يشاء بما فيه الحكمة ومصلحة المخلوقات .

وقد جعل ، بمقتضى حكمته السنية ، الموتَ سابقاً على الحياة ، كما نستدلُّ من الآية الكريمة ؛ أي أنهُ ما خلق الإنسان إلَّا ليموت ، ثم قضى سبحانه وتعالى بأن يحيا الإنسان على هذه الأرض ، ثم يموت فيها ، ليبعث حيّاً يوم القيامة من جديد ، ويخلد إمَّا في الجنة لطاعته وامتثاله لأوامر الله تعالى ، وإما في النار لمعصيته وكفره بخالقه . فحياة الخلود لا تكون إذن على هذه الأرض ، بل في الآخرة . أما قضاؤه سبحانه وتعالى بأن يحيا بنو آدم على الأرض فهو لغاية أساسية تتلخص باختيار الإنسان لأعماله ، فكانت هذه الحياة ابتلاءً فعليّاً ، يمتحن فيه الخالق عباده ليمحّص الطائعين ويمتحن العاصين ، وتكون العقبى الحسنة لمن أطاع وآمن ، والعاقبة السيئة لمن عصى وكفر .

والقرآن الكريم عندما يقرّر حقيقة الموت والحياة على النحو المذكور يثبت الحكم الإلَهي ، والتقدير الربانيّ الذي لا تبديل فيه ، إذ لا تبديل لكلمات الله عز وعلا ؛ بل إنه يبيّن كذلك سنن الله تعالى في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . فلا يكون ـ إذن ـ لخطيئة ابن آدم، ولا لأي شيء يصدر عنه من خير أو شر ، أي صلة بكونه سبباً للموت ؛ لأنَّ هذا الموت هو سنّة من سنن الله تعالى في خلقه ، وسنن الله تعالى لا دخل فيها للإنسان ، ولا يؤثر عمله في تبديلها أو تغييرها . . أما ارتكاب المعاصي ، أو الإتيان بالطاعات ، فهما متلازمان مع وجود بني آدم على هذه الأرض ، وملازمان لحياتهم الدنيا ، ولكن على ضوء المعاصي والطاعات ، وهي تشكل جميع أعمال الإنسان التي تقرر مصيره بعد الموت، أي خلوده في الجنة أو في النار،

ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ الذي خلق الموتَ والحياةَ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ .

فعندما خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ، ونفخ فيه نسمة الحياة ، إنما أراد له الحياة الأولى في دار الدنيا إلى أجل مسمّىً ، ثم يتوفاه بعد العاجلة ، لتكون له حياة أبدية في الآخرة .

وبما أن الموت هو الفاصل بين دار البلاء والابتلاء ، ودار الأبدية والخلود ، فإن المسلم المؤمن يشتاق إليه ، وإن كان هو أعظم بلاء يصيب بني آدم، وإن شوق المؤمن إلى الموت، ليس في حدِّ ذاته هرباً من متاعب الحياة ، ولا طمعاً بملذات الآخرة ، بقدر ما هو خوفٌ من معصية الله ، وشوقٌ لنيل رضاه على طاعته عند لقائه . والخوف من معصية الله سبحانه ناجم عن تكوين الإنسان وطبيعته ، والقرآن لكريم يشير إلى هذا التكوين ، وهذه الطبيعة بقوله تعالى : ﴿ وخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفَاً ﴾ وقوله : ﴿ إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ ولذا نرى أن حُبَّ الموت الذي نذكره يبقى منطوياً تحت مفهوم الدعاء المأثور : « اللهم اجعل الموت راحة لي من كل شر ، والحياة زيادة لي في كل خير » . وأيضاً في إطار الدعاء : « اللهم أحيني ما دامت الحياة خيراً لي ، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي ». وكما يفرح المسلم المؤمن بالموت الذي يخلصه من دار البلاء فكذلك هو يستبشر بقدوم يوم القيامة ، لأن القيامة هي انتصار على الموت وعودة بالإنسان إلى حياة الخلود . .

فالموت إذن حق مطلوب يخاف منه الإنسان . ولكن الإنسان الذي يزعج الخوف قلبه هو الإنسان الجاهل العاق . أما المؤمن البار

فيفرح به كما يفرح بالحياة . والمفاهيم الإسلامية أسقطت الخوف من الموت . فلم يعد المجاهدون في سبيل الله يهابونه إطلاقاً ، ولا يخافون أعراضه وحالاته كالمرض أو كمؤامرات الأشرار واعتداءاتهم على حياتهم ؛ ولذا فإن الخوف من الموت ، وفق تلك المفاهيم ، يقتصر على من يخشى مصيره بعد الموت ، بسبب الخطيئة أو الإثم أو العدوان أو الظلم أو أي سبب آخر يغضب الله عز وجل . .

ولم يكن أحد من البشر ليحلم بالخلود على وجه هذه الأرض ، وإذا وجد من يراوده حلم الخلود في وقت من الأوقات ، كان هذا الحلم من تزيين الشيطان له ، لأنَّ الخالق جعل في تكوين طبيعتنا البشرية الفناء في دار الدنيا بعد أن رسم لنا المنهج الذي يوصلنا إلى الخلود بعد هذا الفناء . .

من هنا نريد أن نركّز على قضية هامة ، وهي أن آدم (ع) قد خلق ليعيش في الأرض حياة دنيوية وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ والخلافة تكون في المكان الذي يستخلف فيه ، لا في مكان آخر . . وهذا العيش على الأرض هو قدر الله سبحانه وتعالى الذي أراده لآدم وذريته . ولو أن آدم خلق في جنة الخلد ، لا ليعيش على الأرض ، لما وجب أن تكون هنالك قيامة ، ولا حساب وثواب وعقاب ، ولا خطيئة وتوبة ، ولا إيمان وكفر . . .

وبما أنَّ آدم لم يكن في جنة للخلود، فإنَّ إبليس اللعين استطاع أن يغويَهُ بالحلم الجميل ، حلم الخلود ، يقول الله سبحانه وتعالى :

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ

﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (١) .

وكـان على آدم (ع) أن يتنبَّـه إلى أن الشيطان عـدوه كما أخبره رب العالمين : ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ (٢). فقـد كـان إبليس يـريـد الانتقام من آدم . فوسوس لـه ، وأغراه بـالخلود . وفي لحظة من الضعف البشـري نسي آدم ما علَّمه ربُّـهُ وما نبهـه إليه من عـداوة إبليس له ، وفي لحـظة من غياب التفكير السليم عن الإنسـان ، سها آدم عن كـذب إبليس ، إذ لـو كان يستـطيع منـح الخلود لمنحه لنفسـه ، ولما كـان ليدلَّ عليـه آدم أبداً ، الذي اعتبره عدوَّه منذ ساعة خلقه . .

وفي مثل هذه اللحظات من الضعف وغياب التفكير السليم يقع الإنسـان في المعصيـة ، كـما فعـل آدم بـاستجـابتـه لإغـواء الشيـطان ووسوسته ، فعصى ربـه وغوى ، ولكنـه ما لبث هـو وزوجه أن نـدما سريعاً على هذه المعصية فتابـا إلى ربهما ، وتضـرَّعا إليـه بطلب العفـو والمغفـرة . لقولـه تعالى : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (٣) .

واللَّهُ الغفور الرحيم ، استجاب سبحانه لتضرعهـما ، فغفر لهـما

---

(١) طه : ١٢٠ .

(٢) طه : ١١٧ ـ ١١٩ .

(٣) الأعراف : ٢٣ .

تلك المعصية ، ثم اجتبى آدم وانتدبه للنبوة بصريح قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (١) ؛ فزالت بذلك عن آدم عليه السلام أعراض المعصية ونشط للطاعة وللعمل بما يرضي الخالق عزَّ وجلَّ .

فالله تعالى غفور لمن تاب وأناب ، وقد كانت معصية آدم قبل انتدابه للنبوة ، امتحاناً له خرج منه فائزاً مرضيّاً ، ليسلك سبيل عمارة الأرض هو وذريته من بعده ، ولتكون في هذه الذرية أقوام معصومة عن الخطيئة ، مثل الأنبياء ، وأقوام مؤمنة قد ترتكب المعصية وتطلب التوبة والغفران ، وأقوام كافرة بالله تعالى ، لا ترى هدىً في دنياها ، بل تقبع في ظلمات الجهل حتى يحلَّ يوم القيامة وتحاسب كل نفس على ما كسبت في دنياها . فالسبيل أمام الإنسان هو البحث عن الحق حتى يهتدي إليه . وكثير من الأنبياء عاشوا تجربة هذا البحث قبل اصطفائهم . فهذا سيدنا محمد (ﷺ) ، الذي اختاره الله تعالى خاتماً للنبيين ، كان يجد من حوله ، ديانات عديدة كاليهودية والنصرانية والصابئة والدهرية والوثنية . . . . وكان أتباع كل ديانة يقولون إنهم على الحق . . ولذلك ظل يبحث وينقب حتى هداه الله تعالى بقوله عز وجل : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (٢) .

ولكن كيف كانت تلك الهداية ، وكيف تنزَّل عليه الوحي ؟

لقد ترك (ﷺ) أهل تلك الديانات وشأنهم ، لأنه لم يكن مكلفاً ـ بعد ـ بأمر الله تعالى . إلا أنه كان مثالاً رائعاً للإنسان الكامل

(١) طه : ١٢٢ .

(٢) الضحى : ٧ .

في الخلق والأمانة وحسن السلوك وسائر الصفات الإنسانية ، كما كان مثالاً رائعاً للإنسان العاقل الباحث عن الحق ، وهداية الخالق ، فكان يعيش في غار حرّاء يتنسك ويتعبّدُ لله العلي القدير ، وينظر ويتفكر في ملكوت السماوات والأرض ، وفي أسرار هذا الكون وما فيه من مخلوقات . . حتى هداه ربه إلى الحق ، وانتدبه للأمر الجلل ، ولذلك قال سبحانه وتعالى في خطابه له : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أي وجدك ضالاً عن الشريعة الحقة فهداك إليها .

إذن فالثابت من النصوص القرآنية الكريمة أن أبانا آدم ـ عليه السلام ـ قد خلق ليكون وذريته خليفة في الأرض ، وليعمرها . والخلافة عادة لا تكون إلَّا في المكان الذي يستخلف فيه ، لا في مكانٍ آخر ، وإلَّا فما كان لها لزوم أو شأن .

والأدلة على أن آدم عليه السلام لم يخلق ليعيش في جنة الخلد كثيرة ، منها : ـ أولاً وبالذات ـ طمعُ آدم عليه السلام بالخلود الذي أطمعه فيه إبليسُ اللعين ، وهذا يعني أن آدم كان يعلم في قرارة نفسه أن لحياته نهايةً مختومةً بالموت . ومنها أنَّ الجنة في الآخرة هي التي جعلها اللَّهُ سبحانه وتعالى الجائزة الكبرى للفائزين بطاعته عز وجلَّ ، والحائزين على رضاه ، بعد اجتيازهم للاختبار الأرضي في الفعل وعدم الفعل ، أي في فعل طاعة الله تعالى ، وعدم فعل معصيته . وهذه الجنة في الآخرة هي ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما حدّث عنها الرسول الأمين (ﷺ) أما الجنة التي كان يعيش فيها آدم عليه السلام ، فإنه لم يكن فيها ما في الجنات من الحور العين والولدان المخلدين التي وعد الله بها المتقين في الآخرة ، بل كانت تجربة عملية يريد الله تعالى بها أن يبين لآدم وذريته كيف يكون إغواء

الشيطان ، وكيف تكون نتيجته ، وكيف أن الغفلة تدخل إغواء الشيطان إلى النفس البشرية ، وكيف أن الشيطان عدو للإنسان ، وكيف أنه كاذب في وعوده التي يمني بها الإنسان ليقوده إلى معصية الله عز وجل .

والله تعالى لم يطلق في القرآن الكريم لفظ الجنة على جنات الآخرة فقط . ولكنه أطلقه على كل مكان ظليل تتوافر فيه المياه والثمار والحياة الطيبة ، أو على كل مكان يسمى بستاناً . وذلك بقوله سبحانه وتعالى :

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾(١) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(٢)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(٣)

ثم إن آدم عليه السلام لو كان يعيش في جنة الخلد ، فما كان

---

(١) الكهف : ٣٢ .
(٢) سبأ : ١٥ .
(٣) البقرة : ٢٦٦ .

للشيطان أن يوسوس له ويغريه بالخلود ، أي لما كان له من حاجة إلى شجرة لو أكل منها لكان له الخلد ؛ كما أنَّ الشيطان نفسه محرَّم عليه دخول جنة الخلد ، فكيف يدخلها ليغوي آدم وهي محرَّمة عليه ؟ ولو أن الشجرة التي تهب الخلد كانت موجودة فعلاً فلماذا لم يأكل الشيطان منها ، ويحصل بذلك على الخلود ؟ ولو أنه دخل فعلاً جنة الخلد لما كان تضرَّع إلى الله تعالى بألاَّ يميته ، وأن يبقيه إلى يوم الدين . . . ولكن الشيطان كان يعرف أن الشجرة التي دلَّ عليها آدم (ع) لا تعطي الخلد ، ولا تعطي ملكاً لا يبلى . . ولكنه كذب ليغري آدم حتى يعصي الله تعالى ، فيوقعه في المعصية ، كما أوقع هو نفسه فيها ، وليكون له عليه وعلى ذريته سلطان ، إلاَّ عبادَ الله المخلصين . . كما أن القرآن الكريم ذكر أن خلق آدم كان من الطين الذي منه تكوين الأرض فهذا برهان ساطع على أن آدم خلق في جنة على وجه هذه الأرض الطيبة وليس في جنة الخلد ، لقوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1] .

ويمكن لأي إنسان أن يعود إلى القرآن الكريم ويقرأ ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن الجنة في الآخرة ، ليرى أن الوصف مختلف تماماً عن الوصف الذي أورده اللَّهُ سبحانه وتعالى عن الجنة التي كان فيها آدم وزوجه ، فالجنة التي كان يعيش فيها آدم فيها نعيم محدود ، وجنة الآخرة فيها نعيم دائم . وفي هذا أكبر دلالة على أن الجنة التي كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلد أو إحدى جنات الآخرة .

---

(١) طه : ٥٥ .

ـ القيامة عزاء حقيقي لجميع المحبين ـ

لو كان الأمر ينتهي عند الموت ، ولا قيامة بعد الموت ، لكان أحباؤنا الذين فارقونا بالموت قد انتهت صلتنا بهم إلى الأبد . . ولم نعد نأمل بلقائهم ورؤيتهم إطلاقاً . . وهذا يتعب القلب ، ويسبب الفجيعة الكبرى والأسى المؤلم ، ولكن عزاء المحبين هو أنهم سيلاقون أحباءهم بعد القيامة . وفي سيرة الرسول الأعظم (ﷺ) المثال الواضح على هذا العزاء . فقد اسْتُشْهِدَ سعد بن زرارة ـ أحد سادة المدينة المنورة ـ في معركة أحد . فلما عاد الرسول (ﷺ) والمسلمون ، كان الناس في المدينة يبكون قتلاهم بمرارة وأسى . وقد رأى الرسول الرحيم بالمؤمنين أم سعد على تلك الحالة من الفجيعة فقال لها : « أبشري ، وبشري أهليهم يا أم سعد ، إن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعاً » . فقالت أم سعد : « رضينا برسول الله سالماً ، وليس من يبكيهم بعد هذا يا رسول الله » . أي بعد هذا الاطمئنان عليهم . ولكنها عادت فسألت الرسول (ﷺ) أن يدعو لمن خلَّفوا ، فقال (ﷺ) : « اللهم أذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلَّفوا » . فالقيامة تجمع بصورة مرضية جميع المحبين الذين يفرقهم الموت . وبذلك يكون العزاء لبني البشر ، لأنهم يعرفون بأن أحباءهم في انتظارهم إن كانوا على شاكلتهم في فعل الخير والطاعة الذي يؤدي إلى الخلود في جنة النعيم . فكم يجب أن نكون صادقين في إيماننا ، وفي خوفنا من غضب ربنا ، وفي تعاملنا مع الآخرين ، حتى نحرص على لقاء الأحباء وعدم الضياع عنهم بعد القيامة . وكم يجب أن نحاصر هؤلاء الأحباء بالتوجيه والإرشاد

والتوعية والنصح حتى نبعدهم عن المعصية ، فيكون سبيلنا وإياهم واحداً إلى اللقاء الأبدي ، إن شاء الله تعالى .

الإيمان بيوم القيامة يقود الناس إلى حياة فضلى

مما لا شك فيه أن يوم القيامة يحوّل أنظار المؤمنين إلى أمجاد العالم الآخر ، فتتصاغر في أعينهم المتع الزائلة ، والشهوات الفانية في هذه الحياة الدنيا . ومن فرط تفكيرهم في غير المنظور ، يزدرون المحسوسات والمرئيات ، ويصبحون غير عابئين بزخرف هذه الحياة وبهرجها ، لأنها فانية حقّاً .

ولو لم تكن القيامة لتهالك الناس في مسيرة الأرض ، وغرقوا في المتع والملذات ، لاهثين وراء كل رغبة من رغباتهم قائلين : « غداً نموت ولا نعود » . أما الذين يؤمنون بالقيامة ، ويستعدون لها ، فإنهم ينهون أنفسهم عن كل حرام ، ويخافون مقام ربهم ، ويدخلون في صراع داخلي مع شهواتهم وأهوائهم ، ويحملون أنفسهم على الطاعات ، ويعصمونها عن المعاصي .

فحب جنة الخلود يجعل الأبرار يشتاقون إلى شيء أكبر من هذا العالم وأسمى . . وكل ما يحوزونه في العالم المرئي لا يدخل الطمأنينة إلى نفوسهم ، لأن في داخلهم اشتياقاً إلى عطاء الله تعالى الذي يسمو على كل رغبة أرضية .

لذلك نظر المؤمنون الصالحون إلى الأرض كمكان غربة موحشة ، واعتبروا أنفسهم غرباء ، غير مرغوب فيهم في عالم

متخاصم ، متنابذ ، مملوء بالشحناء والبغضاء، فاشتاقوا إلى العالم الآخر الذي كله حبّ ولقاء ومودة ونعيم ، وطهر ونقاء وأمن وسلام . .

يوم القيامة

١ ـ وصف يوم القيامة :

يصف القرآن الكريم يوم القيامة ، وما يكون عليه حالُ الناس في ذلك اليوم العظيم بقوله تعالى : ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾[١] .

فالقارعة إذن اسم ليوم القيامة ؛ وقد سمي به لأنه يقرع القلوب بالفزع والهلع . . والتأكيد على القيامة ، وتكرار اللفظ بشكل استفهام تعجبيّ بقوله سبحانه ﴿ ما القارعة ﴾ هو تعظيم لشأنها واستهجان لإنكار من أنكرها .

وبعد هذا البيان المخيف ليوم القيامة ، ينبّهُ اللَّهُ تعالى رسولَهُ الكريمَ محمداً (ﷺ) بأنه ، مع ذلك ، لا يعرف حقيقة ذلك اليوم ، ولا كُنه وصفه على التفصيل ، وإنما يعلم ذلك على سبيل الإجمال ،

---

(١) القارعة : ١ ـ ٥ .

ولذلك قال له سبحانه : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ بما تكون عليه من أحوال هي فوق تصوّر البشر . . ثم لمَّا هيَّأه ، وهيأ السامعين لمعرفة وصفه ، أخبره عن أحوال الناس في ذلك اليوم ، حيث يكونون كالفراش الكثير ، المنتشر في أرجاء واسعة ، لا يعرف مداها غيرُ الله وحده ، نظراً لما تغطي من مساحات وأبعاد . وأما لماذا وصف الناس بالفراش المبثوث ، فلأنهم يكونون ، يومئذٍ ، ضعافاً ، شديدي الحساسية والرهافة ، نحالَ الأجسام لا يقوون على شيء ؛ فهم إذن كالفراش في ضعفه وقلة قدرته ، يُساقون إلى مصائرهم ، فترى المنكرين يتهافتون على النار ، كتهافت الفراشات على الضوء المحرق . .

وفي ذلك اليوم أيضاً ﴿ تكون الجبال كالعِهن المنفوش ﴾ أي كالصوف المندوف ، بعد أن زالت من مواضعها ، واستحالت مثل السحاب . . وهذه الصورة تتراءى لنا في منظر الغيوم عندما نحلّق فوقها بالطائرة ، إذ نراها تمرُّ تحتنا متراكمة على بعضها البعض كأنما هي جبال قد انتشرت وتجمعت ، حتى صارت على شكل الصوف المندوف الذي تراكم بعضه فوق بعض . . فهلَّا تذكرنا قولَ الله تعالى هذا ، كلما ركبنا الطائرة ، أو رأينا مثل هذا المشهد الدَّال على عظمة الله العلي القدير ؟ ! . .

وفي وصف يوم القيامة أيضاً يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾(1) .

---

(1) المعارج : ٨ ـ ١٠ .

إنه تشبيه للسماء عندما تصير كالزيت المغلي ، أو كالمعادن (مثل الفضة والنحاس) بعد الذوبان .وهذا التشبيه يبيّن للناس التبدُّلات والتغييرات التي تطرأ على ظواهر الكون نتيجة قيام الساعة ، وانتقال الناس من حال إلى حال ، بحيث يتوافق هذا الانتقال مع التغيرات الحاصلة . .

وفي مثل تلك الأوضاع العسيرة على الناس ، لشدة ما يرافقها من أهوال ، لا يقدر أحدٌ منهم أن يحدّث أقربَ الناس إليه ، ولا أنْ يسأله عما يحصل ؛ لأنَّ كل واحد يكون مهتماً بنفسه ، منصرفاً عن غيره انصرافاً كلياً . . لأنه يريد النجاة ، والخلاص من ذلك الجو الرهيب . . وقد اختار التعبير القرآني لفظ ﴿ الحميم ﴾ للتدليل على شدة القرابة من الرحم ، واختصاصه بالمودة والشفقة ، إذ أن تعبير (الحامة) يعني الخاصة . مما يفيد أنَّ الإنسان يومئذٍ لا يكلم أقرب المقربين إليه ، ولا يتجه فكره إلى أي قريب مهما كان عزيزاً عليه . .

ويؤكد القرآن الكريم هذا الوصف ليوم القيامة ، بقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [1] .

فالأرض يوم القيامة تتزلزل ، والجبال تُدكُّ ، وتضطرب اضطراباً شديداً بفعل ذلك الزلزال ، ثم تنسف نسفاً ، وتتفرق عن بعضها وتتفتت ـ رغم ما كانت عليه من صلابة وتماسك ـ حتى تصير

(١) المزمل : ١٤ ـ ١٦ .

مثل كثبان الرمل (أي تلاله) وهي تنهال عن مواضعها . .

وبعد هذا الوصف الهائل ، يخاطب الله سبحانه وتعالى أهل الأرض ، بنوع من التقريع والتوبيخ : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولاً ﴾ هو محمد بن عبداللَّه (ﷺ) ، شاهداً عليكم يوم القيامة بما صدر عنكم من أقوالٍ وأفعال . . وما أرسلناه إلاَّ كما أرسلنا إلى فرعون من قبل رسولنا موسى يدعوه للإيمان . ولكنَّ طاغوت مصر أبى سماع دعوة الحق وعصى ، فأخذناه بالعذاب أخذاً وبيلاً (شديداً ـ لأنَّ كل وبيل ثقيلٌ مهلك) .

٢ ـ وقت الساعة علمه عند الله تعالى :

يقول الله عز وجل :

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١) .

كم يستهتر الكافرون ، وكم يستكبر المستكبرون ، في هذه الدنيا ، بالوعيد الذي حفلت به الكتب السماوية وحذَّرت منه ، عن قيام الساعة ، إذ يقولون دائماً : متى تكون ساعة القيامة ، وكيف يكون حدوثها ؟ ! . .

---

(١) الأعراف : ١٨٧ .

ومثل أهل هذا الزمان ، كان المشركون يسألون النبي (ﷺ) ويلحّون في السؤال قائلين : متى تقع الساعة التي تتحدث عنها يا محمد ؟ وهذا التساؤل هو الذي تبدأ به الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ ؟ فيأتي الجواب :

قل لهم : ﴿ إنما علمها عند ربي ﴾ فهو وحَدَه يعلم وقت حدوثها ، وموعد حلولها ، وليس لأحدٍ من عباده أن يطلع على علمها ، لأنَّ ذلك أدعى لهم إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية ، فالأولى أن ينصرف الاهتمامُ للتهيؤ لها ، والاستعداد لما سيكون بعدها ، من خلال الإيمان والعمل الصالح ، بدلاً من الانشغال بمعرفة وقت حدوثها . وما دام في العمر بقية ، وفي الوقت متَّسع ، فليتأهب الإنسان ، ويستعدَّ لملاقاتها ، بدل أن يضيّع الوقت بالجدل ، الذي لا طائل منه . . فالساعة لا يُجليها لوقتها ولا يظهرها جلية واضحة في ميعادها إلَّا هو سبحانه وتعالى . . وهذا رأفة بالعباد ورحمةٌ لهم ، لأن علمها قد يثقل حمله على أهل السماوات والأرض لعظيم وهول ما يحدث فيها ، من انتثار النجوم ، وتكوير الشمس ، وطيّ السماوات ، ولما لذلك من تأثير على الكوكب الأرضي بكل ما فيه من بحار وجبال وسهول وأودية ، وعمارات ومنشآت . . . وذلك الذي يحدث لا قِبل للعقلاء المدركين على حمل علمه ، ومعرفة دقائقه . . لأنه قد يكون من الهموم التي تنوء بحملها عقولهم ، ومن الأثقال التي ترزح تحت عبئها قلوبهم . . فليكن ما يحدث في تلك الساعة منوطاً بعلم الله ـ جلَّ وعلا ـ وحده ، وليكن وقت حدوثها بعلمه تعالى وحَدَه أيضاً . . ومن الأفضل للعباد وللخلائق أن تأتيهم بغتة ، وبدون معرفة مسبقة لوقتها . وفي كل حالٍ ، إن المشيئة الربانية قد حكمت ألَّا تأتي

الساعة إلاَّ فجأة ، لأنَّ ذلك أجدى للخلق . . فإذا ما ألحوا بالسؤال عليك يا محمد كأنك تعلم الساعة ، فقل لهم ، تأكيداً ، وتكراراً : ﴿ إنما علمها عند الله . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أنَّهُ سبحانه اختصَّ هذا العلم به وحَدَه، نظراً لما فيه من التعب والشقاء، والقلق والارتباك لو علم به الإنسان . . ويكرر القرآن الكريم نفس الموقف الذي كان يلحُّ به الكفار بسؤال النبي (ﷺ) عن القيامة ومتى وقوعها وقيامها ، فيقول تبارك وتعالى :

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾(١) .

فالكفار كانوا يسألون النبي (ﷺ) دائماً عن ساعة القيامة ، فيقولون مستنكرين عليه : لِمَ تُكثر أنت من ذكرها ومن تخويفك لنا بها وأنت تقول أنه ليس لديك علمها ؟ ! . . فَكُفَّ إذن عن ذكرها ، ولا تحدثنا بها ! . .

ويؤكد الوحيُ على النبي (ﷺ) أنه إلى ربك وحده منتهى علمها ، فلا يعلمها غيره . فليعلم ذلك أولئك الكفار ، ولا يلحّون في السؤال عليك . وإنما أنت تكثر من ذكرها لتنذر من يخافها من المؤمنين ، ولتنذر العاصين المستكبرين بأنها واقعة لا محالة ؛ فمن خافَها اتّعظ وعمل فأفلح ؛ ومن لم يؤمن بها كفر وتهاون فخاب ، ولكنَّ العذابَ يكون قد حقَّ عليه بعد إنذاره وعدم اتعاظه . . ولكنَّهم

---

(١) النازعات : ٤٢ ـ ٤٦ .

جميعاً - مؤمنين أو كافرين - سوف يلاقونها ، وسيرونها بأم العين . وعندها سوف يعتقدون أنهم لم يلبثوا في قبورهم إلّا عشيَّةً من يومٍ أو ضحًى يعقب تلك العشية ، لأن انطواء الزمن لا يدخل في حسبانهم وهم يرون قيامَ الساعة . . .

٣ - اقتراب القيامة والناس لاهون

يقول الله تعالى :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

قد خلت قلوبُ الكافرين من الإيمان ورفضوا الحقَّ الذي بلَّغهُ الرسول الحكيم. وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدلُّ على مدى ولوغ المشركين والملحدين في الخبث والإنكار . إذ بَدَل أن يؤمنوا بالقرآن ، ويصدّقوا بنبوة محمد (ﷺ) ، نجدهم يتكاتفون ضدَّ الإسلام ، وقد امتلأت نفوسهم بالحقد ، لما فيها من كفر ووثنية . . ثم تمضي الصورة في التفصيل ، وهي تبين لنا كيف كان كفار مكة يتباحثون ، وقد أسرّوا النجوى فيما بينهم، ليتفقوا على الإثم والعدوان حيث قالوا: وهل محمد إلَّا بشر مثلكم ؟ فكيف تؤمنون لبشرٍ من جنسكم وما جاء به هو السحر بعينه ؟ ! فكيف تؤمنون بالسحر وتنقادون له وفيكم عيون

---

(١) الأنبياء : ١ - ٣ .

أنتم تبصرون بها . أو يقولون : أتصدقون محمداً فتحضرون مجالس السحر وأنتم تشاهدون ذلك بأم العين ؛ ثم تتحدثون به ، وكأنكم تؤمنون بما جاء به محمدٌ ، مع أنكم تعلمون أنه سحر ؟ ! . .

وهذا بيان واضح على عمل أولئك المشركين الذين كانوا ينفّرون الناس من رسول الله (ﷺ) وهم يوهمون أصحاب النفوس الضعيفة ، والعقول الجاهلة بأن محمداً بشر مثلهم ومثل سائر الناس ، وليس نبيّاً ، وبأن ما يسمعون منه لا يعدو كونه سحراً ، وليس تنزيلاً من عند الله ـ عز وجل ـ .

٤ ـ إنذار الناس بالعذاب يوم القيامة :

قال اللّهُ تعالى وهو يخاطبُ رسولَهُ الكريم محمداً (ص) :

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (١) .

يوم القيامة هو اليوم الذي تتحدد فيه مصائر الناس . فأما الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم في هذه الحياة الدنيا ، فيرجون ـ يومئذٍ ـ من ربهم أن يؤخر حسابهم إلى أجل قريب ، ليلبّوا دعوة الإيمان بوحدانية الله تعالى ، وبألوهيته وربوبيته ، وباتباع التعاليم السماوية التي حملها الرسل والأنبياء . ولكن أنّى لهم ذلك ، وقد أنذروا بما

(١) إبراهيم : ٤٤ و ٤٥ .

ينتظرهم في ذلك اليوم العظيم . إذ قد أَمَرَ اللَّهُ تعالى نبيَّه محمداً (ﷺ) بأن ينذر الناسَ (وهو الإنذار نفسه الذي بلَّغه محمد (ﷺ) وما زال يحمله القرآن الكريم) ويخوّفهم من عذاب يوم القيامة الذي يلاقونه من جرّاء ما فعلوه في حياتهم الدنيا من سوء العمل وشرّه . . وقد نتصوّر هولَ ذلك اليوم العظيم ، وحالَ الذين ظلموا أنفسهم وقد صاروا على قاب قوسين أو أدنى من العذاب ، فماذا! يفعلون ، بل وبماذا يأملون ؟ ! . . . إنهم يتوجهون إلى الرب العلي القدير ، رب السماوات والأرض ، خائفين من سوء المصير ، متضرعين ، راجين أن يؤخر حسابهم إلى أجل آخر قريب ، وأن يعيدهم إلى الحياة الدنيا ، وهم مستعدون لتلبية نداء الإيمان ، والعمل بأوامره سبحانه ونواهيه .

وبعد هذا البيان لحال الظالمين ، وتصويرهم بأنهم ماثلون ، شاخصون ، يطلبون تأجيل الحساب والرد إلى دار الدنيا ليعملوا صالحاً ، ينتقل السياق القرآني إلى الردّ عليهم ، من الملأ الأعلى بالتبكيت ، والتأنيب ، والتذكير بما فرط منهم في الدار الأولى ، بقوله تعالى : ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم . وضربنا لكم الأمثال ﴾ ؟ ! . . لقد كان أولئك الظالمون يتوهمون أنه لا زوال لهم من الدنيا ، ويحسبون أنها دائمة لا يطرأ عليها أي انحلال أو انقطاع ، وأنهم خالدون فيها لا يموتون ولا يفنون . بل وكانوا يقسمون على ذلك وهذا من أشدّ العجب حقّاً ، إذ كيف يقدرون ذلك وهم يعلمون أن كثيرين غيرهم من الكافرين والجاحدين ، الذين ظلموا أنفسهم ، قد زالوا ، وحلَّ بهم الفناء ، وهم يسكنون في مساكنهم التي صارت من بعدهم خاوية ، حتى جاؤوا وسكنوا فيها؟

وعند هذا التبكيت ينتهي المشهد ، وندرك أين صاروا ، وما كان بعد دعائهم وخيبة رجائهم .

لقد ضربَ اللّٰهُ تعالى لهم الأمثال عن الأمم الغابرة التي أفناها ، فلم يتعظوا ، ولم يؤمنوا . . ولكنَّ تلك الأمثال تتجدَّد في حياة الناس يوماً بعد يوم . فكم يموت من الناس ، وكم تذهب أجيال ، وكم تأتي من بعدهم أجيال ؟ بل وكم من ظالمين وطغاة يسكنون مساكن الظالمين والطغاة الذين هلكوا من قبلهم ، وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم هم . . ومع ذلك فهم يطغون ، ويتجبرون ويسيرون سيرة الهالكين ، فلا تهزُّ مشاعرهم تلك الآثار الباقية التي يسكنونها ، والتي تتحدث عن تاريخ الهالكين ، وتصوِّر مصائرهم للناظرين ، ثم يؤخذ هؤلاء الطغاة أخْذَ الغابرين ، ويلحقون بهم ، ليكونوا معهم في العذاب مشتركين . .

وهكذا يبيِّن اللّٰهُ تعالى للناس الأمثال التي تهديهم ، ويحذِّرهم من مغبة سوء فعالهم ، وما ينتظرهم من العذاب إن هم لم يرعووا ، ولم يرتدعوا بعدما جاءهم النذير المبين . . فكان حقّاً أن يكونوا يوم القيامة من المعذبين .

٥ ـ لا بديل عن الحساب ولا فداء من العذاب

يقول اللّٰهُ تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[1]

---

(١) الزمر : ٤٧ .

لنتوقف قليلاً ولنتصوّر في أذهاننا ما تحتويه هذه الأرض وما فيها من كنوز وأموال وثروات على شتى أنواعها واختلافها ، سواء في باطنها أو في جوف بحارها أو على سطحها ، ثم لنتصوَّر أن البعض يمتلكون كل ما في هذه الأرض وزيادة عليه ضعفه أو مثله ، ثم تأتي لحظة يكونون مستعدين فيها لتقديم ذلك كله ، عن رضى وطيبة خاطر ، ليسلموا بالمقابل من العذاب ، فكم يكون إذن هول هذا العذاب وشدّته حتى يفتدوا أنفسهم منه ؟ ! . . . هذا حالُ الذين ظلموا يومَ القيامة . فلو أنه كان لهم كل ما في الأرض ، ومثله معه ، لقدموه فدية لأنفسهم عما يرون من سوء العذاب في ذلك اليوم الرهيب . . أما لماذا هذا الفداء الكبير ، وهذه التضحية الجسيمة ، فلأنهم وجدوا ما لم يكونوا يتوقعونه أبداً . إذ حسبوا في الدنيا شيئاً ، ولكن وجدوا يوم القيامة، أنَّ الله ـ سبحانه ـ قد أعدَّ لهم ألوانَ عذابٍ كثيرة لم يكونوا يحتسبونها أبداً . . فيوم القيامة ، إذن ، لا تعويض يجدي ، ولا فداء ينفع ، فإن توهم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والإلحاد بأنهم يمكن أن يفتدوا عذابَهم الذي ينتظرهم بأي شيء ، مهما كان نوعه أو جنسه ، فهم مخطئون ، خاسرون ؛ وطريقُ الخلاص من العذاب يبدأ من هنا ، من هذه الأرض ، بالنوايا الحسنة الطيبة ، وبالأعمال الخيرة الصالحة ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ، ومن كفر فعليها ، وما الله بظلَّامٍ للعباد . .

وروي عن محمد بن المنكدر أنه جزع عند الموت ، فقيل له : « أتجزع ؟ » قال : « أخذتني آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ وهي : ﴿ وبدا لهم سيّئات ما عملوا ﴾ والله لقد أخذتني ، وأخاف أن يبدو لي من الله تعالى ما لم أحتسب» . .

ويؤكد ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الحقيقة التي تواجه الظالمين يوم القيامة في آية أخرى ، بقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١) .

إن أقصى ما يتصوّره الخيال ، على أساس الافتراض ، هو أن يكون للذين كفروا كل ما في الأرض جميعاً . ولكنَّ النصَّ القرآني يفترض لهم ما هو فوق الخيال في عالم الافتراض ، فيفرض أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ، ويصوّرهم يحاولون الافتداء بهذا وذاك ، لينجوا من عذاب يوم القيامة ، ثم يرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار ، وعجزهم عن بلوغ الهدف ، وبقاءهم في العذاب الأليم ، لأنَّ ما قدَّموه ـ ولو افتراضاً ـ لم يقبل منهم . على أن الكافرين الذين تتحدث عنهم هذه الآية المباركة ، هم الظالمون الذين تتحدث عنهم الآية السابقة . . والآيتان المبينتان تعرض عنهم مشاهد كثيرة مجسَّمة ذات مناظر وحركات متواليات . . فمن منظرهم ومعهم ما في الأرض ومثله معه . . إلى منظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به ، فمنظرهم وهم مخيَّبو الطلب ، غيرُ مقبولي الرجاء ، فإلى منظرهم وهم يدخلون النار . . ومنظرهم وهم يحاولون الخروج منها . . ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء . . ثم يُسدل الستار وهم مقيمون هناك خالدين في العذاب الأليم . .

وهذا أروع تمثيل للزوم العذاب لهم ، وأنه لا سبيل إلى النجاة منه . .

---

(١) المائدة : ٣٦ .

وعن النبي (ﷺ) أنه قال : « يقال للكافر يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي بـه ؟ فيقول نعم . فيقـال له : قد سئلت أيسر من ذلك وأقل منه في الدنيا فلم تفعل ؛ فاليوم لا ينفعك أي إنفاق لمالٍ ، أو تضحية بسلطان . ولن يفيدك ما تُقَدِّم من الفداء عن العذاب الذي جلبته لنفسك بسبب كفرك وعنادك » . .

الجنّة

١ ـ بعض صفات الجنة

قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ (٢).

من الخصائص التي تتميز بها حياة الانسان سعيه الدائم إلى رغد العيش والراحة والأمان. ونحن نراه يعمل من أجل ذلك ويكدّ ويجهد

---

(١) محمد: ١٥.

(٢) الرعد: ٣٥.

للحصول على نتائج ما يقوم به ، سواء كانت النتيجة ، روحية أو معنوية أو مادية .

والمثال عن الجانب الروحي الدافع إلى العمل هو ما نجده في إحسان المحسن الذي يبتغي من وراء إحسانه رضوان الله تعالى وقد آثر مساعدة الفقراء والمحتاجين والمحرومين ، وأصحاب الحاجات ، ومدّ يد العون لهم ، دون أن يخطر بباله حبُّ الظهور أو التعالي ..

والمثال عن الجانب المادي ، وأحياناً المعنوي ، هو ما نجده في ركض الإنسان وراء الغنى والجاه والسلطان وأي شيء من المكتسبات المادية والمعنوية ، حتى ولو كان تحقيقها يحصل على حساب الآخرين ، وسلب حقوقهم والقضاء على مصالحهم . . .

وقِسْ ، على هذين المثالين جميع القيم الروحية والمعنوية والمادية التي يعمل من أجلها الناس . .فالمهم أن هنالك غاية أو هدفاً يريد الإنسان الوصول إليه بنتيجة حركته على وجه الأرض . وعلى هذا الأساس ـ أي على عمل الناس في حياتهم الدنيا ـ تقرّر مصائرهم في الآخرة ، طبقاً للحالات أو الأحوال التي عاشوها ، وللخيارات التي ارتأوها في هذه الحياة . . فأما المؤمنون الصادقون فمصيرهم الفوز بالجنة كما وعدهم بذلك رب العالمين ، وأما المشركون والكافرون والعاصون ، فقد توعَّدهم سبحانه بالنار حيث العذاب الأليم . .

وبما أن الجنة (وكذلك النار) من الأمور الغيبية ، فقد أراد الله تعالى أن يقرب صورتها للأذهان عن طريق الأشياء الحسية التي تكتنف حياة الناس وتتخذ لها مظاهر متعددة في صلب هذه الحياة كما هو الحال بالنسبة لمآكلهم ومشاربهم ومساكنهم ، وكل ما تقوم عليه حياتهم ولا

سيما الماء الذي جعلَ اللَّهُ تعالى منه كـل شَيءٍ حيٍّ ، فقد ركَّـز القرآن الكريم كثيراً عليه في معرض الحديث عن الجنة، فذكر الأنهار وأكثر من تعدادها وأنواعها . .

ولذا نجدُ الأمثالَ التي قدَّمها القرآن الكريم عن الجنة ، تتنـاول بعض أوصافها وما تحتويه من الملذات والمتع ، والراحة والسعادة ، وما تفيض بـه من رضوان الله تعـالى ونعيمه المقيم ، حتى تـظهر لنـا الجنة نعيـماً عظيـماً ، وفوزاً كبيـراً ، وملكاً واسعـاً لا يبلى ، وخلوداً دائـماً لا ينقضي ولا يفنى .

ففي مطلع الآيتين الكـريمتين وصف للجنـة وبعض خصائصهـا باستعمال لفظة « مثل » يعني صفة الجنة كذلك .

وقـد جـاءَ في وصف هـذه الخصـائص ذكـرُ الأنهار للتعبـير عن الفيض والوفرة الـدائمـين ، إذ من خصـائص الأنهار التي نعرفهـا على هذه الأرض التدفق والاستمرارية بلا انقطاع ، كما نعرف عن التكوين الـطبيعي لـلأنهار . . ثم إنَّ في ذكـر الأنهار ـ وهي مجـارٍ كبيـرة للماء ـ توكيداً على أهمية الماءِ الذي هو أصلُ الحياة ، ولولاه ، لانعدمت حياة جميع الكائنات الحية . . والماء بأنهاره المتدفقة في الجنة من النوع الـذي لا يفسد ، ولا يخالطه تلوث كما يحصل أحياناً في مياه أنهار الأرض . .

وفي الجنـة أيضاً أنهار من اللبن ، الغـذاء الكـامـل لـلإنسـان ، بطعمه الطيب ، الذي لا تعتـوره حموضـة أو فساد ، ولا يعتـريه شيء من العوارض التي تصيب لبن الأرض . .

وفي الجنـة كذلـك أنهار من الخمرة التي تنشـرح بها الصـدور لما فيها من لذة لشاربيها . . وخمرة الجنة بخلاف الخمرة التي نعـرفها ، إذ

فيهـا اللذة والمتعـة ولكن ليس فيهــا فقـدان الــوعي ، والقيء ، ولا تسـبّبُ الأمراض الجسدية والنفسية . . وهنا تجدر الإشـارة إلى أن ذكر الخمر في الآية الكريمة لا يجوز أن يُتخذ حجةً أو استنتاجاً على إمكـانية استباحة شرب الخمرة في دنيا الأرض ، فكل أطايب الجنة ، وخيـراتها لا نـدرك كنهـا ، ولا نعـرف عنهـا شيئـاً ، ومـا ذكـر الله تعـالى تلك الأطـايب التي تغري الإنسـان نفسيّـاً إلاَّ لتقـريب المعـاني إلى أذهـاننـا وللتدليل عـلى السعادة العـظيمة التي تنتـظر الناسَ في الجنـة من خلال صـورٍ حسية ألفـوها في حيـاتهم الأرضية ، ورغبـوا في التمتع بهـا . . فليَعلم الإنسانُ سلفاً أنَّ الخمر في الجنة غير الخمرة في الأرض !! . . .

وفي الجنـة أيضاً أنهار من عسـلٍ مصفًّى ، وصفاؤه دليـل عـلى جودته وأهميتـه في الفائـدة واللذة على حـد سواء ، هـذا فضلاً عـما في العسـل من أسباب الشفـاء والانتفاع . . . وفـوق الماء واللبن والخمـر والعسل جعل سبحانه في الجنة من كل الثمـرات ـ التي نعرف والتي لا نعـرف ـ وهذه الثمـرات هي تعبير عن كـل نتاجٍ ذي فـائدة ، وثمـرة مبرَّأة من كل خبث قد يصيب ثمرات الأرض . .

وهـذه إذن أمثالٌ عـلى مقـومـات الحيـاة ، لأنها تتنـاول الصحـة والسلامة الجسدية والنفسية والعقلية ، كما تتناول الانتـظام العام لسـير الحيـاة في الجنة حتى يحصـل الخلود . . ولذلـك كان ذكـرها عـلى ذلك النحـو للتدليـل على أهميـة الجنة بمـا فيهـا من النِّعَم والنعيم عـلى حـد سـواء . . ومن خصائص الجنـة أن « أُكلها دائم » فجميـع مـا يؤكـل فيها ، وجميع ما يوجـد فيها دائم لا يـزول ولا يفنى ؛ وكذلـك ظلالُهـا دائمة بالأجواء التي أرادها اللَّهُ تعالى فيها ، حيث لا تشـوبها حـرارة ،

ولا زمهرير ـ مما نعرف على الأرض ـ ولا تخالطها تقلبات في العوامل ، بل يسودها الاستقرار والثبات ، وكل عوامل الطمأنينة والراحة ، التي تتماشى مع مفاهيم النعيم والخلود . .

فلمَن أُعدَّت هذه الجنة ، وبالأوصاف والملامح التي يبرزها القرآن الكريم ؟

إنها للمتقين . وهي عاقبتهم ومصيرهم في آخرتهم . ولكن ، لماذا كانت لهؤلاء دون غيرهم ؟ كانت لهم وحدَهم لأنهم ـ قبل كل شيء ـ تجنّبوا الكفر والشرك والإلحاد والنفاق ؛ وساروا بتقوى الله وطمعوا برضوانه ، فامتنعوا عن المحرمات ومغرياتها ، واجتنبوا المعاصي ودواعيها ، حتى استووا أناساً طاهرين ، مؤمنين ، صادقين ، لا يلتفتون إلى عرض الدنيا ولا يغريهم بهرجها وزينتها ، ولا يجتذبهم زخرفها بل توجهوا إلى الله تعالى خالقهم ، بالنيَّةِ الحسنة ، والعمل الطيب ، فحقَّ أن تكون عقباهم الجنة وذلك الفوز العظيم الذي ينتظرهم ، ألا وهو المغفرة من ربهم ، وما أعظمها من مغفرة تصدر عن السيد العظيم الجبار تجاه العبد الذليل المسكين . .

ولكن : هل من هو في جنَّةِ النعيم كمن هو خالد في النار ؟ وأي نارٍ هي هذه النارُ التي يذكرها القرآن الكريم ، نستشعر منها اللهب وهو يتلظَّى ، والحريق وهو يشتعل ، والحمم وهي تتطاول لتأكل كلَّ شيء تلفّه أَلْسِنَتُها ؟ . . أفلا نتخيَّل مشاهِدَ النيران التي تندلع في الغابات مثلاً وما يكون لها من فعل ؟ أو لا نتصوَّر تلك الطاقة المحرقة التي تدفع بالصواريخ إلى الفضاء ؟ أم لا نتذكر حِمَمَ البراكين وهي تسيل فوق سطح الأرض في ثوراتٍ عنيفة لا تبقي ولا

تـذر !! . . . هذه هي بعض الصـور الحسية عن النـار ، فكيف بنـار جهنم التي سيتلظّى فيها كل كافر جاحد ، منـافق عنيد !! فتصَـوّرهُم وهم في أتـون تلك النيران يسقـون ماءً حميماً ،ما إن يصـل إلى أمعائهم وأحشـائهم حتى يقطّعهـا لشدة حرارته. فلنتصـوَّر مـاءً سـاخنـاً يصيب جلودنـا ، فمـاذا يحلُّ بهـا ؟ فـكيـف إذا دخـل هـذا المـاء إلى أجوافنا ؟ ! . . وكيف بـذلك الماء الحميم وبتلك النار في الآخـرة ؟؟ فلنتـأمـل ولنقـارن : المتـاع في الجنـة والاستـرواح ، ومشهـد الـظل الوارف ، والثمر الدائم الذي لا ينقطع ولا يمتنع ، وكل ما تـطمئن له النفس وتستريح له في ناحية ، ثم ألوان الألم والعذاب ، ومشهد النـار التي ترمي بشررٍ كالقصر ، وكلّ ما يؤذي ويـزعج ويـرعب من ناحيـة أخـرى ، فإن مثـل هذه الصـور الحسية من النعيم والعـذاب ، ترد في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، وقـد تجيء معها صـور معنويـة أو مجردة ، أو تجيء وحدها منفردة في مواضع أخرى . . لنعرف الفرق بين أهل النعيم وأصحاب الجحيم . .

والله تعـالى الذي خلق البشـر هو أعلم بمـا خلق ، وأعـرف بمـا يؤثّـر في نفوسهم ومـا يصلح لتـربيتهم وأخيـراً هـو أعـرف بمـا يصلح لنعيمهم وعذابهم . والبشر أصناف ، والنفوس مختلفة والطبائع متباينة مـع أن النـاس جميعـاً يـولـدون عـلى الفـطرة . . فهنـا أنـاس ينكـرون ويستكبـرون ، فهؤلاء إذاً لا يصلح لتربيتهم وحثِّ هممهم عـلى العمل أن يقـال لهم ستكون لكم دورٌ وقصـورٌ في الجنة وأنهار من مـاء غير آسن . . . بـل هؤلاء يصلح لتربيتهم بـأن يتوعـدهم الله بماءٍ حميمٍ يقـطِّعُ أمعاءهم ، علَّهم عن غيِّهم يرجعون .

كما أن هنالك أناساً يصدِّقون ذلك ويؤمنون بالله فيعملون ويرجون رحمته ، ويتقربون إليه بالطاعات ويخجلون أن يراهم خالقهم على حالة لا يحبها . فهؤلاء يستحقون حسن الثواب وأن يقول الله تعالى عنهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ (١) . .

من أجل ذلك كانت الصور الحسية التي رسمها القرآن الكريم في وصف الجنة وإعطاء ملامح عنها تتوافق مع تربيتهم وتتلاءم مع طبائعهم اللينة التي اكتسبوها بفضل تصديقهم وإيمانهم .

٢ ـ أهل الجنة وأزواجهم

يقول اللّهُ تعالى : ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ (٢) . .

فالجنة كلها ظلالٌ لنعم ربانية ، وثمراتُ لحياةٍ مثلى علوية ، ولا يعلمُ حقيقتها وماهيتها إلا اللّهُ خالقها ، وهي الظلال والثمرات التي تأتلف مع أجواء النعيم والخلود ، وتليق بأهل الجنة الذين يعيشون في أجواء ذلك النعيم وتلك الظلال .

فأصحاب هذه الجنة يستأهلونها بما عملوا من الطاعات وحقَّ لهم أن يكونوا في شغلٍ هنيء وسعيد ، ناعمين في كنف الرحمانِ الذي وهبهم تلك الحياة الأبدية . . . إنهم هانئون مع أزواجهم في تلك

---

(١) مريم : ٩٦ .

(٢) يس : ٥٥ و٥٦ .

الظلال مستريحون في قصورهم على الأرائك التي أعدت لهم ، ليستلقوا عليها زيادةً في الراحة والأنس . .

أما أوصافُ تلك الأزواج في جنان النعيم ، فتظهر في قوله تبارك وتعالى :

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾(١) .

وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾(٢) .

وقوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾(٣)

وقوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾(٤)

والذي يخافُ مقام ربه هو المؤمن التقيّ الذي يعمل الصالحات ، والذي أعدَّت له جناتُ النعيم بما فيها من القصور والدور ، والأنهار والعيون ؛ وكل ما يخطر على بال الناس من أسباب السعادة الأبدية ، والنعيم الدائم . . ولكن زينة هذه الجنات ورونقها وجود زوجات طاهرات ، عفيفات الشعور والنظر لا تمتدُّ أبصارهنَّ إلى غير أزواجهنَّ ، ولا يرين أحداً أحسن وأجمل منهم ، كما صوَّرهن أبو ذر الغفاري (رض) بقوله المرويِّ عن رسول الله (ﷺ) : « إنها تقول لزوجها : وعزَّةِ ربِّي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ؛ فالحمد لله الذي جعلني زوجتك وجعلك زوجي » . فهؤلاء الزوجات الطاهرات هنَّ الحور العين ، المصونات اللواتي لم يمسسهن بشرٌ من

---

(١) الرحمن : ٥٦ .

(٢) الرحمن : ٥٨ .

(٣) الواقعة : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٤) الرحمن : ٤٦ .

قبلُ ولا جنٌّ زيادة في التأكيد على طهارتهن ، وعفافهن . .

ومن أوصافهنَّ - زيادة في إكرام أهل الجنة - أنهن كالياقوت والمرجان ، صفاءً وبياضاً ونقاءً ؛ ولهن عيون واسعات جميلات ، إلى جانب أنهن كاللؤلؤ المصون الذي لم يتعرض للمسِّ أو للنظر ، فلم تثقبه يدٌ ، ولم تخدشه عين . وفي وصف المرأة باللؤلؤ قال الشاعر :

وَهْيَ زهراءُ مثلَ لُؤْلُؤَةِ الغوَّا ص ِ ، ميِّزتْ مِنْ جَوهرٍ مكنونِ .

فكل هذا الوصف هو كناية عن معانٍ حسية ،لنفسيات لطيفة لهؤلاء الحور الْعين . كما أنَّ في المعنى دلالة هامة أتى بها القرآن الكريم وهي أن الجنيَّ يغشى كما يغشى البشري في الاجتماع ما بين الذكر والأنثى . فالله - سبحانه وتعالى - كما يهب المؤمنين ، المتقين من الإنس زوجاتٍ طاهراتٍ لم يطمثهنَّ أحدٌ من قبله فكذلك يهب المؤمنين من الجنِّ زوجاتٍ عفيفاتٍ لم يطمثهن جنٌّ من قبله . . وهذا ثناء عظيم على المؤمنين ، ووعْدٌ بما ينالهم من فضل ربِّهم ونعمه على عباده الصالحين .

وعن الحال المعنوية لأهل الجنة ، يقول تبارك وتعالى :

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (١)

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (٢)

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (٣)

---

(١) المطففين : ٢٤ .
(٢) الحجر : ٤٧ .
(٣) الأعراف : ٤٣ .

فأهل الجنة منعَّمون فيها ، يرفلون بثوب الصحة والسلام والأمان ، بما يظهر على وجوههم من النضرة والوسامة ، وبما يعتمر في صدورهم من الطهارة والنقاء ، بعدما نزع الله تعالى منها كل غل أو حقد أو حسدٍ ، فتآخوا في الدار الآخرة على المحبَّة والود ، كما تآخوا في الدنيا على الحمد والشكر . فهم في الجنة يسبِّحون ربهم على ما وهبهم من جزيل العطاء ، ويحمدونه على ما هداهم إليه في حياتهم الأولى من فهم دينهم وصونه ، ويشكرونه على توفيقهم لاتِّباع الحق حتى فازوا بهذا النعيم الخالد المؤبَّد . . فنعيمهم كلُّه مردُّه إلى هداية الله تعالى ، وفضله عليهم بأن جعلهم من المهتدين ، ولولا ذلك التوفيق منه تعالى ، لَما كانت لهم هذه الهداية ، ولما كان لهم هذا الفوز العظيم .

اللوح المحفوظ

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ (١)

إن هـذا الكون واسـع فوق حـدود التصوُّر كـما تدلّ عـلى ذلك اكتشافات علم الفلك الحديثة . وكلما تـوغَّل الإنسـان في أعماق هـذا الكـون ، كلما تبين لـه أنـه مـا زال بعيـداً جـدّاً عن إدراك حـدوده أو نهايته . . . وفي خضم هذا الكون الشاسـع ، كتلة كرويـة صغيرة هي الأرض التي احتوت إلى جانب الجنس البشري أجناسـاً كثيرة ومتنـوعة من الحيـوان والطير ، وكـلٌّ يعرف فيهـا معـاشَـهُ ، ويسعى إليـه . . . وهـذه المخلوقات كلُّهـا قد أحصيت جميعهـا في الكتـاب ، الـذي هـو اللوحُ المحفوظ الذي أحصـاها جميعهـا بلا أدنى تفـريط ، كما يبـيِّن لنا ربُّ العالمين في هذه الآية الكريمة . .

ولقـد خلقنا الله سبحـانه عـلى هذه الأرض ، واستخلفنـا فيهـا

---

(١) الأنعام : ٣٨ .

لنعبده حق العبادة ، ثم نُحشَرُ في يوم القيامة ليكـون الحسابُ عـلى ما استخلفنا عليه . وإذا كان الله تعالى قد جعلنا قبـائل وشعـوباً متنـوعة فكثـرت أمم أهل الأرض بـذلك وتعـدَّدت ، فإنَّـه سبحانـه في كتابـه المبين ـ القرآن الكريم ـ يبيِّن لنا أن كلَّ ما خلق من دوابَّ تـدبُّ على الأرض برجليها أو زاحفة تزحف على بطنها ، أو كل مـا خلق من طير يـطير بجناحيـه ، إن هي إلاَّ أجنـاس متعـددة ، وأصنـاف متنـوعـة ، تختلف في أشكـالها وأنـواعهـا ، مثـل اختـلاف النـاس في تعـدد أممهم وشعـوبهم . . وهي على تعـدد أصنافهـا ، وأعـدادهـا الغفيرة من كـل صنف ، تُعـرف بسمـات معيَّنـة ، وبخصـائص مميـزة عن بعضهـا البعض ، لتكـون مثـل النــاس ، في خَلْقهــا من حيث الإبــداع في الخلق ، وجميل الصنع في الهيئـة والتكوين . . وقيـل إنما مثلت بـالأمم من النـاس نظراً لحـاجتها إلى مـدبرٍ يـدبرهـا في أغذيتهـا ، ونـومهـا ، ويقظتها ، وهدايتها إلى مراشدها ، وإلى آخر ما لا يُحصى من أحوالهـا ومصالحها .

ومثل هذا التنوع في الكائنات الحية هو ـ بلا شك ـ خيرُ دليل ، وأكبر برهان على قدرة الله جلَّ جلالُه في الخلق والتدبير ، والتقدير . . وهي جميعها قد أحصيت في اللوح المحفوظ تقديراً ثابتاً بموجب حكمته سبحـانـه وتعـالى ، إذ في هـذا اللوح مقـدَّرٌ لكـل كـائنٍ حيٍ حيـاتـه وأجله ، ورزقـه ، وكل مـا يتعلق به من صغيـرة أو كبيرة ؛ وإذا كـان سبحـانه وتعـالى يخبرنـا كيف أنه يحصي في كتـابه كـلَّ شيء عن تلك المخلوقات الكثيرة ، فإنما فعـل ذلك ليجعلَنـا ندرك ونعتبـر أن كلَّ مـا يتعلق بنـا ، نحن البشـر هـو محصيٌّ ومحفـوظ ، فـما من عمـل نقـوم بـه ، وما من نيَّة ننـويها ، ومـا من شعور نشعـر به أو نَفَس نتنفسـه إلاَّ وهو

محصيٌّ ليجري على أساسه الحساب يوم القيامة ، ولـذلك جاءَ النص بقوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربِّهم يُحشرون ﴾ ؛ وأما لماذا يكـون بَعْثُ هذه الخلائق والقضاء فيما بينها فإنما هو لحكمة أرادهـا الله تعالى لا تستـطيع عقولنا معرفتها أو إدراكها . ويؤكد بعثَ الحيـوان والطير مـا روي عن أبي ذر الغفاري (رض) أنه قال : « بينا أنا مع رسـول الله (ﷺ) إذ انتـطحت عنزتـان ، فقـال النبي (ﷺ) : أتـدرون فيـما انتـطحتـا ؟ قالوا : لا ندري . قال : لكن الله يـدري ، وسيقضي بينهما » . ومثله أن رسـول الله (ﷺ) قال : « لتؤدُّنَّ الحقـوق إلى أهلها يـوم القيامـة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » . .

وما تجدر الإشارة إليه هو أن ما استـدلت عليه جماعة من أهـل التناسخ ، بأن الآية الكريمة تشير إلى الآية المبـاركة التي أتينـا على ذكـرها ، أن البهائم والطيور هي مثل البشر في التكليف ، إنما هـو لغوٌ بـاطل ، لأنَّ القصـد من كلمة : « أمثـالكم » إنما هـو تنوع الـدواب والطيـور ، وكثـرة أجناسهما ، واختلاف أحوالهـما ؛ ثم كيف يصحُّ تكليف هـذه البهائم وهي غـير عـاقلة ولا مميِّـزة ، والتكليف لا يصـحُّ إلاَّ مـع كمـال العقـل وقـوة التمييز ؟ ! . . .

ونحن نجزم ونقطع بأن الآية الكريمة إنَّما ترمي إلى أمرٍ هامٍّ وهـو أن أيَّ خلقٍ لأيِّ كائنٍ ، لم يكن عبثاً ، بل كان محسـوباً ، ومقـدَّراً في اللوح المحفوظ ، منذ الأزل . فليس في وجودنا أية مصادفة أو عبثية ، بل كل شيء محكومٌ بإرادة ربانية بـاعثة ومسيِّـرة ، ودليله هذه الآيـات المبثوثة في الكـون ، وفي أنفسنا ، ومن حـولنا ، وكلهـا تبرهن وتؤكـد على قدرة الصانع الحكيم ، والخالق العظيم ، وأنـه في جميل صنعـه ،

جعـلَ في الأرض مخلوقات لا تُحصى تثبت لـلإنسان عـظمة الخـالق بما يجد فيها من مزايا وخصائص شتى ، هي مدعـاة ـ بحد ذاتهـا ـ للتفكّر والتدبّر . .

المؤمنون

المؤمنون

• الدينُ نورٌ للقلوبِ ومشعل للهدايـة . فمنْ آمن بدين الله الحق اهتدى ، ونال الفوز في الدنيا والآخرة ؛ ومن ضلَّ عن هذا الدين كفر وبـاء بالخسـران في الـدنيـا ، وحقَّ عليـه العـذاب في الآخـرة . . ولا يحسبنَّ أحدٌ أن متاع الحياة الدنيا ـ بما فيه من الثروة والنفـوذ والسلطان واللذة وغيـرهـا ـ هي الغـايـة القصـوى التي يجب أن يسعى إليهـا الإنسـان ، بل إنَّ أسمى الغـايات وأجلهـا ، هو رضـوان الله تعالى . فيجب أن يكـون العمل ، وأن تكـون المثـلُ العليـا ، بـل وأن تكـون القلوب والضمائر والنوايا والعقول متوجهة إلى هذه الغاية الكريمة . وهل أعظم من نيل رضوان الله سبحانه وتعالى ؟ ! . .

ولا يـظننَّ أَحَدٌ أن شقـاء الحياة الـدنيا وهمـومهـا ، والآلام التي تعصف بالكيان الإنساني من قهر وقلق وعـذاب ، ومهما بلغت ، يمكن أن تحيد بالإنسان المؤمن عن طريقه القـويم ، وعن الحق الذي يتَّبـع ، بل إنها تزيده إيماناً ورجاءً واحتساباً ، لأنَّ لـديه القنـاعة التـامة بحكم ربـه ، والتسليم بمشيئته ـ سبحـانه ـ وهـذا ممـا يخفّف عنـه الكثـير من

المعاناة ، ويجعله راضياً بحكمه سبحانه ، وقادراً على الصبر والاحتمال . .

ذاك أن الإيمان إنما يخاطبُ النفسَ الإنسانية فيجلوها بما يرى المؤمن من نعم وفضائل كثيرة ، أغدقها ربُّهُ عليه ﴿ وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ، كما أنه يثبّت المؤمن على العقيدة بما يمنحه من هدايةٍ ونورٍ تُضاءُ بهما جوانب حياته كلها ، ولا سيما ما يمدّانه به من راحة فكرية ، واطمئنان قلبي ، وما يزودانه به من صبر على الاحتمال ، وطاقة على التفاعل ، حتى يكون راضياً مرضيّاً . . . ولكن هل يملك جميع الناس هذا الإيمانَ القوي ، وهم يحملون بين جوانحهم نفوساً مختلفة متباينة ؟

كلا ! فإن هنالك النفس الزكية الراضية المؤمنة ، وهي النفس الإسلامية . وهناك النفس الفاسدة الرافضة الكافرة ، كما أن هنالك النفس الماجنة المارقة المنافقة ، إلى غيرها من النفوس المختلفة ، المتباينة ، المتعددة الاتجاهات والميول والأهواء . .

على أن جميع هذه النفوس يمكن أن تندرج تحت نوعين كبيرين : النوع الأول وهو النفوس التي تكون على صلة بالله تعالى ربها وخالقها ، والنوع الثاني وهو النفوس التي تقطع هذه الصلة بربها وتبعدُ عنه . . ومهما تكن نفوس البشر وأحوالها ، فإنَّ اللَّهَ تعالى ، الرحمن الرحيم ، الرؤوف بعباده ، قد أنزلَ القرآن الكريم الذي فيه علاج خاص لكل من تلك النفوس . . فأما الأصحّاء أصحاب النفوس المؤمنة ، فيزدادون بالقرآن إيماناً وهدىً ، وأما المرضى الآخرون ، فما عليهم إلاَّ اتباعُ القرآن وتقبّل علاجه لكي يكتب لهم الشفاء والنجاة ،

وينعمـوا بالرحمة من ربهم ، أما إن هم رفضوا القرآن وأعرضوا عنه فإنَّ مردهم إلى الله ـ سبحانه ـ الذي يحاسبهم على ما عملوا ، وما قـالوا ، وما اعتقدوا . . .

إذن فـالناس أمـام خيارين لا ثـالث لهـما : إمـا أن يستـرشـدوا بـالقرآن الكـريم ويسيروا عـلى نور هـديه ، وإمـا أن يمضوا عـلى غـير هدى ، والحكم في الآخرة إلى الله وحده ، لأنه صاحب الأمر ، وإليـه المصير . .

١ ـ تبديل الأحكام الإلهية لخير العباد

يقول الله العزيز الحكيم :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

اللَّهُ ولي الأمـر والتدبـير ، ومنه التبـديـل والتغيـير . ومـا الآيـة الكريمة إلَّا بيان على أن تنزيل الأحكام إنما يكون دائماً لصالح العبـاد . وأن من هذه الأحكام مـا يبدّلـه تعالى أو يغيـره ، أو ينسيه ، أو ينـزل مثله بصيغـة أخرى ، ولكن ليـأتي بخير منـه مـع زيـادة في النفـع وفي التسهيل . ومثل هـذا التغيير الجـزئي في الأحكام ، إنمـا كان يقـع مع تنزيل الرسالات ، من أجل خيرٍ أكثر لصالح البشريـة . والله تعالى ، منزّلُ الآيات ، هو الذي يقدّر ذلك ؛ فإذا ما نسخ(٢) آية ، أو ألقـاها

(١) البقرة : ١٠٦ .

(٢) النسخ لغة إبطال شيء أو إلغاؤه وإقامة آخر مكانه . يقال : نسخت الشمس الظل أي أذهبته وحلَّت محلَّه .

في عالم النسيان ، سواء كانت هذه الآية تشتمل على حكم من الأحكام ، أو كانت بمعنى علامة خارقة تجيء لمناسبة حاضرة ، أو كانت تذكّر بالمعجزات المادية التي أتى بها الرسلُ - بأمر ربهم - فإنه سبحانه قد أنزل أحكاماً ثابتة لهداية الناس ، وإنارة طرق حياتهم ، وإيصالهم إلى ما هو أجدى لهم وأصلح في الدنيا والآخرة ، والأحكام النهائية إنما حفظها القرآن الكريم لأنه خاتم الكتب السماوية ، الذي لا وحيَ ولا تنزيل على أنبياء بعده . .

أما التغييرات والتبديلات التي كانت تنسخ ما قبلها ، فإنما هي البرهان القاطع على قدرة الله تعالى ، الذي هو على كل شيء قدير ؛ . . . فليعلم الإنسان ، وليوقن بهذا الحق المبين . .

٢ ـ تحذير المؤمن مما أصابَ الغابرين

قال الله تعالى على لسان مؤمن من آل فرعون :

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (١) .

---

(١) غافر : ٢٨ ـ ٣١ .

من صفات المؤمن البارزة أنه لا يخاف في الله لومةَ لائم ، ولا يتورع عن قول الحق ولو كان في ذلك حتفه . وفي الآيات الكريمة قصة رجل مؤمن من آل فرعون (قيل هو ابن عمه أو وزيره) كان يكتم إيمانه عن الناس . فلما أبى فرعونُ دعوة النبي موسى ـ عليه السلام ـ للإيمان ، وراح ذلك الطاغيةُ يتشاور مع بطانته ، ويعدّون العدة لقتل نبي الله ، لم يقف ذلك الرجل المؤمن متفرجاً ، ولا ساكتاً ، بل تصدَّى لفرعون وملئه بالنصح للكف عن محاولة قتل موسى (ع) وراح يقول لهم :

كيف تقتلون رجلًا يؤمن بأنَّ الله ربه ، وقد جاءكم بالمعجزات الظاهرات على صدق إيمانه . فإن يَكُ كاذباً فيما يقول ، فهو يتحمل وزر كذبه وحدَه . أما إن يَكُ صادقاً ، فإنَّ في تلبيتكم لدعوته خيراً لكم ، إذ هو يعدكم بعفو الله وغفرانه ، وبنيل الأجر والثواب ، فاتبعوه لأن في اتباعه بعض الذي يعدكم به . وكذلك فهو يعدكم بالعذاب إن لم تصدقوه ، وسوف يحلُّ بكم هذا العذاب إن كان صادقاً في قوله . ذلك أنَّ الله لا يهدي ، ولا يرحم من هو مشرك كافر ، مُفترٍ كذّاب .

ثم يتابع الرجل المؤمن نصحَهُ لقومه قائلًا : يا قوم أنتم اليوم تملكون ، وتحكمون أرض مصر ، وأنتم غالبون في حكمكم هذا . ولكن من ينصرنا ومن ينجينا من عذاب الله إن أنتم قتلتم نبيَّهُ وأولياءه ؟ إنه لا ناصِرَ لكم من عذاب الله ، فاسمعوا قولي وأطيعوني فذلك خير لكم . . .

ويعود المؤمن فيذكرهم بأن ما يقوله لهم إنما هو خوف عليهم ،

ورغبة في سلامتهم ونجاتهم ، كيلا يصيبهم ما أصابَ الأقوامَ السابقة التي تحزَّبت ضد أنبيائها ورمتهم بالكذب ، وقتلتهم بدون حق ، إذ أرسل اللَّهُ تعالى ، على تلك الأحزاب ألواناً من العذاب فأهلكها وهدم مدَنها وقراها . . وأعطى المؤمن شواهِدَ على ما يقوله لهم فذكَّرهم بما أصابَ قوم نوحٍ ، وعادٍ وثمودَ ، بل وتلك الأقوام التي جاءت من بعد أولئك ، وساروا على منوالهم في تكذيب الرسل ، والإصرار على الكفر والشرك . . ثم أبانَ لهم أنَّ ما حلَّ بتلك الشعوب الغابرة من هلاك ودمار وعذاب في الدنيا كان نتيجة ظلمهم لأنفسهم ، لأنَّ اللَّهَ تبارك وتعالى مُنزَّه عن الظلم ، وما يريد ـ سبحانه ـ ظلماً للعباد . .

ذلك هو بالفعل موقف المؤمن الذي يخلد على التاريخ مثالاً لصدق إيمانه ورسوخه ، ومثالاً للنصح والوفاء ليس فقط لأبناء قومه ، بل وللناس أجمعين في خوفه عليهم من الكفر والظلم . . . وإنا اليوم أشدُّ ما نكون حاجةً للمؤمنين الصادقين أمثال مؤمن آل فرعون إذ تستفحل في دنيانا المظالم ، وتزداد المعاصي ، وترتكب الأخطاء الجسام ، حتى باتت أوضاع الناس أشبه ما تكون بتلك التي سادت أيام فرعون على عهد موسى ـ عليه السلام ـ . وإذا بقي الناس على هذا الظلم والعنت والإلحاد ، وعلى مثل هذا الجفاء للحق وللإيمان ، فإنه سيحلُّ بالناس الهلاك ، ويعمُّ العذاب ، أكثر بكثير مما نسمع ونرى . . .

وهذه دعوة للتحذير ، فليتدارك الناس ما هم فيه ، وما هم عليه ، قبل أن يفوت الأوان ! . .

٣ ـ شرُّ الخلائق عند الله تعالى الذين لا يعقلون

قال سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1] .

البارز في القرآن الكريم أنَّ الله تعالى يخاطب المؤمنين مباشرة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . وميزة هذه المخاطبة أنها تقديرٌ من رب العالمين للذين آمنوا وتفضيل لهم على من سواهم ، ممن لا ينعمون بشرف هذه المخاطبة ، ولا يستأهلونها لأنهم ليسوا مؤمنين . . .

وفي الآيات المباركات خطابٌ واضحٌ للمؤمنين في حثّهم على طاعة الله تعالى : طاعة صدق وتقوى واهتداء ، وعلى طاعة رسوله الكريم : طاعة تصديق واتباع وإخلاص ، وألَّا يخالفوا لهذا الرسول الأمين أمراً أو رأياً أو سنة . . .

وفي هذا الأمر الربانيّ بعدم الإعراض عن رسول الله (ﷺ) فرضٌ دائمٌ على المؤمنين . فالرسول (ﷺ) قد بلَّغ القرآن المجيد ، وخلَّف سنته الشريفة ، وكلاهما ـ القرآن والسنة ـ متلازم مع الآخر ؛ فكان الفرض على المؤمنين عدم الإعراض عنهما أو تركهما ، بل التمسك بهما لأنه تمسك بالعروة الوثقى ، واتباع للدين القويم . .

---

(١) الأنفال : ٢٠ ـ ٢٣ .

وبعد الأمر بالطاعة ، والنهي عن الإعراض ، يأتي التحذير للمؤمنين بألَّا يكونوا كالمشركين والمنافقين الذين يسمعون القرآن الكريم ، ويسمعون الحديث النبوي الشريف ، ويعلمون ما يدعوان إليه ، إلَّا أنهم يستمعون لهما سماعاً سطحيّاً ظاهريّاً ، وليس سماع تدبّر واتعاظ ، ولا سماع تفهم واقتناع ، حتى صار مثلهم كالدواب الصمّاء عن سماع الحق ، البكماء عن النطق به ، لا تعقله ، ولا تفيد منه . . والدوابُّ التي لا تسمع ، ولا تنطق ، ولا تعقل ، هي شرُّ الدواب عند الله ، لأنها أحقر مخلوقاته وأحطّها . .

فهل يريد الناسُ ، أو يرضى أحدٌ منهم ، بأن يكون ممن لا يعقل حتى يصير مثله كالدابة الصماء البكماء ؟ ! . . .

على أن كل من يخالف الفطرة التي فطره الله تعالى عليها ، ولا يؤمن بالحق من ربه ، ولا يتبع هداه ، إنما يتخلى عن صفاته البشرية والإنسانية ، ويبتعد كل البعد عن الحق المبين . . . والذين يتولَّون أو يتحوَّلون عن سماع هذا الحق ، ولا يريدون أن يسمعوه أو يعملوا به ، هؤلاء لا خير فيهم أبداً ، ولو كان فيهم ذرة من خير لكان اللَّهُ سبحانه هداهم إلى سماع الحق ، وفهمه وتدبّره ؛ ولكنهم معرضون عن قبول الحق عناداً وجحوداً . . وفي هذا دليل على أنَّ الله تبارك وتعالى ، يريد اللطف بالعباد ، إلَّا الذين لا يرغبون في الهداية ، فهؤلاء يخرجهم ربهم من لطفه ورحمته . .

٤ - نَهْيُ المؤمنين عن موالاة المغضوب عليهم

قال اللَّهُ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ

ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ [1] .

الخطابُ دائماً موجَّهٌ للمؤمنين . وفي الآية الكريمة أمرٌ ربانيٌّ للذين آمنوا بألّا يوالوا أي بألّا يكونوا أعواناً أو أصدقاء أو مقربين من كل قومٍ غضب الله عليهم بسبب الكفر أو الشرك أو النفاق . ذلك أنه سبحانه يريد لعباده المؤمنين أن يبتعدوا عن هؤلاء الأقوام جميعاً لئلا يفسدوا عليهم دينهم ، ويقودوهم أو يدلّوهم على طريق الشر والباطل ، فيوقعوهم في التهلكة التي وقعوا فيها ، ألا وهي غضبُ الله تعالى . ويخبرُ ـ سبحانَهُ ـ عباده المؤمنين أن الذين غضب عليهم هم بائسون ، يائسون . قد يئسوا من النجاة في الآخرة ـ مع إيقانهم بها ـ كما يئس الكفارُ من أصحاب القبور بأن ينبِّؤهم عمّا في الآخرة أي هل فيها جنة ونار حقاً ؟ . أو كما يئس الكفار الذين صاروا من أصحاب القبور بعد موتهم ، من أن يكون لهم أدنى حظ في الجنة . . أو كما يئس الكفار في قبورهم من العودة إلى الحياة الدنيا مرة أخرى . . . فما أروعَ هذا المثل القرآني الذي يدلُّ على مصير الذين غضب الله تعالى عليهم ، والذي يوضح ما يحيق بهم من عذاب بعد أن سدَّت في وجوههم جميع سبل الأمل والخلاص ، فلا يجدون إلّا اليأس والاستسلام للمصير المشؤوم الذي أوقعوا به أنفسهم .

٥ ـ دعوة المؤمنين لكي يكونوا أنصارَ الله

قال تبارك وتعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ

(١) الممتحنة : ١٣ .

لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ (١) .

اللَّهُ تعالى هو وليُّ المؤمنين ، وهو السيد العظيم ، القدير المتعالي ، وهو نعم المولى ونعم النصير . . ودعوتُهُ حق ، والاستجابةُ له حق . وهو جلَّ وعلا يخاطب المؤمنين ويدعوهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصارَ الله ﴾ . . فهل يحتاج الربُّ القدير إلى من ينصره ؟ ! كلا ! بل هي الدعوة إلى نصرة أنبيائه ، ونصرة دينه . . والدعوة لأن يكونوا أولياءَ له سبحانه ، يحملون دينه الذي ارتضاه لعباده حتى يصير عقيدةً راسخةً ينعَمُ أهل الأرض بأحكامها وتعاليمها ، ويتفيَّأون في ظلالها القدسية لأنها منهجُ ربهم وخالقهم للهدى والرحمة والنعمة في الدارين . .

وفي الآية الكريمة مثلٌ على هذه الدعوة الربانية بالحواريين(٢) عندما قال لهم عيسى بن مريم (ع) : من أنصاري إلى الله ؟

قال الحواريون : نحن أنصارُ الله . قد آمنا بك عبداً ورسولاً . وآمنا بالدين الذي تحمل ، ننصرُ هذا الدين ، ونذبُّ عنه ، ونحميه من عبث العابثين . .

فهنيئاً للحواريين الذين جعلوا أنفسهم أصفياء لعيسى ـ عليه

---

(١) الصف : ١٤ .

(٢) الحواريون هم من الحور أي البيض ، الخالصي البياض . وقيل كانوا يحوِّرون الثياب ، أي يبيِّضونها .

السلام ـ فلبّوا دعوتَهُ ، ووقفوا معه يشدُّون أزره ، ويدافعون عن الرسالة التي كان يحملها . . .

ومن المعلوم أن بني اسرائيل اختلفوا في حقيقة عيسى بن مريم (ع) . فآمنت طائفة منهم ، كالحواريين ، بأنه عبداللّه ورسوله ، وكفرت طائفة أخرى بصدق رسالته وصدورها عن الله . . ووقع القتال بين الطائفتين : المؤمنة والكافرة ،فأيَّد اللّهُ تعالى المؤمنين بالنصر ، بما منحهم من قوة وبأسٍ على أعدائهم ، فظهروا عليهم بالغلبة ، ليتبينّ الحق من الباطل ، والإيمان من الكفر . .

ويتكرر نفسُ المشهد عند بعثة محمد (ﷺ) . إذ آمنت به جماعةٌ من اليهود نبيّاً ورسولاً ، فدخلوا في الإسلام طائعين ، مختارين . بينما رفض اليهودُ الآخرون الإقرار بنبوته ، فكفروا ولم يصدقوه أو يؤمنوا برسالته . وعندما دار القتال بين المسلمين واليهود ، كان النصرُ للمسلمين بعون الله تعالى ، فصارت لهم الغلبةُ على أعداء دينهم ، الذين هزموهم شرَّ هزيمة . .

وها هي الحالة تنعكس اليوم ، إذ نجد اليهود ، كادوا أن يصيروا ظاهرين على المسلمين . والسبب هو أن المسلمين لم يعودوا أنصاراً لله تعالى ، بعد أن بعدوا عن الإسلام قلباً وقالباً ، وارتموا في أحضان الدنيا ، تغريهم كل تجارة أو لهو ، حتى فقدوا كيانَهم الصلبَ المتين ، وباتوا تَبَعاً لعدوهم ، ولأنصار هذا العدو الحاقد ، يسيرونهم كما يشاؤ ون ، وفق أهوائهم ومصالحهم ، ويتعالون عليهم بكل صلافةٍ وكبرياء . . .

فأين هُمُ المسلمونُ المؤمنونَ ، أنصارُ الله الذين يدعوهم

سبحانه بدعوته قائلاً: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ ، ويضع على عاتقهم نصرة دينه القويم ؟ ! . . نعم أين هم المؤمنون الذين يحضُّهم القرآنُ الكريم ، كتابُ الله الخالد ، على إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ؟ ! . . . لن نيأسَ من دعوةِ الله تعالى ، فإنَّ أمة الإسلام - أمة محمد صلَّى الله عليه وآله - لا بدَّ أن ترجع إلى أصالتها ، فتنزل عن أكتافها أثقالَ التفرقة والانقسام ، لترفع من جديد راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » خفاقةً عاليةً : نيَّةً وقولاً وعملاً . . متسجيبة بذلك لدعوة الداعي ، فيحق لها حينئذٍ أن تقول : ﴿ نحن أنصارُ الله ﴾ . .

٦ - حسنةُ المؤمن له عشرُ أمثالها

قال تبارك وتعالى :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

إن كل عمل يقوم به الإنسان مكتوبٌ ، ومحاسبٌ عليه ، لأن الله تعالى كلف الملائكة بإحصاء كل ما يصدر عن أي إنسانٍ من خير أو شر ، حتى يكون حسابُهُ عادلاً ، إذ يقرأ الإنسانُ كتابَ أعماله ، يوم القيامة بنفسه ، وتشهد على ما في هذا الكتاب جوارحه كلها . .

ومن فضائل الله تعالى علينا أنه يضاعف كل حسنةٍ من حسناتنا

---

(١) الأنعام :١٦٠.

حتى تبلغ مقدار عشرة أضعاف ، أي أن كل حسنة يقوم بها مؤمن ، محسن ، له عشرة بدلاً عنها ، وهذا منتهى الفضل والكرم . . أما السيئة التي يرتكبها المسيء فلا تكتب عليه إلَّا سيئة واحدة . ولا يكون العقابُ إلَّا على قدرها فقط ، وهذا منتهى العدل والإنصاف .

والحسنات هي من صنيع المؤمنين ، وتدخل فيها الطاعات ، وأعمال الخير كلها ، على أي شكل أتت . . فمن قام بصلاة أو بصوم فله حسنات . ومن تصدَّق فله حسنات . ومن أعان محتاجاً له حسنات . ومن واسى مريضاً له حسنات . ومن أطعم حيواناً له حسنات . ومن تعلَّم له حسنات . ومن سأل أهل العلم له حسنات . ومن أبعَدَ حجراً عن طريق له حسنات . . . وكل الحسنات نِعمٌ من الله ، يوفِّق عبده المؤمن لنيلها . .

فلنتصوَّر الكرم الإلٓهي ، بل هذا التفضّل الربانيَّ على عباده ؛ فإنَّه تعالى مع جزيل النِعم التي أغدقها عليهم هبة منه ومنّةً ، يجعل لهم من عمل الحسنة الواحدة ثوابَ عشر حسنات يوم حسابهم ؛ بينما لا يجازي على السيئة إلَّا بقدرها ، أي بلا زيادة أو نقصان . . ولو شاءَ ـ سبحانه ـ أن يغفر السيئات ، لامحَّت جميع ذنوب المؤمنين ، تفضُّلاً عليهم ، ومنَّةً وكرماً ، لأنَّ اللَّهَ هو الغفور الرحيم . وهذه العدالة الإلٓهية الرحيمة ، لا يمكن أبداً أن يشوبها ظلم . وكيف يكون للظلم فيها وجود ، والحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها فقط ؟ ! . . بل الله تعالى منزَّه عن الظلم لأنه الرحمان، الرحيم، وهو- سبحانه - يكره الظالمين ، ويعدهم بالعقاب الشديد . فليبادر الإنسانُ إلى ترك الظلم لنفسه ولغيره، حتى يكون له الجزاءُ الأوفى يوم الحساب. وقد

قال أبو ذر الغفاري (رض) : « حدثني الصادق المصدَّق أن الله تعالى قـال : الحسنة عشـرٌ أو أزيد . والسيئـة واحدة أو أغفـر . فالـويل لمن غلبت آحادُه أعشارَه » .

الكافرون

أعمال الكافرين

الفرق بين المؤمنين والكافرين

الكافرون

١ ـ ادعاء الكافرين بأنه يمكنهم قول مثل القرآن

قال اللّٰهُ عز وجل :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (١) .

عجيب أن لا يتفكر الإنسان في خلقه ، وما احتواه هذا الخلق من مدارك وطاقات ، ومن تركيب دقيق الصنع غاية في الإعجاز . . وعجيب أيضاً أن لا يتأمل في صفحة هذا الكون الشاسع ، وفي أجرامه ونجومه وكواكبه وما هي عليه من الحركة والانتظام، الدالّين على قدرة الله وعظمته. أوليس في هذا التفكّر والتأمل (رغم أنَّ ما عرفه الإنسان من صنع الله الجميل ما يزال قليلاً بل وضئيلاً جداً) ما يقود الإنسان إلى الأدلة القاطعة على حقيقة وجود الله تعالى ، الذي بثَّ آياته ، شواهد صارخة لتكون سبيلاً للهداية ، ومناراً للتقوى ، وحافزاً

---

(١) الأنفال : ٣١ .

على العمل الصالح ؟ ! . . ورغم أنَّ كل شيء يدل على الخالق القدير الحكيم ، فقد أنكر الإنسان الجاهل الغافل ألوهية الله تعالى وربوبيته ، وعَبَدَ من دونه آلهةً ابتدعها من خياله ، أو صنعها بيديه ، دون أن يسأل نفسه كيف يعبد هكذا آلهةً لا تقدر على شيء في الأرض ولا في السماء، بل يستحيل عليها أن تفعل أدنى شيء لأنها لا تسمع ولا تعقل ، ولا تنفع ولا تضر .

فكم يجب أن يكون العمى ضارباً على بصيرة هذا المنكر لحقيقة وجود الله ، حتى أوقع نفسه في الكفر والشرك والإلحاد ! أفلا يرى اسم خالقه موقَّعاً على كل صفحة من صفحات الكون ، وأثره بادياً على كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود ؟ ! . . وها هو التاريخ البشري ينبئنا بأن المشركين والكافرين قد عارضوا ، في جميع العصور ، أنبياءَ الله تعالى ومرسليه ، ووقفوا في وجه الرسالات السماوية الهادية ، يريدون القضاء عليها ، كما فعل أهلُ مكة ، عندما بُعِثُ محمد (ﷺ) رسولاً ، وتلا عليهم الوحيَ ، إذ انبروا يعارضونَهُ ، ويستهزئون به ، مدعين ، بكل صلافةٍ وتعنُّت ، أنهم لو يشاؤ ون لقالوا مثل الآيات التي يتلوها عليهم محمد (ﷺ) ؛ لأنَّ ما يتلوه من قرآنٍ ، وما يبيّنه من قصص وأمثال ، إنْ هي إلاَّ أساطير وخرافات مأخوذة عن السابقين . .

ولم يكن ذلك القولُ من المشركين ، إلاَّ حلقة من سلسلة المناورات التي كانوا يقومون بها ، لصرف الناس عن آيات القرآن التي تخاطب الفطرة البشرية بالحق الذي تشعر به في أعماقها فتهتزّ وتستجيب ، وتخاطب القلوب بسلطان القرآن القاهر فترتجف لإيقاعه

ولا تتماسك إلاَّ به . ومن أجل هـذا كان يلجـأ العلية من قـريش إلى تلك الادعاءات الباطلة ، وهـم يعلمون أنها لا تجديهم نفعـاً ، ولكنهم كانوا دائمي البحث عن شيء يشبه الأساطير المعهودة في أساطير الأمم من حولهم ، ليموّهوا بها على جماهـير بسطاء العـرب الذين كـانت من أجلهم تـطلق تلك الأكاذيب الخـادعـة ، لـلاحتفـاظ بهم في حظيـرة العبـودية لأسيـادهم ! . . لقد عـرف بعض الملأ ، المـاكـر من قـريش طبيعة دعوة محمد (ﷺ) لهم ، لأنهم كانوا يعرفـون مدلـولات لغتهم الصحيحة . وكانـوا يعرفـون أن شهادة « أن لا إلّـه إلا الله وأن محمداً رسول الله » معناها إعلان التمرد على سلطان البشـر الظالم ، والخروج من حاكمية العباد جملة وتفصيلاً ، والفرار إلى ألوهيـة الله تعالى وحـده وحاكميته . . وكانوا يرون الذين يشهدون هذه الشهادة يخرجون لتوِّهم من سلطان قريش وقيادتها وحاكميتها ، وينضمون إلى التجمع الحركي الكـريم الحر ، الـذي يقوده محمـد (ﷺ) . . . نعم لم يكن مـدلـول الشهادة هو هذا المدلول الباهت الفـارغ الهزيل الذي يعنيه اليوم من يزعمون أنهم مسلمـون لمجـرد أنهم يشهدون هذه الشهادة بألسنتهم ، ويؤدون بعض الشعـائر التعبـدية ، في حـين أن ألـوهيـة الله تعـالى في الأرض ، وفي واقع حياة الناس لا وجود لها ، ولا ظل . . نعم لم يكن مدلول الشهادة ما نرى اليوم ، بل كان مدلولاً إيمانياً يقينياً ، هو الذي حمـل المسلمين الأوائـل عـلى التضحيـة ، والهجـرة من مكـة إلى بـلاد الحبشة، وهو الـذي حمل المستضعفين من أولئك المسلمـين على الصبر والاحتســاب واحتمــال الـعــذاب ، حتى يـقضـيَ اللَّهُ أمــراً كــان مفعولاً . . .

نعم لقـد حارب المشـركون الإسـلام بكـل الـوسـائـل ، ومنهـا

الادعاء الباطل ، بأنهم لو يشاؤون لقالوا مثل هذا القرآن . . والمثال على أحد أولئك الدعاة الكاذبين كان الخبيث النضر بن الحارث ؛ فقد كان ذلك المشرك يذهب إلى الحيرة للاتجار ، فيشتري الكتب التي فيها أخبار العجم ، ثم يعود ويحدّث بها أهل مكة ، موهماً إياهم أن ما يتلوه محمدٌ من آياتٍ قرآنية إنما هي مأخوذة عن تلك الكتب ! . . . ولو أرادَ المشركونَ الوقوف على الحقيقة يومئذٍ ، لكان بإمكانهم مقارنة ما يتلى عليهم من آيات قرآنية مع ما يقوله لهم النضر بن الحارث ، ولو فعلوا لوجدوا الفرق شاسعاً ، والبون بعيداً ، ولكنَّه الشرك الذي ملأ نفوسهم ، فأبعدهم عن الحقيقة ، وساقهم إلى الضلال . .

ومن كفار مكة الماكرين أيضاً الوليد بن المغيرة المخزومي ، الذي جاءَ النبيَّ (ﷺ) ليسأله عن الدعوة التي يدعو إليها . فشرح له الرسول الأعظم وأبانَ ما قدَّره الله تعالى عليه ، وأسمعه من الآيات القرآنية ، ما جعلَ قلبه يرقّ ، ويسكت بين يدي رسول الله (ﷺ) ، من غير أن يبدي أية معارضة . . ولكنَّ المتزعمين من قريش أنكروا عليه هذا الموقف ؛ فجاءته زمرةٌ منهم وعلى رأسهم أبو جهل اللعين ؛ فقال له : يا عم ! . . إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، فهم قد أرسلوك إلى محمد لتتعرض له ، وتدحض افتراءاته ، فما بالك قد سكت بين يديه ، وخرجت من غير أن تقول شيئاً به ؟ ! .

فقال له الوليد : لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً . .

فقال له أبو جهل : فقل في محمدٍ قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره . .

فقال له الوليد : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر ، ولا برجزه أو قصيده ، فوالله ما يشبه الذي يقوله محمد شيئاً من هذا . ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته . . .

قال عندها أبو جهل اللعين : وهل نتركه وشأنه ؟ فوالله لا يرضى عنك قومك حتى تقول في محمدٍ ! . .

قال الوليد : فدعني أفكر . . .

وجلس الوليد بن المغيرة يقدح زناد فكره حتى يقولَ بمحمدٍ (ﷺ) قولا ترضى عنه قريش . . ويصفُ اللَّهُ تعالى ، وهو يرقب من عليائه جميع الناس فرداً فرداً ، ويحصي عليهم حركاتهم وسكناتهم ، الفردية والجماعية . . يصف ـ سبحانه ـ ذلك القرشيَ الماكر ، بآياتٍ بالغات ، فيها منتهى الدقة والتصوير لما كان يظهر على وجهه من انفعالات وأماراتٍ ، تدليلاً على ما كانت تتخبط به نفسه من أحقاد دفينة على محمد (ﷺ) حين أرادَ أن يظهرها أقوالاً تخالف الحق ، وتؤيد الباطل. وفي وصف ذلك الماكر يقول عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[1] .

---

(١) المدثر : ١٨ ـ ٢٥ .

إنه الحكم الإلّهي على الوليد بن المغيرة . . الحكم بالقتل . ثم بالقتل مكرراً لتقديره الحاقد بأن يتقوَّل على القرآن المجيد ما ليس حقاً . فيدعي زوراً وكذباً بأنَّ الآيات التي يتلوها محمد (ﷺ) على الناس إنما هي سحرٌ مأخوذ من أقوال الساحرين ، في حين أن الوليد ، يعلم تمام العلم ، أن القرآن هو قولُ الله عز وجلَّ ، ولا يمكن لأحد من الناس أن يقول مثله . .

أولم يشهد الوليدُ على نفسه بأنه يعرف لغة العرب صحيحها من باطلها وبليغها من ركيكها ، وقد سمع القرآن ، فكيف يجيز لنفسه أن لا يقولَ الحق ؟ ! . .

وفي تصوير أمارات وجهه ، وحركاته ، يبرز ذلك الحاقدُ ، حائراً ، مرتبكاً ، وكأنه كلما لاحت له فكرة نظر إلى القوم من حوله ، يريد أن يقولها ، ثم لا يلبث أن يتركها ، ليعود من جديد إلى العبوس والتجهم ، مع ما يرافق عبوسه من انقباض وكلوح . . . وهكذا يعود إلى الغرق في التفكير ، ثم يعبس ويبسر ، فيزيد انقباضاً وكلوحاً . . ويظل على هذه الحالة من التأزُّم في نفسه حتى يجد الفكرة الخبيثة ، التي تجعله مُدْبِراً عن الإيمان ، مستكبراً عن اتباع الحق . . . وها هو ينطق بفكرته تلك مُدَّعياً أن ما يقوله محمد ليس إلَّا سحراً يؤثر عن السحرة ، وما هو بقرآنٍ منزَّل من السماء ! . . .

ذلك كان تقدير الوليد بن المغيرة ، كما قاده إليه تفكيره . ولكن الحكم الإلّهي كان قد صدر عليه بالقتل . وقتله سوف يكون ، كما قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا

مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ[1] .

إنه الحكم على ذلك الكافر الكاذب من عتاة قريش . فهو كافر كاذب ، لأنه قد كفر بالقرآن ، وكذَّب محمداً (ﷺ) . . ولكنه أيضاً الحكم الذي ينطبق على كل مكذب بآيات الله تعالى ، وبقرآنه المجيد ، ولا يؤمن بنبوة رسوله الكريم . .

والحكم الذي يستحقه كلُّ مكذب ، معاند ، هو العذابُ الخالد في نار جهنم المحرقة ، ذلك العذابُ الذي يشبِّهه القرآن الكريم بالقتل ، تدليلاً على شدته وقسوته ، لأنه ليس أقسى من القتل على الإنسان . ثم تؤكد الآيات المبينات على ذلك العذاب تكراراً ، في جهنم ذات الشأن العظيم ، التي لا تبقي على شيء ، ولا تذر شيئاً يدخل فيها إلَّا جعلته شِواءً ، إذ تلتهمه التهاماً ، لتحيله وقوداً لها . . ثم لا يستحيل فيها إلى رمادٍ وتنقضي مدته، ولا يحترق ويفنى فينتهي عذابه ، بل كلما نضج في حرها عاد كما كان ، وعاوده عذاب القتل حرقاً كأشد ما كان . هكذا تشوي نار جهنم المفترين على آيات الله ، وعلى رسله ، كذباً ؛ إذ يتقلّبون فيها بعذاب دائم ، لا يحول ولا يزول . . ومن أجل ذلك كان لسقر (جهنم) ذلك الشأن العظيم

---

(١) المدثر : ٢٦ ـ ٣١ .

وهي تقتل الكافرين على ذلك النحو الأليم !! . .

وتبيّن الآيات الكريمةُ أن الله تعالى جعل على جهنم تسعة عشر خازناً ، أي حارساً . وقد سمّاهم ـ سبحانه ـ أصحابَ النار ، وهم من الملائكة . أما لماذا جعل عدتهم تسعة عشر ، بهذا العدد المحدد ، بدون زيادة أو نقصان ، فلكي تكون هذه العدة فتنةً للذين كفروا ، بحيث يتيهون في معرفتها ، فيقعون في القلقِ والتخبُّط . . وقد برزت فعلاً تلك الفتنة للكفار ، بعد نزول هذه الآيات المباركة . فمنهم من أخذها على محمل الجد ، وراح يتفكَّر في معناها ، حتى أشقته دون أن يبلغ الحكمة الإلّهية في مقصدها ، ومنهم من أخذها على محمل الهزء والسخرية لضآلة العدد ، إذ اكتفوا بظاهر النص ، دون الولوج إلى مقاصده ؛ ومن هؤلاء كان أبو جهل الذي قال : يا معشر قريش ! . . يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً ، فهل يعجز مئة رجل منكم عن رجل منهم ؟

وقال آخر من قريش يدعى أبا الأشد : يا معشر قريش ! . . لا يَهُولَنَّكم التسعة عشر ، أنا سأدفع عنكم بمنكبي الأيمن هذا عشرة ، وبمنكبي الأيسر تسعة . .

وهكذا كانت عدةُ خزنة جهنم فتنةً للكفار، بحيث اختلفوا فيما بينهم على تأويلها ووقعوا في الحيرة من أمرها لا يدرون لها تفسيراً ، مما زادهم فتنةً في نفوسهم ، وشقاقاً فيما بينهم . .

أما بالنسبة لأهل الكتاب فإن عدد خزنة النار يزيدهم استيقاناً ببعث محمد (ﷺ) وبصدق رسالته ، لأن هذا العدد جاء مطابقاً لما عرفوه في كتبهم السماوية .

أما المؤمنون ، فإنهم لا يتوقفون عند العـدد ، لأنهم يعلمون أنَّ ما جاء من ربهم هـو الحقُّ ، ولكن تفكيرهم ينصـرف إلى تصوّر شـأن جهنم العـظيم ، وما أعـدَّ فيها للكـافـرين من العـذاب الأليم ، بينـما هم ، يعدُهم ربهم بجنات خلدٍ عرضها السمـاوات والأرض ، أعدت للمتقين ، فيزدادون إيماناً واحتساباً . . ثم إن هذا العدد لا يرتابُ ولا يتخوَّف منه ، لا أهل الكتاب ، ولا المؤمنون ، بل يقولون : سبحـان الله العظيم الحكيم ، أوكل إلى مـلائكته مهـامَّ ، وكلَّفهم بأعبـاء ، لا يقدر عليها البشر ، ولا يحتملون القيام بهـا . . . في حين أن الـذين في قلوبهم مـرضُ الشـك والنفـاق ، ومثلهم الكـافـرون ، يحيّـرهم عـدد الملائكة الموكلين بجهنم ، فيقولون : ماذا أرادَ اللَّهُ بهـذا العدد مثـلاً ؟ ممـا يبـين إقـرارهم بـأنهم تـاهـوا عن الحقيقـة ، ووقعـوا في الحيـرة والضـلال . . كذلـك ، أي مثل إضـلال منكر هـذا العـدد ، وهـدى مصدقه ، هكذا يضل الله تعـالى من يشاء ، ويهـدي من يشاء . . أمـا عـدد جنـود الله ، سـواء الـذين منهم كلفـوا بجهنم ، أم غيـرهم ممَّن أعـدَّهم سبحانـه لكل أمـر ، فلا يعلمهم ، ولا يعلم عـددهم إلاَّ هو سبحانه . . وما هذه الأمور جميعاً ـ سواء جهنم ، أو خزنتهـا ، أو فتنة الكافرين ، واستيقان أهل الكتاب ، وزيادة إيمان المؤمنين ـ إلاَّ ذكـرى للبشر ، تستوقفهم للتفكّر والتدبّر . .

فـإذا سأل معتـرض : ولم قال الله تعـالى : ﴿ ولا يرتـاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ مع أن الاستيقان وازدياد الإيمان يدلَّان عـلى انتفاء الارتياب ؟ قيـل له : لأنـه إذا حصل لهم إثبـات اليقين ، ونفي الشـك ، زادهم ذلك تـأكيداً ، وثبـاتاً عـلى دينهم ، وكان أكـثر نفعـاً لسكينـة نفوسهم ، وراحـة قلوبهم ، فيكونـون بخـلاف المـرتـابـين ،

والمشككين ، والكافرين الذين تتآكل نفوسهم بعوامل القلق والحيرة ، وعدم الإيمان ، لا سيما وقد ضلُّوا بفتنة نفوسهم . .

وإذا سأل آخر : ولِمَ كان ذكر المنافقين ، الذين وصفهم الله سبحانه و ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ مع أن الآيات أنزلت في مكة ، ولم يكُ فيها نفاق ، كما ظهر في المدينة ؟ قيل له : إن المعنى هو بيان حال المرتابين ، والمشككين في كل زمان ، ممن لا يقبلون على الإسلام ، فهؤلاء يظلون فريسة للشك مع ما يرافقه من عقد وأمراض نفسية ، فتكون الآيات القرآنية دليلاً على أحوالهم أينما وجدوا ، وباعثاً لهم على فهم الإسلام ، والدخول في رياضه الغنّاء ، إذا ما أرادوا شفاءً من أمراضهم ، ومن كل ما يتقلّبون فيه ويتخبَّطون . .

٢ ـ المعرضون عن الآيات كالحُمر الوحشية

يقول الله تعالى :

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ (١) .

رغم أن القرآن المبين ، يدل الناس على الأصول الصحيحة ، والقواعد السليمة في معاملتهم لأنفسهم وللآخرين ؛ ورغم أنه يؤكد

(١) المدثر : ٤٩ ـ ٥٦ .

حقيقة البعث والجزاء ، فإنَّ كثيرين منهم قد أعرضوا عن خالقهم ، وعن آياته المجيدة حتى باؤوا بالخسران ، وستُفْتح لهم أبواب الجحيم يوم الدينونة . فلو سئل أصحاب النار : ما أدخلكم فيها ؟ لأجابوا بقوله تعالى: لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ (في الباطل) . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ (البعث والحساب) . حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ (الموت)[(١)] .

فالمعرضون عن ربهم ، المخالفون لأوامره ونواهيه ، والمعرضون عن الاتعاظ بآيات كتابه المبين ، هؤلاء ، يصفهم - سبحانه - بالحمير الوحشية التي تفرُّ لرؤية الأسد ؛ أي أنهم يُعرضون عن ذكر الله تعالى ، ويفرون من هذا الذكر كفرار تلك الحمير لشدة خوفها من الأسَدِ الذي تخشى افتراسه لها. وهذا التشبيه لهم من بديع القياس التمثيلي لأن الإعراض عن آيات الله تعالى هو دليل الجهل والضلال ، فكأنهم لا يعقلون كالحيوانات البرية المستوحشة . . ولأن تعبير « المستنفرة » أبلغ معنىً من « النافرة » أي أنها لشدة خوفها يستنفر بعضُها بعضاً ، ويحثّهُ على الهرب . . وهذا حال المعرضين عن الحق ، الذين لا يكتفون بإعراض نفوسهم ، بل يتواصون فيما بينهم ، ويتواطأون ويحضُّون عليه . . ولكن لماذا هذا الإعراض ، وهذا التعنُّت والاستكبار على آيات الله تعالى ؟ بل ماذا يريدُ أهل الكفر والإلحاد ؟ هل يريد كل امرىء منهم أن يُنزَّل عليه كتابٌ من السماء يدعوه إلى الإيمان ؟ أم يريد أن تتنزَّل عليه صحيفة براءة بالعفو من العقاب وإسباغ النعمة عليه ، حتى يؤمن ؟ أم يطمع كل امريء بأن

(١) المدثر : ٤٣ - ٤٧ .

يكون رسولاً يوحى إليه ؟ كلا ! لن يكون لأحدهم شيء من ذلك . . بل هُمْ في إعراضهم قد نسوا الآخرة وعذابها فلا يخافونها ، إذ لو تذكروا الآخرة ، وخافوها ، لما أعرضوا ، ولما جحدوا وأنكروا . .

كلا ! أيها الكفار ، إنَّ الحق حقٌّ ، وليس كما تتصورون وتتوهمون ، فها هو القرآن تذكرة لكل عبد منيب ، فيه آيات محكمات ، وعظات بيّنات ، فمن شاء فليتخذ القرآن كتابَهُ ، فيذكر الله تعالى، ويتّعظ بآلائه وأحكامه ؛ وما يذكر المعرضون ، أو يتذاكرون ، إلاّ أن يشاء اللّهُ تغيير ما في نفوسهم ، وهداية قلوبهم . وهو سبحانه غنيٌّ عنهم ، لأنه أهلٌ بذاته لأن يُتّقى وهو سبحانه أهل لأن يغفر لمن تذكَّر ، فذَكَرَ اسمَ ربه ، فصلَّى واتقى . .

٣ ـ ادِّعاء الوحي افتراء على الله وظلم للنفس

قال تبارك وتعالى :

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١) .

---

(١) الأنعام : ٩٣ .

كان الهجوم من المشركين والكافرين عاتياً على الإسلام منذ أن بعثَ اللَّهُ تعالى محمداً (ﷺ) بهذا الدين القويم. فقد بذل أعداء الإسلام جهوداً مضنية، واستعملوا شتى الوسائل والأحابيل لمنع هذا الدين من الانتشار... ومن جملة ما ادعوا، افتراءً وكذباً، نزول الوحي على بعضهم، وتقوّلهم بأنهم أنبياء مثل محمد (ﷺ). فنزلت من لدن العزيز الحكيم هذه الآيات التي تكذب افتراءاتهم وتهددهم بما ينتظرهم من العذاب الأليم، مبيّنة أنَّ أشدَّ الناس ظلماً هو من افترى على الله كذباً وقالَ: ﴿ أوحيَ إليَّ ولم يوحَ إليه شيء ﴾.. ذلك أن الظلم مقيت، وقاتل، ومكروه من الله سبحانه، ومن العباد. ولكم قامت عند أهل الأرض دعوات ضد الظالمين، المستبدين من أبناء جنسهم، وتجاه بعضهم البعض.. فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للناس، فهل يكون أظلم ممن افترى على الله كذباً؟ وبمَ كان افتراؤه؟ بالأمر الذي لا يمكن للإنسان، أيِّ إنسان، ولا للمخلوق، أيِّ مخلوق، أن يأتيه، وهذا الأمرُ هو ما اختصَّ به اللَّهُ تعالى نفسه، ألا وهو تنزيل الوحي على النبيين والمرسلين.

إذن فقد ادَّعى بعض المشركين كذباً بأنه أوحيَ إليه، كما فعل مسيلمة الكذاب. وقد ادَّعى بعضهم زوراً وبهتاناً بأنه يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن كما أنزله الله تعالى على نبيه محمد (ﷺ)، كما فعل عبداللَّه بن سعد بن أبي سرح؛ فقد روي أنه كان يكتب الوحيَ للنبي (ﷺ)، فكان إذا قال الرسول الأمين: «اكتب عليماً حكيماً»، كتب: غفوراً رحيماً. وإذا قال له: «اكتب غفوراً رحيماً» كتب: عليماً حكيماً؛ فلما انكشف أمره لرسول الله (ﷺ)، ارتدّ ولحق بالمشركين، الذين نشطوا بالحيل، والأكاذيب، والدسائس ليطفئوا

نـور الله بـأفـواههم ، ويـأبى اللَّهُ تعـالى إلاَّ أن يتم نـوره ولـو كـره الكافرون . .

فكل من افترى على الله كذباً ، بمثل ذلك الافتراء ، هـو ظالم ، بل ليـس أحد أظلم منه على الإطلاق ، إذ هو أظلم الظالمين . .

وبعد هذا البيـان لحال المفتـرين ، يخاطبُ اللَّهُ سبحـانه رسـولَهُ محمداً (ﷺ) ، مصوّراً له ما سيحلُّ بأولئك الظالمين المفترين ، بقـوله تعـالى : ﴿ ولو تـرى إذ الظالمـون في غمرات المـوت والملائكـة باسـطو أيديهم ﴾ إليهم بالضـرب ، والتعذيب ، وهم يقـولون لهم : أخـرجوا أنفسكم من هـذا العـذاب إن كنتم تستـطيعـون . . ولكنـكم لـن تقدروا ، لأنكم اليوم تعاقبون بالعذاب المهين بسبب ادعـائكم الكاذب بـالإيحاء إليكم، وبمـا كنتم تقولـون على الله غـير الحق ، وبما كنتم عن آيـاته الكـريمة الحكيمـة تتعالـون وتستكبرون . . هـذا هو اليـوم الذي ينتظركم ، فما قدرتموه حق قـدره ، وما حسبتم أنكم تبعثـون ، وأنكم ستحاسبون عـلى كل مـا قلتم وفعلتم . . فاليوم تجـزون العذاب الـذي تستحقون . .

فيا سبحان الله ، كيف يعرف الناس هـذا ، ويظلمـون أنفسهم وغيرهم ! أفلا يتدبَّرون القرآن وينتفعون بهدايته ؟ ! . .

٤ ـ الله أعلم حيث يضع رسالته

قالَ عزَّ من قائل :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾(١) .

بعد أن افتضح أمر المفترين الذين ادعوا بأنه أوحيَ إليهم ، سلك مشركو قريش طريقاً آخر في المكابرة ، فكانت إذا نزلت آيات الله العظيم على رسوله الأمين ، قالوا : لن نؤمن حتى ينزّل اللَّهُ علينا مثل ما ينزل على رسله . ولكنَّ الله تعالى ردَّ عليهم بالحق الذي لا مناص منه بقوله سبحانه : ﴿ الله أعلم حيث يضع رسالته ﴾ . فهو العليم الخبير بمن هو أهلٌ لحمل الأمانة ، والقيام بأعباء الرسالة . فلا يجوز للعباد الاعتراض ، لأن الحكم لله وحده ، وهو يفعل ما يشاء وهو الحكيم الخبير . .

وكان الوليد بن المغيرة المخزومي نموذجاً لأولئك الماكرين ، إذ كان يعتبر نفسه أكثر أهليةً للنبوة من محمد (ﷺ) ، لأنه أكبر منه سنّاً ، وأغنى مالاً وجاهاً ؛ ولم يتورَّع عن المجاهرة بذلك أمام ملأ قريش ، ومعارضة النبي (ﷺ) بأنه أحق منه بالنبوة . .

وممَّا يعبّر عن كيد أولئك المشركين أيضاً ، ما زعمه أبو جهل اللعين ، بلسان قومه جميعاً ، حيث قال : « زاحمنا بنو عبدمناف في الشرف ، فقالوا : منا أمير . فقلنا : منا أمير . . حتى إذا صرنا كفرسَيْ رهان ، قالوا : منا نبيٌ يوحى إليه . والله لا نؤمن به ولا نتّبعه ، إلاَّ أن يأتينا وحي كما يأتيه » . .

فالمعترضون على أمر الله لهم خزيٌ في الدنيا والآخرة . وأما

---

(١) الأنعام : ١٢٤ .

جهرهم بعدم الإيمـان إلّا أن يأتيهم الـوحيُ ، فهو جرم كبير يُعـاقبون عليـه ، وعقاب هـذا الجرم الصَّغَارُ والذلُّ عنـد الله العزيـز الجبّـار ، والعـذاب الشديـد بما كـانوا يمكـرون ، أي بسبب مكرهم ذاك الـذي اختبأوا وراءه لئلا يتبعوا محمداً (ﷺ) ، ويأتمروا بحلاله وحرامه . .

لقد آثروا الابتعاد عن الإسلام ، لأنهم لم يـريدوا أن يؤمنـوا إلّا بحسب أهوائهم ونزعاتهم ، وقياساً على مصالحهم . أما وتلك حـالهم فذلك شـأنهم ، ولكن حقت عليهم كلمة ربهم ، وسينـالون العـذاب ألـوانـاً . .

أمّا مشيئة الله سبحانه في خلقه ، وهدايته للمؤمنين والمـوقنين ، وإضلاله للمنكرين المستكبرين يبينه الله في قوله تعالى :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

فالدين عنـد الله الإسـلام حقيقـة يقررهـا القرآن ، ولا مجـال لإنكارها ، أو الادعاء بخلافهـا . . فمن يرد الله أن يهـديَهُ من هؤلاء العبـاد يشرح صـدره لهذا الـدين ، فتمتلىء بـه جوارحـه ، ويفعم بـه قلبـه ، ثم يقوّي فيـه دواعي الاستمساك بـه . وقد سئـل رسـول الله (ﷺ) : كيف يشرح الله صدره يـا رسول الله ؟ قـال : « نور يقـذفه الله في قلب المؤمن فينشـرح له وينفسـح » . قالـوا : فهل لـذلك من أمـارة يُعرف بهـا ؟ قال : « الإنـابة إلى دار الخلود ، والتجـافي عن دار

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .

الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » .

فهذا شأن من يريد اللَّهُ تعالى أن يهديه ؛ يملأ قلبه بنور الإيمان الصادق الذي لا يكون إلَّا بالإسلام .

أما من يرد اللَّهُ تعالى أن يُضلّه ، فإنه يجعل صدره ضيقاً عن استيعاب الإسلام ، فلا يتقبَّل هداه ، بل وتتأزم نفسه بوساوس الشيطان التي تضغط على قلبه وصدره حتى ليشعر من شدة هذا الضغط بأنَّ صدره قد ضاق كأنما يقذف به في السماء فيحلُّ به من هول هذا القذف ، الضيق والحرج اللذان هما عليه أعسر من الموت .

ولكن لماذا هذا التشبيه في القرآن ﴿ كأنما يصعّد في السماء ﴾؟

تدل الاكتشافات العلمية أن الإنسان ، عندما يصعد في الفضاء ، ويخرج من جاذبية الأرض ، يحتاج إلى الأوكسجين الذي لا وجود له خارج فضاء هذه الأرض . وبما أنه لا حياة للإنسان بلا أوكسيجين ، وإلَّا مات اختناقاً ، مع ما يرافق هذا الاختناق من شعور بضيق الصدر وحرجه ، وبالآلام المبرحة الناتجة عنه ، فهكذا حال من يضله اللَّهُ تعالى ، إذ يسلط عليه الوساوس ، والهموم ، والأثقال ، والقلق والاضطراب ، حتى ليشعر كأنما يصعّد في الفضاء بلا أوكسيجين يمدُّهُ بالحياة . فكأنما أرادَ اللَّهُ تعالى أن يبين لنا بأن الإسلام هو سبب الحياة ، وهو سبب هنائها وراحتها ، وأنه بدون الإسلام تضيق الصدور ، وتقلق القلوب ، ويلازم العالَمَ الشقاءُ والبؤس . . من هنا الدليل على أن القرآن لم يُنزل إلى جيل من الناس ، ولا إلى أمة معينة أو مجتمع معين ، وهو ليس مقصوراً على عصر من

العصور ، بل هو لكل العصور ، وللناس كافة ، مشعل هداية ، ومصدر علم ومعرفة . .

٥ ـ الكافر كمن هو في الظلمات لا يخرج منها

قال الله تعالى :

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) .

الحياة والموتُ يعتبران أهم حدثين في حياة الإنسان ، لما لهما من أثر بالغ عليه . ففي الحياة يتجسَّدُ وجود الإنسان ، وتتحقق كل مظاهر آماله وطموحاته . وفي الموت يتم انتزاع ذلك الوجود ، والقضاء على تلك الآمال والطموحات . . ومن هنا كان تشبيه القرآن الكريم للإيمان بأنه حياة، وللكفر بأنه موت .

والصورة الحسية التي تطالعنا بها الآية الكريمة هي إحياء الأموات . فإذا ما رأينا ميتاً يحيا من جديد ، فكم يكون لهذه الصورة من تأثير على نفوسنا ؟ ! . . على أنه ليس المقصود من هذه الآية المباركة التركيز على تلك الصورة الحسية ، بل المقصود هو الصورة المعنوية التي ترسم الإنسان الكافر ، الذي يكون بمثابة الميت في كفره ، فيحييه اللَّهُ تعالى ، بهديه إلى الإيمان ، وتخليصه من الكفر . . ولكي يظل على هذا الإيمان ، فإنَّ الله سبحانه يجعل له نوراً يمشي به في الناس ، فما هو هذا النور العظيم ؟ إنه القرآن الكريم ، كتاب

(١) الأنعام : ١٢٢ .

الإسلام الذي يحمل هداية الله تعالى لعباده ، بما فيه من علم ، وحكمة ، وعظة ، وبيان لكل الحقائق التي تهدف إلى خير الإنسان ونصحه . . وقد جاءت تسمية القرآن بالنور ، في أكثر من آية مباركة ، مثل قوله تعالى : ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١) .

فالقرآن نور يحمله المؤمن في قلبه ، وعلى لسانه ، وبين يديه ، ويمشي به في الناس ، تالياً آياته ، مفسّراً معانيه ، ناشراً عظاته . ولكنّ السؤال هو : هل يمكن أن يكون المؤمن ، الذي رضي الله تعالى عنه ، فأخرجه من الظلمات إلى النور - أي من الكفر إلى الإيمان - مثل من يبقى في ظلمات الجهل والكفر لا يخرج منها ؟

لا ، فإن من بديهيات القول أن الظلمة هي عكس النور. وقد وردت في القرآن الكريم تسمية الجهل بالظلمة ، مثلما وردت تسمية الإيمان بالنور . . فيكون الكافر هو الجاهل الضال ، القابع في غياهب الظلمات لا يبصر علماً ، ولا يرى نوراً ، فكيف يهتدي إلى حقائق الأشياء ؟ بل وكيف يهتدي إلى الإيمان وقد بلغ من كفره وحيرته مبلغاً حتى صار يضرب به المثل لمن يقبع في الظلمة السحيقة ؟

وبالمقارنة ما بين المؤمن والكافر ، ووصفهما بالحي والميت ، أورد القرآن الكريم هذا الوصف في آيات عديدة ، كما في قوله تعالى :

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (٢) .

---

(١) التغابن : ٨

(٢) النمل : ٨٠.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ (١) .

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ (٢) .

ومن هنا كان التعبير عن : القرآن ، والإيمان ، والعلم ، « بِالنور » الذي به الإبصار والاهتداء ؛ كما كان التعبير عن الكفر : بالظلمة والجهل والضلال . ولذا سمي الكافر ، في القرآن الكريم ، بالأعمى الذي تغطي الظلمة بصره وبصيرته ، كما في قوله تعالى :

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ (٣) .

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ (٤) .

فالاختلاف كبير إذن ، بين الإيمان والكفر . وهو كذلك بين المؤمنين والكافرين . . . وكما زيّن للمؤمنين الإيمان ، فكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون من المعاصي والذنوب .

والله تعالى قد جعل الإيمان يعمر قلوب المؤمنين ، فكانوا راضين مرضيين ؛ بينما أحاطت شياطين الإنس والجن بالكافرين ، فأوقعتهم في الضلال والبهتان ، فعصوا الرحمان بأقوالهم وأفعالهم ، وزين لهم ما كانوا يعملون ، فعاشوا ضالين ، وهم في الآخرة ، من الخاسرين .

---

(١) يس : ٧٠

(٢) فاطر : ٢٢ .

(٣) فاطر : ١٩

(٤) الرعد : ١٩ .

٦ ـ دخول الكافرين إلى الجنة مستحيل

قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾[1]

واضح في الآية الكريمة أن الذين كذبوا بآيات الله تعالى واستكبروا عن اتباعها . . وهم المكذبون والمستكبرون ، لا يمكن أن تفتح لهم أبواب السماء ، إذا عرج بأنفسهم بعد الموت ، لأنها نفوس خبيثة ، أنكرت الحق واستكبرت عنه ، فحقت عليها اللعنة . . وعن البراء قال : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلى السماء ، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلّا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقال لهم : فلان (بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا) . حتى تنتهي إلى السماء ، فيستفتح بابها ، فلا يفتح لها . . ثم قرأ رسول الله (ﷺ) : « لا تفتَّح لهم أبواب السماء » .

وبما أن أبواب السماء لا تفتح للكافرين ، فصار من المستحيل عليهم دخول الجنة . وهنا يضرب الله تعالى أروع مثل على هذه الاستحالة ، إذ يقول عز وجل : ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ . . فسم الخياط هو ثقب الإبرة ، وهو ما يضرب به المثل عن ضيق المسلك ، فقيل « أضيق من خرم الإبرة » ؛ كما أن جسم الجمل هو مثال عن الضخامة ، فيقال : « جسم الجمال

---

(١) الأعراف : ٤٠ .

وأحـلام العصافـير » . . إذن فـروعـة المثـل القـرآني أن الكـافـرين لا يـدخلون الجنـة حتى يـدخـل الجمـل بجسمـه الكبـير في ثقب الإبـرة الصغيرة ، وهذا ما لا يمكن أن يحصل أبداً ، لأنه شـرط استحالـة . . إذ لو تصوَّرنا مشهد الجمـل أمام ثقب الإبـرة ، ولو تصـوَّرنا أنـه حين يتسـع هذا الثقب لاستيعـاب الجمل ، فحينئـذٍ يمكن أن نتصـوَّر بـأن أبواب السماء تفتَّح للذين كذبـوا بآيـات الله واستكبروا عنهـا ، وحينها فقط يقبل دعاؤهم أو تقبـل توبتهم ، فيـدخلون الجنة . . أمـا الآن ، وإلى أن يصـير ممكنـاً دخـول الجمـل في سم الخيـاط ، فـإنهم في النـار قابعون . وكذلك يجزي اللَّهُ تعالى ، ويعـاقب ، هؤلاء المجرمـين على ما كذبوا واستكبروا . .

أعمال الكافرين

١ ـ مثل البعوضة امتحان للعباد

قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ (١) .

صغار الأشياء قد يكون لها فوائدها العظام . فهلّا رأيت العين في الرأس كم تبدي لك من مشاهد ، ولولاها لكانت الحياة ظلاماً دامساً ؟ وهل تفحصت هذه الإبرة الصغيرة ، فكم تخيط من أثواب وألبسة للناس ؟ أم هل عرفت بأن في الورقة الخضراء الصغيرة للنباتات يكمن التمثيل الكلوروفيلي الذي ينتج عن تفاعله غاز الأوكسيجين الضروري لحياة الكائنات الحية ، بينما تتنفس هذه الورقة بغاز ثاني أوكسيد الكربون أثناء النهار ـ وهو الغاز الضار بالإنسان ـ

(١) البقرة : ٢٦ .

لتبقى على اخضرارها ؟ وهذه الزهرة الجميلة ، كم هي على صغرها ، فوّاحةٌ للعطر ، بهيجة للنظر ، باعثة للراحة في النفوس ؟ أم هل تأملت النحلة ـ الحشرة الصغيرة ـ التي تصنع عسلاً صافياً فيه شفاء للناس ؟

وقِس على ذلك أشياء ، وأشياء مما يمتلىء بها الوجود من حولنا ، ومما هي صغيرة الحجم ، والتي يضرب بها المثل للتدليل على أمور هامة ، أو معاني مفيدة . . ومن هنا استُحسن ضربُ المثل بهذه الأشياء الصغيرة ، رغم حقارتها في نظر الناس ، فقال الفرزدق مثلاً :

وهل شيء يكون أذلَّ بيتاً من اليربوع يحتفر الترابا ؟

ثم إذا كانت الحكمة الإلَهية قد جعلت لكل شيء قيمة وقدراً ، فلا ينبغي للإنسان أن يستهين أو يحقر أي شيء ، مهما صغر حجمه ، لأنَّ في خلقه حكمة قد يعرفها البشر ، وقد لا يعرفونها . . فها هي البعوضة ـ الحشرة الصغيرة ـ يضرب الله سبحانه بها المثل لبيان بعضٍ من حكمته السنية . .

وروعة هذا المثل أنَّه من الخالق العظيم ، الحكيم ، ليضعنا أمام الحقيقة الناصعة ، ألا وهي أنه سبحانه لا يستحي أن يضرب مثلاً بشيء هو صانعه . وحاشاه سبحانه أن يستحي لأنه هو خالق الخلائق ، والحياء من طبيعة هذه الخلائق ، لا سيما وأنَّ عليها فرض الحياء من ربها كلما اقترفت معصية أو ارتكبت ذنباً . فهي تخضع لرقابة الله تعالى، الذي يعلم السرَّ والنجوى ، فحريٌّ بها الحياء من الرب القدير لتمتنع عن المعصية والذنب . . ذلك بأن الاستحياء هو الانقباض عن الشيء ، فإذا ما أحسَّ الإنسان بالحياء انقبض عن هذا

الشيء وتركه ، لأنه يشعر في قرارة نفسه بأنَّ فيه مخالفة للنواميس أو للقوانين أو للأعراف والنظم . . ولكن ، كيف يستحي خالقُ السنن ، والنواميس والأعراف والقوانين والنظم ، وهو الذي يسيّرها ، ويديرها ويدبرها لقوام الوجود كله وانتظامه ؟ . وهذا ما أراد اللَّهُ ـ جلَّ جلاله ـ أن يبيّنه لنا بالآية الكريمة ، منزّها نفسه عن الاستحياء ، ولذلك فهو سبحانه لا يستحي أن يضرب المثل بالبعوضة الصغيرة ، الضئيلة ، ولا بما هو أكبر وأجلُّ شأناً منها . . وما المثل بهذه البعوضة إلَّا امتحان لعباده ، يتميّز به المؤمنون عن الكافرين . .

إذن فالعبرة في المثل لا تكون بالحجم ، ولا بالشكل أو النوع ، لأن الأمثال وسائل للتنوير والتبصير ، وليس في ضربها مايعيب الضارب ، أو أن يحقر الشيء المضروب به . . واللَّهُ تعالى يريد بالمثل اختبار القلوب ، وامتحان النفوس ؛ ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ ، لأنَّ إيمانهم بربهم يجعلهم يتلقّون كل ما يصدر عنه بالقبول واليقين والتسليم ، لأنه صادر عن صاحب الشأن . فكان إيمانهم نوراً في قلوبهم ، وتفتحاً في مداركهم . ويدخل في هذا الإيمان ، التصديق بمحمدٍ (ﷺ) رسولاً ، بشيراً ونذيراً للعالمين ، وبالقرآن الذي نزل عليه من ربه ، وبالدين الذي كلّف بإيصاله للناس كافة . . ﴿ وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ .

إنه سؤال من لا يرجو لله وقاراً (استغفر الله) ولا يتأدب بالأدب اللائق بالعبد تجاه حكمة الرب العلي القدير . يقولون قولهم بجهل وقصور : في صيغة الاعتراض والاستنكار ، أو في صورة

التشكيك بصدور مثل البعوضة عن الله تعالى ، وما ذلك إلَّا لعدم تدبرهم للمثل ، وإنكارهم للحق ، وما هذا الإنكار إلَّا لأنهم كافرون . .

وعلى سؤالهم يأتيهم الجواب من ربِّ الأرباب ، بصورة التهديد والتحذير ، بما وراء المثل من أمرٍ بالتفكّر والتدبُّر : ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ .

والله سبحانه يطلق الابتلاءات والامتحانات تمضي في طريقها ، ليتلقاها كلٌّ وفق طبيعته واستعداده ؛ وكل حسب طريقه ومنهجه الذي اتخذه لنفسه ، والابتلاء واحد . . فإذا ابتلى اللَّهُ تعالى المؤمنَ بالنعمة وسعة الرزق ، زادته النعمة والرخاء يقظةً وحساسية وشكراً . أما الكافر أو الفاسق فتبطره النعمة ويتلفه الرخاء ، ويضله الابتلاء . . وهكذا المثل الذي يضربه اللَّهُ تعالى للناس ، فإنه يضل به كثيراً ممن لا يحسنون استقبال ما يأتيهم من الله الحكيم الكريم ؛ ويهدي به كثيراً ممن يدركون حكمة الله ؛ وفي النهاية لا يُضل به إلَّا الفاسقين الخارجين عن طاعته ، وهديه سبحانه .

فما أعظم شأن هذا المثل الذي ضربه اللَّهُ تعالى لعباده ، واستنكره الكافرون ! . . .

ومن ناحية أخرى ، فإنه وإن كانت البعوضة حشرة طائرة صغيرة ، إلَّا أنها مثالٌ على قدرة الله تعالى في الخلق . فكيف لا تكون آية للناس ، دالّة على عظمة الخالق القادر ؟ فقد روي عن جعفر الصادق (ع) أنه قال : « إنما ضرب اللَّهُ تعالى هذا المثل لأن البعوضة على صغر حجمها ، خلَقَ الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره ،

وزيادة عضوين آخرين ، فأراد الله تعالى أن يُنبّه بذلك المؤمنين على لطيف خلقه ، وعجيب صنعه ، وعظيم قدرته » .

٢ ـ أعمال الكافرين كرمادٍ تذروه الرياح

قال تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ (١) .

ما من شك في أن عمل المؤمن يكون بالامتثال والطاعة لله تعالى، والعمل بأوامره ونواهيه ، بينما يكون عمل الكافر بالجحود ، والعصيان للأوامر والنواهي الربانية . وأعمال الإنسان هي عادة مرآةٌ لدخيلته ولِمَا تنطوي عليه نفسه ؛ فإن كان مؤمناً أشاعَ الخير بين الناس ، بينما تنعكس أعمال الكافر شرّاً محضاً . .

وكما أن الأعمال هي مرآة للنفس ، فهي أيضاً الطريق إلى الآخرة ، فكيف تتبدّى أعمال الكافرين يوم القيامة ، حيث يقف جميع الناس للحساب ؟

لقد أجابَ القرآن الكريم على هذا السؤال بأن ضرب المثل على تلك الأعمال بالرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف ، فبددته هباءً منثوراً . .

والصورة هنا جلية . . فالرماد هشٌّ ، خفيف ، لا يقوى على

---

(١) ابراهيم : ١٨ .

شيء ، ولا يصمد أمام أية حركة تحدث فوقه ؛ وهو إذا فَجَأَهُ يوم عاصف ، فيه رياح قوية عاتية ، قد تقتلع كل ما يعترض اندفاعها ، فإنها لا تكاد تصل إلى ذلك الرماد إلَّا وتذروه جزئيات صغيرة ، ثم تحيل هذه الجزئيات إلى ذرات مبعثرة ، وتقذف بها إلى البعيد البعيد ، حتى يصير الرمادُ وكأنه في دنيا العدم . . وهكذا أعمال الكافرين ، مثلها كمثَل هذا الرماد ، فإنها مهما كثرت تبقى بلا أدنى فائدة أو انتفاع ، لوقوعها باطلةً في الأصل ، وهذا البطلان ينعكس ويلاً وثبوراً على أصحابها الكافرين ، إذ يوم الحساب ، لا تنفعهم بشيء ، بل ترتدُّ عليهم خسراناً مبيناً ، باعتبار أنَّ فائدة أعمال الإنسان هي ثواب الله العظيم ، الذي يكافىء به عباده الصالحين ، وحيث لا تقبل أعمالُ الكافرين يوم الحساب ، فإنه لا يكون لهم أدنى ثواب . . وبذلك تذهب أعمالهم التي قاموا بها في الدنيا أدراج الرياح ، كما تذهب الريح في يوم عاصف بالرماد الهش الخفيف . . وهذا ما يوجب على الإنسان أن يتبصَّرَهُ ، عند القيام بأي عمل من الأعمال . فما كان من أعماله خالصاً لوجه الله تعالى ، موافقاً لشرعه ، كان مقبولاً ، ونالَ الثوابَ عليه ؛ وما كان منها لغير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو غير مقبول ؛ وهو لن يذهبَ هدراً وحسب ، بل ويجعل صاحبَهُ وقوداً لنار جهنم المستعرة ، يستقر فيها تحت وطأة عذابٍ أليم . .

فهلَّا وقف الإنسانُ موقف تأمل ، وفي ذهنه مشهد ذلك الرماد الذي تشتد به الريح في يوم عاصف ، حتى يدرك معنى ضياع الأعمال سُدًى ، وارتداد نتائجها الوخيمة عليه؟ . من أجل ذلك يجسّم القرآن الكريم هذا المشهد العاصف المتحرك ، ليبلغ في تحريك المشاعر ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال ، وذهابها بدداً . .

وهذا المشهد ينطوي أيضاً على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار . فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإيمان ، ولا تتمسك بالعروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث ، وتصل الباعث بالله تعالى ، تكون مفككة كالهباء والرماد ، لا قوام لها ولا نظام . فليس المعوَّل عليه إذن هو العمل وحده ، ولكنَّ الباعث على العمل هو ما يجب أن يُعوَّل عليه ، لأن العمل حركة آلية ، لا يختلف فيها الإنسان عن الآلة إلَّا بالباعث والقصد والغاية .

وهكذا يلتقي المشهد المصور مع الحقيقة العميقة ، وهو يؤدّي المعنى بأسلوب مشوق ، موحٍ ومؤثر . . كما يلتقي معهما التعقيب بقوله تعالى : ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي الضلال عن إدراك الحقيقة ، والضلالُ عن الإيمان أي الكفر ، والضلال عن الفائدة الشخصية ، لأن نتائج الأعمال الضّالة ستنتهي بالخسارة المحتمة التي لا تعوض ؛ والضلالُ البعيدُ هو أيضاً الوقوع في المهاوي السحيقة اللاهبة . . فهل أبعد أثراً من هكذا ضلال ؟ ! . . ألا ، فليقف الانسانُ أمام مشاهد القرآن الكريم ، ليتبينَّ له الرشدُ من الضلال ، وليهتدي إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان .

٣ ـ أعمال الكافرين كالسراب أو كالظلمات

قال الله تعالى :

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن

﴿فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (١) .

وهـذا مثالٌ آخـر ، يضربـه اللَّهُ تعالى عـلى أعمال الكـافرين ، حيث يأتي التشبيه مطابقاً للنتائج المترتبة على تلك الأعمال ، من حيث اعتبارها عديمة الجدوى كالسـراب الخادع ، أو من حيث الإطـار الذي تتجسَّدُ فيه وهو الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض . .

وفي سـورة النور من القـرآن الكـريم بيـان لأعمـال المؤمنـين ، ولأعمال الكافرين . .

فـالمؤمنون هم الـذين لا تلهيهم تجـارة ولا بيـع عن ذكـر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والذين يخافون يوم القيامـة العظيم . . وهؤلاء سـوف يكون جـزاؤهم يـوم الحسـاب أحسن من أعمـالهم في الدنيا ، بل ويزيدهم ربهم فضلاً من عنده ، بما يوسّع عليهم من نعمة الثواب ، لأنه له الحمدُ والملك ، وهو يرزق من يشاء بغير حساب . .

وأما الكافرون فأعمالهم هي كالسراب الذي ينتـج عن انعكاس أشعـة الشمس في الفـلاة ، أو في الأرض المسـتـويـة ، حتى ليحسبـه العطشانُ ماءً ، فيندفع إليه ، من شدة ظـمأه وتلهّفـه على قـطرة يبلُّ بها ريقه ؛ ولكنه بعد ذلك الاندفاع إلى مكان السـراب لا يجد شيئـاً ، لا ماءً ولا غير الماء ؛ وهكذا يفعل الكافرون في هذه الـدنيا ، يلهثـون وراء أعمـالهم ، ويكابـدون المشقات في سبيلهـا ، وهم يتـوهـمـون أنها المكتسبات الكبيرة ، والانجـازات العظيمـة التي تحقق لهم كل الأمـاني

---

(١) النور : ٣٩ و ٤٠ .

والأهداف . . حتى إذا أتى يوم الحساب ، وجدوا أن كل أعمالهم تلك كانت خادعــةً كالسـراب ، وأن ما زيّنتـه لهم تلك الأعمال من فـلاحٍ ونجاحٍ ومآثر مجيدة . . كان وهماً ؛ وسراباً خادعاً . .

أمَّـا ما يتـرتب عليها من مـآل عصيب ، وخسـران مبـين ، هـو الحسابُ السريع والحكمُ بكفرهم ، لأن الله سبحانه سريع الحساب ، لا يشغله حساب عن حساب ، بـل يحاسب جميـع خلقه ، وعبـاده في حالة واحـدة . . وقد سئـل أمير المؤمنـين ، علي عليـه السلام : كيف يحـاسبهم اللَّهُ في حـالـة واحـدة ؟ فقـال : « كـما يــرزقهم في حـالــة واحدة » . .

فأعمال الكافرين تكون كالسراب يوم الحساب . . .

بل هي أكثر من ذلك ، فالنص القـرآني يُصورهـا كظلمـات في بحـر لجيّ ، بعيد الغـور ، والموج فيـه يعلو ويهبط ، ومن فوقـه أمواج ترتفع أكثر فأكثر ، وفوق هذه الأمواج يتكاثف سحابٌ داكن . . فهذه الظلمات في جوف البحر ، وعـلى سطحـه ، وفي ثنايـا أمواجـه ، وفي السحـاب ، من شأنها أن تجعـل الرؤ يـة كلها ظـلاماً دامسـاً ، والجـوَّ مكفهراً داكناً ؛ والتائه في هذه الظلمات يعاني المـرارة والألم ، إذ يشعر وكأن لا أمل له في النجاة، طالما أنَّه لا يستطيع رؤ ية يـده، أو لا يكاد يراها عـلى شدة قـربها من نـظره . . فأي تصـور ذهني يمكنهُ أن يجسـد هذه الحالة الرهيبة من الظلمات العاتية التي تجمعت لتحيل المسـاحات الشاسعة التي احتلتهـا إلى ليلٍ حـالكٍ ، قاتـم السواد ، تتصـارع فيه الحركات ، كتصارع الأمواج المتلاطمة في ظلمةٍ فوق ظلمة ؟

ذلك هو المثال الثاني في النص القرآني على أعمال الكافرين ، الـذين كانـوا يتقلبون في ظلمات الضلال والكفر ، فغطت الظلمة عيونهم ، وغشت بصائرهم حتى تاهوا عن الحق المبين ؛ ولم يعد لهم من مخرج ، ولم يعد لهم من خلاص ، لأن الله تعالى غضب عليهم ، فاستداموا في ظلام الكفر ، لا يبصرون نور الحق والإيمان ، لأنه ليس لهم من نور يهتدون به ، ومن لم يجعل الله تعالى له نوراً فما له من نور ، ومن لم يهده اللَّهُ تعالى فما له من هادٍ . . وهكذا يضربُ اللَّهُ تعالى لنا مثلين للتدليل على المعرضين عن الحق والهدى .

فالمثل الأول يبيّن حال من يظن نفسه أنه على شيء ، فيظهر له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه ؛ وهذه حال أهل الكفر ، والجاهلين للحق ، الذين يتّبعون البدع والأهواء وهم يحسبونها علماً وهدىً . فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم ضالّون مضلّلون ، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت على بدعهم وأهوائهم كانت كسراب يظهر للناظر ماءً ، في حين أن السراب لا يمكن أن يتجسد واقعاً حقيقياً ، ولا يمكن أن يكون له وجود حقيقي . .

وهكذا الحال بالنسبة لسائر الأعمال التي تخالف شرع الله ، فهي لا تعدو كونها سراباً خادعاً غرّاراً ؛ فكان لزاماً أن تكون أعمال الذين كفروا كالسراب الخادع بحيث لا يجدون لأعمالهم أثراً نافعاً يوم القيامة . بل سيجدون الله ـ سبحانه ـ فسيجازيهم على أعمالهم بالخلود في نار جهنم . .

أما المثل الثاني فينطبق على حال الذين عرفوا الحق ، ولكنهم

آثروا عليه الباطل ، فتاهوا في تيارات ظلماتٍ ثلاث : ظلمة الجهل ، وظلمة النفس ، وظلمة المصير . . فهم لم ينتفعوا بعلمهم الذي تعلَّموه ، فغدوا كالجاهلين تماماً ، وأشرَّ من الجاهلين . بل وصاروا كالتائه في بحرٍ لُجي ، تكتنفه الظلمات ، وتعلو فوقه حتى تصل إلى السحب المتراكمة الداكنة ، التي تزيد تلك الظلمات ظلاماً ؛ إذن هي في النهاية ظلمات الكفر التي يتخبط فيها الكافرون ، بعيدين عن نور الإيمان . . وفي المثلين أيضاً دلالات عظيمة ومفيدة . . فعندما يذكر النصُّ القرآني الماءَ وحاجة الظمآن إليه ، ندرك أهمية الماء للكائن الحيّ . وعندما يذكر البحر نعرف مدى أهميته في خواصه والعناصر التي يحتويها ، والتي تلبّي كثيراً من حاجات الإنسان . فكلا الماء والبحر يرفدان الإنسان بعوامل أساسية وهامة للحياة . . وعندما يذكر النص القرآني السراب نتصوّر الفراغ الذي يملأ قلب الإنسان ؛ وعندما يذكر الظلمات نتصوَّر المآسي التي تحيق به ، وكلا الفراغ والمآسي قد تُسرِّعُ في فناء الإنسان . . مما يعني بالنتيجة أن للحياة مقومات لا تكون بدونها ، وأن ذهاب هذه المقومات يؤدي إلى الزوال . . وبتقابل الحياة والزوال ، تتقابل أعمال المؤمنين والكافرين ، فالمؤمنون يمدهم الإيمان بالنور الذي تنبعث منه الحياة ، والكافرون يعانون من ظلام الكفر الذي يفرغ معنى الحياة ؛ وبذلك يخلد المؤمنون في حياة النعيم ، بينما يشقى الكافرون في ظلام الجحيم . .

فلنتأمل هذه المدلولات والعظات التي يمدنا بها المثل القرآني لكي يقرب إلى أذهاننا ما يترتب على أعمالنا من نتائج ومصائر . .

٤ ـ مثل القرية التي كفرت بأنعم الله تعالى

قال الله تعالى :

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (١) .

الأمان والاطمئنان من غايات الإنسان البعيدة التي يبذل جهوده لنيلها ؛ فإن رافقت الأمانَ نعمةُ الرزق ، وحلَّ مع الاطمئنان فضلُ العطاء ، خيمت السعادة المنشودة على حياة الإنسان . . وفي هذه الآية الكريمة يضربُ اللَّهُ تعالى لعباده المثل على الأمان والاطمئنان ، بقرية كان الأمن يشيع في ربوعها ، والسلام يعمُّ في أرجائها ، فتتدفق عليها الخيرات والأرزاق من كل مكان ، فلا تحس بالضيق أو الحاجة ، ولا يحل فيها القحط أو الجفاف ـ أي أنه كان يسودها الاطمئنان والاستقرار ، فلا إرهاق ونصب ، ولا أعباء ومصائب على أهلها بل حياة رغد وازدهار . .

ولكنَّ هذه القرية ، بدل أن تشكر اللَّهَ تعالى على ما وهبَها ، وما منَّ عليها من الفضل والعطاء ، فتجعل أنوار الإيمان تتلألأ في ساحاتها ، وأناشيد الثناء والشكر تصدح في ردهاتها ، إذا بها تكفر بأنعم الله عليها ، وتجحد بفضائله ، فتعيث فساداً ، ويستشري فيها الكفر والظلم والانحلال ، حتى يجيئها حكم الله العلي القدير ، فيبدِّل

---

(١) النحل : ١١٢ .

رزقها بالحاجة ، وكفايتها بالجوع ، وأمنَها بالخوف ، جزاءً لأهلها بما كانوا يصنعون . .

ويجسّم التعبير القرآني الجوعَ والخوف، اللذين حلاّ بأهلها، فيجعلها لباساً . . ثم يجعل أهل هذه القرية وكأنهم يتذوقون هذا اللباس ذوقاً ، لأنَّ الذوق أعمق أثراً في الحسّ ، من مساس اللباس لجلد الإنسان ؛ ثم تتداخل في التعبير استجابات الحواس كلها ، فتضاعف مسَّ الجوع والخوف لأهل تلك القرية ، ولذعَهُ وتأثيرَهُ في نفوسهم ، لعلهم يشفقون على أنفسهم ، ويخافون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون . ومن هذا المثل ينبثق إنذار يشير إلى سوء المنقلب ، وتعاسة المرجع والعاقبة ، لا لقرية بعينها ، ولا لفرد بذاته ، ولا لمجتمع محدد ، بل لجميع القرى والأفراد والمجتمعات والدول ، إن هي كفرت وتولّت وأعرضت عن أمر الله تعالى ، وحاربت الداعي إليه ؛ إذ لا بد أن تضعف ، وتذهب ريحها ، فتحل عليها النقمة بدل النعمة . . وقد انطبق هذا المثل على مكة عند بعث محمد (ﷺ) ؛ فقد جعل اللَّهُ تعالى فيها بيته الحرام ، وجعلها بلداً حراماً ، فمن دخل البيت أو كان بجواره ، كان آمناً مطمئناً ، لا يجوز أن تمتد إليه يدٌ بالأذى ، ولا يجوز أن يطاله افتراءٌ من أحد ؛ فالناس ، في الماضي ، كانوا يتخطَّفون في القرى الواقعة بجانب مكة ، ويحلُّ عليهم الغزو والسلب والنهب ؛ في حين كان أهلها آمنين ، مطمئنين ، وهم في حراسة البيت وحمايته . كما أن الرزق كان يتدفق على مكة من كل مكان ، مع الحجيج الآتي لزيارة البيت الحرام ، ومع القوافل التجارية التي تقدم إليها . . ومع أنَّ وجودها في وادٍ غير ذي زرع ، وأرض جدب لا نماء فيها ولا ثمار ، إلاَّ أنه لم ينعدم ولم ينقطع عنهم

منذ دعوة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ رغد العيش ، وثمرات الأمن والاستقرار ؛ فكان حرياً بأهلها ، وقد جاءهم رسولٌ من أنفسهم ، حريص عليهم يبشر بالدين الحق ، ودينه دينُ إبراهيم الذي بنى البيت الحرام الذي ينعمون بجواره بالأمن والطمأنينة ، نعم كان حرياً بأهل مكة أن يصدِّقوا هذا النبيَّ الأمين ، وأن يؤمنوا بدينه ويناصروه ، إلَّا أنهم لم يفعلوا ، بل على العكس كذبوه ، وعارضوه ، وافتروا عليه بالادعاءات الباطلة ، وأنزلوا به وبمن اتبعوه الأذى ظلماً وعدواناً . فكان أن حاق بأهل مكة الذل، ونزل بساحتهم الهوان، حتى أعيدوا عن الغي والضلال ، فصدَّقوا بمحمدٍ (ﷺ) نبيّاً وبالإسلام ديناً ، فعادت مكة آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان . .

ذلك هو المثل الذي ضربَهُ اللَّهُ تعالى بالقرية التي كانت آمنة ، مطمئنة ، والذي ينطبق اليوم ، وفي كل حين ، على أية قرية تنعم بالأمن والسلام ، فتبطرها النعمة ، وتجذبها المتع ، فتنسى اللَّهَ تعالى ، وتكفر بأنعمه ؛ فهذه القرية وأمثالها لا بد وأن يحيق بها العذاب ، ويذيقها اللَّهُ تعالى لباس الجوع والخوف ، بما يصنع أهلها ، فيصبحوا على ما فعلوا نادمين . .

الفرقة بين المؤمنين والكافرين

١ - لا يستوي المؤمنون والفاسقون

يقول الله تعالى :

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ
ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (١) .

إن العدالة الإلهية تقدّر ، وتزن ، وتحكم ، فمن ثقلت موازينه أجزلت له في المنة والثواب ومن خفت موازينهُ عاقبته على قدر ما يستحق بلا زيادة أو نقصان . . ولكن الحاكم الحكيم ، القاضي الديان ، وبما تفضَّل على عباده من الرأفة والرحمة ، قد يغفر لهؤلاء العباد ، إلَّا من أشرك به - سبحانه - فإنه لا غفران له . . ولذا كان من

---

(١) السجدة : ١٨ - ٢٠ .

غير الحق أن يستوي الذين آمنوا بالتوحيد والتصديق ، مع الذين فسقوا بالكفر والتكذيب ، فلكلٍّ مأوى يأوي إليه ، جزاءً وِفاقاً بما كانوا يعملون .

لا ! لا يمكن أن يستوي المؤمنون والفاسقون ، لا في طبع ، ولا شعور ، ولا تفكير ولا سلوك . . . فلا يمكن إذن أن يستووا في الجزاء لا في الدنيا ولا في الآخرة . . فالمؤمنون مستقيمون ، صابرون ، قانعون ، حامدون متوجهون إلى الله ، عاملون على منهاجه القويم . والفاسقون منحرفون ، شاردون ، جزعون ، مفسدون في الأرض . فلا عجب إذن أن يختلف طريق المؤمنين والفاسقين في الآخرة ، وأن يلقى كل منهما الجزاء الذي يناسب رصيده وما قدمت يداه ، بحيث يكون لكل منهم منازل ومقامات . فأما المؤمنون الذين عملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً ، وهي مما يُعد عادة للضيوف من منازل ، تكريماً واحتراماً ، وزيادة في الاعتبار . والذين كفروا بآيات الله وكذَّبوا رسله ، فمأواهم النار التي كلما همّوا بالخروج منها ، في محاولة للفرار من حريقها ، أعيدوا فيها ، ورُدُّوا إلى قعر الأتون من جحيمها ، وقيل لهم : ﴿ ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ بما يحمل ذلك من التقريع والتوبيخ زيادة على الدفع والتعذيب . فتتصورهم وقد أُمْسِكَ بهم ، لمنعهم من الهرب والإفلات ، ثم يُقذفون في المهاوي التي تتآكلهم نارُها اللاهبة . .

٢ ـ الكافر كالأعمى والأصمّ ، والمؤمن كالبصير والسميع :

قال تعالى :

مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ

مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١) .

من غير المعقول أن يستوي المؤمنون والكافرون بنظر الناس ، فهل يستوون في ميزان العدل الإلّهي ؟ . . ولكي يتبين لنا ما بين المؤمنين والكافرين من فوارق شاسعة ، يضرب سبحانه وتعالى لنا مثلاً من واقع حياتنا الإنسانية ، عندما نميّز بين حال الإنسان الأعمى الأصم ، وحال الإنسان البصير السميع .

فالأعمى والأصم في هذا المثل القرآني هو الكافر الذي عميت بصيرته عن الإيمان ، وسدت أذنه عن سماع الحق . والبصير والسميع هو المؤمن الذي اهتدت بصيرته بنور الإيمان وامتلأت جوارحه من سماع الحق . وهذه الصفات المميزة للكافرين وللمؤمنين ، لا تجعلهما أبداً يستويان في دنياهما ولا في آخرتهما كما لا يمكن أن يستوي الأعمى الأصم ، والبصير السميع . .

فإذا كان هذا ما يراه الناسُ في حياتهم مثلاً حسيّاً شاهداً ، أفلا يتذكرون إذن قول القرآن وما ضربَ من مثل لينبّه ويحذّر من مغبة الكفر ؟ وهل يريدُ أحدٌ أن يكون أعمى أصمّ ؟ إذن فكيف يستمر على الكفر ، ونتائجُهُ أعظم بلاءً من العمى والصَّمم ؟ وعجيبٌ أن الناس لا يتذكرون ولا يتعظون .

٣ ـ مثل صاحب البستانين

قال سبحانه وتعالى :

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ

(١) هود : ٢٤ .

وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم
مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن
رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠
هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ
ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن
يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ
فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ
يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
عُقْبًا (١) .

بعد أن تناول المثل القرآني الإنسان في تكوينه ، وفي خاصيتين من خصائصه الهامة ألا وهما النظر والسمع يعود فيتناول عيش الإنسان ، وهو أمر هامّ جداً له ، ليستقي من واقع هذا العيش

(١) الكهف : ٣٢ - ٤٤ .

المحسوس الملموس مثلاً للتمييز ما بين المؤمنين والكافرين .

ففي هذا القول الرباني الصادر عن العزة الإلَهية (وحياً إلى رسول الله ﷺ) قصة الكافر الذي يجحد بأنعم الله تعالى عليه ، وبمقابلها قصة المؤمن الذي لم يشرك بربه أحداً ، وكيف يتصرَّف كل منهما على ضوء اعتقاده .

ومدار القصة أن الله تعالى أنعم على رجلٍ حتى صار يملك بستانين مزدانين بالأشجار المثمرة من كل نوع ، ويحيط بهما النخل من جميع الجوانب ؛ ويتوسط أشجارَهما زرعُ كثير الخصب يعطي نتائج وفيرة . وزيادة في النعماء جعل الله تعالى في وسط تلك الممتلكات نهراً غزيراً ، يتفجَّر من باطن الأرض بالمياه الدافقة حتى تُروى الأشجار والمزروعات . .

وآتت كل من الجنتين (أي البستانين) أُكلها بما حملت من الثمار الوفيرة ، حتَّى لا تُرى شجرة واحدة تُنقص من ثمارها بإذن ربها . .

وأمدَّ اللَّهُ ذلك الرجل فوق أرزاقه الكبيرة بنعمة البنين والأهل ، بحيث اكتملت له زينة الحياة الدنيا . . وكان حريّاً به أن يحمد اللَّهَ تعالى، ويشكره على أنعمِهِ الجزيلة ، الفائضة ؛ إلَّا أنه ـ ويا للأسف ـ لم يكن شكوراً ، إذ توهم بأن ما عنده هو من صنيعه ، وجنى يديه ، ولم يتورَّع عن التصريح بذلك ، كما كان يفعل مع صاحب له ، إذ كان كلما التقاه لا يتحدَّث إلَّا عن أمواله ، وممتلكاته ، وأهله وعشيرته ، بزهوٍ وافتخار ، وإعجاب بنفسه ! . .

وكان صاحبُهُ رجلاً مؤمناً ، يعرف بأن الرزق من الله ، يرزق

من يشاء بغير حساب ، لحكمة ربانية يـريدهـا سبحانـه ابتلاءً وتجـربةً للإنسان . . فكـان ينصَحُ ذلك الرجل بـأن يُقلع عن الأوهام التي يخادع بها نفسَهُ ، ويصحو من غفوة الضلال التي تـأخذه ، ليفيق عـلى الحقيقة الناصعة وهي أن كل ما عنده هو من فضل الله تعـالى ، الذي يستحق منه الثناء والحمد والشكر . .

ويبدو أن ذلك الرجل لم يتعظ بنصح صاحبه ، بل ظـلَّ يتمادى في الغي ، حتى وَصَلَ به الحال ، في الإنكار والجحـود ، لفضائـل ربه عليه ، لأن يظلم نفسه ، ببعده عن الحق ، ومجافاة الحقيقة . .

وأَدخلَ مرةً صاحبه ، إلى بستانِهِ ، يطوف به في أرجائه ، ويـريه ثمارَهُ ، وهو لا ينفك عن ادعائه وغروره ، حتى وَصَـلَ به الـوهْمُ لأن يقـول : ما أظن أنَّ هـذه الممتلكات تفنى وتنعـدم أبداً ؛ ومـا أظن أن ساعة يوم القيامة آتية ، فهنا البقاء والخلود في هذه الجنّات الدائمة . .

ثم ذهبَ به الظنُّ إلى أبعد من ذلك ، فقال لصاحبه :

ـ ولـو فرضتُ أن هنـالـك قيـامـةً وبعثـاً ، وأنني سـوف أردُّ إلى ربي ، كـما تعتقد أنت ،وكـــما تقـول لي ، فـإن ربي سـوف يعـطيني في الآخرة جناتٍ أفضل من هذه ، لأنَّ لي مكـرمةً خـاصة عنـده ، ولو لم تكن لي هـذه المكـرمـة ، لمـا أعـطاني في هـذه الـدنيـا ، هـذا العطاء الجزيل ! . . .

فقال له صاحبُهُ المؤمن : أنت تكفر بالله تعالى الذي خلقـك من تـرابٍ ، ثم من نطفـة ثم سوَّاك رجـلاً على هـذه الصورة الحسنـة . . فكيف لا تفكر ، أيها الرجل ، في نفسك ، وفي تكوينـك ، وأن جميع ما أنت عليه هو هبة ومنـة عليك من نِعم ربـك العلي القـدير إذا شـاءَ

أبقـاه ، وإذا شاء نـزعه ؟ ! أمـا أنا ، يـا صاحبي ، فـأقـول : إنَّ الله تعـالى هو ربي ، وهـو الذي خلقني ويـرزقني . ولا أشـرك بعبـادة ربي أحداً ، فله الحمد والملك ، ومنه الفضل والعطاء . .

فيا صاحبي ، هلَّا إذا دخلت جنتك ، ونـظرت إليها فـأعجبك مرآها ، قلت : مـا شاءَ الله ، لا قـوة إلَّا بالله ! . نعم لـو لم يشأ الله تبـارك وتعالى ، لـذهبت كـل أعمالـك سدىً ، وكل مـا قمت بـه من حرث وغرس وسقـاية . . . ولـو لم يشأ الله لما وهَبَ لك قـوة أو حيلة على تفكير أو عمل تقوم بـه ، ولما شعـرتَ بهذه القـوة التي تزينُها لك ممتلكـاتك . . فـالحق ، يا صـاحبي ، والحق أقول لـك ، أنه لا أحـد يقوى على ما في يديه من نعمة إلا بإرادة الله سبحانـه ، ولا أحد يمكن أن يملك أو يحوز شيئاً إلَّا أن يشاءَ اللَّهُ . .

ثم يتابع المؤمن نصحَهُ لصاحبه ، فيقول له :

إنك تراني أقلَّ منك مالاً وولداً . هذا صحيح . ولكن قد يعطيني ربِّي خيراً من جنَّتك في عاجل دنياي وفي آجل آخرتي لأن الفقر والغنى ليسا مُلكاً لازماً لأحد .

ثم يذكّر هذا المؤمن صاحبَهُ الجاحـد بنعمةِ الله عليـه ، ويخوّفـه من نزعها منه ، فيقول له :

أنت تـدّعي بأنَّ هـذه الجنـائن الغنـاء لن تبيـد ، ولن تفنى . . ولكن إذا بقيت عـلى هذا الـظنِّ بربـك ، فقد يـرسل عليهـا صـواعق ماحقة من السماء ، فتصبح جرداء ، ملساء لا يثبت عليها قدم . وقـد يأمُرُ سبحـانه مـاءها فيغـور في باطن الأرض بحيث لا يعـود لك حيلة تدركه بها . . فاتَّقِ اللَّهَ ربك وارجع عما أنت فيه من الغي ! . .

ذلك كان ظنُّ الكافر بربه ، ونصحُ المؤمن له الذي لم يتّعظ به . .

ويشاء اللَّهُ أن يظهر للعباد قدرتَهُ ، وأن الأمرَ كله مردُّهُ إليه سبحانه ، فبين عشية وضحاها يخبرنا القرآنُ بأن الخراب قد حلَّ بالجنتين وبالزرع وبكل ما كان للرجل الجاحد من ممتلكاتٍ ، حتى إذا رآها ، راح يقلّب كفيه متحسراً على ما بذل من تعب وما أنفق من مال حيالها ، ولكن ها هي الآن أمامَهُ خاوية على عروشها ، لا شجر ، ولا ثمَرَ ، ولا زرع ، ولا جنى . . فيقول بلوعةٍ وندمٍ شديدين : يا ليتني لم أشرك بربي أحداً . .

وطبعاً لم يكن لأحدٍ أن يعوِّض على ذلك الجاحد شيئاً ، لا أبناؤه ولا عشيرته ، ولا أية فئة أخرى من الناس ينصرونه من دون الله بما يمكن أن يقدموا له من مساعدة أو عون على استعادة ما ضاعَ منه . وكيف يقدرون على ذلك ، واللَّهُ سبحانه قد أمر بتدميره ؟ ثم أليس ما حلَّ به كان نتيجة ظلمه لنفسه ، والظلم لا يمكن أن ينصر صاحبه ، فباء ذلك الجاحد بالخسران ؟ وفي الدلالة على أهمية هذا المثل الذي ضربَهُ الله تعالى للتفريق بين تفكير الجاحد وتفكير المؤمن ، قال جعفر الصادق (ع) : « عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فإني سمعت الله تعالى يقول بعقبها : فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء . . وعجبت لمن اغتمَّ كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه : لا إلهَ إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإني سمعت الله سبحانه يقول بعقبها : فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين . . وعجبت لمن مُكِرَ به

كيف لا يفزع إلى قوله تعالى : وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد . فإني سمعت الله عز وجلَّ يقول بعقبها : فوَقاه الله سيئات ما مكروا . . وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قوله تعالى : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فإني سمعت الله عز وجل يقول بعقبها : فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك » . .

ويبين سبحانه وتعالى أن ما يضرب لنا من أمثال هو لفائدتنا نحن عباده فلا نجحد بأنعمه ولا ننكرها مهما زيِّنت لنا هذه الدنيا من ملك عامرٍ، ففي يوم القيامة تكون الولاية ، والملك لله تعالى الحقِ . . فهو خيرُ من يجزي ويُثيب ، وإن خيرَ العقبى في الرجوع إلى وجهه الكريم . فسبحان الله ، وجلَّ شأنه عما يدَّعي الجاحدون المنكرون . .

٤ ـ واجب تدبّر آيات القرآن :

قوله تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [١] .

هل أدرك الإنسانُ حقيقة خلق السماء والأرض ، وما خلقَ ربه بينهما ؟

---

(١) ص : ٢٧ ـ ٢٩ .

إنَّ قـول الله سبحانَـهُ هو الحق الـذي لا جدال فيـه ، وقد ظنَّ الـذين كفروا أن خلق السماء والأرض ومـا بينهما ، كان عبثـاً. ولكنه سبحانَهُ ينفي هـذا العبث ، ويدحضُ زَعْمَ الذين كفروا بإنكاره عليهم هذا الظنَّ الماكـر الخبيث ، بل ويهـدّدهم على هـذا الظن ، وهذا الـزعم الكـاذب بأن لهم النـارَ بالانتـظار . . .

ولذا لا يمكن أن يكـون مصـيرُ الذين آمنـوا وعملوا الصالحـات كمصير المفسدين في الأرض .

كما لا يمكن أن يكون مصـير المتقين كمصـير الفجار ! . . ذلـك بأنَّ الله تعالى خلق الأنفس ، ووهبها ملكة العقل والتمييز ، ثم منحها قابلية التمكين ، ليعرّضهـا بعد ذلـك للمنافـع العظيمـة بالتكليف . . وعلى أساس هـذا التكليف أعدَّ لهـا الثواب والعقـابَ، فكلُّ نفسٍ بمـا كسبت رهينـة . . فصارَ من المستحيـل أن يجعـلَ ـ سبحـانـه ـ أولئـك الـذين انتفعوا بمـا أودع اللَّهُ تعالى فيهم من نفـوس خيـرة أقبلت عـلى الإيمان وعلى عمل الخير ، كالذين تاهت نفوسهم عن الحق ،فعـاثوا في الأرض فساداً ، وزرعـوا الشرَّ في كل مكان . . . كما أنه من المستحيل أن يجعـل ـ سبحانـه ـ المتقـين ، الـذين يسيـرون عـلى دروب التقـوى والهـدى ، كالـذين اتخذوا لأنفسهم منهجـاً من الفجور والفسـوق فـلا يـطيعون اللَّهَ ورسله ، ولا ينشـرون العدل والخـير بـين النـاس ، بـل دأبهم اللهث وراء أهوائهم ومصالحهم ، وتـأمين مقـاصدهم وغـاياتهم حتى ولـو كان الـطريق إلى ذلك القهـر والتسلط والجحـود ، وكـل مـا يخالف شريعة الله في خلقه . . ولذا فإنه سبحانـه أنزل القـرآن الكريم كتـاباً مبـاركاً ، لا ريب فيـه ، هدىً للمتقـين ، بحيث يكون المجـالُ مفتوحاً أمام جميع الناس ليقرأوه ، ويفهموه ، ويتفكَّروا في آياته ، وبمـا

تدل عليه من الأحكام السوية ، التي لا تحتوي إلَّا خيرَ الناس في الدنيا والآخرة . . ومن جملة أحكامه السنية العادلة ما قدَّم من أمثالٍ يقتضي ألَّا نقف عند ظواهرها ، بـل ننفذ إلى أعمـاقها لنستقي منهـا الدلائـل والعبر ، وإلَّا كان مثلنا كمثل من له بقرة درور لا يستدرُّها ، أو مهـرة نَثور[1] لا يستولدها . . أو كمثل من له الخيرات والممتلكات والأرزاق الوفيرة لا ينتفع بها ، بل يقيم نفسه حارساً عليها ويترك للآخرين جنى ثمارها وفوائدها . .

وعن الحسن بن علي ـ عليهما السلام ـ أنه قـال : « قد قـرأ هذا القرآن أناس لا علم لهم بتـأويله . حفظوا حـروفه ، وضيّعـوا حدوده حتى أنَّ أحـدهم ليقول : واللَّهِ لقـد قرأت القـرآن فما أسقـطت منـه حرفاً ؛ وقد واللَّهِ أسقطه كله ، ما يُرى للقـرآن عليه أثـر في خُلُقٍ ولا عمل ». اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، ومن القراء الموقنين . والحمد لله رب العالمين . .

---

(١) نثور : كثيرة الإنجاب .

الحقّ والباطل

الحق والباطل

١ ـ الباطل مثل الزبد الذي يذهب جفاء

قال اللّٰهُ تعالى :

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (١) .

---

(١) الرعد : ١٦ و ١٧ .

إنها معركة قائمة لن تتوقف أبداً حتى يشاء اللَّهُ تعالى . .

تلك هي معركة الصراع الضاري ما بين الحق والباطل ، وما بين الخير والشر ، وما بين الصواب والخطأ . . وقد وجدت هذه المعركة المستشرية منذ أن أخذ إبليس اللعين على نفسه العهد بأن ينتقم من آدم (ع) وذريته ، بعد أن أمر اللَّهُ تعالى الملائكة بالسجود لآدم ، فسجدوا إلَّا إبليس . . . ومنذ ذلك العهد راح يتوغل في نفوس الآدميين ، مزيناً لهم الأوهام والظنون ، ومغرياً إياهم بالمطامع والشهوات ، فانساق وراءه ضعاف النفوس متخاذلين ، متراخين . . وصدَّق إبليس عليهم ظنه حتى صار بعضهم أبالسةً في ثوب آدميين ، لا يتورعون عن ارتكاب أفظع الجرائم وأشرسها ، ولعلَّ مثالها الصارخ الجرائم المتعلقة بحقوق الإنسان مثل حقه في الرأي والاعتقاد والعمل والتملك وما إلى ذلك مما يتعلق بكيانه المعنوي أو المادي ، أو ما يتناول واقعه الحياتي بصورة شاملة . .

فآثار تلك المعركة - التي ما تزال دائرة منذ وجود آدم (ع) على سطح الأرض - سوف تظل تنعكس على أعمال الناس طيلة بقائهم على هذه الأرض ، ولذلك يكون الحكم على تلك الأعمال إما بالإيمان والصلاح ، وإما بالضلال والفساد . . وذلك الحكم لا يصدره المنصفون من أهل الأرض فحسب ، بل سيكون الحكم الأخير والعادل لصاحب الشأن ، رب السماوات والأرض ، الذي يثيب ويجازي على الأعمال ، ويحاسب ويقاضي على النوايا . . ولكن من الآن وحتى تقوم الساعة ، سوف يظل المفسدون سادرين في غيِّهم ، وهم يأتون الأعمال الباطلة ، المضلّلة التي ينصرون فيها الأبالسة

والشياطين على أهل الحق ، وبـذلك تتكـاثف سُحُبُ الباطـل وأستاره لتحجب الحق وتخنق صـوته ، فينـوء الخـير ، من جـراء ذلـك ، تحت لطمات الشر ، ويتوارى الـطيّب عند صـولة الخبيث ، ويخفت صـوت العدالة ، حتى ليظن الناس بأن دولة الحق قد دالت إلى غير رجعة . .

ولكن! . . مهما استفحل الشر، وطغت الطواغيت فلا بد أن نرى من خـلال الظلام الـدامس ، ومن بـين أتـون الجـور والكفـر ، نـوراً ينبثق ، وضيـاءً يشـع ، وسنـاءً يتـألّق . . ثم يستجمـع الحق قـواه ، ليشرق بإشعاعه وضيائه منيراً الدروب أمام المؤمنين الصادقين الذين سـوف يحملون مشعل هُـدى الله تعالى ، فـلا ترهبهم الأبـالسـة ، ولا تخيفهم الطواغيت حتى ولو تمنطقت بكل أسباب القوة ، وبقنابل الذرة والهيـدروجين ، لأن المؤمنـين هم جنـود الله سبحـانـه وهم الغـالبـون حقاً . وهم أنصاره ، فهم الفـائزون فعلاً . . يرومون إعلاء كلمة الله وجعلها هي العليا ، فيقدمون على الشهادة والتضحيـة بغير حسـاب ، وينشـدون التغيير نحـو الأحسن والأفضل ، فـلا يخافـون في الله لومـة لائم . . ولـذا نحن على يقـين من أنَّ الحق ثابت وقـائم ، لأنه خـالد بخلود أهله وحملته ، وأن الباطل زاهق فانٍ لأن الباطل كـان زهوقـاً ؛ إذ مما لا شك فيه أن للباطل جولـة ساعـة ، وأن جولـة الحق تدوم إلى قيام الساعة . . من هنا فإنه مهما تراءت لنا الصور قاتمة محبطة ، ومهما واجهتِ المؤمنين أحداث عاصفة قاهرة ، فإنَّ الأمل يظل معقوداً عـلى هذا الإنسان بـأن يهتدي ، بـالفطرة التي فـطره الله تعالى عليهـا ، إلى طريق الحق ومحاربـة الباطـل ، فيؤمن عندئـذٍ بما أنـزل الله تعالى عـلى عبده ورسولـه محمدٍ (ﷺ) من قـرآن مبين ، يهـدي للتي هي أقوم ، ويبـينّ للناس الحقـائق التي تأخـذ بيد الإنسـان إلى الطريق المستقيم ؛

وبـذلك يقـدر على طـرد الشيطان من نفسـه ، ومن دنيـاه ، ليعـود في النهاية إلى طاعة ربه ـ عز وجل ـ راضياً مرضياً ، مخلصاً له الـدين كله ولو كره الكافرون .

وها هو القرآن الكريم يقـدم لنا الأمثـال التي تؤكد ثبـات الحق وديمومته ، وزوال الباطل وفناءه في الآيتـين المباركتـين اللتين تقـدمتا في مطلع هذا البحث . ومن استشفاف معانيهما يتبين لنا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يطلب إلى نبيه محمد (ﷺ) بأن يسأل الكفار والمشركين : من رب السماوات والأرض؟ ومن يدبّـرهما ويصـرّف أحوالهـما بما خلق من سنن وقوانين ؟ وهـذا السؤال ملقىً على عـاتق كل مؤمن بـأن يسألـه لأهل الباطل في كل وقت . . .

وطبعـاً سوف يستعجم الجـوابُ على هؤلاء ، كـما استعجم على الكافرين والمشركين من قبل ، لأنهم لم يستطيعوا الادعاء بأن أصنامهم وأوثـانهم التي عبدوهـا هي التي خلقت السمـاوات والأرض . . ولئن قال بعضهم إنَّها وجدت من العدم مصادفةً ، أو بصورة تلقائية ذاتية ، من غـير أن يكون لأحـدٍ يدٌ في إيجـادها ، فـإنَّ مثل هـذا القـول ، أو التفكير ، محض تصورات مغلوطـة ، وأفكار خـاطئة ، لأنها تـدل على نفسها بنفسها أنها خاطئة ، وتحكم على ذاتها بـذاتها أنها فاسدة، ولأنها لم تقدّم البرهان المقنع ، بينما أثبت البرهـانُ القرآني ـ الـذي لم يستطع دحضَهُ أحدٌ ـ أنَّ اللَّهَ تعالى هو رب السماوات والأرض وخالقهـا . . فإن لم يعترفِ المشركون والمنكرون بهذه الحقيقـة جهراً ، فهم لا شـك يقـرون بهـا في قـرارة أنفسهم . . عـلى أنهم مهـما يكتمـون أو مهـما يظهرون ، فلا بُدَّ أن يواجَهوا ، ولا مناص من أن يقال لهم قولٌ ملؤه

التبكيت والتقريع والتوبيخ : أفتتخذون من دون الله أولياءَ تعبدونهم ، وأنتم تعرفون أنهم لا يملكـون لأنفسهم نفعاً ولا ضـراً ؟ ! . . بئس ما اتخذتم ، وبئس ما عبدتم . . .

وبـراهينُ القـرآن هي هذه الأمثـالُ المحسوسـة التي يأخـذها من واقع الإنسان ، ومن صفحة الكون على حد سـواء . . فلكي يبين لنـا الاختلاف ما بين عبادة الله تعالى حقاً ، وما يعبدون من دونه باطـلاً ، يضـربُ لنـا المثـل بـالاختـلاف مـا بـين الأعمى والبصـير ، ومـا بـين الظلمات والنور . . فكما أنه لا يستوي الأعمى والبصير ، فكذلـك لا يمكن أن تكـون عبادة المؤمن مثـل عبادة الكـافر . . فـالمؤمن يعبد الله تعالى ربهُ ، الذي يملك النفع والضر ، ويقيم عبادتَهُ وسائر أعماله على بصيرةٍ من ربه ، بينما الكافر يعبد من دون الله ـ سبحـانه ـ مـا لا ينفع ولا يضـر ، ـ سـواء أعبـدَ الأصنـام أم الأمـوال ، أم عبَـدَ الكـواكب والنجوم ـ وهو يقيم عبادتَهُ وسائر أعماله على عمى البصيرة الضالّة . .

وزيادة في تنوير الأذهان يضربُ اللَّهُ تعالى المثل أيضاً بالظلمـات والنور ، ويسألُ الإنسـانَ : هل تستـوي الظلمـات والنور ؟ فهـل هما مثـل بعضهما ! أم أنهما يتـضـادَّان بـطبيعتهما في نـظام الكون ؟ والفرق شاسع بينهما بلا ريب . . إذن فعبادة الله تعالى هي نورٌ ، وعبادة من سواه ظلمات بعضها فوق بعض . . .

فيا أيها الإنسان ! إنك وإن حاولـت إنكار الحق لتبتعد عن عبادة ربك ، فلن تجد ما ينفعك في هذا السبيل . وأنت مهما فكرت ، واكتشفت وصنعت وفعلت ، فإنَّ ذلك من خلق الله تعالى ، ويجب أن يكون حافزاً لك على الإيمان بحقيقة وجود الله رب السماوات

والأرض . . وأنت وما يعمل عقلك وينشىء ، وما يشعر قلبك ويعتقد، تبقى تدور في حلقة الباطل إن لم تقرَّ إقراراً قاطعاً بألوهية الله تعالى، وربوبيته المطلقة، وبأنه وحده الخالق لكل خلق، القاهر لكل من يدعي اقتداراً وامتلاكاً . . فهو سبحانه خلق كل شيء، ليجري وفق مشيئته ، وبحسب تقديره وحكمته . ولذا كان جديراً بنا ـ كمخلوقين له ـ أن نعبده ولا نشرك بعبادته أحداً . . وكان حقّاً أن يضرب سبحانه لنا الأمثال ليبين زيف عبادة الكافرين والملحدين .

ولكي يزيد الإنسانَ توضيحاً يقدم القرآن الكريم برهانينَ آخرين للتمييز ما بين الحق والباطل ، وهما المثل عن الماء الجاري وما يعلوه من الزبد التافه ، والمثل عن المعادن وما يعلوها أثناء ذوبانها من زبدٍ لا نفع منه ، فيقول تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً . ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ .

فالماء الذي ينزله الله تعالى من السماء مطراً ، ثم يسير سيولاً جارفة تمتلىء بها الأودية ، يحمل كثيراً مما يقع في طريقه من الغثاء ، ومن القش والورق والحطب ، الذي يطفو على وجهه حتى أنه ليحجبه في بعض الأحيان ، وهو لشدة اندفاعه وتدفُّقه ، ترى الزبد على سطحه رابياً ، منتفخاً ، لا يلبث أن يتلاشى حين تنطفىء فقاقيعه وتذهب في الهواء ، كما تذهبُ هباءً جميع الأقذار التي حملها ، ليبقى من بعد ذلك الماءُ الذي يذهب إلى الأنهار فيغذيها ، وإلى الأراضي فيرويها ، فيحلُّ الخصب والنماء ، ويكثر الخير والجنى . . ومثل ذلك الزبدِ فوق الماء الذي ذهب بلا نفع ، الزبدُ الذي يطفو فوقَ سائلِ المعادنِ التي يجري

تذويبها فوق النار لتصاغ منها الحلي وأدوات الزينة (كالذهب والفضة) أو لتصنع منها الأواني والأدوات والآلات (كالحديد والرصاص والنحاس . . .) فالمواد الخبيثة والأقذار تطفو على السطح زبداً يذهب بلا نفع ، ويبقى المعدن الصافي المفيد في قعر الإناء . .

تلك هي أمثال الحق والباطل في هذه الحياة . فالباطل قد يظهر ويعلو ويبدو رابياً ، ولكنه مثل الزبد لا بد وأن يذهب جفاءً مطروحاً ، لا حقيقة له ولا تماسك فيه . في حين أن الحق يظل هادئاً ، ساكناً ، وقد يحسب قصير النظر أنه اختفى أثره أو انتهى أمره ، ولكنه هو الباقي في النهاية ، كبقاء الماء في الأرض ليحييها ، أو كبقاء المعدن الصافي لينفع الناس .

قال قتادة : « هذه ثلاثة أمثال ضربها الله سبحانه وتعالى في مثل واحد : شبَّهَ نزول القرآن بالماء الذي ينزل من السماء ، وشبه القلوب بالأودية والأنهار ، فمن استقصى في تدبّر القرآن وتفكَّر في معانيه أخذ حظاً عظيماً منه كالنهر الكبير الذي يأخذ الماء الكثير ، ومن رضي بظاهر معانيه أدّاه إلى التصديق بالحق على الجملة وكان أقلَّ حظاً منه كالنهر الصغير . . فهذا مثل . . ثم شبَّهَ الخطرات ووساوس الشيطان بالزبد الذي يعلو فوق الماء وذلك من خبث التربة لا من عين الماء ، كذلك ما يقع في النفس من الشكوك فإنه يكون من ذاتها لا من ذات الحق . فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفو الماء ، كذلك تذهب مخايل الشك هباءً باطلاً ويبقى الحق . . فهذا مثل ثانٍ : ﴿ ومما توقدون عليه في النار ﴾ إلى آخره . . فالكفر مثل الخبث الذي يطفو على المعدن وهو لا ينتفع به ، والإيمان مثل المعدن الصافي الذي ينتفع

به « فهذا مثل ثالث » . . وهكذا يضربُ اللَّهُ تعالى الأمثال ويبيّنها للناس ، فيلقيها على أسماعهم ، ويعرضها لأبصارهم فتهتدي بها القلوب المؤمنة النيّرة البعيدة عن ظلام الكفر . . فعندما يضربُ ـ سبحانه ـ المثل بالماء الذي أنزله من السماء لإحياء الأرض ، فتسيل به الأودية ، إنما يريدُ بذلك القلوب التي تمتلىء بالحق والإيمان ، فكما يسَعُ الوادي الكبيرُ الماءَ الكثير ، كذلك القلب المؤمن يسع العلم الوافر . . وكما الوادي الصغير ، فإن القلب الصغير لا يسع إلاَّ بحسبه . . فيكون معنى قوله سبحانه ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ أن قلوباً احتملت من العلم والهدى بقدر ما تستطيع حمله ، إذ كما يحمل السيلُ الجارف زبداً ، وغثاءً من الأرض التي يمرُّ عليها ، ثم يذهب ذلك كله ويختفي ، فكذلك الهدى والعلم ، فإنهما يقتلعان من القلوب كل ما يخالطها من آثار الشبهات والشهوات ، لتستقر تلك القلوب طاهرةً ، طيبةً مؤمنة . .

ولكنَّ هذا التغيير لا بد أن ترافقه عملية استئصال حتى يأتي العلاج شافياً ؛ فكما أن الجرّاح قد يضطر إلى استئصال المرض بعملية جراحية ، مع ما يرافق ذلك من الألم والمعاناة ، فكذلك الهدى عندما ينفذ إلى القلب ، لا بدَّ وأن يثير لدى الإنسان الضيق والحرج ، حتى يتغلب نورُ الله على الشبهات ويطردها خارج ذلك القلب . .

وعندما يطمئن القلب بالإيمان ، وينتعش باليقين ، فإنَّ آثار ذلك تنتقل إلى سائر أعضاء البدن فتنشط للعبادة فتسرع إلى الطاعة ، وفي ذلك يقول الشاعر المؤمن :

وإذا حلَّتِ الهـدايةُ قلبـاً نشطت للعبادةِ الأعضاءُ .

إذن فالمقصود بمثل السيل الجارف الذي يذهب زبدُهُ بلا طائل ، وبمثل المعدن المذاب الذي يطفو زبدُهُ ويطرح ، المقصود بهما الشبهات والشهوات التي يلفظها القلب المؤمن خارج صدر صاحبه ، ليستقر فيه ، بدلاً عنها ، الإيمان الخالص . وهذا الإيمان ينفعُ صاحبه ، وينفع غيره من المؤمنين . . وعندما يكثر أهل الإيمان ، يتضاءل أهل الكفر ويقلُّ عددهم ، وكلما اتسعت رقعة الحق ، كلما ضاقت رقعة الباطل ، إلى أن يمحق اللّهُ تعالى الشرَّ وأهله ، وينصر الخير وأهله . .

﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ ليقرّب إلى أذهاننا المعاني التي تحمل مصائر الدعوات ، ومصائر الاعتقادات ، ومصائر الأعمال والأقوال .

٢ ـ الكلمة الطيبة هي الحق ، والكلمة الخبيثة هي الباطل

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[1] .

الكلمة الطيبة هي كلمة الحق . . والكلمة الخبيثة هي كلمة الباطل . .

---

(١) ابراهيم : ٢٤ ـ ٢٧ .

فكما أن الشجرة الطيبة جذورها ثابتة قوية في التربة ، وفروعها وأغصانها باسقة ، عالية ، متينة صلبة ، لا تقوى الأعاصير على اقتلاعها أو تكسيرها ، وهي تعطي ثمارها في كل حين بإذن ربها ، فينتفع بها الناس ، كذلك هي كلمة الحق تظل صامدة ، فاعلة ، لا تقوى عليها الأباطيل ، ولا تقهرها الأضاليل ، مهما خيّل للناس أنها معرضة للخطر الماحق ، أو زيّن لهم الشيطان بأن الشرَّ قد طغى عليها وأخضعها له . . إنها تبقى الكلمة التي تنبت في النفوس حقاً وإيماناً ، وصدقاً وقناعة ، تماماً كما تنبت البذور الطيبة ، الشجرة الصالحة الراسخة في الأرض ، لتعطي ثماراً يانعةً نافعة . .

وكما أن الشجرة الخبيثة قد تنشط فتهيج وتتشابك فروعها وأغصانها ، حتى ليخيَّل إلى بعض الناس أنها تطغى على ما حولها من أشجار ، إلَّا أنها تظل فارعة في طولها ، هشة في كثافتها ، ضعيفة في بنيتها ، وتظل معها جذورها قريبة من وجه الأرض ، بحيث تقتلعها الرياح ، وتجتثها سريعاً ، فلا يبقى لها قرار أو بقاء . . هكذا الكلمة الخبيثة ، كلمة الباطل ، التي تزرع الشر في النفوس ، وتنشر الفتن بين الناس ، وتناصر الظلم والطغيان والإلحاد . . . فإنها إلى زوال لمجرد احتكاك رياح الحق بها ، لأنها هشة ، ضعيفة بذاتها ، لا تحمل أية معانٍ للمواجهة الحقة ، ولذلك لا بد أن يحين الوقت الذي تجتث فيه وتنتهي ، فلا يبقى لها قليل من الأثر .

ولا يقف مَثَلُ الكلمةِ الطيبة كالشجرة الطيبة ، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة عند حدود المثل وحسب ، ولا هو مجرد عزاء للطيبين وتشجيع للمؤمنين ، إنما هو تصوير لأصل الحياة الذي يقوم على الحق

وليس على الباطل ، لا سيما وأن الخير الأصيل ، والحق الثابت ـ وإن أبطأ تحققهما في بعض الأحيان ـ لا يفنيان أبداً ، ولا يزولان مهما زحمهما الشر ، وأخذ عليهما الباطل الطريق . . أما الشر فإنه لا يعيش إلَّا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس فيه ، ثم لا يعتِّم أن لا تبقى فيه أية بقية من خير ، ثم يتآكل من داخله ، ويتهالك على نفسه ، إلى أن يضمحل في ذهابٍ إلى غير رجعة . والخير المتمثل بالكلمة الطيبة ، المتجددة على تعاقب الأجيال ، تحتوي دائماً على الحقائق الثابتة مثل حقيقة الرسالة السماوية الخالدة ، وحقيقة الدعوة الصادقة الباقية ، وحقيقة التوحيد بأن اللَّهَ تعالى واحد أحد فرد صمد ، وهي الحقائق التي لا وجود للكون وللحياة وللإنسان من دونها . .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم عندما يضرب المثل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، فإنما يعني بالكلمة الطيبة الحقائق بأكملها وخاصة الإيمان الحق ، في حين يعني بالكلمة الخبيثة الكفر والباطل . . ولما كان لا بد للشجرة من عروق ، وساق ، وفروع ، وورق وثمر ، فكذلك الإيمان تكون عروقه العلم واليقين ، وساقه الأخلاص ، وفروعه الأعمال الصالحة ، وثمره الآثار والنتائج المترتبة على الأعمال الصالحة من صفاتٍ حميدة ، وأخلاق كريمة ، ومعاملات طيبة . . وغيرها من المزايا والخلال التي يحمدها اللَّهُ تعالى وعباده الصالحون .

أما الكفر والإلحاد فكالشجرة الخبيثة المؤذية ، التي تفتك بحياة كل من يتناول منها شيئاً أو يقربها ، حتى يقيِّض اللَّهُ تعالى لها من يستأصلها ، ويذروها هباءً ، فيخلص البرية من تكاثرها ، والأحياء من ضررها . . فهي شجرة خبيثة ، والخبيث مذموم ملعون ، ومن

اتبع الكفر والإلحاد فقد اتبع هذا الخبيث ، حتى صار مذموماً ، ملعوناً . . وعادة لا يتبع أهل الباطل إلاَّ الخبيث بينما يكرهون الحق وأهله ، ويحاربون الخير والعمل الصالح . . . وقد سئل رجل من أهل العلم عن معنى « الكلمة الخبيثة » فأجاب : « لا أعلم لها في الأرض مستقراً ، ولا في السماء مصعداً إلاَّ أن تلزم عنق صاحبها حتى يوم القيامة » . وقد روي عن ابن عباس قوله : « إن الشجرة الخبيثة لم يخلقها اللَّهُ سبحانه بعد ، وإنما هو مثل ضربه بهذا الواقع الذي يدل على الخبث والضرر » .

٣ ـ الكافرون يتّبعون الباطل والمؤمنون يتّبعون الحق

قال الله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾[١]

نعم إن أهل الكفر هم دائماً على نقيض أهل الإيمان . فالذين كفروا وصدوا غيرهم عن هدى الله والإيمان بحقيقة وجوده سبحانه ، قد أحبط أعمالهم وأضلَّها فلا تقع على هدى أو خير ، لأنها أعمال باطلة زائلة . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وآمنوا بما نزل على محمد (ﷺ) من قرآن مبين ، وأقروا بأنه هو الحق من ربهم ، فهؤلاء

(١) محمد : ١ ـ ٣ .

يكفّر سبحانه عنهم كلَّ سيئاتهم الماضية ـ إذ الإسلام يجبّ ما قبله ـ ويريح بالهم من حمل همِّ الذنوب والخطايا ، فلا يعصون اللَّهَ تعالى بعد إيمانهم ، ولا يخالفون أوامره ونواهيه بعد يقينهم .

وقيل إن هذه الآية المباركة نزلت في أهل مكة وفي الأنصار . فأهل مكة هم الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ؛ أما الأنصار فهم الذين آمنوا بما نزل على محمد (ﷺ) فدخلوا في الإسلام ، مخلصين صادقين بعد ما تبين لهم أنه هو الدين الحق من ربهم ؛ ولذلك فقد غفر الله سبحانه ما سلف من ذنوبهم ، وأصلح أحوالهم ، وأراح بالهم بما وعدهم من دخول الجنة في الآخرة . .

والله تعالى يحبط أعمال الكافرين لأنهم يتبعون الباطل ، ويكفّر عن المؤمنين سيئاتهم لأنهم يتبعون الحق ، ويهتدون بالقرآن المنزل إليهم من ربهم . . ومثل هذا البيان في إضلال أعمال الكافرين وتكفير سيئات المؤمنين هو ما يضربُ اللَّهُ تعالى به للناس الأمثال حتى تتقرَّب بهذه الأمثال المعاني إلى عقولهم وقلوبهم ، فيدركوا الحق ويتبعوه ، ويعرفوا الباطل ويرذلوه . .

٤ ـ مثل قارون الغنيِّ الجاحد المنكِر

يقول الله تعالى :

إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا
يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ
يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا
يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن
فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ (١) .

يتجلّى التعبير القرآني في هذه الآيات المباركات بأروع التمثيل والتشبيه وهو يرسم لنا صورة الإنسان الذي يجحد فضل ربه عليه ، وينكر نعمته الجزيلة ، ويدّعي زوراً وبهتاناً بأن ما عنده من مالٍ وغنى إنما كان من عمله وحنكته ، وذلك لشدة غروره بنفسه ، وتناسيه صروف الدهر .

والمثالُ على الإنسان الجاحد ، المنكِر هو قارونُ الذي كان من بني اسرائيل ، وعاشَ في أيام موسى (ع) ، وقيل إنه كان ابن عمه . فبدل أن يؤمن بما يدعو إليه موسى (ع) تنكَّر لعقيدة التوحيد ، ولاذ بفرعون ووزيره الأول هامان ، اللذَين سلَّطاه على بني إسرائيل يجمع منهم الجزية والضرائب ، ويداهنهم ويتخذ منهم أعواناً ، ليكونوا عيوناً

(١) القصص : ٧٦ - ٨١ .

على بني اسرائيل أتباع موسى وهارون (عليهما السلام) . . وبذلك فقد بغى على بني اسرائيل ، وأفسد فيما بينهم . .

ويبينّ اللَّهُ سبحانه أنه آتاه من الكنوز ما تنوء الجماعة بحمل مفاتيحه ، لكثرة ما جمع من الثروات عن طريق الاستغلال ، وسرقة حقوق الناس ، وابتداع الحيل والأكاذيب . .

وكان قارون مغترّاً بأمواله ، فرحاً بكنوزه ، يتعالى بها صلفاً وخيلاء ، وفرحاً . فكان المؤمنون من بني قومه يقولون له : لا تفرح بكثرة المال فَرَحَ بَطَرٍ لأن الله لا يحب الفرحين بذلك . ثم يزيدون في نصحهم له قائلين : اطلبْ فيما آتاك اللَّهُ من المال والنعمة الدار الآخرة ، بأن تنفق في سبيل الله وطاعته ، فتتصدق على الفقراء والمحتاجين ، وتنشىء المشاريع التي تساعد الناس في حياتهم ، دون أن تنسى نصيبك من الدنيا ، فتتمتَّع بأطايبها وخيراتها ، تمتّع العاقل ، المؤمن ، الذي يعمل لدنياه ، كما يعمل لآخرته ، وإن كانت الآخرة خيراً وأبقى . . وأحسن يا قارون للناس بالصدقات والزكوات كما أحسنَ اللَّهُ إليك ، فالمالُ الذي عندك هو إحسان وفضلٌ من الله ، وللآخرين نصيب فيه يستحقونه . . ولا تطلب الفساد في الأرض بعمل المعاصي ، فإن الله تعالى لا يحب المفسدين العاصين . .

أجل تلك كانت نصائح المؤمنين من قوم موسى لقارون : لا تفرح يا قارون فرح الزهو ، المنبعث عن الاعتزاز بالمال ، والاحتفاءِ بالثراء ، والتعلق بالكنوز . . . لا تفرح فَرَحَ البَطَر الذي يُنسي الواهبَ الحقيقي للمال، ويُنكر المُنعِمَ بالنِّعم، في حين أنها تستحق الحمد

والشكران . . ولا فرح الذي يستخفه المال فيشغل به قلبه ، ويطير له لبُّهُ ، ويتطاول به على العباد . . ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ المأخوذين بالمال ، المتباهين به ، والمتطاولين بسلطانه على الناس . ﴿ وابتغِ فيما آتاك اللَّهُ الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ﴾ إذ أنه سبحانه قد خلق طيبات الحياة ليستمتع بها الناس وليعملوا في الأرض على توفيرها وتحصيلها ، فتنمو الحياة وتتجدد ، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض ، على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع أو في هذه الطيبات الدارَ الآخرة ، فلا ينحرفون عن طريقها ، ولا يُشغلون بمتاع الدنيا عن تكاليفها . ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ فإن مالك الوفير هبةٌ منه تعالى وإحسانٌ ، فليقابل بالشكر في التقبّل ، وبالإحسان في التصرف . ﴿ ولا تبغِ الفساد في الأرض ﴾ بالحرج والحسد والبغضاء ، وبالاستلاب والظلم والاستغلال ؛ وبالإنفاق في غير حق ، أو الإمساك عن الإنفاق لمن يستحقه . ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ بأموالهم ، كما أنه لا يحب الفرحين بتلك الأموال .

فقال قارون : ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ . . وهذا هو الضلال الكبير الذي وقع فيه قارون ، إذ اعتقد أنه أوتي ذلك المال الكثير عن طريق العلم الذي استخدمه في جمعه وتحصيله ، وعن طريق الجهود التي بذلها ، والأموال التي دفعها حتى حصل على الوظيفة التي نصبَّه فرعون فيها ، ليعود فيستعملها وسيلة لجمع المال والثروة . . ولذلك كان احتجاجه على بني قومه بقوله لهم : ما بالكم تُملون عليَّ كيف أتصرّف بمالي ، وتتدخلون في ملكيتي الخاصة ؟ أتريدونني أن أتصدَّق به على الفقراء ، وأن أعطي منه المحتاجين ؟

لا ! لا حق لكم عليَّ بشيء ، فأنا أدرى بما لي ، وبما يجب أن أعمل بهذا المال ! ! .

وإنها لمقولة المغرور المطموس على قلبه ، الذي ينسى مصدر النعمة والحكمة منها ، والذي يفتنه المال ويُعميه الثراء . . ألم يعلم بأنَّ اللَّهَ تعالى هو الذي يرزق من يشاء بغير حساب ؟ فإن رزق المؤمنَ فلكي يمتحنه ، وإن رزق الكافر فليبتليَهُ . وما كان مالُ قارون إلَّا ابتلاءً عظيماً من ربه ، ليكون مثالاً لكل جاحد متكبر ، وليكون نموذجاً مكرراً في البشرية إلى أبد الدهر . . فكم من الناس من يظن بأن عمله وعلمه هما مصدر غناه ، ومن ثم يروح ويتصرف في أمواله على هواه ، معتبراً نفسه أنه غير مسؤول تجاه غيره عن إنفاقه أو إمساكه ، وغير محاسَب من أحد على ما يُفسد بماله أو ما يُصلح به ! . . بل تراه يفعل ذلك من غير أن يحسب لله تعالى رازقه ومعطيه أي حساب ، ومن غير أن ينظر إلى غضبه ـ سبحانه ـ أو رضاه ! . .

لقد كان قارون يتوهم بأنه جمع ماله بعلمه ، ولم يتفكَّر بأن كثيرين ـ غيره ـ من السابقين ، كانوا أكثر منه مالاً وغنىً وثروة ، ولكنَّ اللَّهَ سبحانه أهلكهم جميعاً هم وثرواتهم . .

وكان من عادة قارون أن يخرج ومن حوله الأتباع ، والخدم والحشم ، ومظاهر الزينة والخيلاء تحفُّ به من كل جانب . وكانت تلك المظاهر تبهر الذين يريدون الحياة الدنيا فيقولون : يا ليت لنا مثل ما لقارون من المال والثروة والحظ . . أما الذين آتاهم الله تعالى العلم والإيمان فكانوا يقولون لهم : ويلكم أيها المغترّون بالمال والجاه ، ألا تعلمون أن الغنى الحقيقي هو ما ينتظر المؤمن في الآخرة من ثواب الله

العظيم ، حيث يدخله الجنة ؟ ! فذلك هو ثواب من آمن وعمل صالحاً . وهو خيرٌ مما أوتي قارون في الدنيا ، ولا ينال ثوابَ الله تعالى ، ويدخل الجنة إلَّا الصابرون على الطاعة ، الهاربون من المعصية . .

ويشاءُ اللَّهُ ـ سبحانه ـ أن يضربَ المثل بقارون الجاحد لكل جبار متغطرس ، فيبيّن لنا سبحانه أنه خسف الأرض به وبداره وما فيها من الكنوز ، وبكل مَن كانوا معه ، فذهب وإياهم بعد أن ابتلعتهم إلى باطنها لا يعلم لهم مستقراً إلَّا اللَّهُ سبحانه وتعالى . . فهل قدر قارون أن يدفع عن نفسه أمرَ الله سبحانه لَمَّا جاءه ؟ وهل وجد مَن ينصره ويخلِّصه من عذاب الله الذي حلَّ به وبمن معه ؟ كلا ، لم يجد مَن يمنع عنه الهلاك ، أو مَن يدفع عنه العذاب ، وما كان قارون من المنتصرين ولا من الناجين من عقاب الله تعالى وعذابه ! . .

وطلع الصباح على الذين تمنَّوا بالأمس أن يكونوا مكان قارون في الغنى وفي الجاه ، فإذا هم نادمون ، يقول بعضهم لبعض : ويلكم إن الله يوسع الرزق لمن يشاء ، ويضيّق الرزق على من يشاء . فلو أنْ منَّ اللَّهُ علينا بمثل ما منَّ على قارون ، ثم خسفَ بنا كما خسف به ، لَكنَّا من الخاسرين . . فلنؤمن بالله تعالى ولنرضَ بعطائه ومنعه ، ولنبتعد عن الكفر ، لأنه لا يفلح الكافرون ، الذين إن استطاعوا النجاح في هذه الحياة الدنيا ، فذلك بأمر الله تعالى ولحكمةٍ تتحقق في عباده ، ولكن لن يكتب لهم نجاحٌ ولا فوز في الآخرة ، بل سيصلون

نار السعير التي أُعدت للكافرين المتكبرين ، كما أُعدت الجنة للمؤمنين الـذين لا يـريـدون علواً في الأرض ، ولا يبغـون فســاداً في العبـاد ، والعاقبة دائماً للمتقين .

الشركُ والمشركونَ

الشرك والمشركون

١ ـ مآل من يشرك بالله إلى الهلاك

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (١)

إنه تحذير من رب العالمين لعباده المتّقين ، بل هو الأمر المطلق بالنهي التام عن الرجس الذي هو دنس النفس ، لأن الكافرين كانوا يذبحون ضحاياهم عند الأوثان . . واجتنبوا قول الزور أي الكذب وتغيير الحقائق ، واظهارها على غير واقعها الذي هو عليه . . فيكون الشرك بالله دنساً يصيب العقول ، ويلوث القلوب ، ويشوب نقاءها وطهارتها ، تماماً كما تشوب النجاسةُ الثوبَ والمكان . . فكل شهادة

---

(١) الحج : ٣٠ ـ ٣١ .

غير شهادة «لا إلَه إلا الله»، وكل عبادة غير عبادة الله تعالى ، وكل كذب وتغيير للحقائق وإظهارها على غير واقعها تكون افتراء على الله سبحانه ، ولذلك يحذر الله تعالى منها، وينهى عنها .

وبعد هذا التحذير والنهي ، يأمر الله تعالى عباده بأن يكونوا ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾ أي مستقيمين على الطريقة في أمر الله ، مائلين عن أية عقيدة غير عقيدة التوحيد التي تقوم على شهادة « لا إلَه إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد » . . وكل اعتقاد أو تفكير أو مقولة بخلاف هذه العقيدة ، إنما هو ضربٌ من الشرك المذموم المدحور ، الذي يزلُّ الإنسان باتِّباعه ويرتكب أكبر خطيئة أو معصية في حياته ، لأن الشرك بالله أمر عظيم ، وعظيم جداً . . ولكي يبين لنا ضخامة الجرم الذي يرتكبه الإنسان عندما يشرك بالله تعالى ، يبين لنا سبحانه بأن ذلك الإنسان يكون كأنما سقط من شاهقٍ عالٍ ، لا أحد من البشر يعرف مدى هذا العلو ، فتتلقفه الطيور بجوارحها ، لتمزّق لحمه إرباً إرباً ، وتكسّر عظامه قطعاً قطعاً ، ثم تبتلعه في حواصلها ، أو تذري أجزاءه في كل ناحية . قال ابن عباس : « يريد تخطف لحمه » . . وقال الزجاج : « اعلم اللَّهُ سبحانه أن بُعْدَ من أشرك بعبادته عن الحق كبعْد من خرَّ من السماء فاختطفته الطير ، فتمزَّق مِلَعاً في حواصلها » . .

ثم تأتي الصورة الثانية لمن يشرك بالله ، إذ يكون كمن عصفت به الريح ، ثم هوت به في مكان عميق ، بعيد الغور لا قرار له . ومن تحمله الريح العاصفة ، وتهوي به على هذا النحو هل يبقى له أملٌ في نجاة ، أم أنَّ الهلاك محتومٌ عليه ؟ ! . .

فالآية الكريمة ترسم لنا مشهداً مرعباً لمن يشرك بالله جل وعلا ، فهو يصور حال من تزل قدماه عن خط التوحيد فيهوي إلى درك الشرك ، فإذا هو ضائع ، ذاهب بدداً ، وكأنْ لم يكن أبداً . وفي هذا المشهد المخيف تبرز سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها ، وخاصة عند بدء اللفظ (بالفاء) وعند عرض المنظر (بسرعة الاختفاء) ، وهي صورة قرآنية صادقة لحال من يشرك بالله ، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث لا فناء فينطوي الذكر ، ولا نجاةَ تُرجى بثاقبِ الفكر . .

فتأمل صدق هذا المثل ومطابقته لحال من يشرك بالله ويعبد سواه ، ويستعين بغيره . . ثم انتبه إلى أنك تجد في هذا التشبيه أمرين :

أحدهما : أنه تشبيه مركب لأنه يُشَبِّه من يشرك بالله تعالى بالرجل الذي تسبب في هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاة ، ولأنه يصور حاله بصورة من خرَّ من السماء فاختطفته الطير في الفضاء ثم مزقته مزقاً في حواصلها . أو عصفت به الريح ، وهوت به في أوديةٍ سحيقة ، بعيدة الأغوار .

وثانيهما : أنه من التشبيه المفرق ، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثَّل بالممثَّل به ، وعلى هذا يكون قد شبَّهَ الإيمان والتوحيد في علوهما وسعتهما وشرفهما بالسماء ، ثم ربطهما بها لأنها هي مصعدهما ومهبطهما . . ثم شبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين ، من حيث وقوع الهلاك ، ومن تأكد الخسران . وقد كنَّى بالطير التي تخطف أعضاءه وتمزقها كل ممزق عن الشياطين التي

تغريه وتقوده إلى مظانّ هلاكه . فكل شيطان يستولي على جزء من تفكيره واعتقاده ، كما لكل طير مزعة من لحمه وعظامه . أما الريح التي تهوي به إلى مكان سحيق فهي هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكانٍ وأبعده عن الحق ، وهو المكان الدون الذي تغطيه ظلمة الكفر . .

٢ ـ هوان الأوثان والأصنام وضعفها

يقول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾(١) .

إنه النداء العام ، البعيد الصدى : ﴿ يا أيها الناس ﴾ ! . . .

فإذا أصاخَ الناسُ السمعَ للنداء وجدوا أنهم أمام مَثَلٍ عامٍ يُضرب ، لا حالة خاصة ، ولا مناسبة حاضرة ؛ وهذا المثل الذي يجب أن يستمعوا له ، يضع قاعدة ، ويقرّر حقيقة ، ألا وهي أن المعبودات من دون الله تعالى لا تقدر على أي خلقٍ مهما كان شأوه كبيراً أو صغيراً حتى ولو كان ذباباً ، وتتقرّر القاعدة والحقيقة بقول أصدق القائلين : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو

---

(١) الحج : ٧٣ و ٧٤ .

اجتمعوا له﴾.. فيا أيها الناس: إن جميعَ مَن تدعون من دون الله تعالى، من معبوداتكم السخيفة المدَّعاة: من أصنام وأوثان.. ومن أشخاص وظواهر كونية ... لتستنصروا بها ، وتستعينوا بقوتها ، وتطلبوا منها الرزق والعافية والسلطان .. إنهم ـ جميعاً ـ لا يقدرون على شيء من ذلك ، لأنهم لو دُعوا لأن يخلقوا ذباباً ، لما استطاعوا ولو اجتمعوا لهذا الخلق وتعاونوا عليه ، مع أن الذبابَ هو أصغر وأحقر الكائنات الحية في دنيا الخلائق .. ذلك أن خلق هذا الكائن الصغير إنما يستوي مع خلق أكبر كائنٍ وأضخمه ؛ فخلق الذباب ـ في عالم الحشرات والحيوان ـ يستوي تماماً مع خلق الجمل والفيل ، والزرافة والثور الوحشي ... فالخلق من صفاتِ الله تعالى وحده ، وقد تفرَّد سبحانه بالسر المعجز الذي يهب الحياة ، فسيَّان في خلقِهِ الذبابُ أو غيره . ولكنَّ اختيار الأسلوب القرآني للذباب الصغير الحقير كان للإعجاز ، فالعجز عن خلقه يلقي في النفس الضعف ، بل وانعدام الامكانية عن أي خلقٍ آخر .. وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب ، بل ومن روعة الإعجاز في المثل القرآني ..

ويخطو التعبير القرآني خطوةً أوسع في إبراز الضعف المزري لمعبوداتهم وذلك عندما يقول تعالى : ﴿ وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ ؛ فالآلهة المدَّعاة ليست فقط عاجزة عن خلق ذبابٍ ، بل إنْ سلبها ـ هي أو من يعبدونها ـ الذبابُ شيئاً ، لا يملكون أية قدرةٍ على إنقاذه منه ، أو استرجاعه إليهم .. والمرادُ هنا ﴿ إن يسلبهم الذبابُ شيئاً ﴾ هو أن الذباب قد يسلب العيون والجوارح ، وقد يكون سبباً للقضاء على الحياة ، لما يحمل من ميكروبات السل أو

التيفوئيد أو الدوزنطاريا أو رمد العيـون أو غيرهـا ، ولما ينتـج عنها من أمراضٍ خطيرة قد تشوّه من تصيبه وقـد تقضي عليه . . أفـرأيت لماذا اختـار المثل القـرآني (الذبـاب بـالـذات) ولم يستعمـل مثـلاً لفـظة « السبـاع » بدلاً من الـذباب ، لأنـه لو قـال : (وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذوه منه) لأوحى ذلك بـالقـوة بـدل الضعف ، وبالثقـة بـدل الانهزام ، هذا رغم أن السبـاع لا تسلب شيئاً أعـظم مما يسلبـه الذبابُ ، ولكنه الأسلوب القرآني العظيم ، فتأمَّل !! . . .

ويسترسل المثل القرآني في التصوير الموحي عندما يقول معقّباً : ﴿ ضعف الـطالب والمـطلوب ﴾ فكـلاهما في منتهى الضعف :الآلهـة والذباب على حد سـواء . . فالآلهـة التي يعبدونها من دون الله عـاجزة عن خلق ذباب ضعيف ، وعاجزة عن إنقاذ ما يسلبها هذا الذبابُ الضعيف ؛ فإذا كان الذباب وهو على حاله المعروفة من الضعف ، فآلهتهم إذن أكثرُ ضعفاً منه . وهذا أدلّ شيء على هوانها ومهانتها وحقارتهـا . . ويروى عن ابن عبـاس أن المشركـين كانـوا يطلون أجسـام آلهتهم بالـزعفـران ورؤوسها بالعســل ، ويغلقون عليهـا الأبواب ، فيـدخل الـذبابُ من الكوى فيأكله . . وفي هذا تصويـر حسيٌّ رائع يبيِّن كيف أن الذباب كان يسلب تلك الآلهـة ما يضعـه عليهـا المشـركـون دون أن يتنبَّـهَ أولئـك المشركون لهذا الأمر أو يجعلهم يتفكَّرون بمهانة ما يعبدون . فكان حقاً أن يكونوا هم وآلهتهم ضعـافاً لا يـقـدرون عـلى شيء أراده اللَّهُ ربُّ العالمين . . ولذلك فإنَّ الذين جعلوا تلك الآلهة المهينة شركاءَ مـع الله القوي العزيز ﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ في إشراكهم معه تلك الآلهة الكليلة الذليلة ، ولا عرفوه حق معرفتـه ، ولا عظمـوه حق تعظيمـه ، في حين أنهم يرون آثار قدرته ، وبدائع مخلوقاته . . إنه اللَّهُ الخـالق ،

القوي، والإله الواحد العزيز، جلَّ شأنه وعُلاه، وعظمت قدرته وسناه، فما بالهم لا يدركون ذلك، ولا يعون صدق هذا المثل عندما اختار الذباب من دون سائر المخلوقات ؟ ! . .

٣ ـ مثل الشرك كمثل بيت العنكبوت

يقول اللّهُ تعالى :

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ (١) .

أول ما يتبيّن لنا أن النصَّ القرآني يستعمل كلمة ﴿ أولياء ﴾ للتدليل على منتهى النصرة التي كان يرجوها المشركون من آلهتهم ، إذ اعتبروها أولياء لهم ؛ والولي هنا هو المتولّي للنصرة ، فهو إذن أبلغ من الناصر ، لأن الناصر قد يكون ناصراً بأمر غيره بالنصرة في حين أن الولي هو الذي يتولى النصرة بنفسه . .

إذن فالمعنى أن الذين اتخذوا آلهةً لهم من دون الله تعالى ، يلوذون بها ، ويبتغون نصرها أو نفعها لهم ، أولئك مثلهم كمثل العنكبوت التي تبني بيتاً تأوي إليه من خيوط واهيةٍ ، غير متماسكة ، لا تغني عنها شيئاً ، لأنها لا ترد عنها غائلة برد أو حرٍّ ، ولا تحميها من أدنى المخاطر التي قد تتعرض لها . فهل أدلّ شيئاً على الوهن من بيت

---

(١) العنكبوت : ٤١ ـ ٤٣ .

العنكبوت في طلب الحماية والصَّون ؟! . . . فكما أن بيت العنكبوت لا ينفعها بشيء ، فكذلك آلهة المشركين ، لا تستطيع لهم شيئاً من نفع ! ! . . ولو كان المشركون يعلمون هذه الحقيقة الواضحة ، وهذه البيّنة الصريحة ، لما اتخذوا من دون الله أولياء ضعافاً ، حقيرين ، لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً . .

إذن فهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، ولكنَّ اللَّهَ تعالى يعلم ما يدعون من دونه من أشياء جامدة ، تافهة ، لأنه العزيز في علمه ، الحكيم في خلقه ، لا يهمه شيء من أمر المشركين ، ومن أمر أوليائهم ، لأنه يملك الأمور جميعاً .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلَّا العالمون ﴾ . نعم إن مثل المشركين والكافرين في عبادتهم لآلهتهم واتخاذها أولياء لهم هو منتهى الضعف في الاعتقاد والعبادة ، تماماً كما أن بيت العنكبوت في منتهى الضعف والهوان . ولو علموا أن لجوءهم إلى عبادة الآلهة واتخاذها زلفى إلى الله لا يمنع عنهم عقابَهُ الشديد ، لعرفوا أن عبادتهم تلك واهية مثل خيوط بيت العنكبوت في وهنها . ولذلك يضربُ الله تعالى مثل هذه الأمثال للناس حتى تتبين لهم الحقيقة من الضلال ، والأصالة من الزّيف ، ولكن لا يعقل هذه الأمثال إلَّا العالمون بحقيقتها ، الذين قدروا اللَّهَ تعالى حق قدره ، فآمنوا بالحق من عنده ، وتركوا الشرك وأهله .

وهذه الأمثالُ القرآنية تبقى تذكرة لجميع الناس ، وإن كان لا يعي التذكرة إلَّا من يعلم وجه الشبه بين المثل والممثَّل به . . ولذلك

استهزأ المشركون بهذا المثل إذ استعصت الحقيقة على عقولهم وأفهامهم ولم تدخل إلى قلوبهم ، فقالوا : « إنَّ ربَّ محمدٍ يتحدث عن الذباب والعنكبوت » . . وفي هذا منتهى السخف ، لأنَّ التشبيه لم يهزَّ مشاعرهم ، والتمثيل لم ينبّه عقولهم ، وما ذلك إلَّا لأنهم لا يعقلون ، فهم أقلّ حظّاً من الأنعام وأضل سبيلاً . .

ويبقى الضالون على حالهم في كل زمان ومكان ، لا يعقلون أمثال الله تعالى ، ولا يعلمون غاياتها الكبرى ، ولذلك تجدهم يستهزئون بمثل العنكبوت أو بمثل الذباب . . وعلى خلافهم يكون أهل الإيمان وأصحابُ دعوة الحق ، إذ يقفون أمام أمثال الله خاشعين ، مصدقين ، عارفين حقيقة هذه الأمثال ، وما يريدُ اللَّهُ سبحانه منها من نهي عن الشرك والإلحاد ، وعن مغريات الدنيا واغواءاتها ؛ وما يريدُ سبحانه من بيان للقوى ومصادرها ، والعمل بسنته العلوية في استخدام هذه القوى ، حتى يتبينَّ دائماً الحق من الباطل ، والإيمان من الشرك ، والعقيدة الصحيحة من العقائد الفاسدة . .

٤ ـ مثل المؤمن والمشرك

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

(١) الزمر : ٢٧ ـ ٢٩ .

القرآن الكريم هو كتابُ الله المبين . ولقد ضربَ فيه ـ سبحانه ـ للناس من كل مثل يبصِّر الناس في حياتهم ، ويبيّنَ لهم كل ما يتعلق بالمبدأ والمعاش والمعاد ، فتتوضح لهم أمور دينهم ودنياهم ، وتنار أمامهم طريق آخرتهم . . ولذلك كان المأمول من الناس، وممَّن اتبعوا القرآن ، أن يتذكروا ذلك ، فيتدبروا ما فيه من أمثالٍ جامعة ، شاملة ، ذات معانٍ ومدلولات تحيطهم علماً بكل شيء فيه . .

وهذا القرآنُ أنزلَهُ اللَّهُ تعالى قرآناً عربياً ، لأنه نزل على قلب محمد (ﷺ) العربي ، الذي قدَّر اللَّهُ تعالى في حكمه السنّي ، منذ كان تقديرُهُ الغيبي ، أنه سيكون خاتم النبيين ، ومبلّغ أتمِّ رسالاته إلى الناس كافة . . لذلك أنزلَهُ قرآناً عربياً ، لا عوج فيه عن الحق ، لأنه يحمل الحق ويهدي إلى الحق . وأنزله قرآناً عربياً ليقرَأوه بلسانٍ عربي فصيح ، فيجدوا فيه حسن السبك والصياغة ، وعظيم المبنى والمعنى ، مما يقرّر إعجازه ، ويقود إلى تقوى الله ، التي تُبعد الناسَ عن المعاصي ، وخاصة معصية الشرك والإلحاد . .

وليدلّل الله سبحانه على استقامة القرآن ، وتنزيهه عن الاعوجاج يضرب لنا مثلاً عن رجلين أحدهما مؤمن ، موحّد بالله العلي العظيم ، وثانيهما مشرك لا يعرف معنى التوحيد ، ومثلاً عن العبد الذي يملكه شركاء عدة يخاصم فيه بعضهم بعضاً ، وهو بينهم محتار لا يعرف كيف يوزع نفسه ليقوم على خدمتهم ؛ وبما أنهم مختلفون على توجيهه وتكليفه فقد ضاع بين أهوائهم لا يعرف أي نهج يستقر عليه ، ولا يدري أي طريق يسلكه ، وبالتالي فإنَّ هذا العبد لا يقدر على إرضاء أحد من أولئك الشركاء ، بعد أن تضاربت أهواؤهم

فيه ، واختلفت قضاياهم بحيث مزَّقت اتجاهاته حيالهم وأقلقت حياته خوفاً من عدم ارضائهم . . فهل يستوي حالُ هذا العبد المسكين مع حال عبدٍ آخر يملكه سيد واحد ، يطلب منه ويكلفه ، فيعرف ما يطلب منه وما يكلف به ، فيؤدي واجبه بأمانة وسرعة ، لأنه على منهج واحدٍ في الأمر والتسيير ؟ نعم، فهل يستوي هذا العبد مع ذاك ، وهل مثلهما واحد في الواقع ؟

إنهما لا يستويان قطعاً . . . وكذلك المؤمن والمشرك لا يستويان في العقيدة والعبادة والتوجيه . . فالمؤمن بحقيقة التوحيد هو الذي يقطع رحلة هذه الأرض على هدى من ربه الواحد الأحد ، فأنظاره دائماً متجهة إليه ، لأنه المصدر الأوحد للحياة والقوة والرزق ، وللنفع والضرر ، وللمنح والمنع . . ولذلك تكون خطاه مستقيمة على دروب الحق ، وبصيرته معلقة بالملأ الأعلى ، واتجاهه سوياً لا يزيغ عنه بصره . . إنه يعبد سيداً واحداً ، ويذكر إلهاً واحداً ، ويمتثل لأوامره ونواهيه الواحدة ، يعرف ماذا يرضيه فيفعله ، ويعرف ماذا يغضبه فيتركه ، فهو مطمئن ، واثق ، لا يضل ولا يشقى . . وأما المشرك فهو الذي تتوزعه الأهواء والشكوك ، وتتقاذفه الشياطين والأبالسة ، وتتنازعه الرغبات والشبهات ؛ لا عقيدة عنده موحدة يطمئن إليها ، لأنه لا يعرف أيَّ إلهٍ من تلك الآلهة المتعددة أحق من غيره بالعبادة ، فيضيع بين كثرة الآلهة ، وتتشتَّتُ مع هذا الضياع نفسه ، فيصير مهووساً ، قلقاً ، لا يجد راحة في العبادة ، ولا سلامةً في الطوية ، ولا اطمئناناً في القلب ، ولذلك حكم عليه بالضلال والشقاء . . . فيكون المشرك مثله كالعبد الذي تتوزعه أهواءُ أسياده الكثيرين ؛ ويكون

المؤمن الموحد ، كالعبد الذي يخدم سيداً واحداً . . فالمشرك يضيع بين عبادة الآلهة المتعددة ، والمؤمن يستقيم على عبادة الله الواحد الأحد . . وهذا المؤمن الذي هداه ربُّهُ إلى اليقين والطاعة ، كانت له من إيمانه نعمة كبرى تستحق الحمد والثناء على الهادي المنعم ، فـ « الحمد لله » حمداً دائماً إذ لطفَ بنا ربُّنا فعبدناه وحده ، وأخلصنا له الإيمانَ والتوحيد . . . وهذه هي النعمة السابغة علينا وعلى جميع المؤمنين الصادقين ، الذين وفقهم اللَّهُ تعالى لحمده وشكره والثناء عليه ، ولكنَّ أكثر الناس لا يقرون بهذه النعمة السابغة ، العظيمة ، فيجحدون فضل الله تعالى عليهم، فيلوذون إلى أربابٍ موهومة، ويتذللون لأسياد حقيرة ، فيعيشون في القلق والشقاء. . ثم إنهم يجهلون مصيرَ العذاب الذي ينتظرهم على عبادتهم تلك وجحودهم . . ولذلك كان القرآن طريق الهدى والاستقامة ، يبيّن بحقائقه وبأمثاله البون الشاسع بين المؤمن والمشرك ، ويميّز تمييزاً صريحاً بين حقيقة الإيمان وبطلان الكفران، ولكنَّ أكثر الناس غافلون عن هذه الحقائق ، لأنهم لا يلجأون إلى القرآن ، ولا يهتدون بهداه ، ولا يحتمون بحماه . .

٥ ـ مثل للناس من أنفسهم

يقول الله تعالى :

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١) .

---

(١) الروم : ٢٨ .

من يقرأ « سورة الروم » في القرآن الكريم يجد في مطلعها كيف أن الآيات الكريمة تتحدث عن قوة الله تعالى ، وعن قدرته في خلق الإنسان والأرض والسماوات ، بل وخلق الكون كله بما فيه ومن فيه، ومن ثَمَّ تتحدث الآيات عن بدء الخلق وعن إعادته . . وفي ذلك كله دعوة للمفكرين بأن يتأملوا هذه الظواهر الحياتية والكونية حتى يصلوا من هذا التأمل والتفكّر إلى اليقين بحقيقة وجود الله تعالى . .

إذن فالغاية التي توصل إليها معرفة هذه الحقائق هي الإيمان ، والإذعان لقدرة الله تعالى ومشيئته . . ولكنَّ المشركين رفضوا تصديق ما يبيّنه القرآن العظيم ، ونَبَوْا عن الإيمان ، مفضلين البقاء على الشرك ، مع أنَّ الهَدْيَ الإلَهِيَّ مهَّدَ لهم بأمثلةٍ واقعية وقدَّم لهم البراهين على كل شيء ، حتى أنه قدّم لهم الأمثال من واقع حياتهم ، ومن أنفسهم بالذات حتى لا تكون هنالك حجة على الله تعالى ، فيعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ولكنهم اتخذوا من دونه سبحانه شركاء ، فعبدوها ضالّين ، مضلَّلين . .

وفي هذه الآية المباركة يقرّب اللَّهُ تعالى لهم معنى الشرك في عبادته ، بمثلٍ من أنفسهم ، ولكن فيه احتجاج صاعق عليهم عندما يقول تعالى : ﴿ هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ ؟ ! . . هل لكم أيها المشركون ، من عبيدكم ومماليككم ، شركاء في الرزق الذي نحن رزقناكم إياه ، إن في الأهل أو في الأموال والممتلكات فأنتم وإياهم سواء يشاركونكم فيه ، ويقاسمونكم إيَّاه سواء بسواء ؟! . . . بل إنكم لتخافون هذه المشاركة من عبيدكم، كما تخافونها من الأحرار أمثالكم، لأنكم

ترغبون في امتلاك الرزق وحدكم فلا يشاطركم إياه أحد . . وقد قال ابن عباس : « تخافون أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً » . . . فإذا كنتم لا تريدون أن يكون عبيدكم أو بعض مماليككم شركاء لكم في المال والرزق ، فكيف تجعلون بعض مخلوقات الله وعبيدَه شركاء له في العبادة ؟ ! . . .

وتظهر روعة المثل عندما يقول تعالى : ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾ أي أنه تعالى ضربَ لهم مثلاً بمواليهم أو عبيدهم وهم بشر مثلهم ، فكان المثل من أنفسهم أي من جنسهم ، ومع ذلك يستعظمون أن يكون هؤلاء العبيد شركاء لهم في أشياء مادية ، فكيف إذن لا يستعظمون أن يجعلوا معبودات جامدة ، حقيرة ، شركاء لله تعالى في الألوهية والربوبية ؟ ! إنهم لا يجيزون أن يشاركهم عبيدهم في شيء ، ويجيزون لمخلوقات الله تعالى مشاركته في تفرّده بالعزة الإلٰهية ، وبالربوبية المطلقة ، فأي حكم خاطىء هذا ، وأي نظر قاصرٍ ينظرون به إلى حقائق الأمور؟! .

وهذا من جميل الأمثال التي تفصّلها الآيات لأصحاب العقول النيّرة ، المتحررة من الجهل والضلال ، ومن التبعية والتقليد ، والتي تعقل الحقائق الواقعية ، وتدرك النتائج السليمة التي تتوصل إليها . . ولذلك كان تفصيل الآيات في القرآن الكريم لقوم يعقلون معانيها ، وكان أيضاً ضرب الأمثال لقوم يقفون على أبعادها ومراميها ، كي يفقهوها ويتدبروها . .

٦ ـ لله المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(١) .

وهنا يبيّن سبحانه وتعالى مزيةً أخرى تستوجب غضب الله وسخطه، كان يفتريها المشركون عندما جعلوا لله البنات، إذ اعتقدوا أن الملائكة إناث وهم بنات الله . . فسبحانه وتعالى عما يصفون، فهو الذي نزَّه نفسه عما جعلوا، وعما تقوَّلوا، وقدَّسها عما به يشركون وعما إليه ينسبون من تجسيد . فالملائكة هم عباده المكرمون ، السامعون ، الطائعون ، الذين يعملون بأمره ولا يعصون . والملائكة هُمُ الذين يضربون المثل الأعلى في تقديسه عزَّ وجلَّ وتنزيهه وتسبيحه . . وقد جلَّ وعلا عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً . فكيف يجعلون له من عباده جزءاً ، إن لم يكن تقديرهم جاهلاً ، دالاًّ على صغر نفوسهم ، وحقارة عقولهم ، وسفاهة أحلامهم ، بدليل أنهم لم يجعلوا لله البناتِ وحسب ، بل جعلوا لأنفسهم الذكور الذين يشتهونهم في الخلفة والولادة .

فأي تفكيرٍ أرعن ، وأية جرأة خرقاء على قدسية العلي العظيم ؟

---

(١) النحل : ٥٧ ـ ٦٠ .

وهـا هم في دنياهم يكـرهون ولادة البنـات ، فإذا بشـر أحـدهم ببنتٍ ولدت له ، اكفهرَّ وجهُهُ واسـودَّ ، وملأه الحـزن لما يكـظم في قلبه من الغيظ والكـراهية للخبـر ، ولما يكتم في نفسـه من الأسى والمهانـة . .

ولشـدة ما كـانت تغيظ المشرك وتحزنه بشـارة الأنثى كان يتـوارى عن قـومـه خجـلاً من سـوء مـا بشـر بـه ، لاعتقـاده الخـاطىء بـأنَّ مولد الأنثى قبيـح ومـذلّ . . وعنـدمـا يتـوارى عن قومه كان يحار في التفكير ، أيترك مولودته حيةً وفي ذلك ذل وهوانٌ ، أم يدسها في حفرةٍ من تراب فيتخلص من عارهـا ؟ ذلك كـان حكم العرب في الجـاهلية وهـو الـذي دفعهم إلى وأد البنـاتِ أحيـاءً ، فسـاء حكمهم ، وضـلَّ تقـديرهم ، وقُبِّحت عـاداتهم . وهـل أسـوأ حكـماً وهم يميـزون بـين خلائق الله فيفضلون الذكر على الأنثى ، مع أنهما واحد في خلق الله ، ولم يفـرّق سبحانـه في خلقهما وأيهـما أحسن، وأيهما أفضـل، بل جعـل كل الناس متساوين في الحقوق والـواجبات ، فقـال تعالى : ﴿ يـا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفـوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ولم يقل إنَّ ذكركم أو أنثاكم أكـرمكم ، بل الأكرم عنده سبحانه الأكثر تقوى سواء كان من الذكور أو من الإناث . . ثم إنـه لولا أن يكـون الخلق من ذكر وأنثى لمـا استمـرت الحيـاة عـلى الأرض ، ولولا نظام الزوجية الـذي يجمع مـا بين الـذكر والأنثى لفني البشـر منذ عهـود طويلة . . فسبحـان الله الخالق العـظيم في صنعه ، الكريم المتفضل على عباده .

وسـوء حكم المشـركـين هـو انحـراف عن العقيـدة . وهــذا الانحراف لا تقف آثاره عند حدود العقيدة بل يسري إلى سائر أوضاع

الحياة الاجتماعية وتقاليدها . لأن العقيدة هي المحرك الأول للحياة ، سواء ظهرت أو كمنت ، ولذا كان عرب الجاهلية يزعمون أن لله بناتٍ - هن الملائكة - في حين أنهم كانوا يكرهون البنات لأنفسهم ، لأنَّ انحرافهم عن العقيدة سوَّل لهم وأْد البنات أو الإبقاء عليهن في الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة ؛ ذلك أنهم كانوا يخشون العار والفقر لأن البنات لا يقاتلن ولا يكسبن ، وقد يقعْنَ في السبي عند الغارات فيجلبن العار ، أو يَعِشْنَ كَلًّا على أهليهن فيجلبن العوز والحاجة . .

ولم يكن ذلك منهم إلَّا لانحرافهم عن العقيدة الصحيحة ، لأن هذه العقيدة تعصم من الزلل ، إذ تدل الإنسان على أن الرزق بيد الله تعالى ، وهو يرزق جميع مخلوقاته ، ولا يصيب أحدٌ إلَّا ما كتب له . . ثم إن الإنسان بجنسيه كريم على الله تعالى ، والأنثى - من حيث إنسانيتها - صنو الرجل وشطر نفسه، كما يقرر الإسلام. فكان حقاً أن يكون مثل السوء للمشركين الذين لا يؤمنون بحكمة الله تعالى في خلقه ، فيبقون على شركهم ، ولا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وعقاب . . وهذه صفات الجهل والضلال ، والعمى ، والعجز وسوء المثل . . وكان حقاً أيضاً أن يكون لله سبحانه المثل الأعلى ، لأنه غني بذاته عن الصاحبة والولد ، وقد تفرَّد جلَّ وعلا بالألوهية والربوبية ، والاخلاص له في التوحيد والعبادة . . وهو العزيز الحكيم الذي لا يمتنع عليه شيء ، وقد قضت حكمته أن تكون الأشياء في مواضعها ، ووفق ما هو حق وصواب . وهو سبحانه وتعالى قد عاب المشركين بإضافتهم إليه ما لا يرضونه لأنفسهم ، فإذا كره الإنسان إضافة القبيح إلى نفسه للمقتضي الذي يراه فيه ، فكيف

يجوز له أن يضيفه إلى الله عز وجل ؟ ! تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً .

٧ ـ عبادة المشركين لمخلوقات أمثالهم

يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[١] .

في هاتين الآيتين الكريمتين حجة قاطعة على المشركين وهي أنَّ ما يدَّعون عبادتهم من دونه تعالى هم عبادٌ أمثالهم ، أي هم مخلوقات مثلهم ، مسخرون لأمره تعالى في العبادة والطاعة ، وليست آلهتهم تلك ، ولا هم أنفسهم ممتنعين مما يريد الله سبحانه وتعالى ، لأنَّ جميع مخلوقاته عبادٌ له ، أي أنها خاضعة لحكم التعبيد الذي هو التذليل (ولذا يقال: طريق معبَّد أي طريق موطوء)؛ ومنه قوله تعالى في مخاطبة موسى (ع) لفرعون: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[٢] . أي عندما ذللتهم واستخدمتهم في ضروب كثيرة من الخدمة ؟ فتلك الآلهة التي اتخذتموها أيها المشركون هي عبادٌ مثلكم ، فادعوهم إنْ كانوا آلهةً حقّاً ، وليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين بأنهم آلهة . .

---

(١) الأعراف : ١٩٤ و١٩٥ .

(٢) الشعراء : ٢٢ .

ولكنْ أنَّى لتلك الجمادات والأشياء أن تجيب أو تستجيب ، وأنَّى لها أن تنفع أو تضر وهي معدومة أصلاً من الروح الذي يبعث فيها الحياة؟! . .

ويعود النص القرآني ليبيِّن مدى هوان تلك الآلهة ، وأنها هي دون المشركين في الخلق ؛ لأنَّ المشركين هم من بني آدم الذين فضلهم الله تعالى على مخلوقات الأرض كافة بكثير من الخصائص الذاتية للإنسان وتقويمه ، لقوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (١) ؛ ولذلك يعود القرآن ليسأل المشركين بالإنكار والتقريع : هل لآلهتكم التي تعبدون أرجل يمشون بها ، أم أيدٍ يبطشون ويعملون بها ، أم أعين يبصرون بها ، أم آذان يسمعون بها ؟ ! . . فهذه الحواس من صفات الخلق البشري ، فإن لم تتوفر لآلهتكم أيها المشركون فمعنى ذلك أنها أدنى منكم خلقاً ، وأنتم أفضل منها في هذا الخلق ، إذن كيف تعبدون من كان أدنى منكم خلْقاً وقيمة ؟ ! . .

لقد ثبتت الحجة على المشركين بعد هذا التقريع المبين . . ولكن العزة الإلهية لا تقف عند بيان الحجة القاطعة على المشركين ، بل يخاطبُ تعالى رسولَهُ الكريم محمداً (ﷺ) بأن يقول لهم :

إنْ كنتم أيها المشركون تزعمون بأن آلهتكم تشارككم في أحوالكم ، وفي نفعكم أو ضركم ، ومن أجل ذلك تنذرون لها النذور التي تضحونها عند أقدامها ، أو التي تلبسونها إياها من كسوةٍ وحليةٍ وغيرها . . . نعم إن كانت تلك الآلهة تقدر على شيء بنظركم ،

---

(١) التين : ٤ .

فادعوها جميعها لأن تشترك في إهلاكي ، ولا تمهلوني في ذلك أبداً ! . . .

ولكنني لن أبالي ، فأنا أعلم مقدار حقارتها ، ومدى سفاهة أحلامكم في عبادتها ، إنْ هي إلاّ أشياء سمّيتموها ما أنزل اللّهُ بها من سلطان . . نعم أنا لا أعبأ بآلهتكم أيها المشركون ، ولا أرى لها شأناً ، لأنني أعبدُ اللّهَ ربي ولا أشرك بعبادته أحداً ؛ وهو سبحانه الذي ينصرني على أعدائي ، ويردُّ عني كيد الذين يكيدون لي . .

وهذا المثل لا يبيّن مدى سخافة الوثنية عند مشركي العرب وحسب ، بل يصورها أيضاً وثنية منحطة في ميزان العقل البشري في أية مرحلةٍ من مراحله وجدت ؛ ولذلك ينبّه القرآن الكريم عقل المشركين ليعيَ حقيقة الشرك والوثنية من خلال ما يواجههم فيه من حجج وبراهين تدلُّ على هوان آلهةٍ صنعوها بأيديهم وأقاموها ثم عبدوها ! . . .

٨ ـ الآلهة المزعومة تكفر بشرك المشركين يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[1] .

ينصبُّ التأكيد القرآني دائماً على هوان آلهة المشركين ، وعدم نفعها أو ضرها . . ولذلك يبيّن سبحانَهُ أن المشركين إنْ حاولوا أن

---

(١) فاطر : ١٤ .

يكلموا الآلهة التي يعبدون ، أو أن يدعوها في أمرٍ معينٍ ، فهي لا تسمع كلامهم ، ولا تعي دعوتهم ، لأنها جمادات صمّاء ، بكماء ، عمياء ، ليس لها أدنى حظ من حياة الإنسان ؛ ولو سمعت ، بافتراضٍ مستحيل ، فهي لا تستجيب لهم .. لا بل إنها يوم القيامة تتبرَّأ من عبادتهم لها ، ومن إشراكهم إيَّاها مع الله سبحانه وتعالى في العبادة .. إذ هي تستهجن من أولئك الكفار كيف وصَلَ بهم السفَهُ والضلال إلى درجة الانحطاط العقلي والشعوري حتى عبدوها ! ...

ثم يخاطب سبحانه رسولَهُ الأمين (ﷺ) منبِّهاً إلى أنه لا يخبره، بحقيقة ما يحصل يوم القيامة إلاَّ اللَّهُ تعالى، فهو الخبير العليم بكل شيء ، لأنه خالق كل شيء ، ومدبر كل شيء ، ومسيّر كل شيء ، فلا يفوته شيء في السماوات والأرض ، ولذلك جعل يوم القيامة يوم الدينونة والحساب على ما يفعل خلقه في حياتهم الدنيا ..

٩ ـ تشابهت قلوب المشركين والكافرين

يقول الله تعالى :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(١) .

تبيّن هذه الآية الكريمة تعنَّت الجاهلين ، الذين أبوا العلم ومعرفة الحقيقة ، بأن محمداً (ﷺ) هو نبيُّ الله بعثه بشيراً ونذيراً للعالمين . ولذلك قال أولئك الجاهلون المنكرون : لو أنَّ الله يكلمنا ويخبرنا يا محمد بأنه بعثك نبيّاً لكنا صدَّقنا .. فإن لم يرد الله أن يكلمنا

---

(١) البقرة : ١١٨ .

فليأتنا بآية معجزة تدلُّ على صدق بعثك . .

وكان المشركون قد طلبوا من النبي (ﷺ) أن يأتيهم بالمعجزات ، ومنها أن يحيل الصفا إلى ذهب ، أو أن ينزل عليهم كتباً من السماء . . وغير ذلك من المعجزات . . . فكان طلب مشركي العرب كطلب الذين سبقوهم من أهل الجهل والضلال ، إذ قال بعض اليهود لموسى (ع) : « أرنا اللَّهَ جهرة » . وقال بعض النصارى لعيسى بن مريم (ع) : « أنزل علينا مائدة من السماء » . . . إذن فقد قال مثل قول هؤلاء المشركين من العرب أقوامٌ قبلهم، ولذلك تشابهت قلوبهم جميعاً في عدم اليقين، فلم يصدقوا أنبياء الله ورسله ، ولم يؤمنوا بما كانوا يدعونهم إليه . . مع أن الأنبياء والمرسلين كانت تتنزل عليهم الآيات البيّنة الدالة ، والمعجزات الظاهرة ؛ وهذا القرآن الكريم فيه من قول الله تعالى ، ومن الأدلة والبراهين على نبوة محمد (ﷺ) ما يقنع أصحاب العقول وطلّاب الحق. . . وإن الذي يجد راحة اليقين في نفسه، يجد في آيات القرآن الكريم مصداق يقينه ، ويجد فيها طمأنينة قلبه . . فآيات القرآن المبين يحتاج الناسُ إلى التفكّر بها وتدبَّرها ، ولذلك فهي لا تنشىء اليقين عند الذين لا يفكرون ولا يعقلون . فباليقين إذن تدرك دلالات الآيات الشريفة ، فتطمئنُّ إلى حقيقتها النفوس ، وترتاح إلى توجيهها القلوب ، ولذلك كان بيان الآيات لقوم يوقنون . .

١٠ ـ إنذار المشركين بالعذاب

يقول الله تعالى :

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ج

ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ
دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾
فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟
فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ[1] .

يخاطب اللَّهُ تعالى رسولَهُ محمداً (ﷺ) بأن يقول للمشركين بلهجة الاستنكار والاستهجان : إنكم تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أمثالاً وأشباهاً موازين لقدسيته الإلهية ، في حين أنَّ الله الذي تكفرون به ، هو ربُّ العالمين ، الخالق القدير ، العلي العظيم . . خلق الأرض في يومين ، وجعل فوقها الجبال الرواسي التي تحفظ توازنها ، ثم بارك فيها بما خلق فيها من المياه الكثيرة ، والزروع والضروع ، وقسَّم فيها الأقوات للناس وللبهائم ، إذ جعل ـ سبحانه ـ في كل بلدٍ أنواعاً من الخيرات والثمرات ، وأرزاقاً وفيرةً مقدَّرة ، تختلف بأنواعها وأجناسها عن غيرها في بلدان أخرى ، لتنشأ بين الناس العلاقات والمبادلات التي تنفعهم ، وتنمّي سبل معايشهم ، وطرائق حياتهم . . وكل ذلك جعله ـ سبحانه ـ في أربعة أيام ، سويّاً تاماً ، كاملاً ، موزعاً بتقدير حكيم ، لا يزيد ولا ينقص إلا بأمره تعالى ، ويكفي السائلين والراغبين في الاستزادة من النعم والبركات . .

---

(١) فصلت : ٩ ـ ١٣ .

وبعد ذلك استوى ربُّ العالمين إلى السماء ، والاستواء هنا هو القصد والإرادة (فقد جلَّ اللَّهُ تعالى عن التجسيم والحركة والانتقال ، واحتوائه في مكانٍ ، وفقاً للتقدير البشري) . . والسماء ، - يومئذٍ - هي كما يقول القرآن ﴿ دخان ﴾ أو بخار على شكل سحابات كثيفة بدأ العلم الحديث يكشف تكوينها بين الأجرام السابحة في الكون الفسيح ، والتي ما تزال غير معلومة تماماً في الفهم البشري . . . ثم إن السماء ، في المفهوم اللغوي هو العلو والارتفاع ، فيكون تقدير المعنى أن رب العالمين ، في سناء عليائه ، خاطب الأرض والسماء . فقال لهما : إئتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا : آتينا طائعين بمن فينا من المخلوقات على اختلافها (لذلك كان تغليب المذكر العاقل في اللفظ) . . ثم سوّى وأحكم العليُّ القديرُ سبع سماوات في يومين ، وأوحى في كل سماء بأوامره السنيَّة التي أنشئت لها السنن والقوانين التي تنتظم بموجبها ؛ وزيَّن السماء الدنيا التي تظللنا بالنجوم والكواكب المتلألئة لكي يهتدي بها الناس في مسار حياتهم ، وحفظها بما جعل فيها من انتظام الحركة ودقتها ما يضبط سير كل منها إلى مستقرٍ له ، وفق تقديره الحكيم ، ومشيئته المطلقة التي جعلت لها السنن الحافظة والقوانين المسيّرة . . وذلك بحسب تقديره - سبحانه - في ملكه ، وعلمه بخلقه ، لأنه الخالق الصانع الذي لا يخفى عليه شيء ، ولا يمتنع عليه شيء ، في الخلق والانتظام والحفظ .

وإنَّ هذا البيان الذي أمر الله سبحانَهُ نبيهُ محمداً (ﷺ) بأن يفصّله للناس ، حريٌّ بأن يدفع بهم إلى الإيمان والتوحيد ؛ فإن أعرضوا عن هذه الدعوة الحق ، وأنكروا قدرة الله تعالى على خلق هذا

الكون بأرضه وسماواته ، وكذبوا بنبوة الرسول الصادق ، المبلِّغ عن ربه ، فما على هذا الرسول إلَّا أن ينذرهم ويحذرهم من أن تصيبهم صاعقة ماحقة كالصاعقة التي أهلكت أقوام عادٍ وثمودٍ وغيرهم بكفرهم وتكذيبهم أنبياءهم ؛ وسوف يلاقون مثلهم ، العذاب الأليم الذي يهلكهم كما أهلك تلك الأقوام من قبلهم .

ويستوقفنا في هذه الآيات الكريمة تساؤ ل هام حول ماهية الأيام التي خلق الله تعالى فيها السماوات والأرض ، وكم كان طولها أو قصرها ، وما هو تحديدها الميسور لدينا فهمُه ؟

فقد ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ اثنين ، وجعل فيها الجبال الرواسي ، وقدر الأقوات ، وأحلَّ البركة، في أربعة أيام . .

إذن فما هي هذه الأيام ؟

إنها بلا شك أيام من أيام الله تعالى ، التي لا يعلم غيرُهُ ـ عز وجل ـ مداها . . وليست هي من أيام هذه الأرض التي نعرفها . . فأيام هذه الأرض إنما هي مقياس زمني استحدثه بعد ميلاد الأرض ؛ وكما أن للأرض أياماً هي مواعيد دورتها حول نفسها ، ومواعيد دورتها حول الشمس ، فللكواكب الأخرى أيام ، وهي غير أيام الأرض بلا شك ، لأن بعضها أقصر من أيام هذه الأرض ، وبعضها أطول .

فالأيام التي خلقت فيها الأرض أولاً ، ثم تكونت فيها الجبال ، وقدّرت فيها الأقوات ، والأيام التي خلقت أيضاً فيها السماوات ، هي أيام أخرى مقيسة بمقياس آخر لا نعلمه ، ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من المقياس الذي حسبنا به أيام الأرض المعروفة أو أيام غيرها من الكواكب السيّارة . وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه

علمنا البشري بالنسبة للأرض ، أنها هي الأزمان التي مرت بها هذه الأرض طوراً بعد طور ، حتى استوت على شكلها الحاضر ، وصلبت قشرتها ، وأصبحت صالحة للحياة التي نحن عليها ؛ مع أن القشرة الأرضية في حركةٍ دائمة ، وفي تغيّرٍ دائم . . فقد يهتزّ البحر بالموج فيؤثر فيها ، وقد تبخر الشمس ماء البحر فيصعد إلى السماء فيكون سحباً تمطر الماء العذب الذي ينزل على الأرض ، فيتدفق ليؤلف السيول ، ويفجّر الأنهار والعيون ، وذلك بعد أن يجري في هذه القشرة الأرضية ، فيؤثر فيها . فالأرض كرة تلفّها قشرة من صخر ، وتلف أكثر الصخر طبقة من ماء ، وتلف الصخر والماء جميعاً طبقة من هواء ، وهي طبقة من غازٍ ، سميكةٌ كالبحر لها أبعاد مقدَّرة معروفة . ونحن - بني الإنسان - والحيوان والنبات ، نعيش في هذه الأجواء هانئين بما فيها . . فمن الهواء نستمد أنفاسنا - من أوكسيجينه - ومن الهواء يبني النبات جسمه - من كربونه - ونحن نأكل النبات ، ونأكل الحيوان الذي يأكل النبات وغيره ، ومن كليهما نبني أجسامنا . فهذا كله يشير إلى تقدير الأقوات التي ذكرتها الآيات الكريمة ؛ وقد تمَّ ذلك كله في مراحل زمنية متطاولة ، هي أيام الله تعالى (الأربعة) التي لا يعلم مقدارها إلاَّ الله سبحانه وتعالى .

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ . والاستواء هنا هو القصد ؛ والقصد من جانب الله تعالى هو توجّه الإرادة ، وقد لا تكون للترتيب الزمني ، ولكن للارتقاء المعنوي ؛ والسماء في الحس أرفع وأرقى . . ﴿ فقال لها وللأرض : إئتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا : أتينا طائعين﴾ . وهذه إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون إلى الناموس الرباني ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة

والاستسلام لكلمته ومشيئته . فليس هنالك إذن إلا هذا الإنسان الذي لا يخضع إلا كرهاً في أغلب الأحيان .

﴿ فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ . فهذا الانذار الرهيب يناسب شناعة الجرم وقبيح الذنب ، وتبجح المشركين ، وشذوذ كفار البشر في موكب الوجود الكبير .

١١ ـ للمشركين نصيبهم من العذاب

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾[١] .

إنه الخطاب المؤنس لقلب رسول الله (ﷺ) من ربه العلي القدير ، يثبّته على الإيمان الخالص بالوحدانية التي هي قوام الوجود . وقد كان هذا الخطاب الكريم رحمةً ربّانيةً نزلت على نفس محمد (ﷺ) الذي لم يتسرب الشك إلى نفسه في فساد عبادة هؤلاء المشركين ، كما كان رحمة علوية لكي لا يأسى على قومه وهو يراهم يغرقون في الوثنية العمياء ، التي أنذرهم الله تعالى على لسانه (ﷺ) بأن يتركوها مراراً وتكراراً . .

وهذا الأسلوب في مخاطبة رسول الله (ﷺ) ، وليس في مخاطبة المشركين ، كان أفعل في النفس ، لأنه يوحي بأن هنالك قضية موضوعية يبيّنها اللّهُ تعالى لرسوله المكلف ، وليست جدالاً مع أحد ،

---

(١) هود : ١٠٩ .

ولا خطاباً للمتلبسين بجرمها ؛ إذن فالأسلوبُ يوحي بإهمال المشركين وقلة الاعتناء بهم ، لهوانهم على الله جلَّ وعلا . . وبمثل هذا الأسلوب يكون عندئذٍ لتلك الحقيقة الخالصة المجردة أثرها في اهتمامهم ، وتحريك مشاعرهم ، وإثارة عواطفهم ، أكثر مما لو خوطبوا بها خطاباً مباشراً .

وهؤلاء القوم إنما كانوا يعبدون ـ كما كان يعبد آباؤهم من قبل ـ أوثاناً وأصناماً وغيرها، فمصيرهم إذن كمصير آبائهم : الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ، ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ ، أي أننا سننزل عليهم من العذاب بمقدار ما يستحقون وما يستأهلون تماماً ، لا ينقص نصيبهم منه شيئاً أبداً . . وما ذلك إلاَّ لأنهم لم يؤمنوا ولم يصدقوا بالحق الذي تدعوهم إليه ، أيها الرسول الكريم .

١٢ ـ رسولُ الله (ﷺ) بشر مثل سائر الناس

يقول الله عز وجل :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

لقد واجه المشركون النبيَّ (ﷺ) بالإعراض عن دعوته ، ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴾ (٢) . . . فقد قالوا لرسول الإسلام . . إن

(١) فصلت : ٦ .
(٢) فصّلت : ٥ .

قلوبهم مغلقة ، مغلّفة على عقائدهم ، وفي آذانهم ثقل يمنعهم عن سماعه ، ومن بينهم وبينه خلاف كبير في الدين ، فليعمل على دينه ، وهم عاملون على دينهم . .

فأوحى إليه ربُّهُ أن يقول لهم : إنما أنا بشر مثلكم ، ومثل سائر الناس ، يوحى إليَّ من ربي بالآيات البينات التي تهدي إلى الدين الحق ، وتبعد عن عبادة آلهة مزيفة تصنعونها بأيديكم ؛ والحق ، الحق أقولُ لكم إنما إلهكم إلَهٌ واحد أحد ، لا شريك له في الألوهية والربوبية ، فاستقيموا إليه بالعبادة ، والطاعة ، والامتثال لأوامره ونواهيه ، واستغفروه عما أشركتم به فهو الغفور الرحيم ، وويل للمشركين أمثالكم إن لم ينفعهم بشير ونذير ؛ وهو ويل العذاب الذي ينتظرهم . .

وما هذا الحوار بين النبي (ﷺ) وبين المشركين إلَّا صورة عن المعاناة التي كان يعانيها (ﷺ) من الإعراض عن دعوته ، والإصرار على الشرك ؛ ولكنه كان يصبر ، بل ويحتمل الأذى ، آملاً أن يرعووا ، ويعودوا عن الغيّ والضلال . . ومثل تلك المعاناة الشديدة ، لا يدرك ما في الصبر عليها من مشقة ، وما في عظمة الاحتمال على هذه المشقة إلَّا من يكابد مرارتها ، ويواجه نفس المواقف في واقع الحياة ، ولكن لا يعبأ ولا يبالي إذا كان العمل خالصاً لوجه الله تعالى بل يمضي في الطريق ، رغم ما يلاقي من صعوبة وصلف وعناد . . ومن أجل مثل هذه المواقف كانت الدعوة إلى الصبر تُوجَّهُ دائماً للنبيين والمرسلين من ربهم ، لأن طريق الدعوة هو طريق الصبر الجميل الطويل . وأول ما يستوجب هذا الصبر الرغبة الملحة في

انتصـار الدعـوة ثم الصبر عـلى ابطاء النصـر ، وإبـطاء أمـاراتـه . ثم ضـرورة التسليم لهذا الـواقع والـرضى به ليـوفَّى الرُّسـلُ أجرهم بغـير حساب . .

المنافقون

المنافقون

١ ـ وصف المنافقين

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(١) .

كثيراً ما نجد بين الناس من يظهر غير ما يبطن ، متوهماً أنه حاذق فيما يفعل ، قادر على أن يبلغ غاياته من خلال مراءاته أو خداعه أو مراوغته . هذا النموذج من البشر قد يكون في ظاهره كالآخرين ، ولكنه في دخيلته شيطان رجيم ؛ وهو ما ينطبق عليه وصف المنافقين ، الذين يعطيهم القرآن الكريم تعريفاً شاملاً ، ويصف أعمالهم وصفاً تامّاً ، بحيث لا يبقى لنا إلّا أن نرى فعالهم لنقف على حقيقتهم ، وحقيقة نوازعهم وأهوائهم . .

---

(١) التوبة : ٦٧ .

وأول ما يطالعنا به النص القرآني عن المنافقين والمنافقات أنهم بعضهم من بعض ، أي متشابهون في الصفات والخصائص كأبعاض الشيء الواحد ، ومتشابهون في السلوك يظهرون غير ما يبطنون . أما فعالهم فهي أنهم يأمرون بالمنكر - كالكفر وغيره من المعاصي - وينهون عن المعروف - كالإيمان والطاعات وغيرها - ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله ، وفي كافة وجوه الحلال والخير ؛ نسوا الله فأعرضوا عن ذكره وطاعته ، ولم يتفكروا بقدرته وببطشه ، فتخلَّى عنهم سبحانه وحَرَمهم من لطفه ورحمته ، حتى صاروا بحكم المرذولين والمنسيين . ألا إن المنافقين الذين وصفناهم هم الفاسقون ، الخارجون عن حدود ما أنزل اللَّهُ تعالى ، الآتون بالنفاق والفساد وبما يُقبِّح وجوههم في الدنيا والآخرة . .

٢ - وعد الله تعالى للمنافقين

يقول الله تعالى :

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(١) .

هذا هو وعد الله تعالى للمنافقين والمنافقات ، وللكفار أيضاً . وقد صار المنافقون والمنافقات على مستوىً واحدٍ مع الكفار . فكم يجب أن يكون النفاق مذموماً ، مكروهاً عند رب العالمين ، حتى يصبح أهلوه بنفس المنزلة مع الكفار ! . . .

---

(١) التوبة : ٦٨ .

ووعد الله تعالى لأولئك جميعاً نارُ جهنم ، خالـدين فيها . وهي تحرقهم بنارها الموقدة ، وعذابها الدافع ، وبما فيها من الـويل والثبـور وعـظائم الأمور عـلى كل من يقيم فيهـا بصورة أبـدية . . وفـوقَ أنهم سيـوقدون في أتـون نار جهنم ، فقـد لعنهم اللّهُ تعـالى بـإبعـادهم عن رحمتـه ، وعن شفاعـة من يأذن لهم ربهم بـالشفـاعـة ، حتى يبقـوا في العذاب المقيم الدائم . .

٣ ـ مثل المنافقين في أعمالهم كالنار التي تضيء وتنطفىء

يقول الله تعالى :

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) .

---

(١) البقرة : ١٤ ـ ٢٠ .

فهؤلاء صنف من المنافقين أنـزل الله تعالى إليهم ، وإلى النـاس كافة ، ديناً فيه هداية ، وشريعة فيها صلاح وفلاح ، فآمنوا ظاهـرياً ، كما بدا منهم في سوء تصرفهم . فكانوا إذا لقوا المؤمنين ، يـداهنون ، ويقـولـون لهم : آمنـا بـالله تعـالى وبكتبـه ورسله ومـلائكتـه . . فـإذا انصرفوا عنهم ، وذهبـوا إلى رؤوس الكفر وزعـماء الشـرك ـ وخاصـة الكهان، وهم شياطينهم الذين يوسوسون إليهم بالنفاق، بما يلقون على مسامعهم من الأكاذيب الخـادعة ، والأبـاطيل الضـالة ـ نعم كـانوا إذا عادوا إليهم بعد ملاقاة المؤمنين ، قالوا لهم : إنا معكم ، ونحن عـلى دينكم ، وإنا نستهزىء بالمؤمنين عندما ندَّعي أمامهم الإيمان . .

فـأية قبـاحة تلك من أولئـك المنافقـين ، بأن يكـونوا بـوجهـين ولسانين . . مع المؤمنين ، ومع الكافـرين في آنٍ واحدٍ ، وفي العقيـدة المختلفـة المتضادة ؟! . . . ثم يظهـرون عـلى حقيقتهم وهم يصرحـون لشياطينهـم : نحن نستهزىء بـالمـؤمنين . . فهم يتـوهمون ذلـك حين يستـهـزئـون بـالإيـمـان وأهـله ، ولكنهـم مـا دروا أنَّ الله سبحـانـه يستهـزىء بهم ، إذ يتركهم في نفـاقهم وفسادهم وإفسـادهم يعمهـون عن الحق ، ويوغلون في الباطـل ، بل إنـه سبحانـه يطيـل لهـم المـدة ويمهلهم في طغيـانهم ، بتجـاوزهم الحـد في الكفـر ، متـرددين ، حائرين ، لا يدرون أيستمعون إلى نـداء الفطرة فيلجـون بابَ الإيمـان والصفاء ، أم يبقون في حظيرة الشرك والعمى؟ .

فبئس مـا يعمـل هؤلاء الـذين اشتـروا الضـلالـة بـالهـدى ، واستحبـوا الكفـر عـلى الإيمـان ؛ وبئس مثـل هـذا الشـراء وتلك المتاجرة بين النقيض ونقيضه وما ربحت تجارتهم في النفاق والتردد، بل

خسرت خسراناً مبيناً ، وما كانوا مهتدين إلى نور الهدى والخير والحق ، فيما فعلوا ونافقوا . . .

وهؤلاء المنافقون ، وبما آثروا من كفر وضلال مَثَلُهُم - صفتهم في نفاقهم - كمثل الذي أوقد ناراً في ظلمة دامسة ، فلما أنارت ما حوله ، فأبصر واستدفأ وأَمِنَ مما يخافه ، إذا بناره قد انطفأت فجأة ، فرأى نفسه في الظلام خائفاً متحيّراً . وما انطفأت ناره إلّا بمشيئة الله الذي أذهب نورها ليتركه في تلك الرهبة المخيفة . . وهكذا حال المنافقين ؛ فقد أظهروا كلمة الإيمان فعاشوا في ظل نورها ، ونعموا بوارف عزها، ثم أمّنُوا على أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، فلما انكشف أمرهم ، وظهرت حقيقة نفاقهم للنبي (ﷺ) وللمؤمنين ، عادوا إلى جماعتهم من المشركين يعيشون المعاناة ، والقلق ، والحيرة والخوف في دنياهم ، وفي الآخرة سوف يقبعون في ظلمات الجحيم ، وأسفل السافلين . . ولذلك وصفهم العليم الحكيم بأنهم : ﴿ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ . . فهم صمٌّ عن سماع الحق ، وعدم الإصغاء إلى الأدلة والبراهين التي يقدمها الرسول الكريم في تفسير آيات القرآن المبين . وهم بكمٌ لا يجرؤ ون على قول كلمة الحق ، ولا يواجهون بها شياطينهم ، حتى فارقتهم تلك الكلمة فلا تنطلق بها ألسنتهم . وهم عميٌ عن آيات الله تعالى فلا يرون آثاره في ملكوت السماوات والأرض ، وفي أنفسهم ، وفي كل شيء من حولهم . . وفي هذا تأكيد على أنهم لم ينتفعوا بالحواس التي خلقها الله تعالى لهم من سمع ونطق وبصر ، فكأنما ليس لهم تلك الحواس ما داموا لم يستخدموها ، حق الاستخدام ، في الهداية إلى نور الإسلام الذي يأمر ربهم العلي القدير باعتناقه واتباعه . . ولذلك فهم لا يرجعون عن

الضلالة التي سيطرت على حواسهم ، وعششت في نفوسهم .

وهذا المثل ، كما يقول بعض المفسّرين ، ينطبق على حال اليهود مع نبيِّنا محمد (ﷺ) . فقد كانوا ينتظرون بعث النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، فلما بعثَهُ الله تعالى ، وعرفوا أنه هو النبيّ الموعود ، كذبوه وحسدوه ، ليس لأنه النبيُّ المرسل وحسب ، بل لأنه ليس من بني يهود ، كما كانوا يأملون ؛ هذا فضلاً عن أنهم وجدوا في شريعته ما يذهب السوء والفحشاء من ربا ورذيلة وخداع ودسيسة وغيرها ، مما دأبوا عليه ، وصار منهاجاً مرسوماً في حياتهم . . .

وهذا المثل ـ في كل حال ـ يدل على المنافقين الذين حاربوا الإسلام في الخفاء ، متسترين بإظهار كلمة الإيمان .

وإن ضخامة الدور الذي كان وما يزال المنافقون يقومون به لإيذاء الجماعة المسلمة ، ومدى التعب والقلق والاضطراب الذي يحدثونه ، في كل وقت ، داخل صفوف الجماعة المؤمنة ، ومدى الحاجة للكشف عن ألاعيبهم ، ودسّهم اللئيم وهمسهم الخبيث ، هو ما يريد أن يظهره لنا الله تعالى في محكم التنزيل العزيز .

ومن أجل ذلك ، ولكي يزيدنا النص القرآني إيضاحاً ، يقدم لنا مثلاً آخر عن فئة المنافقين ، كاشفاً عن طبيعتها ، وتقلّبها ، وتأرجحها بين الإيمان والكفر ، بما يزيد هذه الطبيعة الخادعة جلاءً وإيضاحاً . وفي هذا المثل الآخر نجد صورة للمطر الذي ينهمر بغزارة في ليلة مظلمة حالكة تغطي الأرجاء كلها ، مع ما يرافق هذا المطر من بروق ورعود وعواصف ، تحدث الخوف والرعب في الأنفس . . .

كما نجد صورة لأناسٍ خائفين في وسط هـذه الصواعق التي تنـزل من السماء لتقتلع كل ما تقع عليه ، ولشدة أصواتها لا يعودون قادرين على الاحتمال ، فيجعلون أصابعهم في آذانهم ، وهم يحسّـون أنها توشـك أن تقضي عليهم ، فيحـاذرون الموتَ بسبب تلك الأصـوات المدويّـة، بسدِّ آذانهم بأيديهم . . وهؤلاء ما أوجدهم الله تعالى في تلك الأحوال المهولة المرعبة إلَّا لأنهم كافـرون ﴿ والله محيط بـالكافـرين ﴾ . . فهو عـالم بـأسـرارهم ، قـادر عليهم ، لا يفـوتـه شيء من أمـرهم ، ولا يستـطيعون الخـروج على قـدرته ، ولا من ملكـه وسلطانـه . . . قـال الشاعر :

أحـطنـا بهم حتى إذا مـــا تيقّنـوا بما قد رأوا مالوا جميعاً إلى السلم

فعندما يحيط قـومٌ أشداء بقـوم ضعفاء ، ويـرى هؤلاء الضعفاء أنهم لا يستـطيعـون أن يفلتـوا من قبضتهم فـإنهم يستسلمـون لهم ويـرضخون لحكمهم ومشيئتهم . . إذن فـما بال النـاس لا يعلمون أنَّ الله تعـالى محيط بهم جميعاً بقـدرته وبسلطانـه وجبروتـه ؟ وما بـالهم لا يعـرفون عـظائم الشدة التي تنتـج عن هذه الإحـاطة إن هم أوغلوا في الكفر والنفاق ؟ !

وما لهم لا يهتدون بهدي الله ، ولا يرتدعون بوعيده ؟ ! . . .

وما صورة المطر الغزير ، وبرقه ورعده ، وصـواعقه ، إلَّا مثـال حسيّ على الشدة التي يحيط بها اللَّهُ تعالى المنافقين والكـافرين . . وهـا هـو المثل القـرآني بعد أن يـرسم لنا الجـوّ الرهيب ، ويضـع المنـافقـين والكـافرين في وسط ذلـك الجوّ ، ومـا هم عليه من الخـوف والقلق ، يعود ويبيّن لنا كيف كانوا يتصرفون . . فبين دفقات الخوف ، ودفعات

الرجاء ، كان الخائفون يمشون خطوات في ضوء البرق الخاطف ، فإذا ذهب البرق وأطبق عليهم الظلام من جديد ، مكثوا في مكانهم ، قائمين على الحيرة والقلق ، لا يدرون ماذا يفعلون . . ورغم أن البرق يكاد لشدته يخطف أبصارهم ، فهم مضطرون كلما أضاء لأن يعاودوا السير من جديد ، ثم لا يلبثون بعد أن يعمَّ الظلام من حولهم أن يقيموا حيث وصلوا ، حتى لا يلفّهم الضياع النهائي ، ويبعدهم إلى المهاوي السحيقة . . هكذا يريد اللَّهُ سبحانه أن يعذبهم ، بما يرسل عليهم من الأهوال . . . ولو شاء تعالى لذهب بأسماعهم وأبصارهم ، فلا يعودون يسمعون شيئاً، ولا يبصرون شيئاً؛ وهو سبحانه يقدر على ذلك ، لأنه على كل شيء قدير . . قدير على أن يذهب بحواسهم، وعلى أن يشوههم ، وعلى أن يقعدهم ، وعلى أن يجعلهم يعيشون في الهم والقلق والحزن ؛ أو أن يبدلهم ، بصورة كاملة ، من حال إلى حال ، وفق ما يشاء ، وما يريد . . . فسبحان الله الخالق العظيم الذي يقدر على أن يوجد المعدومات ، كما يقدر على أن يعدم الموجودات .

وهذا المثل القرآني يحتمل كثيراً من المعاني . . فقد يكون قد عنى بالظلمات ، الكفر الذي أغلق على قلوب المنافقين حتى صارت قلوبهم مظلمة لا يصلها شيء من نور الإيمان . وقد يكون قد عنى بالرعد التخويف والوعيد بالعذاب على النفاق والكفر . . وبالبرق الإيمان الذي ينير القلوب ويهديها . . فالمنافقون كانوا تائهين ثم أظهروا إيمانهم ولكنهم أبطنوا الكفر ، فكانوا إذا سمعوا القرآن أعرضوا ونأوا مخافة أن يتعظوا به ، أو أن تدخل حلاوة تلاوته إلى قلوبهم ، فكانوا يهربون

من سماعه ، ولكنه سبحانه ختم على آذانهم وقلوبهم بسبب تلك الكراهية للقرآن ؛ ولو شاء لأسمعهم وهداهم ، ولكن عدم قابليتهم للهدى جعلتهم على تلك الحالة من النفاق . .

وفي المثل القرآني ما يشير إلى فرض الجهاد وتخوّف المنافقين من القيام لهذا الجهاد مخافة الموت في القتال ، مع ما يحمل هذا الموت من حذر وعيد الآخرة لشكهم في دينهم ؛ أما ما فيه من ذكر للبرق فيصح أن يكون تشبيهاً لحقن دمائهم وحفظ عيالهم وأموالهم بدخولهم في الإسلام ، وأما ما فيه من ذكر للصواعق فيمكن أن ينمَّ عن الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل . .

ونحن نرى في الآيات الكريمة مثلين عن النار المستوقدة وعن المطر الذي ينهمر من السماء . ففي النار والماء إضاءة وإشراق وحياة . والنار هي مادة للنور ، والماء مادة للحياة ؛ فيكون الوحيُ الذي أنزل من السماء متضمناً استنارة القلوب وحياتها ، ولذلك وردت تسمية الوحي في القرآن الكريم ، روحاً ونوراً . وفي النور دائماً قابلية الحياة ، لأنه بغير هذا النور لا يمكن أن تستقيم حياة أو تستمر . . فيكون التقدير أن حظَّ المنافقين من الوحي كمثل من استوقد ناراً لتضيء من حوله وينتفع بها ؛ وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فأحسّوا بنورانيته ، وبالانتفاع من الانضمام إلى الجماعة الإسلامية ، ولكن - بما أنَّ الإيمان لم يلج إلى قلوبهم ويملأها - فقد ذهب الله بنورهم - ولم يقل بنارهم لأن في النار الإضاءة والإحراق ، فإن ذهبت الإضاءة بقي الإحراق الذي قد ينتفعون به - بينما إذا ذهب النور الهادي للقلوب ، لا تبقى للإنسان أدنى فائدة من شيء ، لأنَّ كل شيء ، بدون هذا

النور باطل ، ولذلك عقّب بقوله : ﴿ وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ وهي ظلمات الكفر والجهل والظلم . . . التي تعمي البصر والبصيرة .

وهؤلاء المنافقون الذين تحدثت عنهم الآيات القرآنية الكريمة ، نجدهم متفاوتين في كل عصرٍ وآنٍ ؛ فهم ليسوا على شاكلة واحدة في الزيغ ، والمروق ، والخروج على المحجة والتعاليم . فمنهم من استقى من نبع الإيمان الصافي ثم ارتد إلى الوحل يعبّ من الماء الآسن الراكد . ومنهم من ظل هائماً ، صادياً ، سادراً في غوايتهِ ، تائهاً في ضلاله بعد أن ازورَّ عن المنهل العذب ، وهو منه جدّ قريب . .

وفي المنافقين قال النبي (ﷺ) : « مثل المنافق مثل الشاة العائرة[1] بين الغنمين ، تتردَّد بينهما مرة إلى هذه ومرة إلى هذه » . وقال (ﷺ) : « مثل المنافق مثل رجل في نهر يسبح فيه . فلما بلغ أن يقطعه نوديَ من الجانب الآخر ، فرجع إلى ذلك الصوت ، ثم نودي من هاهنا فأجاب ، ثم رجع ، فبينما هو في تردّده ، إذ علا آذيٌّ[2] فأغرقه » .

٤ ـ جهنم مجمع المنافقين والكافرين

يقول تعالى :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا

(١) الشاة العائرة : الحائرة بين قطيعين لا تدري أيهما تتبع .

(٢) الآذيّ : الموج الشديد .

﴿مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[1] .

ففي الآية الكريمة إذن تحذير ونهيٌ للمؤمنين عن مجالسة الكفار والمستهزئين ، وعدم الاختلاط بهم من أجل التسلية والحديث ، والخوض في أمورٍ تافهة لا فائدة للمؤمنين بها . . قال رسول الله (ﷺ) : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » . وإن مجالسة الفساق والمنافقين تجعلكم مثلهم في الإثم لقوله تعالى : ﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾ ولآيات أخرى متعددة .

ولكن إذا كان الاجتماع بالكافرين ، والمنافقين من أجل دعوتهم إلى دين الله ، وبيان ما أنزل اللَّهُ تعالى على رسوله الكريم ، فإن القعود معهم لا يورث الإثم ؛ وكذلك الأمر إذا كان هنالك شأن للمسلمين معهم ، من شؤون الحياة كالبيع والتجارة والمصالح . . . المهم ألَّا يقعد المسلمون مع الذين يكفرون بآيات الله تعالى أو يستهزئون بها ، فإذا فعلوا وسكتوا دون إبداء أي تذمر أو احتجاج على الكافرين والمستهزئين فإنهم يكونون مثلهم ، لأن واجبهم الديني يحتّم عليهم أن يمنعوا الكفر بآيات الله تعالى ، والاستهزاء بها . . ذلك أن أولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلساً يسمع فيه آيات الله تعالى يكفر بها ، أو يستهزأ بها ، ثم يسكت ويتغاضى ، ويسمّي ذلك تسامحاً أو حريةً في التعبير عن الرأي ، أو حلماً وسعة صدر في تقبّله ذلك وصبره عليه . . ولكنَّ الحقيقة هي الهزيمة الداخلية التي تدبُّ في أوصال المؤمن ، وهو يموّه على نفسه ، ويجالسهم حياءً أو استحساناً ، متلبساً بالضعف والهوان . .

---

(1) النساء : ١٤٠ .

إن الحمية لدين الله تعالى هي حقيقة الإيمان . فإذا ما فترت هذه الحمية ، انهار بعدها كل سدّ ، وسقط كل حاجز ، وانجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار . وإن الحمية تكبت في أول الأمر عمداً ، ثم تهمد وتتلاشى . . ومن سمع الإستهزاء بدينه فإما أن يدافع عنه ، وإما أن يقاطع المجلس وأهله ؛ لأن التغاضي والسكوت أول مراحل الهزيمة ، وهو المعبرُ بين الإيمان والكفر على جسر النفاق .

ففي الآية الكريمة دلالة على وجوب إنكار المنكر مع القدرة وزوال المعذرة . ومن ترك ذلك مع القدرة عليه فهو مخطىء آثم . كما أن فيها دلالة على تحريم مجالسة الفساق والمبتدعين من أي جنس كانوا .

وفي كل حال إن الله سبحانه وتعالى سوف يقتصُّ من المنافقين والكافرين جميعاً . فكما أنهم اجتمعوا ـ هم ـ في الدنيا على الكفر والاستهزاء ، فهو سبحانه جامعهم كلهم في جهنم بعضهم مع بعض ، عقاباً لهم على ما كانوا يفعلون .

ويا أيها المؤمنون ، إن أولئك الكافرين والمنافقين هم :

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١) .

---

(١) النساء : ١٤١ .

أجل إنهم يتربصون بكم ، أيها المؤمنون ، الدوائر ؛ وذلك بما يتآمرون عليكم ، ويرجون به هلاككم حتى يستريحوا منكم ، ويظهروا عليكم . فإن كان لكم النصر في القتال ، وهزمتم أعداءكم ، قالوا لكم : ألم نكن معكم في الدين والقتال ؟ فاعطونا نصيبنا من الغنيمة . . ولكن إن كان للكافرين حظ من الغلبة عليكم ، تركوكم ، وذهبوا إليهم يقولون : ألسنا نفساً واحدة ، أولم نضمكم إلى أنفسنا ونستر عليكم ، ونطلعكم على أسرار محمد وأصحابه ، ونراسلكم بأخبارهم ، أوليس هذا ما نفعله لنمنع المؤمنين من أن يظفروا بكم ، فاحفظوا لنا هذه المنَّة ! . .

ولكن الله تعالى يبين للمؤمنين بأنه سيحكم بينهم وبين الكافرين والمنافقين يوم القيامة ، فيدخل المؤمنين الصادقين الجنة ، ويدخل المنافقين والكافرين النار . أما في الحياة الدنيا فلن يجعل الله للكافرين نصراً ، ولا ظهوراً ، ولا حجة بالغةً على المؤمنين ، ولا سبيلاً آخر ما أطاع المؤمنون أوامره ونواهيه ـ سبحانه ـ وجاهدوا ، لنصرة دينه .

ثم يبين سبحانه وتعالى حال المنافقين ، وتوهمهم الخاطىء فيقول عزَّ وعلا : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ (١) .

---

(١) النساء : ١٤٢ و١٤٣ .

فالمنافقون يتوهمون بأنهم يخادعون الله عز وجلَّ ، بإظهار الإيمان خلافاً لما أبطنوه في نفوسهم من الكفر ، وذلك لكي يفلتوا من الأحكام المفروضة على المؤمنين . . ولكن لم يفطن المنافقون أن الله تعالى هو خادعهم أي مجازيهم على خداعهم ، وذلك بافتضاح أمرهم في الدنيا بإطلاع نبيه الكريم (ﷺ) على ما أبطنوه ، وبإطلاع المؤمنين على سلوكهم المشين ، ثم يعاقبهم في الآخرة لأنهم يستحقون هذا العقاب ، بدليل أنهم إذا قاموا إلى الصلاة مع المؤمنين ، قاموا كسالى ، متثاقلين ، لا يرغبون في الذهاب إليها ؛ ولكنهم إن ذهبوا ، فمراءاة للناس ومداهنة وخداعاً . ولا يذكرون الله تعالى إلَّا قليلًا ، وذلك كذباً ورياءً، بينما هم في الحقيقة يهربون من الذكر العظيم ، حتى طبع على قلوبهم الفسق ، فأظهرته ألسنتهم نفاقاً وخداعاً . .

وهؤلاء المنافقون ، نراهم مذبذبين ، متردِّدين، حائرين بين الكفر والإيمان ، لا منسوبين إلى الكفار ، ولا إلى المؤمنين . فهم ضالون ، ومن يُضلله الله تعالى فلن تجد له سبيلاً أو طريقاً إلى الهدى . فقد حكم عليه الله تعالى بالضلال والكفر والنفاق ، فكان نصيبه الخسران المبين في الدنيا والآخرة .

تلك هي الصورة التي يرسمها القرآن الكريم للمنافقين ، بما هم عليه من صفات ذميمة قبيحة ؛ فتظهر صورة زريّة منفرة ، لأنهم يلقون المسلمين بوجه ولسان ، ويلقون الكافرين بوجه ولسان؛ فكأنهم يمسكون العصا من وسطها ، ويلتوون في مسيرتهم كما تتلوى الأفاعي والثعابين ، ويتلوَّنون في سيرتهم كما تتلوَّن الحرباء ، تقودهم نوازعهم

الشيطانية ، بلا وازع من دين ، أو رادع من ضمير . . فهل يمكن أن يظفر هؤلاء بهدى الله سبحانه ؟ لا ! إن ذلك مستحيل . ولذلك فقد أضلَّهم اللَّهُ تعالى ، ومن يضلل الله فلن تجد له وليّاً مرشداً . .

٥ ـ تشبيه المنافقين بالخشب المسنَّدة

يقول الله تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[1] .

يخاطب ربُّ العالمين رسولَه الكريم محمداً (ﷺ) محذراً إيّاه من خداع المنافقين وكذبهم ، فيقول له : إذا جاءك المنافقون ، وقالوا بألسنتهم على خلاف ما في قلوبهم : ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ . فهذا أمر معلوم ، لأنك يا محمد رسول الله للناس كافة ، والله تعالى يعلم إنك لرسولُهُ ، لأنه قد أرسلك بالهدى ودين الحق . والله ـ سبحانه ـ يشهد من عليائه ، إن المنافقين لكاذبون ، فيما يشهدون به ظاهراً أمامك ، ومخالفاً لما يضمرونه ، لأنهم في قرارة أنفسهم لا

---

(١) المنافقون : ١ ـ ٤ .

يريدونك رسولاً ، ولا يريدون اتباعك في الدين الذي جئت بـه ، أما الإيمان الذي يُظهرونـه فقد اتَّخـذوه جُنَّة أي سـتـرة يتسترون بهـا لكي يأمنوا على أنفسهم وأموالهم في حـين أنهم صدّوا عن سبيـل الله ، وقد سـاء ما كانوا يعملون . ذلـك أن المنافقـين كانـوا يبدون كـل استعداد للرسول (ﷺ) بمناصرته والخـروج معه ؛ بينـما كانـوا ، في الحقيقة ، يبطنون له العداوة والبغضاء ؛ ويدبِّـرون له الـدسائس مـع المشـركين ، فضـلاً عـما كـانـوا يخـذّلـون بـه المؤمنـين من التقـاعس عن القتـال ، والتخـويف من الموت ، وبث روح الشقـاق والنزاع ومـا إلى ذلـك من أساليبهم المزرية . . .

ويظهر اللَّهُ تعـالى لنبيه المصـطفى سوء عملهم بـأن يقول لـه : بأنهم آمنوا بـاللسان ، ثم كفـروا بالقلب ، وقـد استمروا عـلى كفرهم حتى ختم الله عـلى قلوبهم بالكفـر ، فهم لا يفقهـون ، بعـد ذلـك ، الإيمان ، ولا يتذوقون حلاوته . .

ثم يصف اللَّهُ تعالى حالتهم الجسدية والنفسية ، وينبه الـرسول الكريم بألَّا تـأخذه مـظاهر أجسـامهم، لأنَّ المعوّل عليـه لدى النـاس الدخائل، وهي لدى المنافقين واهية، هشة، لا تقوى على احتمال أي شدة . . ولذلك خاطبه بقوله تعالى : ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمـع لقولهم﴾ . . فـأجسامهم جميلة ، قـوية ؛ وقـولهم فصيـح فيـه ذلاقة ، وبلاغة . . ورغـم هذه المزايا التي يظهرون بهـا ، يعود القـرآن الكريم ويمثلهم تمثيلاً مزرياً ، أقرب ما فيه الحقارة والضعـف ، وذلـك عندما يقول عنهم ﴿ كأنهم خشب مسنَّـدة ﴾ إلى الحائط ، لا تستعمـل لعدم نفعها ، فهي قد نخرها السوسُ حتى صارت في جوفهـا متآكلة ،

وإن كانت في ظاهرها تبدو سليمة . . ولو أن هذه الأخشاب كانت نافعة لكانت وضعت في سقفٍ ، أو صنعت منها أبواب أو نوافذ أو خزائن أو أي أدوات أخرى . ولكن وهي نخرةٌ في جوفها ، فقد أسندت إلى حائط ، مهملةً . . . هكذا حال المنافقين ، فإن ظاهرهم قد يكون معجباً لناظره ، ولكن باطنهم أبعد ما يكون عن الخير ؛ فهم إن دعوا إلى قتال أظهروا بأساً وشدة ، ولكن ما إن يسمعوا صيحة حتى يظنوا أنها منصبة عليهم لهلاكهم ؛ وفي ذلك تعبير عن قلقهم النفسي ، وخوفهم من اكتشاف نفاقهم ، لما هم عليه من الغش والخداع ولما في صدورهم من الخيانة ، ولذلك قيل : « المريب خائف » . .

ومع هذه الصورة المزرية للمنافقين ، يبين تعالى أنهم هم العدو للرسول وللمؤمنين، ولذلك ينبهه إلى الحذر منهم، فلا يأمن لهم. ثم يجيء التوبيخ والتقريع الإلهي لهم ﴿ قاتلهم اللَّهُ أنَّى يؤفكون ﴾ . إنها دعوة من الله تعالى عليهم بالهلاك ، لأن من قاتله الله تعالى فهو مقتول لا محالة ، ومن غالبه فهو مغلوب حتماً . وقد حق عليهم أن يقتلهم الله سبحانه ، وأن يغلبهم ما داموا يصرفون أنفسهم وغيرهم من الناس عن الإيمان بعد قيام البرهان عليه .

٦ ـ المنافقون لا يفقهون

يقول الله سبحانه وتعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ

لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن
قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ
أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ
جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ
جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ
لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾
فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ
أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ
أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ
خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

لما وصف اللَّهَ سبحانه وتعالى حال المهاجرين ، الذين هجروا الديار والأوطان ، والأهل ، وبذلوا الأموال لنصرة الله ورسوله ، ثم ذكرَ الأنصارَ الذين تبوأوا الدار والإيمان ، وأحسنوا استقبال الرسول (ﷺ) والمهاجرين وأحبوهم حبهم لأنفسهم ، بل فضلوهم في

---

(١) الحشر : ١١ - ٢١ .

حالات كثيرة على أنفسهم . . . أتى سبحانه على ذكر التابعين لهؤلاء وهؤلاء بإحسان ، وبيَّن أنهم يستحقون جميعاً الثوابَ الجزيل والنعيم في جنات الله الكريم . . وعقَّب على ذلك بذكر المنافقين ، وما أسروه من الكفر والعصيان ، فقال لرسوله الكريم : ألم ترَ يا محمد إلى الذين نافقوا - وهم بعض الأوس والخزرج في المدينة من الذين دخلوا الإسلام لأغراض بعيدة لا حبّاً في دين الله تعالى - إذ كانوا يقولون لإخوانهم من بني يهود - وهؤلاء هم يهود بني النضير - : لئن أُخرجتم من دياركم وأموالكم ، لَنخرجنَّ معكم ، فلا نبقى تحت حكم محمد بل نساعدكم ، غير مطيعين أحداً في قتالكم أو مخاصمتكم أبداً ، لا محمداً ولا غيره من صحابته . . ولئن قاتلكم المسلمون فسوف ننصركم ، ونمدُّكم بالعون في ذلك القتال بكل ما أوتينا . . ولكن الله سبحانه وتعالى كذَّبهم ؛ لأنه - بعلمه الشامل - يعلم أنهم كاذبون بما يعدونهم به من الخروج معهم والدفاع عنهم والوقوف وإياهم في ساحة القتال ، وقد بيَّن سبحانه وتعالى هذا الادعاء الكاذب وأنهم يخلفونهم ماوعدوهم،بقوله تعالى : ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصَروهم - أي جاؤوا افتراضاً لنصرتهم - ليولُنَّ الأدبار ، ثم لا يُنصرون ﴾ .

تلك كانت وعود من أسلم من أهل المدينة نفاقاً ، ووعود بني قريظة من اليهود لإخوانهم من بني النضير . . أي إذا أجبروا على الخروج كُرهاً من ديارهم فسوف يخرجون معهم . وإن قاتلهم المسلمون فسوف يقفون معهم في القتال . . ولكن بني النضير خرجوا على ميثاقهم مع رسول الله (ﷺ) ونزل حكم الله تعالى فيهم

بإخراجهم ، فلم يخرج أحد معهم من بني قريظة ، أو غيرهم من بني يهود ، ولم ينصرهم أحد من المنافقين ، فحق قولُ الله تعالى في أولئك المنافقين وإخوانهم من بني يهودِ : ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ .

ثم يأتي بعد ذلك الخطاب للمؤمنين بقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ لأنتم أشدُّ رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي أن خوفهم منكم أشدُّ من خوفهم من الله تعالى ، لأنهم يرون بأسكم في الحروب ، ويشاهدون بأم العين ما تبذلون من تضحيات ترهبهم وتفزعهم ، وهم لا يخافون اللَّهَ تعالى خوفهم منكم ، لأنهم لا يعرفونَ اللَّهَ سبحانه حق المعرفة ، ولا يدركون سرَّ عظمته وقوة بأسه ، ولا يفقهون شدة عقابه ، وحكمه في عباده أجمعين . فتأمل ذلك التفكير الأخرق من بني يهود، ونفاقهم حيث كانوا يخافون من عباد الله خوفاً أشد من خوفهم رب العباد !! . . ثم كشف سبحانه وتعالى سرّاً عن هؤلاء اليهود ، فقال للمؤمنين ، بأنهم لا يقاتلونكم يا معشر المؤمنين إلَّا في قرى محصنة ، أو من وراء جدرانها ، بعدما أعدوا الخطط لقتالكم في أماكنهم التي أعدوها ، وهي حصونهم في خيبر، حيث كانوا يقذفون المسلمين بالنبال ويرشقونهم بالسهام من وراء جدران تلك الحصون المنيعة ؛ بل ويستعملون في قتالهم شتى الأدوات والآلات التي يستطيعون استعمالها وهم بعيدون عن ساحة المعركة ، محتمون بما أقاموا من وسائل يأمنون بها . وهذا هو حال اليهود اليوم ، إذ ما زالوا على نفس الطبيعة والنهج ، فهم يقاتلون المسلمين من وراء جدر أو موانع محصَّنة كالمدافع والطائرات والدبابات والمدمرات ، وشتى آلات الحرب الحديثة التي يستخدمونها . . وقد باتوا مشهورين في حروبهم المباغتة ، وفي استعمال التقنية الحربية المتقدمة

التي تكسبهم الحرب سريعاً ، بلا خوض معارك ، وبلا مواجهة أو قتال . . .

ولكن مهما بدا أن اليهود ذوو بأس في الحرب ، وأنهم يخوضون غمار الحرب بروح معنوية قوية يشحنون بها أنفسهم ، ومهما ظهروا بمظاهر التفوق في الحروب التي شنوها ، فإن ذلك كله لا يمنع من أنهم قوم جبناء، لا يقدرون على المواجهة الحقيقية. وقد أثبتت جبنَهُم حربُهم في لبنان عام ١٩٨٣ ميلادية وما بعدها ، إذ هزمهم المسلمون المؤمنون العزَّل ، وهم يواجهون سلاحهم العاتي بقلوب صلبة لا يفلها حديد مدافعهم ، ولا يثنيها أزيز طائراتهم ؛ بل ولقد أمكن لهذه الفئة القليلة من المسلمين المؤمنين أن يفضحوا أسطورة الجيش اليهودي الذي لا يقهر ؛ وهذا ما أثبتته شهادات جنودهم وقادتهم بالذات عبر التصاريح التي أدلوا بها ، ونقلتها وسائل الإعلام العالمية ، ووسائل الاعلام في إسرائيل بالذات ، وقد حملت تلك التصاريح الأماني والرغبات بعدم البقاء في لبنان تحت « ضربات المقاومة المسلمة » التي أوجدت روحاً هستيرية فعلية في نفوس الجنود الاسرائيليين ، آثروا معها الموت على البقاء تحت تأثير القلق والخوف والتشتت ؛ وهذا ما لم تتوقعه أجهزة الكمبيوتر التي يستخدمونها في خططهم وحساباتهم . . فالبأس الذي يدعيه اليهود إذن ، فيما بينهم ، وفي وسائل إعلامهم ، يكذبه اللَّهُ تعالى ، عندما يبين سبحانه أنه بأس ظاهريٌّ فقط ، أما في دخيلة نفوسهم فاليهود ضعفاء مهزومون ، متفرقون ، مشتتون لاختلاف نوازعهم وميولهم وأهوائهم . . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون الحق ، ولا يهتدون إلى الإيمان ، بل تسيطر عليهم الأنانية والمطامع والشهوات .

أمـا مثلهم في تنافـرهم فيما بينهم ، وعـدم صفاء قلوب بعضهم لبعض ، فـإنه يؤدي بهم إلى شـر مستطير ، وسيكـون حـالهم كحـال المشـركين في معـركة بـدر ، وكحال بني قينقـاع في المدينـة ، إذ كانـوا متفـرقي الآراء والغايـات ، فنالـوا الهزيمـة في الدنيـا ، وسوف ينـالون عقوبة كفرهم في الآخرة .

وكذلك فإنَّ مثَل هؤلاء جميعـاً ، ومثَل المنـافقين مـع بني النضير وخذلانهم إياهم هـو كمثَل الشيـطان ، إذ قال لـلإنسان : اكفـر . . . وهو مثل عن عابد من بني اسرائيل اسمـه برصيصـا ، عَبَدَ اللَّهَ تعـالى زماناً من الدهر، حتى كان يؤتى بالمجانين والمرضى إليه يداويهم أو يعودهم هو في منازلهم، فيشفيهم اللَّهُ تعالى على يديه. ولكنَّ الشيطان أوقعه في حبائل شـراكه واحتـل زاوية من صـدره ، لينطلق منهـا ويسيطر عليـه نهائيّاً . . ذلك أنَّ امرأة قد جُنَّت ، فأتى أخوتُها بها إليـه . وكانت تلك المـرأة جميلة الصورة ، فـزيَّن له الشيـطان مواقعتهـا ففعـل ، فحملت منه ، فلما استبان حملها خشي من الفضيحة فزين له الشيـطان قتلها ، فقتلهـا ودفنها . . وجـاء إخوتهـا إلى برصيصـا يسألـون عن حـالهـا ، فكذب وقال لهم بـأنها تركتـه وعادت إليهم . فـراحوا يبحثـون عنها ، ويتعقبون أخبارهـا حتى عرفـوا بمصيرهـا ، فشكَوه إلى الحـاكم ، فأمـر بصلبه ، فلما رفع على خشبة الصليب تمثـل له الشيـطان ، وقال لـه : أعجب منـك ومن إخلاصـك لربـك ، وعدم اليـأس من مغفرتـه بعد الـذي فعلت من السفاح والقتـل وخيـانـة الأمـانـة . فكف عن طلب المغفـرة واعلم أنني أنا الـذي ألقيتك في هـذه التهلكة ، وربـك الذي عبدته قد تخلى عنك ، فهل أنت مطيعي فيما أقـول لك فـأخلصك ممـا أنت فيه ؟

قال برصيصا : نعم . .

قال الشيطان : فاسجد لي سجدة واحدة .

قال له : فكيف اسجد لك وأنا على هذه الحالة من الصلب ؟

فقال الشيطان : أكتفي منك بالإيماءة . .

وهنا أومأ برصيصا إيماءة رأس تدل على السجود ، فكفر بالله . .

فقال له الشيطان : لقد أغويتك وجعلتك تكفر بالذي خلقك ، فذق عذاب غوايتك بالقتل على أيدي هؤلاء الناس . .

وهلك برصيصاً بكفره . . فلما كفر قال له الشيطان : ﴿ إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين ﴾ . .

ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ كانت عاقبة برصيصا ، كعاقبة الشيطان ، وهما في النار خالدَين فيها ، وذلك جزاء الظالمين ، فالشيطان ظالم للناس بغوايته لهم ، فوق جريمته الأساسية وهي عصيان الله تعالى . . وبرصيصا ظالم ، لأنه كفر بالله الذي عبده ، حبّاً بشهوات الدنيا ، وانصياعاً لإغواء الشيطان ولنزواته النفسية والجسدية .

وهذا مثل ضربه الله تعالى عن بني النضير الذين خدعهم المنافقون ، ثم تبرأوا منهم وقت الشدة ، كما تبرأ الشيطان من ذلك الرجل حين نزلت به الشدة ، وكأن في هذا المثل تشبيهاً للمنافقين بالشيطان ، لأنهم يغوون إخوانهم ويحرضونهم على العصيان وعدم الإيمان ، فجزاء الجميع النار خالدين فيها على ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم . . وليس هذا المثل مقصوراً على بني النضير فقط ، أو على

جماعة معينة بحد ذاتها ، بل هو يهدف أيضاً إلى تنبيه الإنسان إلى عدم الاستماع لإغراءات الشيطان والعمل بإغوائه . والإنسان المنافق هو ـ أيضاً ـ شيطان بشري يغوي نفسه ويغوي الآخرين . . ذلك أن عمل الشيطان هو دائماً دعوة الإنسان إلى المعصية وتزيين هذه المعصية ، وتهوين أمرها عليه ، حتى إذا وقع الإنسان في شرك المعصية ، أظهرها له الشيطان بأنها من أشد الجرائم ، ومن الصعب أن يغفرها اللَّهُ تعالى له حتى يوقعه في اليأس . . فإذا يئس الإنسان من رحمة الله ، سوَّلت له نفسه الولوغ في المعاصي وارتكاب الآثام ، فيكون بذلك قد كفر بالله ، لأنه لا ييأس من روح الله ورحمته إلا القوم الكافرون . . وفي مثل هذه الحالة ، أي عندما يتردى الإنسان في الكفر ، يقف الشيطان الذي أوقعه في المعاصي متبرئاً منه ، ومدَّعياً أنه يخاف الله ربَّ العالمين ، ليبيِّنَ أنه ليس كالإنسان بعدم خوفه من ربِّه ، لأن الإنسان ، لو خاف ربَّهُ لما أطاع الشيطان وعصى الرحمان . .

ويعود النَّص القرآني ليبيِّنَ آثار رحمة الله تعالى لعباده ، إذ يخاطب سبحانه المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ واتقوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خبير بما تعملون ﴾ . إنها الموعظة الإلهية بتقوى الله عزَّ وجل ، وهي دعوة للتفكير دائماً بما يعمل الإنسان ويدَّخر لغده وآخرته ، فإن عملاً صالحاً قد يرفعه وينجيه ، كما أن عملاً سيئاً قد يوبقه ويُرديه . ثم يأتي التأكيد على تقوى الله التي يجب أن تلازم العمل الصالح ، وتبعد عن العمل الطالح ، واللَّهُ سبحانه خبير بما يعمل المؤمنون ، فهو يعلم الجهر وما يخفى ، ولا يغرب عنه تعالى عملٌ في الأرض ولا في السماء ، بل

يحصي على كل مخلوق حركاته وسكناته كافة ، لتكون في ميزان حسناته وسيئاته وقت الحساب . .

ثم يأمر اللَّهُ تعالى عباده المؤمنين بألّا يكونوا كالذين نسوا اللَّهَ تعالى ، بترك طاعته وعبادته ، وأداء حقه ، فأنساهم أنفسهم بأن يقدِّموا لها خيراً ، وبأن يحرمهم حظوظهم من الخير والثواب . وهؤلاء الذين ينسون اللَّهَ ـ خالقهم ورازقهم ـ هم الفاسقون الذين خرجوا من طاعته إلى معصيته . . إذن فلا يمكن أن يستوي الكافرون ، أو الفاسقون ، أو المنافقون مع المؤمنين . فأولئك جميعاً ومن هم على أمثالهم أصحاب النار الخاسرون ، أما المؤمنون فهم أصحاب الجنة الفائزون بالثواب والنعيم الأبدي . فأي فرقٍ عظيم بين الفريقين ، وأي فرق عظيم في الدارين : دار النار ، ودار الجنة ؟ ! . . .

ولكن، أليس طريق النجاة واضحاً ؟ أَمَا في هذا القرآن الكريم ـ الذي أنزله اللَّهُ تعالى رحمة للعباد ـ سبيلٌ للخلاص إن نحن تدبَّرناه ، وعملنا بوحيه ؟ ! . . بلى ، وإنَّ على الإنسان أن يدرك عظمة هذا القرآن الذي هو كلام الله عز وجل . . وأنه لو أنزله سبحانه على جبلٍ لَرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . . فالجبل الذي هو من الجماد الأصمّ ، مع غلظة صخوره ، وكبر حجمه ، ومتانة تركيبه ، وصلابة تأليفه ، ومع ارتفاعه ، وشدة تماسكه ، لو أنزل الله تعالى عليه القرآن وأدرك ما فيه لَخشع وتصدَّع من جلال شأن منزِّله ، وعظمة وقدرة حافظه ، إذ يدرك الجبلُ ما في القرآن من ذلك ، فيخشع للخالق العظيم ، ويتصدع من خوفه وخشيته . . .

وتلك هي أمثال وعظات وبراهين ، يضربها اللَّهُ تعالى للناس في

القرآن ، لعلهم يتفكرون بها ، ويعتبرون ، ويتدبرون ، فيحتذون على الأقل بالجماد الذي ضُرب عَليه المثل بالجبل ، ويخافون اللَّهَ تعالى ويخشونه ، فيستقيمون ويكونون مؤمنين صادقين . .

اليهود

اليـــهود

١ ـ مثل اليهود في حمل التوراة

يقول الله تعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(١) .

من خصـائص التشبيه القـرآني دقته في انتقـاء التعـابـير لإعـطاء صورة جلية واضحة وأخّاذة ، عن المعنى أو المعاني التي يريد إبرازهـا ، وإظهار الأهداف المقصودة منها ، بحيث لا يسع العاقل العارف إلاَّ أن يقف خـاشعاً لقـول الله عـزَّ وجـلَّ ، مبهـوراً ببـلاغـة الأداء وعـظمـة البيـان . ومن تشابيـه الأمثال القـرآنية ، ومن هـذه الصـور الحسيـة ، ما يعبّر عن واقع اليهود في حمل التوراة التي تضمنت الشريعة التي نزلت عـلى موسى (ع) . فـاليهود أُخـذ عليهم العهد بـأن يحملوا التوراة ، ويؤمنوا بما فيها من عقيدة التـوحيد ، ويعملوا بمـا حوتـه من الشريعـة

---

(١) الجمعة : ٥ .

الصالحة للمعاش والمعاد ، كما أنزلها رب العالمين . . ولكن اليهود لم يقدروها حق قدرها ، ولا اهتدوا بها ، أو انتفعوا بما فيها من خير وصلاح ، بل عملوا بعكس ذلك فغَيّروا كثيراً مما أنزل فيها وبدَّلوه ، وتعدَّوا حدود الله تعالى ، فزوَّروا ما شرع لهم من الدين بما أشربوا في قلوبهم من الوثنية التي عمرت بها صدورهم منذ عبدوا العجل ، وبما جرَّهم إليه طمعهم في زخرف الدنيا ، وبما ابتلوا به من حب المال الذي أضلَّهم عن الحق وأعمى بصائرهم عن الهدى ، فاستمروا في مطامعهم وأهوائهم لاهثين وراء المال ، والتعدّي والتسلط على مقدرات الناس . . . أي أنهم رضوا بالدنيا عن الآخرة حتى صار مثلهم في حمل التوراة ـ كتاب الله الكريم الذي أنزل لهديهم ـ كمثل الحمار ، يحمل على ظهره الكتب القيمة في الحكمة والمعرفة والعلم ، من غير أن يحسَّ أو يعرف ما يحمل ، ومن غير أن ينتفع بأدنى شيء من فوائدها . .

وينطبق هذا المثل على كل من يقتني القرآن ، أو من يتلوه بلسانه ، من غير أن يفقه معانيه ، ومن غير أن يفكِّر في تدبّر آياته ، فكيف بمن أَعْرضَ عنه إعراض من لا يحتاج إليه ، أو حمله كما حملت اليهود التوراة ؟ ! . . فلا ينبغي أن نكون كاليهود الذين هجروا كتابهم السماوي ، وعملوا عكس ما فيه ، حتى حقَّ عليهم قول الله تعالى بأنهم ﴿ القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾ فذمَّهم الله سبحانه على ذلك ، وأبعدهم عن سابغ رحمته ، ونور هداه ، لأنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين ، وهم قد ظلموا باختيارهم الضلالة على الهدى ، وبتكذيبهم لآيات الله تعالى ، فكان جزاؤهم غضباً من الله ، ولعنة ، يحلان بهم إلى يوم الدين .

٢ ـ قلوب اليهود أشد قسوة من الحجارة

يقول الله تعالى :

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١)

يورد السياق القرآني قبل هذه الآية الكريمة المعجزة الكبرى التي رآها اليهود بأم العين ، والتي تدل على قدرة الله تعالى في إحياء الموتى ، وذلك عندما ضربوا قتيلاً لهم بأجزاء من بقرة فأحياه اللَّهُ سبحانه ، فدلَّ القتيل على قاتله ، ثم أماته الله لساعته . . ولم تكن تلك المعجزة العجيبة الغريبة هي الوحيدة التي أتاها العلي القدير، ليَثْبُت اليهود على صدق الإيمان . . فهم قد رأوا معجزات غيرها كثيرة كإنفلاق أمواج البحر ليعبروا من بينها وينجوا من ظلم فرعون وطغيانه ؛ وكتفجّر الصخرة الكبيرة وانبثاق اثنتي عشرة عيناً منها ، يشرب من كل عين سبط من أسباطهم الاثني عشر ؛ وكاندكاك الجبل حين تجلَّى عليه نور الله العظيم فخرَّ موسى (ع) صَعِقاً . . وكالمنّ والسلوى التي أنزلها اللَّهُ تعالى عليهم من السماء ليأكلوا وهم في الصحراء القاحلة المقفرة . .

كل تلك المعجزات ـ وما أعظمها ـ رآها اليهود بأم العين وتحققت منها أجيالهم ، ومع ذلك لم يؤمنوا . . فلما حصلت معجزة البقرة المدهشة ، وظلّوا على ضلالهم ، أظهر اللَّهُ تعالى ما تكنّه قلوبهم

---

(١) البقرة : ٧٤ .

من الأهواء والنزعات التي أبعدتهم عن الهدى والإيمان ، فقال سبحانه مخاطباً إياهم : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ أي من بعد معجزة البقرة ، حتى صارت في قساوتها كالحجارة أو أشد قسوة . . وهذه الصفة التي أورثهَا العليم الحكيم لقلوبهم إنما هي مثلٌ لنبوّها عن الاعتبار ، وعن الاتعاظ ، فلا يؤثر فيها شيء . . فما دامت المعجزات الأخّاذة لم تؤثر في تلك القلوب ، فما يؤثر فيها بعد ذلك ؟ من أجل ذلك شبَّه قلوبهم بالحجارة لكونها صلبة قاسية ، بل هي أشدّ قساوة من الحجارة لأن من الحجارة ما هو ألين وأرق منها ، إذْ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الوفير الذي يؤلف أنهاراً ، ومنها ما ينشقّ ، طولاً أو عرضاً ، حتى تنبع منه العيون ، ومنها الجبال الصخرية الصمّاء التي تتفتّت وتهبط من خشية الله تعالى ومن ذكره العظيم . . فإذا كانت الحجارة والصخور والجبال على صلابتها وقوتها أقل قساوة من قلوب اليهود ، فأنّى لهذه القلوب أن تخشع أو تلين مهما رأت من المعجزات ؟ وأنَّى لها أن تؤمن وقد أغلقت على قسوة الضلال ؟ وأنَّى لها أن تعبد اللَّهَ العزيز الجبار وقد امتلأت بالبهتان؟ وأنَّى لها أن تصدق ببعث محمد (ﷺ) وقد كذَّبت من قبله كل الأنبياء والمبعوثين ؟ ! . . .

نعم أي قلوب هي قلوب اليهود إلَّا أن تكون ، كما وصفها رب العالمين كالحجارة في قساوتها أو أشد قسوة ! . . وعن الحديث النبوي الشريف : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي » . وقوله (ﷺ) : « أربع من الشقاء : جحود العين ، وقساوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا » .

ولأن قلوب اليهود قاسية ، لا تنبض بخشية الله ، فهي قلوب مجدبة كافرة ، ولذلك كان تهديده عزَّ وجلَّ لهم : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ من التمرد والفسوق ، والالتواء واللجاجة ، والقسوة والجدب ، وغيرها من أعمال الضلال والباطل ؛ فأعمالكم هذه أيها اليهود ، ليس اللَّهُ تعالى بغافل عنها ، أو مهملها ، ولكنه سبحانه يؤخركم إلى الأجل الموعود ، لتروا عقاب ما تضمرون وما تعملون . .

٣ ـ إقبال اليهود على عرض الدنيا

يقول الله تعالى :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

يبيّن اللَّهُ سبحانه وتعالى أنه خَلَفَ أسلافاً من قوم موسى (ع) خلفٌ ورثوا التوراة عمَّن سبقوهم . . ولكنهم لم يعملوا بهذا الكتاب ، بل انصرفوا عنه إلى عرض الدنيا ، يأخذون من حطامه العاجل الدنيء ، ومن متاعه الزائل الزائف ، ما جعلهم يرتكبون المعاصي ويسلكون طرق السوء مثل الغش والخداع ، والربا والرشوة ، والفتنة والدسَّ ، والظلم والعدوان . . وهذه كلها من أعراض هذا العالم

---

(١) الأعراف : ١٦٩ .

الأدنى الذي هو الدار الفانيـة . وعن ابن عباس قال : « الدنيـا عرض حاضر يأكل منه البر والفـاجر ، وجميـع متاع الـدنيا عـرض » . . إذن فاليهود قد فتنوا بمتاع الدنيا فأخذوه دائبين ، مصرّين ، وهم يقولون : سيغفر لنا ! . . أي أن اللّهَ سيعفو عنّا . وقـد اختبأوا وراء هـذا الظن الكاذب ، ليتمادوا في الإقبال على أعراض الدنيا ومتاعها ؛ فكلما يأتيهم عرضٌ مثل الـذي كانـوا يفعلونه ، يـأخذونـه ، رغم معرفتهم أنَّ فيـه معصية ، ثم يقولـون من جديـد : يغفر الله لنـا ! . . . وهذا مما يدلُّ على أنه لم يكن يشبعهم شيء من حلال وحرام ، بل كانوا يفعلون كل مـا تسوِّل لهم أنفسهم عـلى أمل المغفـرة ! . . . ولكن ألم يؤخـذ عـلى هؤلاء المرتشين في الأحكـام الميثاق في التـوراة بألاَّ يكـذبوا عـلى الله ، وألاَّ يحرّفوا الكتاب وألا يضيفوا إليه ما أنزله عـلى رسولـه موسى (ع) من الوعد والوعيد ؟ ثم ألم يعلموا أنه ليس في التوراة وعد بالمغفرة مع الإصرار على الذنوب ؟

لقد درسوا التوراة وعرفـوا ما فيهـا ، ولكنهم تركـوها ، وعملوا بخـلافهـا . . ولـذلـك لم تتـأثـر بهـا قلوبهم ، ولا استقـامت بعـدهـا فعالهم . . . وهذا هو شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ ، دون رعاية حق الله تعالى ، أو حياطة ما أنزل فيها من أحكـام الهـدى والإيمان ، والعمـل الصالـح . . وإذن فقد درسـوا الكتـاب ، ولكن الدراسة لا تجدي ما لم تخـالط القلوب . . . فكم من الدارسـين للإسلام وقلوبهم عنه بعيدة . لأنهم يدرسونه ليتـأولوا حقـائقه ويحـرفوا معـانيه ليجـدوا المخارج للفتـاوى المغرضـة التي تنيلهم عـرض الحيـاة الدنيا . وهـل آفة الـدين إلا الذين يـدرسونـه دراسة ، ولا يـأخذونـه عقيدة ، ولا يتّقون الله بـه ولا يرهبـونه ؟ ! . . نعم إن الـدار الآخرة

هي التي لا يصلح قلب ، ولا تصلح حياة إلا بالإيمان بها ، ولا تستقيم نفس إلاَّ بملاحظتها والعمل لأجلها . وإلاَّ فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبةَ الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض ؟ وما الذي يحجزها عن الطمع والجشع ، ويكفها عن الظلم والبغي ؟ وما الذي يهدىء فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات ؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل ؟ لا شيء يثبتها في الأحداث والوقائع ، وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج ، وفي هذه المعركة الكبرى إلا اليقين بالآخرة ، وأنها خير للذين يتقون . ولذلك قال تعالى : ﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ ؟ فذلك هو الذي يجب أن تتفكروا به وتعقلوه أيها الناس حتى تؤثروا الآخرة على أعراض هذه الدنيا الفانية .

٤ ـ قال المشركون مثل قول أهل الكتاب

يقول تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(1) .

وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء من العقيدة ، وادعوا بأنهم هم أصحاب الحق ، وأهل الجنة .

وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء من الدين ، وادعوا

(1) البقرة : ١١٣ .

أيضاً بأنهم هم أصحاب الحق وأهل الجنة . .

وبذلك لم يعترف اليهود بالنصرانية ، كما لم يعترف النصارى باليهودية ، مع أنهم أهل كتاب ، وهم يتلون كتبهم التي تدل على الطريق الواجب اتباعه للوصول إلى الجنة ، والتي تؤكد حقيقة الرسالات السماوية التي أنزلها الله تعالى على النبيين والمرسلين . .

ولعلَّ في هذا تنبيهاً للمؤمنين بألَّا تدخل عليهم الشبهة من جرّاء إنكار اليهود والنصارى لديانة كل منهما للآخر ، وبالتالي للدين الإسلامي ، فينكروا الرسالات السماوية ، ولا يؤمنوا بالرّسل الذين سبقوا رسولنا الكريم (ﷺ) . . من أجل ذلك كان تأكيد القرآن الكريم على حقيقة بعث موسى وعيسى (عليهما السلام) وغيرهما من النبيين الذين ذكرهم القرآن الكريم طيّ آياته ، وعلى حقيقة ما أنزله عليهما ربهما ، تبارك وتعالى . .

وبما أن قول اليهود والنصارى كان على ذلك النحو من الإنكار ، فإنَّ الذين لا يعلمون من عرب الجاهلية ، وهم المشركون الذين لم يكن عندهم كتاب ، قالوا للنبي (ﷺ) ولأصحابه كما قالت اليهود والنصارى لبعضهم البعض ، أي : لستم على شيء . . . وبذلك يكون النص القرآني قد ساوى بين العالم بالحق والمعاند له (كاليهود والنصارى) وبين الجاهل من المشركين . .

وإذا كان اليهود هم الذين واجهوا المسلمين في المدينة ، لأنه لم تكن هناك كتلة من النصارى تقف مواقفهم من المسلمين ، فإنَّ النص قد جاء عامّاً يواجه مقولات اليهود والنصارى ، ثم يَجْبَهُ هؤلاء بهؤلاء ، ويحكي رأي المشركين في الطائفتين جميعاً . .

﴿ فالذين لا يعلمون ﴾ : هم الأميّون من العرب الذين لم يكونوا على دين معين، وليسوا أهل كتاب . . وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من الفرقة ، ومن التفاوت بالاتهام ، ومن التمسك بخرافات وأساطير لا تبتعد كثيراً ولا ترتفع عن خرافاتهم هم ، وأساطيرهم في الشرك ـ كما هو الحال مثلاً في الاعتقاد الخرافي الذي نسب البنات لله عزَّ وجلَّ، وقد تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ـ ولذلك زهد المشركون من العرب في دين اليهود والنصارى ، وقالوا : إنهم ليسوا على شيء ، كما كانوا يقولون هم لبعضهم بعضاً . .

والقرآن الكريم يسجل على الجميع مقولات بعضهم في حق البعض الآخر ، عقب تفنيد دعوى اليهود والنصارى في ملكية الجنة ، ثم يدع أمر الخلاف فيهم إلى الله تعالى : ﴿ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . وهذه الإحالة إلى حكم الله جلَّ وعلا ، هي وحدها المجدية في مواجهة قوم لا يستمدون براهينهم من منطق ، ولا يعتمدون بحججهم على دليل ، بعد دحض دعواهم الباطلة بأنهم وحدهم أهل الجنة ، وبأنهم وحدهم الذين هداهم الله سبحانه . . فتعالى الله عما يصفون ، وعما كانوا فيه يختلفون . . .

إن حكم الله يوم القيامة هو الذي سيريهم من يدخل الجنة عياناً ، ومن يدخل النار عياناً . وهو الحكم الفصل في الآخرة بما تصير إليه كل طائفة . . أما الحكم بينهم في الدنيا فقد بيّنه سبحانه فيما أظهر من حجج المسلمين التي يتلونها من القرآن الكريم ، وفي عجز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي يقول الحق ، وليس إلا الحق ، لا كما قالت اليهود ، ولا كما قالت النصارى ، ولا كما ابتدعت كل طائفة

من الأقوال والأحكام البعيدة عن الحق الذي أراده الله عزَّ وجلَّ ، وحَفظه في قرآنه المبين . .

٥ ـ ادّعاء الكافرين بأن التوراة والقرآن سحران

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (١) .

لمَّا جاءهم محمد (ﷺ) بالحق من عند ربه ، داعياً للإسلام مبشراً ومنذراً ، أنكر اليهود عليه نبوته ولم يصدّقوه . ثم قالوا : لو أنه أوتي مثل ما أوتي موسى من المعجزات ، وأرانا إياها بأم أعيننا ، لكنا نفكّر بأن نصدقه ؟ أو لو أن القرآن يتنزَّل عليه جملة واحدة كما تنزَّلت التوراة على موسى لكنا عرفنا أنه نبي . . . فاحتجَّ الله ـ سبحانه ـ على قولهم هذا ، بعزيز قوله تعالى : ﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ ؟ ! . . فلم يصدّقوا بآيات الله تعالى التي كان يتلوها عليهم موسى (ع) ، ولم يؤمنوا به . ؟! . . .

ويثبت اللَّهُ تعالى أنهم كفروا بالتوراة من قبل ، كما يكفرون الآن بالقرآن ، عندما قالوا عن هذين الكتابين : سحران تظاهرا . . . أي أن في كلٍ منهما سحراً ، وهما متشابهان في هذا السحر ، ويتعاونان

---

(١) القصص : ٤٨ و ٤٩ .

فيه على سلب الناس عقولهم ! . . ولم يكتفوا بدعوة السحر الكاذبة تلك ، بل ﴿ وقالوا : إنا بكل كافرون ﴾ . . إنا ، بكلٍ من موسى ومحمد ، وبكل من التوراة والقرآن ، كافرون ، فلا نؤمن ببعثهما نبيَّين ، ولا نؤمن بتنزيلهما كتابَين من الله . .

وكما كفر اليهود بالتوراة وبالقرآن فقد فعل مثلهم المشركون من عرب الجاهلية . فقد بعثَ زعماء قريش وفداً منهم إلى أحبار اليهود في يثرب ، يستفتونهم في خبر محمد (ﷺ) وصدق رسالته ، وذلك من خلال ما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة . . فأخبروهم بالدلائل والصفات التي أشارت إليها التوراة في بعثه . فلما رجع ذلك الوفد إلى قريش وأخبروهم بقول اليهود ، ثم وجدوا أن كل الدلائل والصفات التي أخبروهم بها تشير إلى بعث محمد (ﷺ) ، أنكروا ذلك وقالوا : إن التوراة والقرآن سحران تظاهرا ، وتوافقا فيما بينهما على الأدلة التي يحتويانها . . وهذا هو المراء بل والمراوغة التي ليس فيها شيء من طلب الحق ، رغم أن كلاًّ من الكتابين قد حفل بالأدلة والبراهين القاطعة التي لا مجال لإنكارها ، إلاَّ عن طريق الكفر بها . . .

ومع ذلك فالقرآن الكريم ، يسير مع الكافرين والمشركين ، خطوة أخرى في الإفحام والإحراج . وذلك عندما يبين لنا بأنَّ اللَّهَ تعالى أمر نبيه محمداً (ﷺ) بأن يقول لهم : إن كنتم لا تصدقون بالقرآن ، ولا تصدقون بالتوراة ، فأتوا بكتاب منزّلٍ من عند الله تعالى يكون أهدى من هذين الكتابين ، فأتّبعه إن كنتم صادقين في دعواكم ببطلان هذين الكتابين ! . . . وهذا اشتراط لم يكونوا يتوقعونه وهو مستحيل التحقيق عليهم ، لأنه من أين لهم بأن يأتوا

بكتاب من عند الله تبارك وتعالى، وهم المشركون به، الذين يستنكفون عن الحق ويأبون الهداية ، ويصرّون على تكذيب كتب الله سبحانه ، وتكذيب أنبيائه ؟ بل من أين لهم بأن يأتوا بكتاب أهدى من هذا القرآن المجيد الذي لا ريب فيه هدى للمتقين ؟ ! .

٦ ـ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء

يقول تبارك وتعالى :

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]

يروى أن اثني عشر رجلاً من أحبار اليهود في خيبر وقرى عرينة تواطأوا على أن يدخلوا في الإسلام ظاهرياً ، ويحضروا اجتماعات المسلمين في وضح النهار ، ثم يرتدوا آخره ، ويقولوا : «لقد دخلنا في الإسلام ، وعرفنا ما فيه ، ثم نظرنا في كتبنا ، وشاورنا علماءنا ، فوجدنا أن محمداً ليس بنبيٍّ ، وظهر لنا أنه كاذب ، ودينه باطل . . . فلئن فعلنا ذلك فقد يساور الشك أصحابَ محمدٍ ، ويقولون عنا إننا أهل كتاب وعندنا علم أكثر منهم . . وربما يؤثر ذلك عليهم ، فيرجعون عن دينهم ، ويلوذون بنا ، بل ربما يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك ! » . . .

(١) آل عمران : ٧٢ و ٧٣ .

تلك كانت واحدة من الدسائس الخبيثة التي ابتدعها اليهود ليصرفوا الناس عن الإسلام ونبيّه . .

وتلك الطائفة من اليهود كانوا يوصون بعضهم ويقولون : لا تؤمنوا ، ولا تركنوا إلّا لمن اتبع ديانتكم اليهودية ، ولا تصدّقوا إلّا من كان على هذه الديانة وقام بشعائرها . .

ويبين الوحيُ الإلٰهي للنبي (ﷺ) هذه المؤامرة الخبيثة من بني يهود ، ثم يوجهُهُ ربُّهُ إلى الحق الذي يجبههم به ، فيقول له : قل لهم يا محمد إن الهدى إلى الدين الحق هو هدى الله تعالى ، فلا تجحدوا أيها اليهود ، ولا تنكروا على أحد من غيركم بأن يؤتى مثل الذي أوتيه أنبياؤكم ، ولا تتعجبوا إذا حاجَّكم المؤمنون وغلبوكم عند ربكم يوم القيامة ، إن لم تقبلوا منهم الدعوة الصادقة التي يدعونكم إليها في دار الدنيا .

ويدعم هذا الاتجاه ما قاله الضحاك وهو أن اليهود قالوا: «إنا نحاجّ عند ربنا من خالفنا في ديننا ، فبين الله تعالى أنهم هم المغلوبون الذين لا حجة دامغة لهم ؛ وأن المؤمنين هم الغالبون وذوو الحجة الدامغة والحق الصريح » .

وتقدير قوله تعالى : ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ هو أن النبوة والهداية ، وسائر نِعم الدنيا والآخرة إنما هي من الله تعالى الذي لا ينازعه أحد في ملكه ، والقادر على أن يتفضل بعطائه على من يشاء ويعلم أنه جديرٌ بحمله ، وهو واسع الرحمة ، جواد ، عالم بمصالح الخلق ، عليم حيث يجعل رسالته . .

ويستوقف قولُ الله تعالى هنا كل مفكر ليدرك كم هي كبيرة الدسائس التي تحاك على الإسلام وعلى المسلمين . . . وهذه الدسائس ما تزال قائمة ومستمرة ، ولا يعلم إلَّا الله سبحانه مدى التآمر والمكائد على هذا الدين وأتباعه . فخلال القرون المتطاولة دسّوا في التراث الإسلامي ما لا سبيل إلى كشفه إلا بجهد القرون ؛ وألبسوا الحق بالباطل في هذا التراث كله ، اللَّهم إلا هذا القرآن المجيد الذي تكفل الله بحفظه أبد الآبدين ، والحمد لله على فضله العظيم .

لقد دسّوا وحرفوا في التاريخ الإسلامي وغيروا في أحداثه وما هم عليه رجاله . ووضعوا وعبثوا في الحديث النبوي حتى قيّض الله له رجالاً حققوه ، وحرروه ، إلَّا ما ندَّ عن الجهد الإنساني المحدود .

ودسوا أيضاً في التفسير القرآني حتى تركوه تيهاً لا يكاد الباحث يفيء فيه إلى معالم الطريق . وشوهوا سير الأبطال من الرجال أيضاً ، فالمئات والألوف كانوا يدسُّون على التراث الإسلامي ، وما يزالون في صورة المستشرقين أو تلامذتهم حيث يشغلون مناصب القيادة الفكرية اليوم في البلاد التي يقول أهلها إنهم مسلمون ، مع أن العديد من الشخصيات المفروضة على الأمة الاسلامية - في صورة أبطال - مصنوعون على عين الصهيونية والصليبية ، ليؤدوا لأعداء الاسلام الخدمات التي لا يملك تأديتها الأعداء الظاهرون . . ثم ما يزال هذا الكيد إلى يومنا هذا قائماً ومطرداً . وما تزال مثابة الأمان والنجاة منه هي : التمسك بهذا القرآن المحفوظ ، والعودة إليه لاستشارته في المعركة الناشبة طوال هذه القرون . من هنا نرى أن القرآن الكريم يعرض لنا بعض المحاولات التي كان يبذلها فريق من أهل الكتاب

لبلبلة الجماعة الاسلامية في دينها لردها عن الهدى ، من خلال ذلك الطريق الماكر الذي يظهره قول الله تعالى : ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب ﴾ إلى آخر الآية . . وهي الطريق نفسها التي كان يتبعها أسلافهم عبر القرون لإضعاف المسلمين ، والنيل منهم . .

٧ ـ شهادة عبدالله بن سلام على أن القرآن من عند الله تعالى

قال الله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(١)

يخاطب اللَّهُ سبحانه نبيَّه محمداً (ﷺ) بأن يقول لليهود : أخبروني أيها اليهود كيف تكون حالكم إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به ؟ وماذا تبتغون بعد هذا الكفر ؟ ! . .

وإذا كان أحد بني إسرائيل شهد على أنه من عند الله ، بعد أن عرف الحق وصدَّق به وآمن وكان الشاهد عليكم ، فَلِمَ تستكبرون أيها اليهود عن الإيمان بالقرآن وتظلمون أنفسكم والله لا يهدي القوم الظالمين ؟

وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت هذه الآية في عبدالله بن سلام فهو الشاهد من بني اسرائيل الذي آمن . وأخرج ابن جرير عن عبدالله بن سلام قال : « نزلت فيَّ » . .

---

(١) الأحقاف : ١٠ .

المكذبون بآيات الله تعالى

المكذبون بآيات الله تعالى

١ ـ مثل الذين كذبوا بآيات الله كمثل الكلب

يقول الله تعالى :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١) .

إن أسمى مراتب الفكر الإنساني العلم ، وأسمى مراتب العلم ما دُعيَ به إلى الله سبحانه لأنه هو العلم النافع حقاً . ولو عرف أهل العلم جميعاً هذه الحقيقة ، لما كانوا استخدموا علمهم للضرر بالإنسان حتى صار العلم مسخَّراً للأهواء والمصالح . . نعم لقد فضَّل اللَّهُ

---

(١) الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٧ .

تعالى العلماء ، حتى قيل ﴿ العلماء ورثة الأنبياء ﴾ ؛ وما كان أول توجيه لأبينا آدم من ربه تعالى إلاَّ تعليمه ﴿ وعلَّم آدم الأسماء كلها ﴾ . . وما كان توجيهه سبحانه وتعالى لخاتم النبيين، وفور نزول الوحي عليه إلاَّ تعليمه : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ . .

ولكن ، ومع هذا الفضل العظيم للعلم ، فإنّ عالماً من العلماء ، قد تغرُّه الحياة الدنيا ، فيتخلى عن العطاء الذي مَنَّ اللَّهُ تعالى عليه به ، ويترك منهج ربه ، ليسير لاهثاً وراء أهوائه ورغباته .

وها هو الوحي يتنزّل على الرسول الكريم ، ويوجهه لأن يتلو على المشركين ، وعلى الناس أجمعين ، خَبَرَ مَنْ آتاه الله سبحانه علماً ومعرفة، عرف بهما آياتِ الله العظيمة ، إلاَّ أنه ويا للأسف انسلخ منها أي انتزع نفسَهُ منها انتزاعاً ، حتى لم يعد منها شيء في عقله وقلبه ، كما تنسلخ الحية من جلدها ، وتخلفه وراءها فكأنه ليس منها . وقد قيل إن الذي تُخبر عنه الآية الكريمة ، كان بلعم بن باعوراء ، أحد علماء بني إسرائيل ، الذي آتاه ربُّهُ آياته فكفر بها ، وذلك عندما سئل أن يدعو على نبيّ الله موسى (ع) مقابل بعض المال ، فبدل أن يتصدَّى للكفار ، ويدافع عن نبي من أنبياء الله تعالى ، وهو صاحب العلم والمعرفة ، إذا به يغُرُّه المالُ ، وتستهويه الدنيا، فيتخلى عن مزاياه الرفيعة ، ويتخلّى عن إيمانه ، ليهبط إلى أوضار الدنيا ، ويغرق في أوحال الكفر . . وما فعل بلعم بن باعوراء ذلك ، إلاَّ بهمز الشيطان ، الذي اتّبعه ، واستحوذ عليه بإغوائه ، فانصاع إلى غوايته ، فصار من الغاوين ، الفاسدين المفسدين ، والضالين المضلّلين . .

ويبيّن اللَّهُ تعالى لنبيه محمدٍ (ﷺ) حكمه في ذلك الغاوي ، المفسد ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ أي لو شاءَ اللَّهُ تعالى لرفعهُ بآياته إلى أعلى درجات الطاعة والهداية ، والمقام ، ولكنه آثر الكفر على الإيمان ، وفضل الحياة الدنيا على الآخرة ، وأراد هذه الأرض بمتاعها حتى سيطرت عليه أهواؤه الوضيعة ، فمثله في ذلك كمثل الكلب إن تطارده يخاف منك ويهرب وهو يلهث ، وإن تتركه يظل يلهث ؛ وما هذا اللهث ، الذي اختص به الكلب ، من دون غيره من الحيوان ، إلَّا ليسدّ حاجة فيه ، تجعله دائماً في تأزم وانفعال يظهران باللهث . . يقول صاحب تفسير المنار : « اللهث هو النفس الشديد مع إخراج اللسان ، ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء والعطش . وأما الكلب فيلهث في كل حال ، سواء أصابه ذلك أم لم يصبه ، وسواء حملت عليه تهدده بالضرب أم تتركه آمناً وادعاً » . وقد أثبت علم الطب أن الكلب لا توجد فيه غدد عرقية إلا القليل في باطن أقدامه ، والتي لا تفرز من العَرقِ ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه ، ولذلك فإنه يستعين عن نقص وسائل تنظيم الحرارة باللهث ، وهو ازدياد عدد مرات تنفّسه زيادة كبيرة عن الحالة العادية مع تعريض مساحة أكبر من داخل الجهاز التنفسي كاللسان والسطح الخارجي من فمه . .

هذه بعض خصائص الكلب ؛ ومن أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه من بني البشر ، تنطبق عليه هذه الخصائص بنواحيها المادية والمعنوية ، لأنه يعيش في همٍّ دائم ، لصغائر الأمور وعظائمها ؛ فهو تحت وطأة الإعياء والتعب والقلق ، صغير الهمة ، حقير الدأب ،

سيء المزاج ، لا يرضى بما يصيب من أطماعٍ وشهوات ، بل يطمع بالاستزادة ، وكلما أصاب سعة ، أو قضى أرباً ، كلما زاد طمعاً وتعباً :

فما قضى أحد منها لبانته ولا انتهى أرب إلاَّ إلى أَرَبِ .

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾ . ذلك هو الأمر الغريب ، والبعيد الشأو:أن يكون أحد من بني البشر على هذه الصفات الذميمة . وهو مثل القوم الذين لم يصدقوا بآيات الله تعالى ، ولم يؤمنوا بها ، وذلك لظنهم بأنها تسلبهم متاع الحياة الدنيا ، وتحط من قدر معتقداتهم التي أَلْفَوْا عليها آباءهم ، ثم لم يحاولوا أن ينظروا في تلك الآيات نظرة تبصّر واستدلال ، حتى يروا ما تنطوي عليه ؛ بل بادروا إلى تكذيبها ، لأنهم لم يروا فيها إلاَّ ما هو ضد المطامع والأهواء والشهوات . . وهذا طبعاً لا يعيب آيات الله تعالى ، وإنما يعيب أصحابَ تلك المطامع والأهواء والشهوات الذين خالفوا الفطرة التي فطرهم اللَّهُ تعالى عليها ، ولم يستعملوها فيما يرفعهم درجاتٍ في العلم والعمل ، بل سلكوا عكس تلك الفطرة فاستعملوا جوارحهم وحواسهم للشر والباطل حتَّى أوقعوا أنفسهم بمعصية التكذيب .

﴿ فاقصص القصص لعلَّهم يتفكرون ﴾ ، فاقصص وتحدثْ أيها الرسول البشير النذير بأخبار هؤلاء القوم المكذبين بآيات الله تعالى وبما يشبههم به رب العالمين ، علَّهم يخجلون من وصف ربهم لهم ، وعلَّهم يرتدعون عن تكذيبهم ، بما يحملهم على التأمل ، والتفكير للخروج من حالتهم السيئة المزرية ، فيؤمنوا بآيات الله تعالى

ويتدبروها تدبّر المفكّر العاقل البصير ، لا تدبّر الهوى والتكذيب . .

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآيات الله وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ . . نعم إن ذلك المثل السيّء ، وهو التشبيه بالكلب ، هو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، وهو مثل سيّء لأنه يدلُّ على ما ارتكبوا من جرم قبيح حتى أوقعوا أنفسهم بالظلم ، وليس أقسى ظلماً من ظلم الإنسان لنفسه ، فاللَّهُ تعالى ، عندما ضربَ بهم ذلك المثل ، ما ظلمهم ، وإنما كانوا أنفسهم يظلمون . .

٢ - نوحُ (ع) بشر مثل بني قومه

يقول الله تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ [١] .

بعد أن أورد الذكر الحكيم في سورة هود الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، وإعطاء الأمثال للتوضيح والتبيين ، أعقبه مباشرة بذكر قصة نوح (ع) مع قومه ، فقال سبحانه وتعالى :

---

(١) هود : ٢٥ - ٢٨ .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . إني لكم نـذير مبين ﴾ . ملخصاً معنى الرسالة وهدفها بكلمات معدودات وهو أن النبيَّ المرسل يكـون مبشراً ونذيراً مبيناً ؛ والتعبير القرآني يجعل المشهد الذي يقابل فيـه نوح (ع) قومه وكأنه واقعة حاضرة ، لا حكاية ماضية . فكأنما هو يقـول للناس الآن : إن أي رسالة سماوية تنذركم بالوعيد وتبشركم بالوعد ، تبـين لكم الـطريق المستقيم ، وتنهاكم عن الـطريق الأعوج ، فـاتبعـوا أيهـا النـاس مـا يقـودكم إليـه العقـل الـواعي ، وابتعـدوا عن الأهـواء الضالة . . فهذا التعبير إذن يلخص وظيفة الرسـالة كلهـا ، ويترجمهـا إلى حقيقة واحدة : ﴿ إني لكم نذير مبين ﴾ يعني أن في الرسالة دعـوةً للتوحيد بألا يعبد الناسُ إلاَّ اللَّهَ تعالى الـواحد الأحـد ، لأنه وحَـدَه ـ سبحانه ـ يتمتع بصفات الألوهية والربوبية والوحدانية والخلق والـرزق والتقدير . . . فإن لم يفعلوا ، فإنه يخاف عليهم من عذاب يوم القيامة الأليم ، حيث يلاقي كل واحد نتيجة الشـرك والكفر ، وعـاقبة عـدم تصديق النبيِّين . .

لقد أنذر نوح (ع) قومَهُ ، ودعاهم إلى الحق . ولكنَّ المـلأ من قـومه ـ وهم سـادتهم وأشرافهم ـ أصـرُّوا عـلى الكفـر ، وعـدم تلبيـة الدعوة للإيمان وقالوا له : ﴿ ما نراك إلاَّ بشراً مثلنـا ﴾ . وفي ظنهم أن الـرسول إنمـا يكون من غـير البشر ، ولم يعلمـوا أن البعثـة من الجنس الـواحد تكـون لمن هو من جنسهـا أصلح ، ومن الشبهـة عنهم تكـون أبعـد . . . ثم أردفـوا قـائلين : ﴿ ومـا نـراك اتبعـك إلاَّ الـذين هم أراذلنا ﴾ أي لم يتبعك يـا نوح إلاَّ الـذين هم أخسَّاؤ نـا ، أو أصحاب الوضاعة فينا ، وهم الذين لا مال لهم ولا جاه . وقد اتَّبعـوك ﴿ بادي الرأي ﴾ لمجرد أن بدأت في نشر رسالتك دون أن يتفكـروا وينظروا في

أمر هذه الرسالة ، ولو فكروا قليلاً ما اتَّبعوك .

﴿ وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ ، وفي اعتقادهم أن أصحابَ الفضل هم الذين يكونون ذوي مالٍ ومنزلة وشرف في قومهم ، بصرف النظر عن معتقداتهم ، وعن كوامن نفوسهم ، وما قد تحمل من النوازع والأهواء . . وتلك هي عادة أصحاب الدنيا ، يستحقرون أصحاب الإيمان ، ويكذبونهم ويتهمونهم بصفاتٍ دنيوية حقيرة ، في حين أن المؤمنين هم الأكرمون عند الله تعالى ، وأصحاب الفضل العظيم . .

قال لهم نوح (ع) : يا قوم ! أرأيتم إن آتانيَ اللَّهُ تعالى النبوة ، وهي رحمة لي ولكم لأنها تحمل خلاصكم من الكفر ، ونجاتكم من العذاب ، أفتعمى هذه الرحمة العظيمة عليكم حتى تنكروها عليَّ وتكذبوني أنا ومن اتبعني من المؤمنين ؟ لا يا قوم ! لا نلزمكم بها ، ولا نجبركم عليها ، فأنا ما بعثت لأكره قومي على الدخول في دين الله إكراهاً ، وما أمرت بذلك ، بل ولا نلزمكم بها وأنتم لها كارهون . .

٣ ـ موج الطوفان كالجبال

يقول الله تعالى :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾[1] .

---

(١) هود : ٤٣ .

تلك هي حكاية نوح (ع) مع ابنه ، وهي حكاية الكافرين الذين لم يصدقوا بآيات الله . فالآية الكريمة تصف سفينة نوحٍ وهي تجري فوق مياه الطوفان الذي غطّى وجه الأرض ، فامتلأت به لكثرته حتى صار كالجبال المرتفعة ، يلاطم بعضه بعضاً ، ويزداد في ارتفاعه حتى يغطي كل عالٍ ومرتفع .

وها نحن بعد هذا الوصف أمام مشهد إنساني مروّع . فهناك أبٌ ملهوف على ولده ، وهو نوح عليه السلام . ينادي ذلك الابن، الذي يرفض أن يصعد إلى سفينة النجاة ، وقد وقف على ناحيةٍ، لم يكن الماء قد وصل إليها بعد . . ويقول له : يا بني إركب معنا ، نحن المؤمنين الذي صدَّقنا آيات الله ، وصعدنا إلى السفينة التي فيها خلاصنا . . يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين الذين لم يصدقوا بأن الطوفان سيغمر الأرض ويغرق الكافرين . .

ويظن الابن أن المياه لن ترتفع إلى مستوى الجبال فيقول لأبيه : سآوي إلى جبل يعصمني من هذه المياه ، وينجيني من الغرق . .

ولكن الأب يقول له : لا يا بني ، لا تتوهم ذلك . فلا عاصم اليوم من أمر الله ، ولا رادَّ لحكمه ، لا ، لن ينجو أحد من الهلاك ، إلَّا من رحمه اللَّهُ تعالى وأراد له النجاة ، فلا جبال تغني ، ولا أرض تنفع . وما يُغني إلَّا الإيمان بالله ، وتصديق رسوله . فآمن يا بنيَّ ، وأسرع إلى السفينة ، يرحمك الله تعالى وينجيك . .

وارتفع الموجُ ، وغطّى الأرض وجبالها . وغابَ ابن نوح عن ناظري أبيه بعد أن حال الموج بينهما ، فكان من المغرقين . وها نحن بعد آلاف السنين ، نمسك أنفاسنا ـ ونحْن نتابع السياق ـ والهول

يأخذنا كأننا نرى المشهد أمامنا . فالسفينة تجري بهم في موج كالجبال . ونوح (ع) الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النـداء . وابنه المغـرور ، الكـافر ، يـأبى إجابـة الدعـاء . والموج الغـامر يحسم المـوقف بسرعـة خاطفة راجفة ؛ وينتهي كل شيء ، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب .

٤ ـ وصف الريح المرسلة على قوم عاد

يقول الله تعالى :

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾[1] .

قوم عادٍ من الأقوام الذين تعنّتـوا ، وأصرُّوا عـلى الكفر ، رغم دعـوة نبيهم لهم ، ومحاولاتـه المضنية لـردّهم عن ذلك الكفـر ، فلما لم تنفع معهم دعوة الرسول، حقَّ عليهم العذاب ، فأرسل سبحانه وتعالى عليهم ريحاً عاتيـة ، وصفها القـرآن الكريم بـ ﴿ العقيم ﴾ أي التي لا خير فيها ، لأنها لا تحمل مطراً ، ولا تلقّح شجراً ، ولا تـذري حبّاً ، ولا تنفع بشيء ، فهي كالمرأة العاقـر ، الميؤوس من ولادتها . . وتلك الريحُ ما تذر من شيء تمـرُّ عليه إلا وأتلفتـه وأهلكته ، حتى يستحيـل بالياً ، مفتتاً ، مثله كمثل نبات الأرض اليابس ، إذا ديس بالأرجل ؛ أو كمثـل العظم الـرميم الذي يفت بـالأصابـع ؛ وفي سورة الحـاقة ، يصف القـرآن الكريم ، تلك الـريح التي أرسلت عـلى عـادٍ ، بقـولـه تعالى :

---

(١) الذاريات : ٤١ ـ ٤٢ .

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (١) .

فهي إذن ريحٌ صرصر، عاتية، قوية، شديدة الصوت. أو هي كالصرير المؤذي لتجاوزها حدَّها المألوف ، وقد عصفت تلك الريح بقوم عادٍ ، الذين كانوا يدّعون القوة والبأس عصفاً قاتلاً ، بحيث لم يكن لهم قدرة على احتماله . وقد قهرهم اللَّهُ تعالى بها ، لمدة سبع ليال وثمانية أيام متواصلة متتابعة ، كما يتواصل وضع الكيِّ الحاسم الذي يكوى به الداء ، مرة بعد أخرى ، حتى ينحسم . . وقد أرسلها تعالى تحسم أمرهم باستئصالها لهم من هذه الدنيا ، فلا يبقى منهم أحد . . ويُخبر سبحانه أنَّ فعل تلك الريح بهم كان قوياً بحيث يرى الواحد القوم فيها صرعى ، مطروحين ، هالكين ، وكأنهم أصولُ أو جذوعُ نخلٍ هوى وسقط بعد أن صار نخراً بالياً .

ويتأكد هذا المشهد لقوم عاد في سورة « القمر » من القرآن الكريم ، بقوله تعالى :

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (٢) .

كذبت قبائل عادٍ نبيَّهم هوداً عليه السلام ، فكيف كان عذاب

---

(١) الحاقة : ٦ و ٧ .

(٢) القمر : ١٨ ـ ٢٠ .

الله الذي أنذرهم به رسولُهُ ؟

يبيّن الله تعالى أنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس وشؤم، استمرَّ مدة سبع ليال وثمانية أيام . .

وفي هذه السورة المباركة ، يُنبىء تعالى أن الريح انتزعتهم ، من الحفر التي حفروها في الأرض ، واختبأوا فيها ، ثم قذفتهم إلى البعيد حتى باتوا كأصول نخل منقعر ، منقطع ، ساقط على الأرض أو مقلوعٍ من قعره . . وشبهوا بالنخل لطولهم . وقد (ذكَّر) النخل هنا في سورة القمر و (أنَّثه) في سورة الحاقة ﴿ نخل خاوية ﴾ مراعاة للفواصل في الموضعين . وللتدليل على أن الموتَ قد صرعهم جميعاً ذكوراً وإناثاً . .

المشهد مفزع مخيف ، وعاصف عنيف . والريح التي أرسلت هي من جند الله تعالى ، وقوة من قوى هذا الكون الذي خلقه سبحانه ؛ فهي تسير وفق الناموس الكوني الذي اختاره الخالق ، فيسلطها على من يشاء لتؤدي ما تؤمر به ، وفق مشيئته السنية ، لأنه تعالى صاحب الأمر ، وصاحب الناموس .

٥ ـ ثمود والصيحة التي أفنتهم

يقول اللَّهُ تعالى :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى
ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾
سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ

﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾
فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ (١) .

كانت ثمود خليفة لعادٍ في القوة والتمكين في جزيرة العرب . أي أنه سبحانه خصَّ قوم ثمود ، كما خصَّ من قبل قوم عادٍ ، بالقوة والبأس وطول القامة . . ولكنهم بدل أن يؤمنوا ، ويشكروا اللَّهَ تعالى على النعم التي أفاضها عليهم ، أوغلوا في الكفر ، وكذبوا رسولهم صالحاً (ع) بما أنذرهم به من الوعد والوعيد . وقد كان تكذيبهم له ، عندما أنكروا عليه أن يكون نبياً ، بشراً مثلهم ، وواحداً فقط يحمل عبء الرسالة بما فيها من الهداية والإنذار ، ولذلك قالوا : أنتَّبع صالحاً ، وهو واحد من القوم الذين لا ملك لهم ، ولا مال ولا سلطان ؟ إنّا ، إن اتّبعناه لفي ضلال وجنون . . وهل صحيح أنه أنزل عليه الوحي من بيننا كلنا ؟ لا ! لا نصدقه ! بل هو كاذب في ادعائه النبوَّة ، وهو أشر ، متكبر ، يريد أن يتعاظم علينا بادِّعاء تلك النبوة .

تلك كانت تصورات قوم ثمود ، التي دفعتهم إلى تساؤلاتهم الاستنكارية الجاحدة . . فقد اشتبهوا في حقيقة التكليف ، وتوهموا أن الوحيَ لا ينزل على واحد من أبناء البشر ، بل يقتضي أن تحمله جماعة من الأشخاص . ولذلك لم يصدقوا صالحاً (ع) وكذبوا بآيات الله تعالى التي كان يبلّغهم إياها . .

---

(١) القمر : ٢٣ ـ ٣١ .

وطبعاً لقد سيطر عليهم ذلك الاعتقاد الخاطىء لأنهم لم يدركوا أنَّ الرسالة لا يصلح لحملها إلا من اختارَهُ رب العالمين لها ، وليست القضية قضية عدد بل القضية حقيقة اختيار الله تعالى ، لأنه أعلم حيث يضع رسالته ، ومن يقدر على تحمل أعبائها ، بصدق وأمانة ، وطهارة قلبٍ ، وصفاء سريرة ، وقوة عزيمة .

وبما أنَّهم اتهموا رسولهم بأنه كذاب أشر ، فقد توعدهم الله تعالى بأنهم سيعلمون قريباً من هو الكذاب الأشر ، هل هو صالح ، أم هم في تصوراتهم ومعتقداتهم الخاطئة ؟ ! . . .

ويريد اللَّهُ تعالى أن يقيم عليهم الحجة ، فأوحى إلى نبيّه صالحٍ (ع) بأنه سيرسل ناقةً سيطلبونها منه كمعجزة ، ومن الصخرة التي يطلبون أن تخرج منها بالذات؛ وأعلمه أنها ستكون محنةً لهم ، إن هم لم يقرّوا بصدقه بعدها ، ولم يطيعوا أمر الله تعالى فيها ؛ ولذلك قال له ربه : ﴿ فارتقبهم واصطبر ﴾ . . أي فارقب أعمالهم ، وما هم صانعون ، واصبر على أذاهم حتى يحين أمر الله تعالى . . .

ثم أمَرَهُ ربه بأن ينبئهم أن الماء الذي يشربون منه ، ويستعملونه في حياتهم اليومية ، يجب أن يقسم فيما بينهم وبين الناقة ؛ فيوم لها ، ويوم لهم ؛ ولا يجوز أن يرد على الماء ولا أن يحضر إليه ، إلاَّ من كان من نصيبه في يومه . . وقد عوَّضهم سبحانه وتعالى عن الماء في يوم الناقة بأن يحلبوها وينتفعوا بحليبها . . . ولكنَّ قوم ثمود لم تعجبهم هذه القسمة ، ورفضوا التسليم بحكم الله تعالى ؛ بل عملوا بنقيض هذا الحكم ، عندما دبّروا مكيدةً لقتل الناقة ، فنادوا شريراً منهم اختاروه من بين فتيانهم الطائشين، وكان يدعى

« قداراً » ، وأوكلوا إليه المهمة التي انتدبوه لها ؛ فذهب ذاك الغرّيـر ، وملأ جوفـه بالخمـرة ، ثم شحذ سيفـه ، وقصد النـاقة فعقـرها ، ثم ذبحها ، كما طلبوا منه أن يفعل . .

لقد نفّذ قوم ثمود مكيدتهم ، في الآية المعجـزة التي صنعها اللَّهُ تعالى لإقناعهم ، بعد أن أنذرهم بعاقبة عـدم الاستيقان بهـا ، فكيف كان عذابه تعالى لهم عقب ذلـك الانذار ؟ لقـد أرسل عليهم مـلائكة مـأمورين ، وقيـل أنزل جبـرائيل الأمـين (ع) ، ففـاجـأهم بصيحـة واحـدة جعلتهم كالشجـر اليـابس المهشَّم . . و ﴿ المحتـظر ﴾ هـو مـا يوضع من أغصـان وأشواك حـول حظيـرة الغنم ليحميها من الـذئاب والسبـاع ، فإذا يبس ، وديس صـار هشيماً محـطماً . . هكذا صـار قوم ثمود من صيحةٍ واحـدةٍ أرسلها عليهم اللَّهُ العـلي القديـر ، فأخـذتهم تلك الصيحة أخذاً وبيلاً ، وتركتهم صرعى محطمين .

٦ ـ هلاك قوم شعيب (ع)

يقول اللَّهُ تعالى على لسان نبيه شعيب (ع) :

﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ (١) .

لقد أرسل اللَّهُ تعالى إلى مدين أخاهم شعيباً (ع) يـدعوهم إلى عبادة الله الذي لا إلّه غيره ، ويعِظهم بأن يتخلوا عن عـاداتهم السيئة وألّا يبخسوا النـاس حقوقهم ، بـل يكونـوا مستقيمين في معـامـلاتهم

(١) هود : ٨٩ .

وتجاراتهم، غير منقصين للكيل والميزان؛ وأمَرَهُمْ أنْ لا يفسدوا في الأرض بعد ذلك بالقتل أو بغيره من الشرور والآثام . . . ذلك أن أهل مدين كانوا يعيشون على مقربة من الأردن ، وكان معظمهم يعمل على ارشاد القوافل التجارية التي تعبر منطقتهم في تنقلاتها ما بين الشام ومصر واليمن والحجاز ؛ مما جعلهم يتحكمون، مع الوقت، بتصريف البضائع والسلع التي تحملها تلك القوافل ، وفقاً لمصالحهم . . وبدل أن يحافظوا على أصول الحماية والأمانة ، كانوا في ذلك التصرف يبخسون الأثمان ويطففون الكيل وينقصون الوزن . . بل راحوا ، فيما بعد ، يقطعون الطرق ، ويسطون على القوافل ، فيسلبون أحمالها ويقتلون رجالها ، حتى عاثوا في الأرض فساداً . . فأراد شعيب (ع) أن يردهم عن تلك الفعال السيئة ، وأن يردعهم عن تلك العادات الذميمة ، ليعيدهم إلى اتباع الحق ، والتعامل بالمعروف ، عن طريق الدين الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر ؛ ولكنهم لم يسمعوا له ، ورفضوا رفضاً قاطعاً أن يتركوا عاداتهم القبيحة المحرَّمة ؛ بل كانوا يستهزئون به ، ويقولون له : أصلاتك تأمرك بأن نتخلَّى عما كان يعبد آباؤ نا ؟ أإيمانك يحملك على أن تأمرنا بأن لا نفعل بأموالنا ما نشاء ؟ ! . . .

لقد كذبوه ، وأرادوا تحقيره . . ولكنه ألقى عليهم الحجة وذكَّرهم بما أصاب الأمم التي سبقتهم ، فقال لهم : يا قوم ! لا تكسبكم مخالفة دعوتي شيئاً ، ولا تفيدكم معارضة نصحي وإرشادي لكم أمراً ، فإني إن خالفتموني وعارضتموني ، أخاف أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوحٍ من الغرق بالطوفان ، وقوم هودٍ من الإهلاك بالريح العقيم ،وقوم صالحٍ من الابتلاء بالرجفة ،وقوم لوطٍ من

الفناء بقلب أعالي ديارهم إلى أسافلها ، وها هي ذي منازل قوم لوطٍ بقربكم ، وهلاكهم ليس ببعيد في الزمن عنكم . . إنَّ في عذاب أولئك الأقوام الذين سبقوكم عظات بيّنات ، فلا يصيبنَّكم ما أصابهم من العذاب ! . . . فأبوا واستكبروا ، فحلَّ بهم عذاب يوم الظلَّة الذي ذكره سبحانه وتعالى بقوله الكريم :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾
وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا
إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾
قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(١) .

أي فأخذهم عذاب الله الأليم ، عذابُ يوم الظلة ، عندما سلَّط عليهم يوماً حارّاً ، لا يطيقونه لشدة حرارته ، ثم بعثَ من فوقهم سحابةً كبيرة ، نشرت الظلَّ الواسع ، فأسرعوا إليه ليتظلّلوا احتماءً من شدة الحرارة . . ولكنهم ما أن اجتمعوا حتى راحت تلك

---

(١) الشعراء : ١٧٧ ـ ١٩٠ .

السحابة تُنزِلُ عليهم قطعاً من نارٍ محرقة ، فلا تترك قطعها أحداً إلاَّ أحرقته ، فكان عذابهم في ذلك اليوم ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ كما وصفه رب العالمين ، وإن في عذاب ذلك اليوم العظيم لآية تستدعي التأمل والتفكّر . .

٧ ـ فرعون الطاغية والنبي موسى (ع)

يقول الله تعالى :

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى(١) .

قصة موسى (ع) مع فرعون مصر المتربِّب ، قصة طويلة ، ولكنَّها أينما وردت في القرآن الكريم تصوّر حقيقة الدعوة للإيمان بألوهية الله تعالى وربوبيته سبحانه ، وتكذيب فرعون وملأه لتلك الدعوة وحاملها. وفي الآيتين الكريمتين يظهر عنادُ فرعون وطغيانه، إذ كيف يُقرُّ بما يدعوه إليه موسى (ع) ، وهو الذي تسلَّط على الناس بالقهر حتى وصل به الأمر أن قال لهم : أنا ربكم الأعلى ؟ ! .

لقد جاءه موسى (ع) بالبيّنات الصادقة ، فلم يجد حيلةً يوهم بها عقولَ الناس إلاَّ الادعاء أمامهم بأن موسى جاء ليخرجه وقومه من أرضهم بالسحر ، ولذلك قال له : ﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا

---

(١) طه : ٥٧ و ٥٨ .

بسحرك يا موسى ﴾ فتستولي أنت وبنو إسرائيل على ملك مصر وحكمها ؟ ولكن لا ، لن ندعك تفعل هذا ، فنحن قادرون على أن نأتيك بسحرٍ مثل سحرك ، بل يفوقه ويبين أنك ساحرٌ كاذب، وليس نبياً ـ كما تدّعي ـ مرسلاً من إلهك الذي تعبده. فاجعل لذلك موعداً ، نحضره ، وتحضره أنت ، ويكون في مكان يستوي فيه وجودنا ووجودك ، ويجتمع فيه الناسُ ليروا ما سوف يحلُّ بك وبسحرك !! . .

وإن في هذا النص القرآني ما يوحي بأنَّ فرعونَ كان مشوشاً في نفسه خائفاً من حقيقة ما جاء به موسى (ع) . ويظهر ذلك من خلال التفاوض الذي أجراه معه ، وترك الأمر له بأن يعيّن زمان ومكان الاجتماع الذي تجري فيه مباراة السحر ما بين موسى (ع) والسحرة الذين سيأتي بهم فرعون . وهذا مما يدل على أن المفاوضات حول القضايا الهامة كانت تحصل منذ القدم ، وأن تلك المفاوضات كانت تجري في اجتماعات تعقد في الزمان والمكان اللذين يتم الاتفاق عليهما ، أو اللذين يجري تحديدهما من قبل الأطراف المتنازعة . .

ولم يكن لتلك المفاوضات التي جرت ما بين موسى (ع) وفرعون وجهها الديني فقط ، بل كان لها وجهها السياسي أيضاً ، ويظهر في تصرفات فرعون مع بني اسرائيل ، في استعباده لهم ، وهو إجراء سياسي اتبعه فرعون خوفاً من تكاثرهم وغلبتهم . وفي الملك والحكم لا يتحرَّج الطغاة من ارتكاب أشدّ الجرائم وحشية ، وأشنعها بربرية ، وأبعدها عن كل معاني الإنسانية ؛ ومن ثمَّ كان فرعون يستأصل بني اسرائيل ويذلهم بقتل المواليد الذكور واستبقاء الإناث

أحياءً ، وتسخير الكبار في الشاق المهلك من الأعمال .

فلما قال له موسى وأخوه هارون : أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم . قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ لأن إطلاق بني إسرائيل بنظره هو تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض . ولذلك قال فرعون وقومه للناس وللسحرة الذين جمعهم : ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ (١) . .

ولكنَّ موسى (ع) حذَّر فرعون وقومه بألاَّ يفتروا على الله كذباً ، لأن كلَّ من كذب على الله تعالى وافترى على أنبيائه يكون خاسراً . .

وكان ما كان ، وجمع فرعون السحرة ، وأوصاهم ، وشدَّد عليهم ، بأن يأتوا كل ما يقدرون عليه من سحرٍ ليغلبوا موسى . ولكن السحرة ، انتهزوها فرصةً مناسبة ، فطلبوا من فرعون أن يجعل أجورهم عالية بغلبتهم على موسى وأخيه . . فوعدهم بجزيل العطاء وبعلوّ المنزلة والتكريم . . ولكن ماذا حصل في الحقيقة ؟ لقد رأى السحرة آية الله الكبرى بتحويل العصا الجامدة إلى كائن حي يلقف حبالهم التي ألقوها ، والسحر لا يمكن أن يحوِّل الأشياء إلى كائنات حية ، بل هي قدرة الله تعالى ، فآمن السحرة بالله رب العالمين . أما فرعون وملأه فأصرّوا على كفرهم ، فذكر الله تعالى كيف انتقم منهم ، وذلك في قوله جلَّ وعلا :

---

(١) طه : ٦٣ .

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ (١) .

وتلك كانت نهاية المطاف للظالم ولمن اتَّبعه على الضلال . لقد أخرج موسى (ع) بني اسرائيل من مصر في جوف الليل ، وما أن تناهى الخبر إلى فرعون ، حتى جمع جيشه وركب على رأسه يريد اللحاق بهم وقتلهم جميعاً . . ولكن اللّهَ تعالى أهلكه وجندَه جميعاً ، بإغراقهم في اليمّ . . وهذا ما يوجزه النص القرآني في الآيتين بإعجاز رائع في أداء التعبير ، ودلالة المعنى . إذ يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فلما آسفونا ﴾ أي أغضبونا . . ولكنَّ هذا الغضب الذي ينسبه النص القرآني إلى الله تعالى ، المقصود به غضب النبي موسى وأخيه هارون عليهما السلام . إذ في الحقيقة لا يستطيع مخلوق أن يغضب الله تعالى ، وإن كان يمكنه إغضاب مخلوق مثله . فإذا أنكر الكافرون دعوة الأنبياء والأولياء ، أغضبهم ذلك الإنكار ، فينتقم الله سبحانه من الكافرين الذين كذبوا أنبياءه وأولياءه ، لأنَّ في رضى الأنبياء والأولياء رضاه سبحانه ، وبغضبهم غضبه . من أجل ذلك يقول تعالى : ﴿ انتقمنا منهم ﴾ أي من فرعون وجنوده ، وذلك بإغراقهم جميعهم ، فلم ينجُ أحدٌ منهم من الموت غرقاً . فجعلهم الله تعالى بذلك الغرق عبرةً وموعظة ، ومثلاً يضرب بهم ، لمن جاء بعدهم ، فيعون ما حلَّ بهم ، فلا يتمثلون بحالهم ، ولا يقدمون على مثل فعالهم . .

---

(١) الزخرف : ٥٥ و ٥٦ .

٨ ـ طعام الكافرين في الآخرة من شجرة الزقوم

يقول الله تعالى :

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ
جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ
مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ
مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾
لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾
كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ
قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾
فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا
نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ
هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا
جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا
كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [١] .

هنا يقرر الله تعالى ما يفعله بالمجرمين ، الذين كفروا وكذبوا بآياته . ذلك أنهم كانوا إذا دعوا إلى دعوة الحق والتوحيد ، وقيل لهم ﴿لا إله إلاّ الله﴾ يستكبرون عن هذه الدعوة، ويتبرّمون، ويستخفون بمن يدعوهم إليها ، لأنهم لا يريدون التخلي عن الوثنية والشرك ؛ ولذلك كانوا بعد استكبارهم ، يقولون : أنترك آلهتنا وآلهة آبائنا ، لشاعرٍ مجنونٍ يسفّهها ويحطّمها ، ويعمل على استئصال عبادتها من حياتنا ؟ وهم كانوا يعنون به النبيَّ العظيم ، والرسول الكريم محمدَ بن عبدالله (ﷺ) ، فاتهموه بقول الشعر وبالجنون ! . . .

ذلك الاستكبار عن آيات الله تعالى ، وتلك الدعوة الكاذبة عن رسول الله (ﷺ) ، يردُّهما اللّهُ تعالى على أصحابهما ، ويدفع بهما عن الحق ، لأنهما باطلان ، فيقول عزَّ وعلا : ﴿ بل جاء بالحق وصدَّق المرسلين ﴾ . لا ، ليس محمد بكاذب ، ولا بمجنون أو شاعر ، بل هو نبيُّ الله ، وقد جاء بالحق من عند ربه يتلوه قرآناً عربياً مبيناً ، ليهتدي به الناسُ إلى الشريعة الحقة ، ويبتعدوا عن العقائد الباطلة . . نعم جاء بالحق وأمر المسلمين والمؤمنين بأن يقروا بحقيقة الأنبياء جميعاً الذين يذكرهم القرآن الكريم ، والذين توالوا في مختلف العصور ،

---

(١) الصافات : ٣٤ ـ ٧٤ .

منذ آدم عليه السلام حتى مبعث خاتم النبيين محمد (ﷺ) . . .

فإذا كان هذا هو الحق الذي جاء بـه محمد (ﷺ) ، وهـذا هو الذي صدَّق به المرسلين ، فهل يجوز تكذيبه واتهامه بدعاوى بـاطلة لا أسـاس لها من الصحـة ؟ من أجـل ذلـك كـان حكم الله تعـالى عـلى المجرمين ، بمـا يصفع وجـوههم ، ويقرِّر مصيـرهم في الآخرة ، وهـو يحمل عليهم بالتهديد والوعيد : ﴿ إنكم لذائقو العـذاب الأليم ﴾ . . لما كنتم تعملون في دنياكم . ﴿ إنا كذلك نفعل بـالمجرمـين ﴾ نعذبهم العذاب الأليم ، الذي يستحقونه على ما عملوا ؛ فعدالة الله تعـالى لا يهرب منها أحدٌ ، وهي ستطالهم ؛ وحسابُهُ سيكـون دقيقاً جـداً ، لأنه يحـاسب على مثقـال الذرة من عمـل الخير أو الشـر ، ولذلـك سيكون جزاء المجرمين المستكبرين ، على قدر فعالهم وأعمالهم من الشرور . .

وبعد هذا البيان لحال المجـرمين ، يعـود القرآن الكـريم ليصور حال المؤمنين من عباد الله المخلصين ، وما سينالون من الثواب في دار الخلود عـلى إخلاصهم في عبـادة الله الواحـد الأحد ، وطـاعـة أوامـره ونـواهيه سبحـانه ؛ فهؤلاء عن العـذاب مبعـدون ، ولهم رزق معلوم من رب العالمين ، فواكهُ من كل الطيبات التي لا عهد لأحدٍ بها في دنيا الأرض ، خصَّهم الله تعـالى وكـرَّمهم بهـا في عـيشـهم في جنـات النعيم ، حيث ينعمون في تقابلهم بوجوهٍ نـاصعةٍ مشـرقة ، وجلوسهم على سرر وأرائك ناعمة ، بالـراحة والسـلام ، والأمان ، والـرضى ، والطمأنينـة . . . ويزيـدهم الله تعالى من نعمـائه حيث يـطاف عليهم بكؤوس من خمر تملأ من معين أنهار جارية ، ظاهرة للعيان أمـامهم ، وتلك الخمـرة بيضاء اللون ، خـالصة الـرقة والصفـاء ، يتلذَّذ بها من

يشربها لـذةً عظيمـة ، إذ ليس فيها مـا يعتري خمـر الدنيـا من المـرارة والكراهة ، ولا فيها غوْلٌ مما يغتال العقول ويفقد الـوعيَ والصواب ، أو يسبب صداعاً في الرأس ، ووجعاً في البطن (يقال للوجع غول لأنه يؤدي إلى الهـلاك) . والشاربـون لتلك الخمـرة في الجنـة لا ينـزفـون عنها ، أي لا يسكرون ولا يتقيَّأون إن أكثروا منها لشدة لذتها . . وقيل إن في خمر الدنيا أربع شوائب: سكرٌ ، وصداع ، وقيء وكثرة بـول . . وهـذه لا تعتـري خمـر الآخـرة في شيء ، إذ أرادَهـا اللَّهُ تعـالى لـذةً للشاربين من المؤمنين ، كي تتوفر لهم جميع الأطايب والملذات . .

وفـوق هذا الـرزق العظيم الـذي ينعم به الله تعـالى عـلى أهـل الجنـة ، عنـدهم مـا يـزيـدهم مكـرمـةً ومنـزلـة . وهُنَّ زوجـات طاهرات ، قاصرات الطرف فقط على أزواجهن ، فـلا تحيد أنـظارهنَّ عنهم لـشـدة حبّـهن ، وإكـرامـهنَّ لهـم . . وهنَّ في نـفس الـوقت ﴿ عين ﴾ ، أي واسعات العيـون ، جميلات النـظر والمنظر ، يغلب في عيونهن جمالُ البياض والسواد على شدتهما . كأنهن في ذلـك الجمال ، والحشمـة ، بيضُ النعام ، وقـد سُترِ بـالريش فـلا يصل إليـه غبار أو ريح . ﴿ فالمكنـون هو المصـون ﴾ . وقد جـاءَ هذا التشبيـه لزوجـات المؤمنين ليدلَّ على مدى ما هنَّ عليه في الجمـال المصون من كـل عيبٍ أو شائبة . أي بما يتوافق مع الأنس والراحـة ، وبما يـدعو إلى التقـدير والاحترام . وكل ذلـك انسجامـاً مع حيـاة الجنة بمـا فيها من الـطهارة والعفـاف ، والسموّ والـرقيّ . . تلك هي حالُ عبـاد الله المخلصين ، وهم في جنات النعيم . . . وإنهم لعلى تلك الحال ، يقبل بعضهم على بعض ، يتسـاءلون عـما مرَّ بهم في الحيـاة الدنيـا من مغـريـات شتى ، وكيف هـداهم الله تعالى لـطاعته ، فسـاروا عـلى الصـراط المستقيم ،

ووصلوا إلى هذا الفوز العظيم . وإذ هم في تساؤلهم وتـذكرهم ، قـال قـائل منهم : إني كـان لي رفيق في الدنيـا ، ينكـر البعث والحسـاب ؛ وكان يبكّتني ويقول : إنك لمن المصدّقين حقاً بالبعث والنشور ؟ وكيف تصدّق بذلك لأننا إذا متنا ، وصرنا تراباً ، وعظاماً نخرةً مفتتـةً ، هل تعـود أجسامنـا هذه التي نحن عليهـا إلى ما كـانت عليه ، ونحيـا من جديد لنحاسبَ ، ونُدان على ما فعلنا في هذه الدنيا ؟ أنـا لا أعتقد أن ذلك يمكن أن يحدث !! . . .

ثم يقـول هذا المؤمن لإخـوانه في الجنـة : هـل أنتم مـطّلعـون معي ، وناظرون إلى الجحيم حتى نـرى ما حـلَّ بذلـك القرين الـذي كان يكذّب بالبعث والحساب ؟

فيقـولـون لـه : لا ! . . لأنَّ أمـره إلى الله تعـالى ، وقـد لاقى مصيره الذي يستحقه . .

ولكنَّ المؤمن يريد أن يعرف ما حلَّ بصاحبه ، فاطَّلع من مكانٍ يمكن من خلاله رؤية أصحاب النـار ، فرآه في سواءِ الجحيم، أي في وسط النار ، بأسوأ حالٍ . .

قال له : تالله ، إنك كدت تهلكني ، وترديني معك في هذه النار لـو أنني استمعت إلى دعـوتـك المنكـرة . . ولـولا نعمـة ربي، وفضله عليَّ بما هـداني إلى الحق ، لكنت معك من المعـذبينّ ، المحضـرين إلى هذا الجحيم .

ويعـودُ النصُّ القـرآني ، بعـد أن يبـين الفـوارق بـين عبـاد الله المخلصين الذين يعيشـون في جنات النعيم ، وبـين المكذبـين المنكرين

للبعث والحساب ، يعود إلى أهل الجنة ، وما يستذكرون فيما بينهم من حال الدنيا ، ليؤكد تلك الفوارق التي يجب أن يعيها الناسُ فتكون البيّنات أمامهم واضحة بقول عزيز حكيم . .

يقول أهل الجنة : الحمد لله . فإننا لسنا بميتين بعد موتتنا الأولى في الدنيا . إن هي إلَّا موتة واحدة مقررة على العباد . وبعدها الحياة الأبدية إما في النعيم ، وإما في الجحيم . فالحمد لله الذي أنعَمَ علينا بالخلود في جنات النعيم ، وما نحن بمعذبين في مهاوي الجحيم . . الحمد لله على هذا الفضل العظيم . وهل أعظم نعمة ، وأجلُّ فضلاً من أن ينال المؤمن من ربه الفوز العظيم ؟ نعم إن عدم العذاب في النار ، وما يقابله من حياة خلود في الجنة ، هو ـ والله ـ الفوز العظيم ، الذي يناله المؤمن الصالح ، الذي عبد ربه حق العبادة ، وأطاعه حق الطاعة ، وحمده وأثنى عليه ، وصدَّق بكتبه ورسله ، وناصر الحق وحارب الباطل ، وكان من أهل الخير ، وابتعد عن أهل الشر . . أجلْ إن هذا لهو الفوز العظيم الذي يستحقه العمل الصالح . ولمثل هذا الفوز فليعمل العاملون . فليعملوا لينالوا الجزاء الأوفى، الذي هو دخول الجنة ، أذلك في غُرفهم خيرٌ نزلاً ينزلون بها أعزّاء ، مكرَّمين ، فائزين ، أم أن جهنم وشجرة الزقوم فيها أفضل من هذه المنازل ؟ . .

وما هي شجرة الزقوم ؟ إنها كما يقال من أخبث الشجر المرّ الذي ينبت في أرض تهامة ، وقد مثَّل بها اللَّهُ سبحانه وتعالى على كل خبيث يستقبح الإنسان مرآه ، فكيف إذا كان مجبراً على الحاجة إليه وأكله ؟ ! . . . هذه الشجرة الخبيثة جعلها اللَّهُ تعالى فتنة للظالمين ،

يفتنون بها إذ يرونها في وسط النار ، فيقولون : إن النار تحرق الشجر ، فكيف إذن تنبتها ؟ ! . . ولذلك جاء التأكيد القرآني : ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ . أي أنها تنبت من قعر نار الجحيم ، وترتفع حتى تبلغ طول ألسنة تلك النار المستعرة ، وتظل على حالها ، لا يصيبها أي احتراق ، تعطي طلعها ، أي ثمرها ، كأنه رؤوس الشياطين ، أو رؤوس الثعابين الكريهة السَّامة . . وما هذا التشبيه لطلع شجرة الزقوم إلَّا لإثبات شدة بشاعته ، وفداحة استقباحه في النفوس . . فنحن عندما نقرأه نتخيَّل رأس الشيطان وما يبعث فينا من خوف وهلع ، وبشاعة وتقزّز ، حتى لنسرع بإبعاد تلك الصورة عن مخيلتنا ، فلا نطيق احتمالها . . . فكيف إذا كانت رؤوس الشياطين مصوَّرة فيما يطلع على الشجر ، ونجبر على قطفه بأيدينا ، وأكله في أفواهنا وبطوننا ؟ ! . . . .

ذلك الطلع اللعين ، القبيح هو ما جعله الله تعالى طعاماً لأهل النار . ويتضمَّن قول رب العالمين الإصرار على أكلهم من شجرة الزقوم ﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ﴾ وقوله تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [1] (وقد قيل إن الأثيم هو أبو جهل اللعين، وأمثاله ، أي هو كل صاحب إثم كبير . والمهل هو الزيت المغلي . والحميم هو الماء الشديد الحرارة) فالآثمون إذن يأكلون من شجرة الزقوم ، التي تغلي في البطون كغلي الماء بحرارته الشديدة . فأي طعام هذا الذي أعدَّه الله

---

(١) الدخان : ٤٣ - ٤٦ .

تعالى لأصحاب الجحيم ؟ ومن يأكل عادة يعطش فيشرب ، وأهل النار ، يجب أن يصابوا بعد ذلك الطعام ، بالعطش الشديد ، فيكون شرابهم ذاك الماء الحار الذي يختلط في بطونهم بما أكلوا فيصير شوباً يقطّع أمعاءهم . .

ثم إنَّ مرجعهم ومردَّهم إلى الجحيم ، إلى الأتون اللاهب . . وهكذا فالزقوم طعامهم ، والحميم شرابهم ، والجحيم منقلبهم ومثواهم . . وهم لا يلاقون تلك الأهوال والمصائب ، وذلك البلاء العظيم ، إلَّا لأنهم وجدوا آباءهم على الضلال ، فساروا على ضلالهم ، ومضوا على التقليد الأعمى الباطل . إذن فهم على آثارهم يهرعون إلى الضلال وإلى الجحيم . ومثل هؤلاء قد ضلَّ قبلهم أكثر الأولين من الأمم الماضية . مع أن الله سبحانه وتعالى أرسل لهم النبيين والمرسلين ، ينذرونهم ويخوفونهم من العذاب الأليم ، ولكنهم لم يرعووا ولم يرتدعوا عن الكفر والشرك والإلحاد والإجرام ، حتى كانت لهم تلك النهاية السيئة في الآخرة ، وتلك العاقبة الوخيمة في العذاب الدائم . .

ومن بين أكثر الأمم الغابرة التي وقعت في الضلال ، ولاقت سوء المنقلب والمصير . أصحاب القرية الذين لم ينج أحدٌ منهم إلا عبد من عباد الله المخلصين الذين اخلصوا لله تعالى ، إلههم وربهم ، في النية والقصد ، وفي العمل والسعي ، فخلَّصهم سبحانه وتعالى من أدران الوثنية وصانهم من الشرك ، وحفظهم من التكذيب ، فنجوا من العذاب ، وكانوا من أهل جنات النعيم .

٩ ـ أصحاب القرية التي جاءها المرسلون

يقول الله تعالى :

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا
إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا
رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا
إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا
طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ
رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ
أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾
أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا
وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ
فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ
لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ
مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾
يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١) .

---

(١) يس : ١٣ ـ ٣٠ .

في مطلع هذه الآيات خطابٌ من الله تعالى لرسوله محمد (ﷺ) بأن يضرب لكفار مكة ، وللناس كافة ، مثلاً عن أهل القرية ـ وقيل هي انطاكية ـ إذ جاءها المرسلون بدعوة الإيمان ، وترك الكفر . . ويخبر الله تعالى رسوله بأنه أرسل لتلك القرية اثنين ، هما من حواريي عيسى بن مريم (عليه السلام) فكذبوهما ، ولم يصدقوهما بما يدعوانهم إليه ؛ فعزَّزهما الله تعالى برسولٍ ثالث ، يشدّ أزرهما ويقوِّي موقفهما . فاجتمع الثلاثة ، وأبانوا لأهل تلك القرية حقيقة الإيمان وحسناته ، والكفر وسيئاته . .

ورفض أهل القرية تصديقهم ، وقالوا لهم : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، والمرسلون لا يكونون من البشر ، وما أنزل الرحمان شيئاً مما تدعوننا إليه . إن أنتم إلاَّ تكذبون علينا فيما تزعمون من حمل الرسالة والدعوة إلى الله . إذن فقد كان اعتقاد أهل انطاكية أن البشر لا يصلحون لحمل الرسالات السماوية ، وذلك لجهلهم بأنَّ اللَّهَ تعالى ما اختار رسلَهُ إلى أهل الأرض إلاَّ من البشر ، لأنَّ ذلك أفعل في التأثير على الناس ، وأجدى في إيصال تعاليمه سبحانه وتعالى إلى العقول والقلوب البشرية . .

وردَّ المرسلون على أهل انطاكية ، قائلين : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون .

ثم إنهم قدَّموا لهم البراهين على صدقهم ، بإظهار معجزات أظهرها الله تعالى على أيديهم، مثل إبراء الأكمه والأبرص، وقالوا لأهل انطاكية إن تلك المعجزات هي أصدق الأدلة على قدرة الله تعالى ، لأنه لا أحد من البشر يملك القدرة أو السلطان على إتيان مثل هذه

الخوارق ، إلَّا أن يشاء الله تعالى له ذلك ويُظهرها على يديه . .

وأخيراً لم يعد أمام المرسلين إلَّا أن يلقوا الحجة على أهل انطاكية، فقالوا لهم : ها نحن قد بلغنا الدعوة التي انتدبنا لإبلاغها لكم، وأوضحنا تعاليم السماء التي أنزلها الله تعالى على عبده ونبيه عيسى بن مريم (عليه السلام) وما علينا إلَّا هذا البلاغ المبين ، الذي يبيّن لكم الحق من الباطل ، والإيمان من الكفر ، فإن اهتديتم فذاك خير لكم ، وإن لم تهتدوا فما نحن إلَّا نذر لكم بالعذاب الأليم .

قال أصحاب القرية : إننا تشاءَمْنا من وجودكم بيننا ، إذ انحبس المطر ، وعمَّ الجفاف ، ولئن لم تنتهوا من دعوتكم لنرجمنَّكم بالحجارة ، وليصيبنّكم منا عذاب أليم ، بما قد نفعله بكم من الأذى والإهانة والشرّ .

قال المرسلون : لقد حلَّ الشؤم بدياركم لأنكم كافرون ، وما حَبْسُ المطر إلَّا آية من ربنا سبحانه وتعالى لتجعلكم تفكِّرون في باعث المطر ومنزله ، فتؤمنون به إلٰهاً واحداً أحداً ، ورباً معبوداً ، منه الخير والبركة واليمن ، ومنه الرحمة والغفران . إذن فالشؤم ليس منا، بل هو معكم من قبل أن نُرسلَ إليكم . . ثم ما بالكم إذا ذكرتم بحقيقة وجود الله تعالى ، وبقدرته ، ومشيئته تتهموننا بالشؤم ؟ أو ليس في ذلك تجاوز بشرككم لكل حد ، فلا تغالوا بالعناد ، وآمنوا بما ندعوكم إليه ليرحمكم الله تعالى في الدنيا والآخرة . .

ولم يقتنع أهل انطاكية بدعوة المرسلين ، وأصروا على تكذيبهم وإلحاق الأذى بهم ؛ فلما وصَلَ الخبرُ إلى رجل منهم وكان يدعى حبيب النجار ، ويقيم في طرفٍ بعيد من أطراف المدينة جاءَ مسرعاً إلى

المدينـة حتى وصل إلى حيث يجتمعون ، فوقف بـين الناس ، وقـال : يـا قوم ، اتبعـوا هؤلاء المرسلين ، الـذين جـاؤ وا يهـدونكم إلى الحق والإيمـان . اتبعـوا من لا يسـألكم عـلى دعـوتـه إلى الحق أجـراً، وهم مهتـدون . . يا قـوم ! مـا أقـول لكم ذلـك إلَّا لأنني خبـرتـه وتحققتـه بنفسي ، فأنتم تعلمون أنه لي ولد كان مصاباً بالجذام ، وقد بذلت في سبيل شفائه للأطباء والعرافين الأموال الطائلة ، دون أن يجدوني نفعـاً بـه . حتى إذا جاء هؤلاء الـرسلُ ومـرُّوا من عندي ، وعـرفـوا بـأمـر ابني ، عالجوه بأمر إلَهي فشفي من جذامه . وقد حاولت أن أعـطيهم الأجـر الـذي يستحقـونـه ، فـرفضـوا ذلـك ، ودعـوني إلى الإيمـان ، والاهتـداء بدعـوة الـدين الحق ، فـآمنت بـالله إلَهـاً واحـداً ، عـزيـزاً مقتـدراً . . وهـا أنـا قـد بسـطت لكم حقيقـة أمـري ، وإني لكم لمن الناصحين بأن تتبعوا هؤلاء المرسلين .

ولم يقبل منه قومُهُ ذلك الموقف ، فاقتادوه إلى الملك وقـالوا لـه : أيها الملك، إن هذا الـرجل قـد ترك دينـك ، وعبد إلَهـاً غير آلهتنـا ، فافعل ما ترى . .

وسأله الملك عن صحة ما يقولون ، فأعاد عليه قصته ، ثم قـالَ لـه : وما لي أيهـا الملك ، وأي شيء عليَّ ، وكيف لا أعبـد الله تعـالى الـذي خلقني ، وأنعم عـليَّ فهــداني ، أو ليس هـو الله تعــالى الـذي خلقكم من ذكرٍ وأنثى ، ثم يميتكم ، وإليه تـرجعون بعد الموت؟ . . . أأتخذ من دون الله سبحانه وتعالى آلهةً من الأصنام أو الأوثان، وإذا أراد الرحمانُ بي ضرّاً ، لا تستطيـع أن تخلّصني منه، لأنها لا تملك نفعـاً ولا ضراً؟ ولو لذت إليها أتشفع بها فلا تغني شفاعتها شيئاً، ولا تنقـذني،

ولا تنقذ أحداً يستجير بها ، لأنها أحقر وأذل من أن تقدم شفاعة ، أو إنقاذاً . . إني ، إن بقيت على عبادة هذه الأصنام والأوثان التي تعبدون ، لأكون في ضلالٍ مبين بعد أن اتضح لي هذا الضلال وبان مدى عقمه وفساده .

ثم توجَّه بالحديث إلى المرسلين ، فقال : أما أنتم أيها الرسل ، فإني آمنت بربكم الذي تدعون لعبادته ، فاستمعوا ما أقول من الحق أمام هذا الملأ من الناس ، واشهدوا لي به أمام رب العالمين . . وما قال الرجلُ المؤمن ذلك القول للمرسلين في ذلك الموقف الرهيب ، إلا لأنهم كانوا على وشك مفارقة الحياة ، وإسلام الروح لبارئها ، بعد العذاب الذي أصابهم من الكافرين . . ولكن حال الرجل المؤمن لم تكن بأفضل من حال المرسلين ، إذ انهال عليه جنود الملك بالضرب فخرَّ إلى الأرض مضرجاً بدمه وما لبثت روحه أن فارقت الحياة .

والقرآن الكريم لا يصوِّر لنا ذلك ، ولا يخبرنا عمّا حلَّ بالمؤمن ، بل ينقلنا نقلةً سريعة تفيد أنه توفي . وأنه حمل على أجنحةٍ من نور إلى السماء ، حيث قيل له : ادخل الجنة . هذا ما وعدك به اللَّهُ ربك ، وما شهدت به أرواح المرسلين ، على صدق إيمانك ووفائك .

ويبين القرآن الكريم مقدار الفوز العظيم الذي ناله الرجل المؤمن بدخول الجنة ، فقال : يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ، ذوي المراتب العالية التي تليق بالمؤمنين ، الصالحين المخلصين ، المستشهدين في سبيل الله ، ونصرة دينه ورُسله . .

ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم يبين لنا حقيقة أساسية ، ألا وهي أن الحياة الدنيا تتصل بالآخرة ، وأن الموت نقلة سريعة ، وخطوة فاصلة ،يتخلص به المؤمن من ضيق الأرض إلى رحاب السماء ، ومن ظلمات الجهل إلى نور اليقين ، ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق ، ومن عالم الفناء إلى عالم البقاء. . هذا هو جزاء الإيمان الصادق ؛ وهذا هو جزاء الاستشهاد الحق في سبيل الله تعالى . .

وأما الطغيان فهو أهون على الله من أن يرسل عليه وعلى أهليه ملائكة مكرمين تدمره وتهلك أتباعه . . ولذلك فإنَّه سبحانه لم ينزل على أصحاب تلك القرية المكذبين الكافرين جنداً من السماء يسومونهم سوء العذاب ، بل كانت صيحة واحدة من جبريل (عليه السلام) أبادتهم عن آخرهم ، فلم يسمع لهم صوت ، ولم يقوموا بعدها بحركة . . ﴿ إن كانت إلَّا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ . هذا هو الوصف الذي يطلقه القرآن الكريم على هلاك أولئك القوم ، من غير أي تفصيل أو بيانٍ آخر تحقيراً لشأنهم وتصغيراً لقدرهم .

١٠ ـ إهلاك الأمم الغابرة لاستهزائهم بالأنبياء

يقول الله تعالى :

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ (١) .

يبين الله سبحانه وتعالى أنه أرسل في الأولين ، من الأمم الغابرة

(١) الزخرف : ٦ ـ ٨ .

كثيراً من النبيين والمرسلين ، بحيث لم تخل جماعة ، ولا عصرٌ ، في الماضي ، من نبيٍّ يبيّن أحكام الله تعالى وشريعته في عباده ، ولكنَّ أولئك الأولين لم يكونوا يصدّقون الأنبياء، بل كانوا يستهزئون بهم ، ويسخرون منهم ، لفرط جهالتهم وعنادهم ، حتى لم ينجُ أيُّ نبيٍّ من ذلك على الاطلاق . وفي هذا البيان من رب العالمين تأكيد لسيدنا محمد (ﷺ) بأن ما يفعله قومه لا يختلف عما فعله الأقوام السابقون ؛ وأنه سبحانه لم يأخذ الناس بسفاهتهم ، بل ظلت الرسالات السماوية تتوالى على الأرض، وظل المعاندون على مكابرتهم ، وبقي الإهلاك مستمراً يطال من هم أشد بطشاً ، وأكثر قوة ومنعة من العرب الجاهليين ؛ فلا ينبغي أن يغترَّ هؤلاء بقوتهم وكثرة أموالهم ؛ فإنَّ عاقبة الذين يكذبون الرسول الكريم مثل عاقبة الأولين الذين مضى مثلهم في الإهلاك والخسارة في الدنيا والآخرة .

١١ ـ مثل الذين أهلكوا بذنوبهم

يقول الله تعالى :

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾[1] .

فهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك من أهل جزيرة العرب ، وغيرهم من أهل الأرض ، إن لهم ذنوباً ارتكبوها ، مثل ذنوب أصحابهم الظالمين من الأمم الغابرة . وتلك الذنوب تجلب العذاب لأصحابها ، لأنه سيكون لهم نصيب من العذاب كنصيب الذين هلكوا قبلهم . فعليهم أن لا يستعجلوا حلول هذا العذاب

(١) الذاريات : ٥٩ .

الذي سينالونه لا محالة ، ولو أخَّرهم الله تعالى إلى أجَلهم، أو إلى يوم القيـامة . فهم لن يتـركوا عـلى الذنـوب والمعـاصي ، ولن يفلتـوا من عقـاب الله تعالى ، ولن ينجـوا من العذاب المحتـوم . فـلا يستعجلوا إذن في طلبهم هـذا العذاب الـذي لو عـرفوا حقيقتـه ما طلبـوه ، ولا استعجلوه بتاتاً . .

١٢ ـ عدم الاعتبار بالمثلات

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(١) .

قدَّمت الآيات القرآنية السابقة على هذه الآية المباركة ذكر الأدلة على قدرة الله تعالى في الإنشاء والإعادة والإبادة . . وذلك ما كان يتلوه محمد (ﷺ) على الناس ، ويبيِّن الحكمـة الإلهية منـه ، وما يُنتظـر أن يحلّ على الذي يكذِّب بآيات الله التي تتلى عليه من سوء العاقبة .

وكـان ذلك إنـذاراً للمشركـين، إلاَّ أنهم لم يأبهـوا للنـذيـر، ولم يرتدعوا عن الكذب ؛ بل كانـوا يزدادون استهـزاءً بالنبي (ﷺ) كلما زادهم مـوعـظة وإنــذاراً، ويستعجلونــه بنــزول العــذاب عليهم، وبالعقاب الذي تتوعدهم به الآيـات القرآنيـة ؛ دون أن يصدِّقـوا أبداً بالثواب الذي ينالونه على إيمانهم وتركهم للشرك . .

ولذلك يقول الله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ ويستعجلونك بالسيئـة

---

(١) الرعد : ٦ .

قبل الحسنة ﴾ أي بالعذاب قبل الثواب ، وقد تحققت ومضت من قبلهم المثُلات ، أي العقوبات التي كان ينزلها الله تعالى بالمكذبين أمثالهم ، وكيف مثَّل الله تعالى بهم على ذلك التكذيب . . . أفلا يعتبرون بما أصابَ غيرهم كقوم نوح وعاد وثمود ، وما حلَّ بفرعون وملإه ، وما نزل بأصحاب الفيل وهو ليس عنهم ببعيد ؟ فكيف يتجرَّأ هؤلاء القوم من قريش وغيرهم على استعجال العقوبات الماحقة التي صارت مضرباً للأمثال ؟

على أنه ، مهما يكن ظلم الناس لأنفسهم ، فإنَّ ربك - يا محمد - لذو مغفرة واسعة لهم ، ولولا هذه المغفرة ما ترك على ظهرها من دابة . وإن ربك أيضاً لشديد العقاب على من عصاه ، وأصرَّ على كفره وعناده . فهو سبحانه واسع المغفرة ، وهو سبحانه شديد العقاب . .

وروي أنه لما نزلت هذه الآية المباركة ، قال النبي (ﷺ) : « لولا عفو الله وتجاوزه، ما هنَّأ أحداً العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتّكل كل واحد على عفوه ومغفرته » . وقال (ﷺ) : « لو يعلم الناس قدر رحمة الله وعفوه وتجاوزه عن ظلمهم لأنفسهم لقرَّت أعينهم ، ولو يعلم الناس قدر عذاب الله وبأسه ونكاله ونقمته ما رقأ لهم دمع ولا قرَّت لهم عين » .

١٣ - شرر نار جهنم كالقصر العظيم

يقول الله تعالى :

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ

شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾
كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ[1] .

هذا بيان من رب العالمين ، كيف أنه سبحانه يأمر خزنة جهنم بأن يقولوا للمكذبين بآياته تعالى : هيا انطلقوا ، أي أسرعوا عَدْواً إلى النار التي كنتم بها تكذبون . فها أنتم اليوم تجدونها حقاً واقعاً أليماً محسوساً . .

فالانطلاق هو الانتقال من مكان إلى مكان آخر من غير مكث أو وقوف ، ولذلك يكون الأمر إلى المكذبين بأن ينتقلوا فوراً من موضع حسابهم إلى موضع مآلهم في جهنم . ويصوّر لنا النص القرآني ذلك الموضع الذي يؤمرون بالانطلاق إليه على أنه الدخان الأسود الكثيف الذي يتصاعد من النار حتى صار يشكِّل ظلاً كبيراً تَفَرَّق في ثلاثة اتجاهات ، أو توزَّع على ثلاث نواحٍ غطَّاها كلها ؛ وهذا الدخان الذي يشكل ذلك الظل العظيم ليس بظليل ، فلا يظلل إذن ولا يقي من حرٍّ أو برد ، ولا يمنع من سوء ولا أذى. لأنَّ ظلَّ الدخان فوق النار لا يغني شيئاً من لهيبها المتأجج . . فهذا النَّص يرسم أوضح صورة حسية للمكذبين وهم يُساقون إلى النار المضطرمة المستعرة ، بما يعلوها من دخانٍ كثيفٍ يظللها من جوانب ثلاثة ؛ حيث يقذفون فيها يظللهم ذلك الدخان ، لا ليقيهم من شدة اللهب ، بل ليزيدهم رهبة واحتراقاً . فهو لكثافته يوقع الرهبة في نفوسهم لما ينشر من سوادٍ فوقهم ، وهو لكثافته يضيق عليهم الخناق حتى يحصرهم في وسط

---

(١) المرسلات : ٢٩ ـ ٣٤ .

اللهب ، فلا يجدون منفذاً لأن المنافذ سدَّت من الجهات الثلاث ، والجهة الرابعة والأخيرة هي طريقهم إلى النار ، وليس لخروجهم منها . . وبعد صورة الدخان ، تأتي صورة الشرر الذي يتطاير من النار ، ويرتفع ليشكل نوعاً من التجسيم يشبهه القرآن بالقصر في تماسك بنيانه وارتفاع علوه . . أما لون هذا الشرر فهو لون الجمال السود الذي يخالطه بعض الاصفرار . والعرب تسمي هذا النوع من الجمال ، صفراً ، لشوب سوادها بصفرة (وقد استعملت الآية لفظ ﴿صفر﴾ للدلالة على معنى السواد) . . .فهذه النار وما يتكاثف فوقها من دخان ، وما تتلظّى به من لهب ، وما تقذف به من شرر على تلك الأوصاف ، هي مكان المكذبين بآيات الله تعالى . فويل يومئذٍ للمكذبين . . وأيُّ بلاء عظيم يصيب هؤلاء المكذبين يوم يساقون مسرعين إلى نارٍ تلك هي أوصافها وعظائمها ؟ ! . . .

الجدال والحجاج

الجدال والحجاج

١ ـ الإنسان أكثر شيء جدلاً

يقول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾(١) .

الإنسان يحب الجدل بطبيعته ، وهو يحاور ويناقش في كل شيء يعرض له . ولكنه يبدو أكثر شيء جدلاً في العقيدة الدينية ـ كما بدا منه عبر التاريخ ـ . إذ ما بعث الله تعالى نبياً ولا رسولاً إلَّا وجادله الناس أشدَّ الجدال ، محاولين ثنيه عن الدعوة التي يحمل ، بدلاً من الاقتناع بها واتباعها . . وما ذلك إلَّا لأنهم كانوا يأنفون ترك العبادات ، والتخلي عن المعتقدات التي ورثوها عن الآباء والأجداد ـ وإن كانت باطلة عقلاً وحقيرة عُرفاً ـ التي استحكمت في نفوسهم ، وتأصلت في قلوبهم ، فلم يرضوا عنها بديلاً ، ولو كان في تركها

---

(١) الكهف : ٥٤ .

خيرهم ، وفي التخلي عنها نفعهم في الدنيا والآخرة . ولذلك ظهر الناسُ أكثر شيء جدلاً في رسالات السماء . .

ويبين لنا القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ . وهو يعني الإنسان الكافر ، في مخاصمته للحق ، الذي هو الإيمان ، كما ظهر جلياً في مخاصمته للقرآن ، فجادل في آياته رغم ما فيها من الأمثلة الدالّة المقنعة ، والتصريف الواضح لجميع أمور الدنيا والآخرة . .

ومن يقرأ القرآن الكريم يجد أنَّ فيه أمثلة كثيرة جليلة تنطوي في شمولها ووضوحها ، وفي تفصيلاتها ـ أو إجمالها ـ على آيات بيِّنات حريٌّ بالإنسان أن يفقهها ويعمل بما جاء فيها. وقد جاءت جميعها متلائمة مع فطرة هذا الإنسان، لتكون فيها قناعة للعقول ـ مع تفاوت درجات أصحابها في الفهم ـ وتوافق للطبائع على اختلافها . . ورغم ذلك فقد جادل فيها الإنسان ، وحاول أن يتنصَّل من مفاهيمها ، وأن يتنكر لحقائقها ، حتى كان ـ للأسف ـ أكثر شيء جدلاً في آيات القرآن وفي معانيها العظيمة .

٢ ـ مثل عيسى عند الله تعالى

يقول الله تعالى :

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (١) .

---

(١) آل عمران : ٥٩ .

إن خلق عيسى بن مريم (عليهما السلام) من غير أب يبدو شأناً غريباً عند الناس . ولكنه عند الله تعالى سهل يسير ، وقد جعله كذلك ليكون أقطع للخصومة ، وأوقع في النفوس . فكما أنه سبحانه خلق ـ من قبل ـ آدم من تراب ثم قال له : كن بشراً ، فكان ؛ فكذلك خلق عيسى من غير أبٍ وقال له : كن بشراً ، فكان . . فأية غرابة في ذلك ، ما دام الله تعالى هو الخالق الذي يتصرف في خلقه كما يشاء ؟ وكلمته هي تعبير عن هذه المشيئة فإذا قال للشيء كن ، وجبَ أن يكون ، ولا يمكن إلاَّ أن يكون . نعم لمجرد « الكلمة » تتحقق الإرادة الإلهية فتنشىء الأشياء أو المخلوقات . .

وعلى هذا الأساس لا يجوز أن نبنيَ مشيئة الله تعالى ، أو أنْ نفهم « كلمته » وفقاً لمقاييس الإنسان المحدودة وقوانينه وأنظمته المتباينة ، القاصرة . فللَّه تعالى في خلقه شؤون تحكمها سنة مقدّرة ، ثابتة ، لا تبديل فيها إلاَّ أن يشاء هو سبحانه وتعالى . . فقد وضع ـ سبحانه ـ للخلق البشري نظاماً معيناً ، ولكن بمقتضى حكمته السنية ، وإرادته العلية . وهو ـ سبحانه ـ قادر على تغيير هذا النظام ساعة يشاء ، وكيفما يشاء ، كما حصل في خلق عيسى (ع) ليجعله وأمه العذراء ، آية للناس ، تذكّرهم بعظمة خالقهم وقدرته ، وبأنه الإلٓهُ الواحد ، وربُّ السماوات والأرض ، وبأن عبادته وحده هي الحق ، وما دونها عبادات باطلة .

يقول الطبري : « إنَّ الله عز وجل أنزل هذه الآية حجة لنبيه (ﷺ) على وفدٍ من نصارى نجران الذين حاجّوه في عيسى عليه السلام . . وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على النبي (ﷺ)

فقالوا له : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال (ﷺ) : من هو ؟ قالوا : عيسى ، تزعم أنه عبدُاللَّه !! فقال (ﷺ) : هو عبدُاللَّه ، وروحه وكلمته . قالوا : لا ، ولكنه هو الله نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ، ثم خرج منها ، فأرانا قدرته وأمره . فهل رأيت قط إنساناً خلق من غير أب ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ . .

ويبدو أن بعض المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة ، حينما سمعوا بهذه الآية ، قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة ، فنزل قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ (١) .

وفي رواية أخرى أن أحد الكافرين ، ويدعى ابن الزعبرى ، جادل رسول الله (ﷺ) في قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ ، فقال ذلك الكافر : أهذا لنا ولآلهتنا ولجميع الأمم يا محمد ؟ قال الرسول (ﷺ) : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم . فقال الكافر اللعين : خصمتك يا محمد ورب الكعبة . أليس النصارى يعبدون المسيح ، واليهود عزيراً ، وبنو مليح الملائكة ؟ فإن

---

(١) الزخرف : ٥٧ . ٦٠ .

كان هؤلاء في النار ، فقد رضينا أن نكون وآلهتنا معهم ! . .

ولما سمع المشركون من قريش بذلك الجدل ، أخذتهم الفرحة والجذل لظنهم بأن محمداً (ﷺ) قد أحرج ، وهذا الإحراج يفيدهم طالما هم أخصامه وأعداؤه . . ولكن سها عن بالهم أنهم وما يعبدون من الأوثان والأصنام حصب جهنم بقول رب العالمين ، وأن الآية الكريمة لا تعني أبداً لا عيسى عليه السلام ، ولا الملائكة ، بل فقط تلك الأوثان والأصنام الزائفة ، ولذلك كانت أقوال المشركين حول هذه القضية مغالطة فادحة تنمّ عن المشاعر التي نفثها الشيطان في صدورهم ، فأطلقوها هم على ألسنتهم بما يحجب الحقيقة . . من أجل ذلك يبين تعالى أن المشركين ما ضربوا للنبي (ﷺ) ذلك المثل عن عيسى (ع) إلّا جدلاً ، أي خصومة بالباطل ، ليبعدوا فيه عن الحق . وقد استعمل القرآن الكريم لفظ ﴿ ما ﴾ - ﴿ في : إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ - لغير العاقل ، فلا يتناول المثل إذن عيسى (ع) إذ اللَّهُ تعالى يريد أن ينزّهه عما يدعي المشركون ، الذين أرادوا جدال النبي (ﷺ) بقولهم : إن عيسى إلَهٌ . . ثم رفض أولئك المشركون مناظرته (ﷺ) للوصول إلى معرفة الحقيقة . وما ذلك الرفض إلّا لأن المناظرة تكون عادة بين المحقين ، أي كل يريد أن يبيّن الحق على طريقته ووسائله ، أما الجدال فيكون فيه أحد الفريقين محقاً والآخر مبطلاً ، فتعالى اللَّهُ العظيم ، وتبارك القرآن الكريم ، بما في التعابير والألفاظ القرآنية من أدلة دامغة لكل من أراد أن يلقي السمع وهو بصير . .

وزيادة في بيان الحقيقة يذهب النص إلى إظهار المشركين على

أنهم قوم خَصِمون ، أي مجادلون في دفع الحق بالباطل ، حتى يصيروا أخصاماً للحق وأهله .

وأما حقيقة عيسى عليه السلام فالنص القرآني يؤكدها بقوله تعالى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعَمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ . ونعمة الله تعالى على عبده عيسى هي النبوة . وقد جعله تعالى آية لبني إسرائيل تدلّهم وتعرفهم بقدرة الله تعالى في الخلق ، وبما يريد من هذا الخلق .

ومما لا شك فيه أن الكافرين كانوا أشد الناس لجاجاً في الخصومة بالباطل ، شأنهم في هذا اللجاج شأن إنسان هذا اليوم الذي يحاول أن يفسّر أكثر أمور الحياة وفقاً لنوازعه وأهوائه ومصالحه ، بعيداً عن الحق ؛ بل هو يعتمد في أكثر الأحيان على ما يسميه « الجدل المنطقي » المؤيد منه بحجج وبراهين يستنبطها ويبتدعها لتحقيق المآرب الشخصية ، أو المنافع الذاتية ، ولو كان فيها تعدٍّ على حقوق الآخرين ومصالحهم . وشأن الفرد في ذلك شأن الدول التي تسعى لتأمين مصالحها بصرف النظر عن الوسائل التي تستعملها لهذه الغاية ، إذ صارت الغاية عندها تبرر الوسيلة ، حتى ولو كان في استعمال هذه الوسيلة ما يجلب الضرر للآخرين . . .

ويا ليت جدل الإنسان ، سواء في الماضي أو في الحاضر ، كان مقتصراً على أمور دنياه ، فهو قد جادل في قضايا الدين والإيمان حتى صار خصماً لخالقه . قال تعالى : **خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ** (١) . فرغم أن الإنسان مخلوق من هذه النطفة

---

(١) النحل : ٤ .

المهينة ، التي هي شيء واهٍ جداً ، ورغم أن خالقه يرعاه حتى يصير بشراً سويّاً ، إلاَّ أنه ينسى خلقه من تلك النطفة ، وينسى فضل ربّه عليه ، وينسى هذه الصورة التي أوجده عليها في أحسن تقويم . . ينسى ذلك كله ، أو أنه يتناساه ، وبدل أن يشكر ربه ويحمده ، ويثني على نعمته ، يخاصمه بجدل باطل ، لأن الجدل مستقر بطبيعته البشرية .

أما قوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ فدليل آخر على أنه سبحانه وتعالى لو يشاء لبدَّل أهل الأرض بملائكة يخلفون بني آدم . وهذا يعني أن الملائكة (عليهم السلام) مخلوقون جميعاً مثل بني آدم . وأنه سبحانه قادر على كل شيء ، قادر على أن يبدّل أهل الأرض كلهم بمخلوقات غيرهم ؛ فكيف لا يقدر على خلق عيسى عليه السلام بالطريقة التي خلقه فيها ؟ إذن فهو سبحانه قادر على أن يخلق أعجب من خلق عيسى ، وبلا فرق في ذلك بين المخلوق توالداً أو إبداعاً . . والغاية أن الجنسين لا يصلحان للألوهية ، بل يبقى الله تعالى هو الخالق الذي لا خالق غيره ، ولا معبود سواه .

٢ ـ جعل الكافرون الملائكة إناثاً :

يقول الله تعالى :

وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ

﴿ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾(٢) .

لقد حكم الكفار ـ حكم الظن غير المستند إلى برهان أو دليل ـ بأنَّ لله تعالى أولاداً ، وهم الملائكة ، ثم اعتبروا الملائكة إناثاً . . .

والحقيقة أن الملائكة هم عبادُ الله . ونسبة بنوَّتهم إليه ـ سبحانه ـ معناها عزلهم عن صفة العبودية ، وتخصيصهم بقرابة التوالد لله تعالى . وهذا ما لا ينطبق عليهم ، لأنه ليس من موجب لتخصيصهم بصفة غير صفة العبودية في علاقتهم بخالقهم وربهم ، وما ذلك إلَّا لأنهم مخلوقون ، وكل خلق الله يدينون له سبحانه بالعبودية . وعباد الله ، وعبيده ، لا يمكن أبداً أن يكونوا أولاداً له سبحانه وتعالى . . وإن ادِّعاء الإنسان ذلك الادعاء الغاشم ، إنما يدفعه إلى الكفر الذي لا شبهة فيه ، لأن الله تعالى هو أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤاً أحد . فالادعاء بجعل جزء من عباده أولاداً له هو كفر واضح ﴿ إن الإنسان لكفور مبين ﴾ .

ويحاجُّ الله سبحانه أولئك الكفار بمنطقهم وعرفهم ، ويبطل دعواهم ويسفِّه مزاعمهم ، بأن الملائكة إناث وأنه تعالى اتخذهم بناتٍ له ، فيقول لهم : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بناتٍ وأصفاكم بالبنين ﴾ ؟ سؤال استنكار واستهجان : هل اتخذ الله تعالى ، مما يخلق ، بناتٍ له ، وفضَّلكم أيها العباد بالبنين ؟

وكيف يصحُّ هذا الإدعاء الباطلُ من الكفار والمشركين ، وهم

---

(١) الزخرف : ١٥ ـ ١٩ .

الذين يستاؤون من ولادة البنات لهم ويأنفونها؟ إذن فهو زعم لا يليق بالمعبود ، ومن أدب العبادة ألَّا ينسبوا إلى الخالق ما يستاؤون هم منه، ويبلغ بهم الاستياء الذي يفضح زعمهم حيث يصل بهم إلى حدِّ أنهم ﴿ إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمٰن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ . فإن وجهه يسودُّ لأنه يعتبر ما بُشِّر به من أنثى سوءاً ، وهذا السوء هو الذي أغاظ قلبه فانعكس اسوداداً واكفهراراً على وجهه لشدة ما آلمه وأحزنه عندما أُخبر به . . . وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إليهم ، فأي تفكير أخرق هو الذي يجعلهم يخصُّون الله تعالى بمن يُنَشّأ بالحلية والزينة والدّعة ـ أي النساء ، اللاتي هنَّ بزعمهم كَلَّا عليهم وعبئاً ثقيلاً في حياتهم ـ بينما يخصّون أنفسهم بالذكور الذين يصيرون رجالاً يحمون الديار ويذودون عن الحياض ؟ ! . . .

والله سبحانه وتعالى وهو يأخذهم بمنطقهم يبيّن لهم سوء تفكيرهم وظنهم . . بل ويضرب عليهم الحجة والبيّنة اللتين لا يمكن أن يجادلا بها . . إنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الله اناثاً فعلام يدعون ذلك ؟ هل شهدوا خلقهم ؟ وهل عرفوا الملائكة ورأوا شكلهم وجنسهم ؟ ! . . .

إن الادعاء يجب أن يكون مصحوباً بالدليل الذي يثبته ويقويه . بينما هم لا يملكون أيَّ دليل أو برهان لأنهم لم يشهدوا خلق الملائكة ، فكان ادعاؤهم مجرد زعم باطل ، وتزوير فاضح . . ولذلك عليهم احتمال تبعة تلك الشهادة الكاذبة المفتراة ، أو ذلك الزعم الباطل ، لأنهم سوف يسألون عن ذلك يوم القيامة . ﴿ ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾ . . ولا يضيع شيء عند الله تعالى أبداً . فقد شهدوا باطلاً

وشهادتهم ستكتب عليهم وتحفظ لحين حسابهم ، فيواجهون بها ، ويسألون عنها . والمسؤولية هنا يترتب عليها العقاب حتماً ، والعقاب يكون بقدر الوزر أو الجرم الناجم عن تلك المسؤولية . . .

ثم يلاحقهم سبحانه وتعالى على الفرية التي افتروها ، وعلى ما صاغوه حولها من جدل فيقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (1) .

وهذا يعني أن المشركين قد زعموا بأنهم ما عبدوا الملائكة إلَّا برضا الله تعالى ، إذ لو شاء الرحمن ما عبدوهم . . . ولكن الرحمن يدحض هذه الحجة الواهية فوراً بقوله سبحانه : ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فعلى أي أساس يقولون ذلك ؟ وهل عندهم علم بأنه تعالى شاء أن يعبدوهم ؟ أو أنه لو شاء سبحانه ما عبدوهم ولكان منعهم من ذلك منعاً أكيداً ؟ ! . . إن كل ما يدَّعون مجرد مزاعم وأكاذيب ، بل هي تصورات خاطئة يريدون بها إحالة الباطل إلى مشيئة الله تعالى . . وهنا الخطأ الفادح الذي ارتكبوه . . فمما لا شك فيه أن كل شيء هو بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، ولكنَّ الله جعل للإنسان قدرة على اختيار الهدى أو اختيار الضلال . وكلفه اختيار الهدى ورضيه له ، ولم يرضَ له الكفر والضلال ، وإن كانت مشيئته أنْ خلَقه قابلاً للهدى والضلال . وهم حين يحيلون على مشيئة الله إنما يخبطون خبطاً ، فهم لا يوقنون أصلاً ، ومن أين يأتيهم اليقين ، وقد اختاروا الكفر والضلال ؟ إذن ﴿ إن هم إلَّا يخرصون ﴾ أي يكذبون ويدعون

---

(1) الزخرف : ٢٠ .

الباطل . وما نسبوه إلى مشيئة الله تعالى إن هو إلا كذب منهم ، لأن الكفار لا يؤمنون بأنهم عباد لله تعالى ، وبأنه سبحانه أحق بالعبادة ، فكيف اهتدت تلك الفئة منهم إلى عبادة الملائكة وضلّت عن عبادة الله ؟ أوليس ذلك اختيار للشرك ؟ أوليس هو الضلال ؟ أوليس هو عدم اليقين بحقيقة وجود الله تعالى ؟ .

٣ ـ جدال في طبيعة الرسول

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (١) .

ينهى الله تعالى ـ في هذه الآيات المباركات ـ عن مثل هذا النوع من الجدل ، ببيان تفاهة ما يقترحون وما يتصورون من أعراض الحياة الدنيا التي يحسبونها ذات قيمة ، ويرونها جديرة بأن يعطيها الله لرسوله إن كان حقاً رسولاً ، كالكنز يلقى إليه ، أو كالبستان يأكل منه . فلو شاء لأعطاه أكبر مما يقترحون من هذا المتاع ، ولكنه رصده لأمره وإعلاء كلمته ، ولم يخلقه لزخرف الدنيا ، بل عوّضه الأجر العظيم والنعيم المقيم في الدار الآخرة .

ولتفاهة تصورهم نراهم يتساءلون : ما لهذا الرسول (أي محمدٍ

---

(١) الفرقان : ٧ ـ ٩ .

عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام) يأكل الطعام كما نأكل نحن ، ويمشي في الأسواق طلباً للمعاش كما نمشي . . . أي أنهم يتوهمون بأنَّ الرسول يجب ألاَّ يكون بشراً مثلهم . . . ثم يعقّبون على ذلك بقولهم : لو كان حقاً مبعوثاً من الله ، فلماذا لا يُنزَلُ معه ملكٌ من السماء ، يحمل معه أعباء التكليف ، ويعينه على تبليغ الرسالة ، فيكون معه ، بشيراً للناس ومخوفاً لهم من عاقبة الكفر والشرك ! . . .

ذلك مبلغهم من العلم . وقد غاب عنهم أنَّ الحكمة الإلٓهية قضت بأن يبعث الرسل من الناس أنفسهم ، لأنهم يحسون بأحاسيسهم ، ويعانون مشاكلهم ، ويدركون تجاربهم ، ويعرفون آمالهم وأمانيهم ، ويستشعرون أشواقهم ، ويقدّرون بواعثهم ، ومن ثَمَّ فهم يعطفون على ضعفهم ونقصهم . . . وبمثل هذه الصفات يجد الناس في رسولهم إنساناً مثلهم ، يعيش معهم وفيهم ، ويقوم كما يقومون بالأعمال والتكاليف ، لا تميّزه عنهم إلاَّ سماتُ النبوة التي تعصمه عن الخطأ ، وتجعل شخصيته ترجمة حيّة للعقيدة التي يحمل ويبلّغ ، بحيث تكون حياته ، وحركاته وأقواله ، وأعماله ، صفحةً معروضة لهم ، يقرأونها بوضوح ، وينقلونها سطراً سطراً . . . وهذا ما يجعل نفوسهم تهفو إلى تقليد تلك الشخصية ، والتمثل بها ، لأنها شخصية إنسانٍ كاملٍ في الناس . . في حين أنه لو كان ملكاً ، ما فكروا في عمله ، ولا حاولوا تقليده لأنهم منذ البدء يشعرون بأن طبيعته غير طبيعتهم ، وبأنه من جنس غير جنسهم ، فلا يتأثرون به نفس التأثر برسولٍ منهم . . وما حياة الرسول الأعظم إلاَّ المثال الأكبر على هذه الحقيقة التي يتضمَّنها

قولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2] . . .

نعم هذه هي الحكمة الإلهية من بعث الرسل من الناس أنفسهم . . ولكنَّ المشركين والكفار لم يدركوا هذه الحكمة السنية ، ولم يقدروا قيمة الرسول المبعوث منهم وإليهم ، ليتسامى بهم رويداً رويداً، ويسير بهم خطوةً خطوة نحو الأمثل والأحسن، ولذلك قالوا عنه : إنه ساحر ، وإن من اتّبعه إنما يتبع رجلاً مخدوعاً ، مغلوباً على عقله بالجنون ! . . .

﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ فتارة يقولون : هو محتاج متروك ، فلماذا لا ينزل له ربه كنزاً من السماء يستغني به عن طلب المعاش؟ وتارة يقولون: هو فقير مسكين فلماذا لا يجعل له ربّه بستاناً يأكل من ثماره وخيراته؟ وتارة يقولون: هو عاجز عن تبليغ الرسالة بمفرده فلماذا لا ينزل معه ملك يساعده على إنذار الناس بما كلّف به ؟ ولكن ، أوليسوا بهذه الأمثال التي ضربوها لك يا محمد قد ضلّوا عن الهدى ، وعن الصواب والحق ، فلا يستطيعون سبيلاً لإقناعك بتصوراتهم الخاطئة ، ولا يجدون طريقاً لفرض الحجج الواهية عليك ، كما لا يملكون شيئاً لإبطال أمرك؟ . . . انظر كيف ضربوا لك تلك الأمثال الغريبة ، ولم يدركوا الحق من ربك ، بل آثروا التقليد الأعمى ، واتباع هوى النفس حتى ضلّوا عن سواء السبيل .

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

(٢) الأحزاب : ٢١ .

٤ ـ حجة إبراهيم (ع) وجدال قومه له

يقول الله تعالى :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (١) .

في هذه الآيات المباركات بيان لهداية أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام . إذ هداه ربُّهُ قبل بلوغه ، وأعطاه الحجج ، وكشف له البراهين التي توصله إلى الرشد من عقيدة التوحيد . وذلك لسابق علمه ، سبحانه وتعالى ، بأن إبراهيم (ع) ، صالح للنبوة وأهل للرشد ، فمنَّ عليه وآتاه ما هو أهل له . . ولقد حمل ابراهيم (ع) أمر ربه ، وجاء قومه ، يبيّن لهم الرشد الذي أوتيَهُ ، والحق الذي اتَّبعه ، في سعيٍ منه لحملهم على اعتناق عقيدة التوحيد ، إلاّ أن قومَهُ أبَوْا ذلك كله ، وانبروا يحاجُّونه في جدال يظهر سخف التقليد الأعمى الذي ساروا عليه مثل آبائهم وأجدادهم . .

قال إبراهيم (ع) لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل من الأصنام والأوثان التي تعكفون على عبادتها ؟ ! . . قالوا : وجدنا آباءنا يعبدونها ، فعبدناها مثلهم . . وإذن فلم يدلوا بأي حجة عقلية أو

---

(١) الأنبياء : ٥١ ـ ٥٦ .

برهانٍ منطقي ، سوى أنهم اتخذوا العقيدة التي كان عليها آباؤهم من غير تفكير أو تمحيصٍ أو تدبّر . .

قال إبراهيم (ع) : لقد كنتم أنتم وآباؤكم بهذه العبادة ، في ضلالٍ واضح ، وفي تياهٍ عن الحق صريح . . فكيف تجعلون لهذه التماثيل قيمة ، وكيف تخلعون عليها القداسة ، وهي جمادات حقيرة من صنع أيديكم ، يمكنكم ساعة تريدون تحطيمها ، ورميها مثل سائر الأشياء التي لا نفع فيها ؟ . إن العقيدة الدينية تنبع من القيم والمثل العليا ، وليس من تقليد الآباء والأجداد ؛ والعبادةُ الحقة تقوم على البراهين العقلية ، والحجج الدالّة ، والتقدير المتحرر الطليق . .

وعندما واجههم النبيُّ الكريم بتصوره الصحيح ، وبفكره الرشيد ، سألوه قائلين :

أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟

وهل هذا إلاَّ سؤالٌ من مُزَعزَعي العقيدة الذين لم يطمئنوا إلى ما هم عليه ، لأنهم لم يأخذوه أخذ تدبر ، ولم يتحققوه تحقق وثوق ؟ فالذين يكونون معطلي الفكر والإرادة بتأثير الوهم والتقليد الأعمى ، لا يدرون أيَّ الأقوال حق . خصوصاً وأن العقيدة التي تنبثق عنها العبادة يجب أن تقوم على اليقين ، لا على الوهم المزعزع الذي لا يستند إلى برهان أو دليل . . وهذا هو التيه الذي يتخبط فيه دائماً من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة ، المستقيمة في العقل والضمير ، كما كان عليه حال قوم إبراهيم (ع) ، وهم لا يدرون أجاءهم بالحق من ربه أم أنه من اللاعبين ، الذين يحاولون العبث واللهو ، والادعاء بما لا يؤمن به حقاً وفعلاً . . .

أما إبراهيم (ع) ، فقد كان مؤمناً مطمئناً ، واثقاً من ربه ، مستيقناً من دعوته وعبادته ، ولذلك نجده بعد أنْ يَجْبَهَ عبادتهم الباطلة ، يبيّن لهم من هو الربُّ الأحق بالعبادة فيقول لهم : ﴿ بل ربكم رب السمٰوات والأرض الذي فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ .

إذن فربكم أيها العباد ، ليس تلك التماثيل التي تعبدونها ، بل هو رب السماوات والأرض الذي خلقهنَّ بسنن وقوانين تحكمهنَّ وتحكم ما فيهنَّ ومن فيهنَّ . . ولكونه مطمئناً إلى قوله ، مؤيداً بالبرهان القاطع الذي يقدمه لقومه ، يؤكد لهم أنه من الشاهدين ، العارفين بهذا الخلق العظيم ،وذلك بفضل ما آتاه الله تعالى من الرشد ، وبما هداه إلى الحق ، حتى وَصَل إلى مرتبة الشاهدين على حقيقة آلاء ربه وحقيقة الخلْق . .

٥ ـ جدال قوم نوح (ع)

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [1] .

---

(١) المؤمنون : ٢٣ و ٢٤ .

بعد أن قدَّم الله ـ سبحانه ـ في سورة المؤمنين ، وقبل هاتين الآيتين الكريمتين ، الأدلة القاطعة على كمال قدرته ، وأتبعها بذكر شمول نعمته على كافة خليقته ، عقب على ذلك بذكر إنعامه على عباده ، بما بعث إليهم من الرسل ، ومنهم نوح ـ عليه السلام ـ الذي دعا قومه إلى عبادة الله تعالى وتوحيده وطاعته ، لأنه لا إله غيره ، وأن يتّقوا عذابَهُ الذي لا مفرَّ منه ، في حال الإصرار على الكفر والإنكار . .

فما أعظمها حجة يدلي بها نوح ـ عليه السلام ـ وهو يقول لقومه : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . إنها كلمة الحق التي لا تتبدل ، والتي يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما في الوجود . . ولكن الملأ من قوم نوح (وهم سادتهم وكبراؤهم) لم يُلقوا أسماعهم لهذه الكلمة التي ترهب منها النفوس، وتخشع لها القلوب ، ولم يتدبَّروا شواهدها المحيطة بأنفسهم وبحياتهم من كل جانب ؛ ولم يستطيعوا التخلص من النظرة الضيقة المتعلقة بأشخاصهم ، وبشخص الرجل الذي يدعوهم ، ولا ارتفعوا إلى الأفق الطليق الذي يُنظر منه إلى تلك الحقيقة الفخمة مجردة عن الأشخاص والذوات ، فإذا هم يتركون الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما في الوجود ، ليتحدثوا عن شخص نوح (عٍ) ، فقالوا لقومهم : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضَّل عليكم ﴾ . . أي أنهم لم ينظروا إلى تلك الدعوة الكبيرة إلَّا من هذه الزاوية الضيقة الصغيرة ، وأنهم لم يدركوا طبيعة تلك الدعوة ولم يروا حقيقتها لأن ذواتهم الصغيرة الضئيلة كانت تحجب عنهم جوهرها ،

وتعمّي عليهم عناصرها ، وتقف حائلاً بين قلوبهم وبينها ، فإذا القضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم ، لا يفترق في شيء عنهم ، يريد أن يتفضَّل عليهم ، بأن يجعل لنفسه منزلة فوق منازلهم أو مرتبة فوق مراتبهم ، وبأن يكون متبوعاً وهم له تابعون . . وهذه النظرة تنطبق على كل المترئِّسين في أقوامهم ، وأصحاب النفوذ فيهم . فهؤلاء عندما يسمعون حديث الاصلاح أول ما يتبادر إلى أذهانهم أن الإنسان الذي يتكلم بالإصلاح إنما يريد أن ينافسهم على السيادة ، وعلى الحكم ، وعلى اقتسام المغانم ، من غير أن يعيروا أي التفاتٍ إلى ما يقوله . .

وبمثل هذه النظرة جابَهَ الكفارُ نوحاً (ع) ، إذ رفضوا أن تكون له منزلة النبوة والرسالة ، ثم عقبوا على ذلك بقولهم : ولو شاء اللَّهُ بَعْثَ رسولٍ لنا لأنزل ملائكة بذلك فلا يَدَّعينَّ نوحٌ أنه الرسول المبعوث ، ثم نحن ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه نوح من الإيمان بالله الذي لا إلَه غيره لا في عقائد آبائنا القدامى ، ولا في عقائد غيرهم من الأمم الماضية .

٦ ـ الملأ من قوم هود (ع) يحرِّضون على عدم طاعته

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٢) .

في هذه الآيات الكريمة تظهر صفات الملأ من قوم هود (ع) . فأولئك القوم قد كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة (أي بالبعث والجزاء) ولم يعترفوا بيوم القيامة والحساب ، مع أن الله أغدق عليهم نعمه في الحياة الدنيا . فبدل أن يقرُّوا بهذه النّعم الربانية، جعلوا الترف وملذات الحياة الدنيا مفسدةً لهم . . ذلك أن الترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى ، وتتأثر وتستجيب ، ولذلك يحارب الإسلام الترف ، ويقيم النظم الإسلامية على أسس تسمح بالغنى ، من غير أن تبيح للمترفين ، اللاهين عن أمر ربهم ، أن يتواجدوا داخل الجماعة المسلمة ، لأنهم كالعفن يفسد ما حوله أو كالمستنقع تسبح فيه الأوبئة والجراثيم . ومن صفات المترفين رفضهم الاعتراف بالبعث بعد الموت والفناء ، لأن نعيم الدنيا يغُرُّهم ، ويُحكِم السيطرة على عقولهم ، فلا يجدون سبباً للحياة إلاَّ في هذه الدنيا ، ولذلك كانوا على مر الزمن يعجبون من الرسول الذي ينبئهم بأن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى ، ويعتبرون ما ينبئهم به غريباً عن التصور والتصديق . .

هكذا كان قوم هود (ع) ، إذ أخذهم الترف فلم يصدقوا ببعث رسول اليهم، ولذا قال أسيادُهم : ما هذا إلاَّ بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ، ويشرب مما تشربون ، فكيف يكون رسولاً ؟ وكيف

---

(١) المؤمنون : ٣٣ ـ ٣٦ .

يكون أولى بالرسالة منا، ونحن كبراؤكم ؟ ولئن أطعتم بشراً مثلكم ، واتبعتموه فيما يدعوكم إليه ، فأنتم إذاً خاسرون ، لأنكم تفقدون ترف الحياة الدنيا ، ولا تحصلون في الآخرة على نعيمٍ أو أي شيءٍ مما يعدكم به . . ثم أوليس يعدكم بأنكم إذا متم وصرتم تراباً ، وعظاماً ، أنكم مخرجون من قبوركم أحياءً ؟ لا ، لا ، هيهات لذلك أن يحصل ، فمن يموت ويبلى ، لا يمكن أن يرجع حيّاً من جديد . وما وعدُ هود لكم بإخراجكم أحياءً إلاَّ كذب ، فلا تصدقوا وعده ، ولا تؤمنوا بما يقوله . .

إنَّ أولئك المترفين قد انقطعت الصلة بين قلوبهم وبين النفحة العلوية التي تصل الإنسان بخالقه الكريم ، ولا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ، ودقة التدبير في أطوارها ، للوصول إلى غايتها البعيدة ، تلك الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض . . فالخيِّر لا يلقى جزاءه الكامل في هذه الحياة الدنيا ، والشرّير كذلك . وإنما هما يستكملان هذا الجزاء هناك حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى التي لا خوف فيها ولا نصب ، ولا تحوُّلَ عنها ولا زوال ـ إلاَّ أن يشاء الله تعالى ـ بينما يصل المنافقون الضالون إلى درك الحياة السفلى التي تُهدر فيها آدميتهم ، ويصبحون فيها مهانين مرذولين ، حتى ليتمنَّى الكافر أن يكون تراباً ، ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ .

٧ ـ معجزة صالح (ع) لقومه

يقول الله تعالى :

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] .

إنها دائماً الحجة الواهية التي يتخذها الكافرون لجدال الرسول المبعوث إليهم ، وهي أنه بشر مثلهم ، فلا يمكن أن يكون رسولاً .. وتلك الحجة هي التي واجهت ثمودُ بها النبيَّ صالحاً (ع) ، إذ قال له رؤساء قومه : ما أنت إلاَّ بشر مثلنا . ثم زادوا : فأْتِ بآيةٍ تدلنا على أنك رسولٌ من الله بحيث تكون معجزة لا يمكن لبشر عاديٍّ أن يأتي بمثلها إن كنت من الصادقين في دعوتك النبوة .

ويشاء العلي القدير أن يحقق لرسوله الكريم المعجزة التي طلبها قومه ، وذلك بأن أخرج لهم من الصخرة الصماء ناقةً عشراء وبراء ، كما أرادوها . فلما ظهرت ، قال صالح (ع) : هذه هي الناقة . ولكن يا قوم ! لقد اشترط الله تعالى عليَّ بأن يكون للناقة يومٌ على الماء ، وأن يكون لكم يوم مثله ، فلا تجورون عليها وتأخذون الماءَ في يومها ، ولا هي تجور عليكم فتقرب الماءَ في يومكم .. ويا قوم ! لا تمسَّوا هذه الناقة بسوء ؛ وهذا تحذيرٌ لكم فإن فعلتم يأخذكم عذاب يوم عظيم ..

ولكن ماذا فعلت تلك المعجزة الخارقة بأولئك القوم ؟ لقد رأوها بأم العين ، وعايشوها في الواقع ، ومع ذلك لم يتأثروا بها لأنهم قساة ، جاحدون .. إنهم طلبوا المعجزة ، فلما تحققت لم تبعث الإيمان

---

(١) الشعراء : ١٥٤ ـ ١٥٨ .

في قلوبهم الجافة ، ولم تولد القناعة في أفكارهم المتحجرة ، ولم تطلع النور في نفوسهم المظلمة ، على الرغم من قهرها لهم ، وتحدّيهم بها . . ولذلك فإنهم لم يحفظوا عهدهم ولم يوفوا بشرطهم ﴿ فعقروها ﴾ وقتلت على أيديهم ، ولكن ماذا أصابهم بعد ذلك ؟ ﴿ فأصبحوا نادمين ﴾ على فعلتهم الشنيعة بعد أن قتلوا ناقة الله ؛ ولكن على أي شيء كان ندمهم ؟ كان على المياه التي غارت ولم يبقَ لهم ما يشربونه ولم يندموا على معصية الله تعالى ورسوله ولم يتوبوا عسى أن يغفر الله لهم ويتوب عليهم . ولذلك أخذهم العذاب الذي حذَّرهم منه صالح (ع) ، فهلكوا . . ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ . نعم إن في عذاب ثمود وهلاكهم لآية لقوم يتفكرون ، ويؤمنون بصدق النبي المبعوث . ولكن لم يؤمن من قوم صالح (ع) إلاَّ القليل الذين أنجاهم الله تعالى معه من ذلك العذاب .

٨ ـ موسى وهارون (ع) والسلطان المبين

يقول الله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ (١) .

تبين هذه الآيات الكريمة أن اللَّهَ تعالى أرسل موسى وأخاه

---

(١) المؤمنون : ٤٥ ـ ٤٨ .

هارون عليهما السلام ، مؤيَدَيْن بآياتٍ بيّنـات تدل عـلى حقيقة وجـود الله تعالى ، وعلى وحدانيته وتفرّده في الألوهية والربوبية ، كما تدل على صـدق بعثهـما ؛ ومـزوَّدين بسلطان مبـين من العلم ، ومن البـراهـين والحجج التي يستطيعان بها مواجهة فرعون وملإِ ه (من أشراف القـوم وكبرائهم لأن الباقين كانوا أتباعاً لهم يسيرون بحسب إرادتهم) .

وجاء موسى وهـارون (ع) بالآيـات البيّنات وبـالسلطان المبين إلى فـرعون وملإِ ه ، فاستكبـروا عن دعوتهـما إلى الإيمان ، وتجبـروا ، وتعاظموا ، لأنهم كانوا قوماً عـالين في الحكم ، والسلطان ، والقـوة ، والثراء ، وما إلى ذلك من الشؤ ون الماديـة التي يتعالى بهـا الناس عـلى بعضهم البعض . .

ويبينّ النص القرآني بعض جـوانب ذلك الاستكبـار من فرعـون وقـومه إذ قـالوا : ﴿أنؤمن لبشـرين مثلنا، وقـومهما لنـا عـابـدون﴾ ، فهم لم يقـروا بمـوسى وهـارون رسـولـين من الله تعـالى لأنهما بشـران مثلهم . ولأنهما من بني اسرائيل ، الذين كانوا عبيداً لهم يستخدمونهم بزراعة الأرض ، وجمع الغلال ، وكل ما يـوفر لهـم الثـروة والراحـة ، حتى وصـل الاستخفـاف من فـرعـون وملإِ ه ببني اسـرائيــل إلى حـد الاستعباد والذل والقهر بأنواعه البغيضة . . .

نعم لقد جاءهم موسى وهارون (ع) بدعوة الحق إلى الإيمان ، فكـذبوهمـا ، ولم يؤمنوا بشيء ممـا قـالاه لهم أو فعـلاه ، فحق عليهم العقـاب ، فكانـوا من المهلكين بـأمر من الله تعـالى عندمـا أغرقهم في اليم . . .

مثلُ الحيَاة الدنـيَا

مثل الحياة الدنيا

١ ـ مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزل من السماء

يقول الله تعالى :

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١)

إن أكثر الناس ، في أيامنا هذه ، يركنون إلى الدنيا ، ويسلّمون زمامهم لها ، مغرقين أنفسهم في أوضارها وأوحالها ، لظنهم أنهم قادرون عليها ، متحكمون فيها ، بما لديهم من وسائل العلم الحديث ، وأنواع المخترعات والمكتشفات التي بلغت في نظرهم

---

(١) يونس : ٢٤ .

ذروتها ، كغزو الفضاء ، ومحاولة اكتشاف ما في الكون من عجائب الصنع وخفي الأسرار . .

ولشدة ما سرَّت قلوب أهل الدنيا نشوة تقدمهم العلمي المادي ، هزُّوا أعطافهم صلفاً وكِبراً ، وتمادوا في غرورهم وخيلائهم ، متصورين أن دنياهم عجينة لينة بين أصابعهم يشكلونها وفق مشيئتهم ، ويكيّفونها بحسب رغباتهم وأهوائهم . . ولكنهم سرعان ما يسقط في أيديهم ، وتدور أعينهم في محاجرها فزعاً وجزعاً ، وتقف قلوبهم رعباً ورهباً ، عندما يفاجئهم القضاء ، ويحل بهم الفناء ، ويضع العدم ـ على غير موعد معهم ـ خاتمة لحياتهم الدنيا ، ويصبحون في ضمير الغيب أثراً وذكرى ومثلاً . . كأن لم يغنوا في دنياهم عندما عجزت بما فيها ، ومن فيها ، عن أن تردَّ عنهم غائلة قضاء ، أو تمنع ضربة قدر ، أو تبعد شبح فناء أو وباء يعقبه عذابٌ أليم بما كانوا يستكبرون عن الحق .

والقرآن الكريم يحذر من هذه العاقبة في أكثر من موضع ، وينعي على أهل الدنيا استكانتهم إليها ، وخدمتهم لها . وهو في الوقت نفسه لا يحارب الدنيا محاربة دائمة مطلقة ، بل هي في نظره مرغوبة ومطلوبة أيضاً : مرغوبة ليتخذها المرء مطيةً يصل بها إلى النعيم الأخروي ، وسبيلاً يَعْبُره ليعمر حياته الأخرى الخالدة ، ومزرعة يبذر فيها صالح العمل ، وفعل الخير ، والدعوة إلى الحق ؛ وينشر في أرجائها الهدى والسلام ، ليجنيَ في آخرته الثواب الجزيل ، والأجر العظيم ، والنعيم المقيم . فالعزوف عن الدنيا جريمة في نظر الإسلام ، بدليل أن الله جلَّ شأنه يقول : ﴿ ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ﴾ . ويقول تعالى : ﴿ قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده

والطيبات من الرزق ﴾ . وفي مخاطبته لرسوله الكريم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ أي فإذا فرغت من أمور الدنيا وشؤونها ، فانصرف إلى عبادة ربك . . والرسول (ﷺ) يقول : « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا . ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » . كما يقول (ﷺ) : « نِعْمَ المطية الدنيا فارتحلوها تبلّغكم الآخرة » . ويقول (ﷺ) أيضاً : « إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

إذاً فالدنيا دار ممرٍّ وفناء ، والآخرة دار مقرٍ وبقاء . ومن وعى هذه الحقيقة أدرك أن نتيجة الأعمال في هذه الدنيا لا تذهب أدراج الرياح ، بل لا بد وأن تظهر في الآخرة عند الحساب ؛ كما تبيّن له أنه لا ينبغي أن يعمل ويركن إلى الحياة الدنيا وحسب ، بل عليه أن يجتهد ليلاقي وجه ربه ـ العزيز الكريم ـ بقلب سليم ، وعمل صالحٍ ينفعه في الآخرة . . على أنَّ هذا التناسق في إقامة التوازن ما بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، كثيراً ما تذهب به مباهج هذه الدنيا التي تفتن الإنسان ، وتغرُّهُ بمتاعها الزائل ، فينسى أن اللَّهَ تعالى يحضُّهُ على عدم التعلق بأسبابها ، بصورة مطلقة تجعله ينسى الآخرة ، وينسى معها أنَّ اللَّهَ تعالى يرقبه دائماً من عليائه ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد . والعجيب في الأمر كيف أن هذا الإنسان لا يستحي من أن يأتي عملاً يغضب اللَّهَ تعالى ، وكيف أن نفسه تسوّل له أن يتبع الباطل ، وأن يفعل الشر ، وهو يعلم أن الرقابة العلوية مسلَّطة عليه في كل آنٍ . . وأن ربَّهُ يدعوه ، في قرآنه المجيد ، لأن يعقل ، ويتفكَّر ، ويتبصَّر ، ثم يسلك السبيل القويم ! . . ولو عَقَلَ الإنسان

لأدرك أن طاقته الحيوية ـ التي هي غرائزه وحاجاته العضوية ـ إنما هي من صنع الله تعالى الذي خلقه في أحسن تقويم ، فلا يجوز له أن يبذل تلك الطاقة في معصية الرحمان ، أو أن يستهلك تلك الغرائز والحاجات في اتِّباع الشيطان ، وذلك بإيثاره هذه الحياة الدنيا على الآخرة في كل شيء ، في حين أنه كان عليه أن يستخدم ما أودع الخالق فيه من خصائص بشرية وقدرات إنسانية في طاعة الله تعالى ، ولنفع نفسه ، وفائدة الآخرين ، وذلك في عمل متناسق ، يوفّق بين متطلبات الحياة الدنيا ومقاصد الآخرة . .

من أجل ذلك يضرب القرآن الكريم عن الحياة الدنيا أمثلةً كثيرة ، ويرسم في كل واحد من هذه الأمثال ـ بأسلوبه الفني وظلاله ورسومه ـ أكثر من لوحة تبرز مفاتن الدنيا الفانية ، وغرورها الخدّاع وظلها الزائل ، لعل ذوي الفطرة السليمة ، وأصحاب الفكر النيّر يؤوبون إلى بارئهم ، ويفيئون إلى ظلال الحق ، فيعملون لأُخراهم ، كما يعملون لأُولاهم .

تقدِّم الآية المباركة، في مطلع هذا البحث، المثل عن الحياة الدنيا وتشبِّهها بالمطر الذي أنزله الله تعالى من السماء على الأرض، حتى إذا اختلط به نبات الأرض، وشرب منه، على اختلاف أنواعه مما يأكل الإنسان والحيوان على حدٍّ سواء ، ثم أَزْهَرَ هذا النبات وأينع فزخرف الأرض ، وازيّنت هي بألوانه ، واكتست بالحلل المزركشة الجميلة ، فبانت في أبهى منظرها ، وأروع رونقها ، حتى لكأنها عروس لبست فاخر الثياب، وازدانت بأثمن الحلى، وتعطَّرت بأفخر الروائح العطرة ، فصَارت بهجة للناظرين ، كما هي الطبيعة في رونقها

الجميل مبعثاً للأنس . . . كل ذلك من شأنه أن يوحي بالتأمل ، والتفكُّر، في هذه التغييرات التي تحصل في الأرض، ولكن من القادر على إحداث هذه التغييرات ، والتحكم فيها ؟ قد يظن ضعاف العقول من الناس أن الأرض لم تزدهر إلا بجهدهم ، ولم تتزيّن إلاّ بإرادتهم ، حتى ليظنوا بأنهم مالكون لها ، وصاحبو الأمر فيها ، لا يغيّرها عليهم مغيّر ، ولا ينازعهم فيها منازع . . ولكن أين تذهب تلك الظنون والتصورات عندما يأتيها أمر الله تعالى سواء في آناء الليل أم في أطراف النهار ، ليقضي على كل ما فيها ، ويفني نباتها حتى يصير كالحصيد اليابس الهش لا نفع فيه ولا خير ، فكأنما لم تكن الأرض على حالٍ من الزخرف والزينة ، وكأنما لم تغن بشيء مما كانت عليه بالأمس ، حتى لا يجد أهلها ما يأكلون منه أو يسرُّون لرؤيته . . .

إذن فمثل الحياة الدنيا ، كمثل هذه الأرض ، لا متاع دائم فيها ، ولا نعيم باقٍ إلاّ بأمر الله سبحانه ومشيئته . من هنا يأتي السياق القرآني ليصور هذه الحقيقة في مشهد من مشاهده التصويرية الحافلة بالحركة والحياة ، ليؤكد للإنسان أن تلك الحقيقة هي من المشاهدات التي تقع كل يوم ، ويمرُّ عليها الأحياء وهم غافلون عنها ، ولا يعيرونها التفاتاً أو انتباهاً . . بينما هي في حقيقتها آيات بينات يفصّلها سبحانه وتعالى لمن يتفكّر فيعتبر ، ولمن يستدل فيتّعظ . وبتفكيره واستدلاله ، وما انبثق عنهما من اعتبار واتعاظ يأتيه اليقين على أنَّ الأمر كله لله تعالى في هذه الأرض ، وفي هذه الحياة الدنيا ، التي لا بد أن تزول عندما يأتيها أمر العلي القدير ، تماماً كما يزول النباتُ بعد أن يصير هشيماً تبعثره الرياح وتزيل معالمه من مواضعها فلا يبقى منه أي أثر . .

ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة عن الحياة الدنيا في آية أخرى ، حيث يقول تبارك وتعالى : **﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾** (١) .

نعم إنه الأمرُ للنبي محمد (ﷺ) من ربه العلي القدير ليضرب للناس المثل عن تغيرات الحياة الدنيا وفنائها وتقلباتها بالنبات الذي يخرج من الأرض بعد أن ينزل عليها المطر من السماء ، فيختلط بترابها ويُحيي نباتها ، ثم ينمو وينشط ، ويلتف بعضه على بعض حتى يصير خيراً للناس في فائدته ، وفي حسنه وغضاضة منظره ، ثم لا يلبث وقد انتهى أجله أن يتحول إلى هشيم يتفتّت ، وتذروه الرياح ، ثم تنقله من موضع إلى موضع ، ليتبعثر في سائر الجهات كأنه لم يكن . . وكذلك تتقلب الحياة الدنيا بأهلها من حال إلى حال ، ليأتي الفناء في آخر المطاف ، ويزول الناس وأحوالهم جميعاً ، بصورة إفرادية أو جماعية ، بقضاء الله تعالى ومشيئته لأنه على كل شيء قدير ، وقدرته ـ سبحانه ـ على الإحياء والإفناء ـ كقدرته على إنبات النبات وتصييره هشيماً تذروه الرياح .

والقرآن الكريم في هذه الآية المباركة ، يعرض مشهداً قصيراً خاطفاً ليلقي في النفس ظل الفناء والزوال ، ولذا استخدم النسق اللفظي في تقصير عرض المشاهد ، في ثلاث جمل قصار ، وبالتعقيب الذي تدل عليه ﴿ الفاء ﴾ ـ ﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ ـ

---

(١) الكهف : ٤٥ .

﴿ فأصبح هشيماً تذروه الرياح ﴾ ـ فما أقصرها حياة ، وما أهونها على الله القدير جلَّ وعلا .

٢ ـ الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ

يقول اللَّهُ تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾[1] .

الحياة الدنيا لعب ولهو حين لا يكون بعدها غاية أبقى وأكرم ، وحين تقاس لذاتها مقطوعة عن منهج الله تعالى الذي يجعلها مزرعة الآخرة ، ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذي يستحق وراثة الدار الباقية . . وهذا هو ما تُشير إليه الفقرة التالية في الآية : ﴿ إن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ﴾ . فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذي يخرجها عن أن تكون لعباً ولهواً ، ويطبعها بطابع الجد ، ويرفعها عن مستوى المتاع الزائل إلى مستوى الخلافة الراشدة المتصلة بالملأ الأعلى . ويومئذٍ لن يكون ما يبذله المؤمن التقي من عرض هذه الحياة الدنيا ضائعاً ولا مقطوعاً ، فعنه ينشأ الأجر الأوفى ، في الدار

---

(١) محمد : ٣٦ ـ ٣٨ .

الأبقى . ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ كلها في الصدقة ، وإن أوجب عليكم الزكاة في بعض أموالكم ، لأنه ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ أي إن يسألكم ويطالبكم بالتصدُّق بجميع ما في أيديكم تبخلوا ، فيلطف في الطلب بأن يعدكم الثواب الجزيل في حال إنفاق القليل إيتاءً للزكاة ؛ ومما لا شك فيه أن البخل يخرج الاحقاد التي في القلوب ، والعداوات الباطنية . ذلك أن الفقراء عندما يأخذون مالاً من الأغنياء يدعون لهم بالتوفيق والسعة ، ولا يحملون لهم في قلوبهم إلا المحبة والتقدير ، ولكن عندما يبخل الأغنياء ولا ينفقون من أموالهم شيئاً على الفقراء ، فإن هؤلاء يحملون الضغينة والحقد عليهم . . ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله ﴾ ما فرض عليكم ﴿ فمنكم من يبخل ومن يبخلُ فإنما يبخل عن نفسه ، والله هو الغني ﴾ عن نفقتكم ، وعما عندكم من الأموال ، لأنه يرزق المحتاجين بغير حساب ؛ فبيده الرزق والنعمة ، ورزقه كثير ، ونعمه لا تحصى ، وهو سبحانه غني عن عباده ؛ ولكنكم أنتم الفقراء ، أيها العباد ، إلى ما عنده ـ سبحانه ـ من الخير والرحمة . وهو تعالى عندما يأمركم بالانفاق ، لا يأمركم لحاجته ، ولكن لتنتفعوا به في الآخرة . ﴿ وإن تتولوا ﴾ بأن تعرضوا عن طاعته تعالى ، وأوامر رسوله (ص) فإنه يستبدل قوماً غيركم ، أمثل وأطوع له منكم ، ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ فيما أنتم عليه من البخل ، بل يكونون خيراً منكم في الطاعة والمعاملة .

ويقول الله تعالى بهذا المعنى بالذات :

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى

ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (١) .

فالحياة الدنيا عندما تقاس بمقاييسها هي ، وتوزن بموازينها ، تبدو للناظر أمراً عظيماً هائلاً . ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئاً زهيداً تافهاً . وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبة أطفال ، بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة !

لعب ولهو ، وزينة ، وتفاخر وتكاثر . . . هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من لعب هازل وجدٍّ حافل ، واهتمام شاغل . . ثم يمضي السياق فيضرب لها مثلاً مصوَّراً على طريقة القرآن الكريم المبدعة : ﴿ كمثل غيث أعجب الكفار نباته ﴾ . والكفار هم الزراع . فالكافر في اللغة هو الزارع ، يكفر ، أي يحجب الحبة ويغطيها في التراب . ولكن اختياره هنا فيه تورية وإلماح إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا ﴿ ثم يهيج فتراه مصفرّاً ﴾ حاضراً للحصاد . فهو موقوت الأجل ، ينتهي عاجلاً ، ويبلغ أجله قريباً ، ﴿ ثم يكون حطاماً ﴾ . . وينتهي شريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة المأخوذة من مشاهدات البشرية المألوفة . . ينتهي بمشهد الحطام المتناثر ! .

أمَّا الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، وهو يستحق أن يُحسب حسابه ، ويُنظر إليه ، ويُستعد له : ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد

(١) الحديد : ٢٠ .

(لأعداء الله) ومغفرة من الله ورضوان (لأوليائه وأهل طاعته) ﴾ . . فهي لا تنتهي في لمحة كما تنتهي الحياة الدنيا ، ولا تصير إلى حطام كالنبات البالغ أجله . . بل هي حساب وجزاء . . ودوام . . يستحق الاهتمام ! ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ . فليس لهذا المتاع حقيقة ذاتية ، وإنما يستمد قوامه من الغرور الخادع ، كما أنه يُلهي ويُنسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع . وهي حقيقة حين يتعمق الإنسان في طلب الحقيقة . حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ، ولا إهمال عمارتها وخلافتها ، التي أناطها الخالق بهذا الكائن البشري ، وإنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل ، وجاذبيته المقيدة بالأرض .

ويقول الأستاذ محمد فريد وجدي في كتابه « مقدمة المصحف المفسَّر » تحت عنوان « الدنيا في نظر القرآن » : « ما من فيلسوف أو شاعر أو متأمل في الوجود إلا وحقر الدنيا واشتكى منها ، لتوالي آفاتها وتتابع حسراتها ، فلا لذة فيها إلا وهي مشوبة بألم ، ولا راحة إلا وهي مصحوبة بتعب ، فلم تَصْفُ لملكٍ ولا عالم ولا جاهل . ولكن الناس مالكهم ومملوكهم ، وعالمهم وجاهلهم ، ومؤمنهم وكافرهم ، وإن اتحدوا في هذا الذم إلا أن طرائقهم فيها على غاية التناقض ؛ اتحدوا كلهم في المقدمة واختلفوا في النتيجة ؛ فمنهم المتكالبون عليها ، المتفانون في جمع حطامها ، فكان ذلك التكالب مؤدياً إلى التقاطع والتنابذ ، وتعمد الشرور التي تزيد دنياهم نقصاً ، وحياتهم تنغيصاً . وهو حال شديد التناقض ، الواقعون فيه أشد الناس قدحاً

لأنفسهم وعجباً من حالهم . ومن الناس من عرف للدنيا هذه الحال ، فانقطع عنها ونبذها ولم يعبأ منها إلا بما يسد الخلة ويقيم الأود . ولكن إذا كان القسم الأول شديد التناقض ، فالثاني مفرّط لا يلبث أن يقع تحت سيطرة القسم الأول ، لأن الدنيا لمن غلب ، ولا غلبة إلا بمادة . . .

جاء الإسلام والناس على هذين الاتجاهين . فأتى للأولين من أنواع العبر ما يقتلع حب الدنيا من أنفس المتهورين في حبها ، ويريهم حقارتها ونقصها بمثل قوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ - ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ﴾ - ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾ - ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ﴾ . .

أتى سبحانه وتعالى بمثل هذه الآيات ، ولكنه شفعها بما يجب على الحي أن يعمله في دنياه من سعي وراء الحصول على المادة ، حتى لا يقع أهل هذا الدين تحت أسر الأمم المادية ، فقال تعالى : ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ . وسمّى المال خيراً ما دام المقصود منه طلب الحق ، فقال تعالى : ﴿ فإن ترك خيراً الوصية ﴾ وسمّاه فضلاً فقال تعالى : ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ . والمال لم يكن خيراً وفضلاً من الله تعالى إلا لأنه مكتسب من حِلّ ، لا مأخوذ بقطع رحم ، ولا بمنافسة تجرُّ إلى خراب .

بهذه الحكمة العالية أشرَبَ القرآن نفوس أهله خصلتين

ساميتين : أولاهما ، ترك الدنيا لعشاقها ، وثانيتهما : أخذ ما يقيمون به أَوَدَ حياتهم منها ، ويحميهم من الوقوع في أسر عبادتها. ولا نرى ديناً من الأديان حل هذه المسألة على هذا النحو . وقد أيد المسلمون هذه الحال فظهر على حركاتهم وسكناتهم ، وأسسوا على قاعدته مدنيةً فاضلة قامت على أعدل صراط الفضيلة حتى قال اللّهُ تعالى فيهم : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

٣ ـ المؤمن والكافر لا يستويان مصيراً

يقول الله تعالى :

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ (١) .

تبين هذه الآية الكريمة الفرق بين من يؤتى نعيم الآخرة ومن أوتي نعيم الحياة الدنيا . . فمن يؤتى نعيم الآخرة هو من وعده ربه وعداً حسناً من ثواب الجنة ونعيمها جزاء على طاعته ، وهو ملاقيه وسوف يناله ويحصل عليه حتماً ، لأنَّه سبحانه لا يخلف وعده .

أما من أوتي متاع الحياة الدنيا ، من المال والبنين ، أو من الجاه والسلطان ، أو من الصحة والأمان . . . وما إلى ذلك مما يتمنَّاه الإنسانُ ويسعى إليه ، ثم لم يستخدمه في سبيل مرضاة الله تعالى ، ولا في نصرة دينه ، والعمل بما فيه نفع نفسه ، ونفع الآخرين ، فسوف يكون يوم القيامة من الخاسرين ، عندما يعيده الله تعالى حيّاً

---

(١) القصص : ٦١ .

بعد فنائه ، فيقف بين يديه ـ عزَّ وجلَّ ـ محضراً للحساب والعقاب لا يتخلّف عنهما ، بل يساق إليهما ويزج في النار بعد حساب عسير .

إذن فهل يكون حال الأول الذي أوتي نعيم الآخرة مثل حال الثاني الذي أوتي متاع الحياة الدنيا ؟ كلا ! . . لا يكون مصيرهما سواءً ، لأن نعيم الدنيا مشوب بالغموم والهموم ، ومعرَّض للزوال والفناء ، بينما يكون نعيم الآخرة خالصاً من كل شائبة ، صافياً من كل كدر ، دائماً لا يفنى ولا يزول .

الذين يتّبعُون الأهوَاء

الذين يتّبعون الأهواء

١ ـ الذين عطلوا مداركهم هم الغافلون

يقول اللّهُ تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (١) .

لقد ذرأ اللّهُ تعالى لجهنم (أي خلق لها) كثيراً من الجن ومن الناس ، من الذين بعدوا عن الهدى ، وعن الانتفاع بالإيمان ، وعن العمل بتعاليم السماء التي بلّغها الأنبياء والرسل .

ويصف النص القرآني أهل النار أولئك بأن لهم قلوباً قد طبع عليها فصارت مغلقة لا ينفذ إليها الإيمان ، لأنهم لم يجهدوا عقولهم للاهتداء إلى هذا الإيمان . ولهم عيون لا يبصرون بها الآيات الدالّة

(١) الأعراف : ١٧٩ .

على وجود الله تعالى فكأنما صارت عُمياً لا تحركها أنوار الحق المبين . . ولهم آذان لا يسمعون بها الذكر العظيم والوعد والوعيد ولم يعوا دعوات الأنبياء والرسل وترغيبهم وترهيبهم ، ولا سمعوا آيات الحمد والثناء تصدح بها حناجر العباد ، وتغنيها أناشيد الطير والحيوان ، فكأنما صُمَّت عن الوعي والتقدير . .

أولئك هم الكثير من الجن والإنس ، الذين قلوبهم لا تفقه ، وعيونهم لا تبصر ، وآذانهم لا تسمع ، فلا يأتي منهم ما يمكن أن يؤهلهم للارتقاء إلى مصافِّ المؤمنين الواعين ، المتفكرين ، العاملين ، فصاروا وكأنهم مخلوقون للنار . .

وقيل إن المقصودين بهذا الوصف - في هذه الآية الكريمة - هم اليهود - أو أهل الكتاب عامة - لعظم ما أقدموا عليه من تكذيب لرسول الله (ﷺ) بعد علمهم بأنه النبي الموعود الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . .

والحقيقة أنه ما من أحدٍ ينأى عن الإيمان الصحيح ، وعن الدين الحق ، والتصديق بخاتم النبيين (ﷺ) إلَّا كان مثله كمثل من لهم قلوب لا يفقهون بها ، وأعين لا يبصرون بها ، وآذان لا يسمعون بها ؛ لأنهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليؤمنوا ، ولا حركوا العقول التي وهبوها ليفقهوا ، مع أن دلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود ، وفي الرسالات السماوية ، تدركها العقول والقلوب المفتوحة ، والبصائر المتفتحة . . أما هم فقد عطَّلوا هذه الأجهزة التي وهبهم إياها خالقهم ، ولم يستخدموها ، فعاشوا غافلين عنها ، لا يفكرون بها ، ولا يعتبرون . ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ﴾ لأن الذين يغفلون عما حولهم من آيات الله تعالى في أنفسهم وفي الحياة

والكون ، وعما يمرُّ بهم من الأحداث والتغيرات ، فلا يرون فيها يدَ الله تعالى ، يكونون كالأنعام بل أضل من الأنعام . . ذاك أن للأنعام استعدادات فطرية تبصر بها منافعها ومضارها ، فتلزم بعض ما تبصره . . أما الجن والإنس فقد زوّدوا بالاستعدادات الفطرية ، وبالعقل المدرك ، والقلب الواعي ، والعين المبصرة ، والأذن الملتقطة . . فإذا معظمهم لم تفقه قلوبهم معاني الحياة وغاياتها ، ولم تبصر عيونهم مشاهدها ودلالاتها ، ولم تسمع آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها ، فإنهم وهذه أحوالهم ، يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية لها .

٢ ـ مثل من اتَّخذ إلٰهَهُ هواه

يقول الله تعالى :

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (١)

يقول الله سبحانه لرسوله الكريم (ﷺ) : ألا ترى يا محمد جهل من أشرك بالله ؟ ألا تلاحظ أنه اتّبع هواه على ما فيه من جهلٍ ، فجرَّه جهلُهُ إلى الشهوة والطمع والحسد ؟ .

لقد جعل هواه غاية وهدفاً له ، حتى غدا عنده إلٰهاً يعبده ويأتمر بأوامره ونواهيه ! . . أوليس في ذلك إنكارٌ للحق الذي حكم به عقله ، وتنكرٌ لفطرته السليمة التي فطره الله سبحانه عليها ؟ فلست ـ

---

(١) الفرقان : ٤٣ و ٤٤ .

يا محمد ـ وكيلاً عليه ، ولا أنت باستطاعتك أن تكون حافظاً يحفظه من عبادة هواه ، بل لست قادراً ـ يا محمد ـ على أن تعيده إلى طريق الهداية إذا لم يتدبَّر هو أمره ، ويتفكَّر بحاله ومآله ! .

وهؤلاء الذين غرَّتهم أهواؤهم ، فنسوا ربهم ، وما يأمرهم به من السمع والطاعة ليست لديهم قابلية للهدى ، ولذلك ينبّهُ العزيزُ القديرُ رسولَهُ الكريم بقوله له : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون » ؟ لا ، لا تظننَّ فيهم خيراً ، فهم لا يسمعون ما ترشدهم وتعظهم به ، ولا يفقهون شيئاً مما تدلي به من الحجج والبراهين والشواهد ، لأنهم لا يريدون هدايةً من الله ، ولا استماعاً إلى رسوله . إن هم ، وبتلك الصفات ، إلَّا كالبهائم التي تسمع النداء ، ولكن لا تعقله . بل هم أكثر ضلالاً من البهائم ، لأنهم رغم فهمهم لقولك وتمكنهم من المعرفة ، لا يحبون أن يصدّقوك ، بينما الأنعام لا تملك ملكة الفهم والوعي بل ألهمت فقط منافعها ومضارها المعيشية ، وهي بذلك لا تقدم على ما يضرها ، في حين أن أولئك قد عرفوا طريق الهلاك ، وطريق النجاة ، فسلكوا الأولى وبعدوا عن الثانية ، مُوقِعين أنفسهم في التهلكة ! أوليسوا في ذلك أضلَّ طريقاً من البهائم ؟ فهل أحقر شأناً من مخلوق يؤثر اتباع أهوائه فينقاد لها حتى يصير أقل قيمة من الحيوان ؟ فما بالك بالإنسان الذي وهب العقل والنطق والقدرة على التمييز والاختيار ، ثم يعطّلها جميعها ويخضعها لأهوائه فقط ، حتى يصير هو بالتالي عبداً لهذه الأهواء ؟ ! . . .

٣ - المشترون اللهو والعبث هم الضالون والمضلّلون

يقول عز وجل :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] .

كثيرون من الناس يسعون وراء اللهو في الحديث كأنما يشترونه شراءً ، ويدفعون أثمانه من جيوبهم . والمجالس التي تحفل بلهو الحديث معظمها تلهي عن ذكر الله وعن طاعته ، بما توفره من الأباطيل والأكاذيب التي تغري ضعاف العقول والنفوس . . بل وبعض المجالس لا تكتفي - أحياناً كثيرة - بالهزل الإباحي الذي يندى له الجبين ، بل توغل في الفكاهات التي تتناول الأنبياء والرسل ، بل وأحياناً العزيز الجبَّار - العفو العفو يا الله - وفي وهم أصحابها أنهم « سادة » في الهزال والتفكهة !! . . . كما وأننا نلاحظ أن معظم الناس - في عصرنا هذا - يفضلون الملاهي وموائد القمار على المساجد ، والمعازف وندوات التهريج على تلاوة القرآن ومجالس العلم والأدب . . أوليس في ذلك استحواذ للشيطان عليهم . . أوليسوا هم من ينطبق عليهم قول الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ﴾ ؟ أوليس تلك المجالس هدراً للوقت ، وسفهاً للعقول ، ورذيلةً للأخلاق ؟ فهل يمكن أن تؤتي تلك المجالس خيراً ، أو أن تجلب حصيلة تليق

---

(١) لقمان : ٦ و ٧ .

بقيمة الإنسان ، وتتوافق مع وظيفته عندما استخلف في الأرض من أجل عمارتها بالخير والعدل والصلاح ؟ ! . . .

ولعلَّ المثال البارز على هؤلاء الناس كان كفار قريش ، وكفار جميع الأمم والشعوب . . أما كفار قريش فكان مثالهم الأسوأ ذلك اللعين أبو جهل ؛ إذ أَوْلَمَ يوماً في بيته ، وقد رغب في الهزء من النبي (ص) فقال لمدعويه : ألا أطعمكم من الزقوم الذي يخوفكم به محمد ! ثم أحضر لهم زبداً وتمراً ! . .

وقد كان المشركون يفعلون مثل أبي جهل في شتى المناسبات ، ليضلوا عن سبيل الله تعالى ، فصار أمرهم هم أنفسهم إلى الضلال ، ولم يكونوا ليفعلوا ذلك إلَّا نتيجة لجهلهم المتأصل في قلوبهم وعقولهم ، فلو كانوا على علم بعاقبة هزئهم ولغوهم في الحديث المقيت ، لما فعلوا ما كانوا يفعلون . .

على أن هذا النص ، لا ينطبق على كفار قريش وحسب ، بل هو تصوير لنموذج من الناس موجود في كل زمان ومكان ، فإذا سمع أحدهم آيات الله تعالى تتلى عليه ، تلهَّى عنها بأي شيء آخر ، بل يولّي عنها منكراً ، وفي نفسه ترفع عن الاستماع لها ، كأن لم يسمعها، أو كأنها لم تعنِ إليه شيئاً. بل تراه يحسُّ بالصوت الذي يتلو هذه الآيات ثقيلاً عليه حتى لكأنَّ فيه ضرباً مبرحاً لجسده ، أو طنيناً عنيفاً ، ينفذ إلى داخل أذنيه ، فيهيجها بالألم والعذاب .

فالقرآن الكريم يبشر هذا النوع من روَّاد العبث واللهو بعذاب مهين ، تهان به نفسه وحواسه وجميع أوصاله ، بل ويبشره بعذاب أليم يوم القيامة . . أمّا استعمال لفظ البشارة في هذا المقام ، فما هو إلَّا

نوع من التهكم الساخر ، الذي يليق بأولئك المستهزئين المستكبرين .

٤ ـ الله تعالى قادرٌ على إهلاك الكافرين واستبدالهم

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ (١) .

هذه الآية الكريمة تتناول الكفار . والله سبحانه وتعالى يخبر نبيَّه الكريم محمداً (ﷺ) عن حالهم ، ويبيِّن أنَّهم دائماً يؤثرون الحياة الدنيا بما فيها من الملذات والمتع ، ويتركون وراءهم يوم القيامة العسير على من نسي أثقاله وأحماله . . وكأنه تعالى أراد أن يقول بأنهم يضعون أمامهم ونصب أعينهم دار الحياة الدنيا ، ويخلِّفون وراءهم دار الآخرة ، فلا يعيرونها أي اهتمام ، مع ما يجب على الانسان أن يعمله لها ويحرص على أن تكون هي هدفه وغايته . . وبما أنهم لا يؤمنون بيوم الآخرة الثقيل الوطأة ، الدقيق الحساب ، ولا يعملون له ، فهم ـ إذاً ـ يُنكرون تفضُّل الله تعالى بإيجادهم وخلقهم بإحكامٍ ، وربط أجزاء أبدانهم بإتقان ، ووصلها بعضها ببعض بالعروق والأعصاب ، وأنه لولا إحكام هذا الخلق ، وعلى هذا التنسيق والتنظيم والترتيب الذي يعرفه أهل العلم ، وأهل الطب منهم خاصة ، لَمَا أمكن لهم أن يفعلوا أيَّ شيء ، أو ينتفعوا بها بأي شيءٍ . . ولذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ أي أنه سبحانه هو الذي

---

(١) الدهر : ٢٧ و ٢٨ .

خلقهم ، ولو شاءَ لأهلكهم وأتى بأناسٍ غيرهم ، فجعلهم بدلاً منهم ، ولكن يبقيهم لإتمام حكمته في خلقه ، وهم لا يفوتون قدرته على كل حال ، وسيلاقون جزاء كفرهم يوم القيامة ويَرون نتيجة أعمالهم .

٥ ـ لا يستوي من كان على بينةٍ مع من اتبع هواه

يقول الله تعالى :

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ (١) .

قد صدر هذا القولُ من ربِّ العالمين على وجه الاستفهام والاستهجان والتوبيخ للكفار والمنافقين والملحدين حيث قال تعالى : ﴿ أفمن كان على بيّنةٍ من ربه ﴾ وعَنَى به المؤمن الذي هو على يقين من دينه ، وعلى حجة واضحة من اعتقاده في التوحيد والشريعة ، فهل يجوز أن يكون هذا ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ بالكفر فرآه حسناً ، ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ أي شهواتهم ، كعبادة الأوثان ، والآثام ، وارتكاب الحرام فكان اتباعهم للأهواء بلا ضابط يرجعون إليه ، ولا أصل يقيسون عليه ، ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل ؟؟

لا يتساوى هؤلاء الكفار مع أولئك المؤمنين ، لأنها لا تصحُّ المماثلة بين الفريقين . فهم يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً ، ولا يمكن أن يستووا جزاءً ، ولا مصيراً ولا مآلاً .

---

(١) محمد : ١٤ .

التربية والإرشاد

التربية والإرشاد

١ ـ الابتلاء في الحياة الدنيا

يقول الله تعالى:

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (١) .

الإنسان في هذه الحياة محلٌ للابتلاء ، أو موضع للفتنة والإغواء . . فقد يُبتلى المرء بصحته ، أو بكرامته ، أو براحة باله ؛ وقد يتعرض في وقت من الأوقات لخسارة في تجارته أو أرزاقه ، وما إلى ذلك من الأضرار المعنوية والمادية التي قد تصيبه . . . إذن فحالات الضرر والابتلاء كثيرة ، ولا يفلت منها امرؤ على وجه الأرض . والحكيم ، في مثل هذه الحالات ، هو من أقنع نفسه بوجوب التأسّي والصبر ، ورد الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى ، الذي يهبه العزاء ، والقدرة على الاحتمال ، بما يخفف عنه البلاء ، ويقلّل من وقع المصيبة . .

---

(١) آل عمران : ١٥٤ .

وبالمقابـل قد يصيب المـرء غنىً وثروة . . وقـد يتقلَّد مناصب أو وظـائف . . وقـد يكـون مـن ذوي الحكـم والسـلطان ، أو الجـاه والنفوذ . . وما إلى ذلك من النجاحات التي يحرزها في حياتـه هذه . . ولكنها كلها قد تكون إما نعمة أو نقمة . فهي نعمة عندما يعـرف أنها منـة من الله تعالى عليـه ، فيسلك سبيل ربـه ، ويتّبع طـريق الـرشـاد والخـير لنفسه ، ولـذويه ، ولـلآخرين . . وهي نقمـة عنـدمـا تبـطره وتفتنه ، فيغويه الشيطان ـ أو قد تغويه نفسه الأمارة بالسوء ـ فينقاد إلى التكبّر ، والتسلط ، والتعلق بأسباب الحياة الدنيا ، غـير عابىء بـأوامر ربه ، وغير مبالٍ في تعامله مع الناس ! . .

ولهذا عمدت آيات كثيرة كريمة ، في القرآن الكريم ، إلى تـربية الإنسان ، من خلال ما ضربت له من الأمثال التي تبـيّن أن ما يصيب الإنسان ـ من خير أو من شـر ـ هو قبـل كل شيء ابتـلاء ؛ وأن الذي أصابه ليس مقصـوراً عليه وحـده ، لا في الحاضـر ، ولا في الماضي ، بل إن الناس جميعاً ، أفراداً وجماعات ، هم مثله تمـاماً لأنهم يعيشـون على سطح هذه الأرض ، وهم جميعاً أيضاً معرضون للابتلاء . وأنه ما حـلَّ بلاءٌ بـأحـد ، أو بسـاح جمـاعـة ، إلاَّ وحـلَّ بغيـره وبسـاحـات الجماعات الأخرى، ولكن الفرق أن الابتلاء لا يزيد المؤمنين إلا إيماناً وتسليماً، بينما يزداد به الكفار والمشركـون فتنةً واستكبـاراً . فإذا كـان الأمـر متعلقاً مثـلاً بالـرزق الذي يصيبـه الفرد ، فغيـره كثيرون كـانوا مرزوقين من قبل ، وغيره من حوله كثيرون مثله . . والدول الغنيـة أو المتقـدمة أو صـاحبة النفـوذ والسلطان مرت قبلهـا دول أغنى ، وأكـثر نفوذاً وسلطاناً ، وربما تقدماً . .

وهذا ما يريد النص القرآني بيانه بقوله تعالى : ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ . . أي أن في الآيات القرآنية الموجهة لتربية الإنسان عظات ، ودروساً وعبراً، على الإنسان أن يستفيد منها ، لتكون تربيته صحيحة ، سليمة ، تتوافق مع فطرته ، ومع خصائصه ، والغاية من إيجاده . . ولكنَّ الأساس الذي تبنى عليه هذه التربية هو أن الله تعالى قد جعل الإنسان موضع اختبار في هذه الحياة الدنيا ، فما أصابه من خير أو شر ، إنما مردُّه لأمره سبحانه ، ليختبر به ما في نفوس الناس ، من إخلاص أو نفاق ، أو من إيمان وكفر ، أو من صبرٍ وعدم احتمال ، يتميزون به عن بعضهم البعض، ويظهر منهم الغث من السمين ، إذ الابتلاء يظهر الناس فعلاً على حقيقتهم إن لأنفسهم وإن لغيرهم ، أما بالنسبة إلى الله جلَّ وعلا فهو يعلم ما في الصدور وما في القلوب ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض أو في السماء ، ولكنه سبحانه ينعم علينا بالتوجيه والإرشاد ، ويمنّ علينا بالتربية والعطاء ، زيادة في الرحمة ، وزيادة في التفضُّل .

والمؤمنون يكونون عادة معنيين أكثر من غيرهم بالتوجيه والإرشاد من ربهم ؛ لأنهم أصحاب رسالة يجب أن يوصلوها إلى الناس ؛ ولذلك كانت تبعاتهم أخطر ، ومسؤولياتهم أكبر ، والحفاظ على رسالة الإيمان يستلزم دائماً مزيداً من البذل والجهد والجلد ، حتى يمكن للمؤمن التغلب على العقبات والصعاب التي تعترضه . وتربية القرآن الكريم تشدّ العزم ، وتقوّم الاعوجاج ، وتصقل النفس ، وتقوّي الإرادة . . والمؤمن الذي يعرف أن المسؤولية هي تكليف ، وأن الابتلاء هو تمحيص، ويعمل على هذا الأساس ، فإنه يفوز برضوان

الله تعالى ، لأنه اختار طريق الصلاح في الدنيا ، وطريق الفلاح في الآخرة .

٢ ـ الدعوة للنظر في آيات السماء والأرض

يقول تعالى :

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ (١) .

وهذا توجيه من الله سبحانه وتعالى للتفكّر في خلق السماوات والأرض . وهو يأتي في سياق تنبيه الرسول الكريم (ﷺ) بأن يقول لمن يطلبون الحجج والبراهين عن صدق دعوته « لا إلـه إلّا الله » ، واحد أحد ، فرد صمد ، رب السماوات والأرض ، لا شريك له في الحكم والملك : انظروا ماذا في السماوات والأرض من الدلائل والعبر . . ففيها النجوم والكواكب المسيّرات بأمر الله في كونٍ بديع الصنع ، متكامل التناسق والانتظام . وفيها الافلاك والمدارات التي حبكت بأدق صنع وأعظم تقدير . . وفي الأرض اختلاف الليل والنهار ، وما أنشأ فيها ـ سبحانه ـ من البحار والأنهار ، وما أرسى من الجبال وبسط من السهول ، وما أخرج من النبات والأشجار ، وأطلع من الثمار والأزهار . . وما خلق من عجيب الحيوانات والحشرات . . . فانظروا وأحسنوا النظر في أفرادها وجماعاتها ، ثم

---

(١) يونس : ١٠١ و١٠٢ .

تدبروا قدرة القادر وصنع الحكيم . . والنظر في السماوات والأرض يمدّ العقل والقلب بزادٍ من المشاعر والتأملات عند ذوي البصر والبصيرة ، وبزادٍ من الاستجابات والتأثرات عند ذوي التفكّر والتدبّر . . أي أن النظر(١) يدعو إلى الإيمان بالخالق إلهاً واحداً ، وربّاً معبوداً ، وإلى الاستيقان بعلمه وقدرته وحكمه ، لكن ، ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ . فالحجج والبراهين المقدمة ، والآيات المبثوثة في الكون . . جميعها لا تغني ولا تفيد عند قوم لا يؤمنون بخالق السماوات والأرض أصلاً ، ولا يملكون استعداداً للهداية والإيمان تبعاً ، ومهما قدّمت لهم الأدلة ، ومهما نظروا إلى الآيات لا تؤثر في عقولهم الجافة ، وقلوبهم المغلقة ، ونفوسهم الجاحدة ! . . إنهم ينظرون إلى الآيات بأم العين ، ولكنهم لا يستدلون بها على شيء . وما يعنيهم فقط هو الإعراض عن التبصّر والتفكّر بتلك الآيات . . ولكن ماذا ينتظرون ، في النهاية ، من هذا الإعراض ؟ بل وماذا يأملون في الآخرة ، وهم يعرفون أنهم ميّتون ، وقد أمروا بالإيمان فلم يؤمنوا ؟ ! ليس أمامهم إلاّ الهلاك في أيامٍ مثل أيام الذين خلوا من قبلهم في هذه الدنيا بفعل ما حلّ بهم لكفرهم وإنكارهم . . أو العذاب يوم الحساب ، ولقاء الآخرة بوجوهٍ مكفهرّة ، وذنوبٍ مستقرّة ، وآثامٍ مدانة . . هذا ما ينتظرهم ؛ ولعلّه الشيء الوحيد الذي يستحقون ! . .

وبما أنهم على تلك الحال ، فالله سبحانه وتعالى يأمر نبيه الكريم

---

(١) النظر هو طلب الشيء وإدراكه بالفكر كما يطلب رؤيته بالعين المجردة . وهو الثبات لتوقع ما يكون من الحال . تقول : انتظرني حتى أتبعك . فلو قلت : توقعني لم تكن قد أمرته بالثبات .

بأن ينذرهم بقوله تعالى : ﴿ قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ . انتظروا أيها الكفار والمشركون الهلاك القادم ، والعذاب الآتي لا محالة ، فإن لم يكن في هذه الدنيا ، ففي الآخرة حتماً . وإني معكم انتظر حكم الرب القدير . .

٣ ـ التحذير من الطعن بالأعراض

يقول الله تعالى :

﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

هذه الآية الكريمة وإن جاءت تعقيباً على حدثٍ في موضوع الأعراض ، إلّا أنها تحمل قاعدة إسلامية شاملة وهي عظة الله سبحانه وتعالى بعدم التعرض للأعراض والطعن بها ، أو التقوّل على الناس بالسوء . ولا يتوقف النص القرآني عند العظة الإلٰهية ، بل يحمل الأمر الناهي بالعودة إلى مثله أبداً . أي أنه سبحانه يعظكم أيها الناس ، وينهاكم عن معاودة التعرض للأعراض مرة ثانية ، إن كنتم مؤمنين ، مصدقين بالله تعالى وبرسله وأنبيائه ، وقابلين للموعظة من ربكم الخبير اللطيف .

وهذا أجمل أسلوب للتربية وأبلغه تأثيراً ، يقدمه القرآن الكريم في أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار مع تضمين اللفظ معنى التحذير ، بل معنى الأمر ، وذلك مع تعليق إيمانهم على الانتفاع بالعظة ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ . فالمؤمنون لا يمكن أن تتكشف لهم

---

(٣) النور : ١٧ .

بشاعة العمل بهذه الصورة الواضحة ، وأن يتلقوا بشأنه الأمرَ الناهي ثم يعودون إليه ، وهم مؤمنون . . فسبحان الله الرؤوف بالمؤمنين ، العليم بمصالحهم الحليم الحكيم . .

٤ ـ المحسنون ليسوا كالمجرمين

يقول اللَّهُ تعالى :

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾
وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ
كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم
مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟
سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾
قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [١] .

يخبرُ اللَّهُ تعالى في هذه الآيات الشريفة كيف أنه يبتلي الناس

---

(١) القلم : ١٧ ـ ٣٦ .

بالشدائد كلما استحقوها على فعالهم ليختبرهم ؛ كما فعل بأهل مكة عندما اختبرهم بالقحط والجوع ، وقد ضرب مثلاً على اختباره سبحانه بما فعله بأصحاب بستان كبير كانوا يعيشون في قريةٍ من قرى اليمن (قيل إن بينها وبين صنعاء اثني عشر ميلاً) .

كانت تلك الجنة أو البستان لشيخ مؤمن يمسك من ثمارها قدر كفايته وأهل بيته ، ثم يتصدق بالباقي على المحتاجين والمساكين . فلما مات هذا الشيخ وورث أبناؤه البستان ، عزموا على ألَّا يتصدقوا كما كان يتصدق أبوهم ، لاعتقادهم بأنهم أولى بخيرات بستانهم هم وعيالهم الكثيرون . فلما حان وقت القطاف ، تواعدوا على الذهاب خِلْسَةً في الصباح الباكر ، ليكونوا بعيداً عن العيون ، وقد أقروا ذلك ، من غير أن يتوكلوا على الله . أي بأن يقولوا : ﴿ إذا شاء الله ﴾ . (وهذا معنى : ﴿ ولا يستثنون ﴾ فإن قول القائل لأفعلن كذا إلَّا أن يشاء الله هو استثناء ، ومعناه إلَّا أن يشاء الله منعي من ذلك أو أن يشاء تمكين مانعي من فعل ذلك) .

إذن فقد عزم هؤلاء على ذلك وتواعدوا ، دون أن يذكروا الله تعالى ، فأرسل ـ سبحانه ـ على بستانهم في الليل ناراً أكلته وأحرقته وهم نائمون لا يدرون ما الذي حصل ، ولا يعلمون أن ذلك البستان قد صار قطعة من السواد ، كالليل الشديد الظلمة ﴿ كالصريم ﴾ . (والصريمان هما الليل والنهار لانصرام أحدهما من الآخر . وقيل الصريم هو المصروم ثماره ، أي المقطوعة . وقيل هو الرماد الأسود على لغة خزيمة) . .

وطلع الصباح فتنادوا فيما بينهم ، أن هيا اغدوا إلى زروعكم

وأعنابكم وثماركم إن كنتم تريدون قطافها مبكِّرين . وانطلقوا وهم يسرُّون الحديث ، حتى لا ينكشف أمرهم ، فلا يراهم أحد ، وكانوا يقولون : لنسرع حتى لا يرانا أحد من المساكين فيأتي إلى البستان ليأخذ الصدقة . وغدَوْا على ﴿ حرد ﴾ أي على قصد بمنع الفقراء أو هو بمعنى على حنق وغضب من الفقراء والمساكين ، وفي اعتقادهم أو في ظنهم أنهم قادرون على هذا المنع ، وعلى إحراز ما في جنتهم لأنفسهم وحدهم من غير أن يتصدقوا بشيء منه .

ووصلوا ، فكانت المفاجأة التي لم ينتظروها . . فلم يجدوا أشجاراً ، ولا ثماراً . . فقد ذهب ذلك كله في الليلة الظلماء . . فأكلته النار وذرته رماداً أسود ، لا أثر فيه لحياة أو نماءٍ أو زرع . .

وإذ رأوا هذا المشهد، اعتقدوا أنهم ضالُّون عن الطريق، وأنَّ هذا الذي يرونه ليس بستانهم. . وتأملوا قليلاً ، فلم تأخذهم المفاجأة وتذهب بعقولهم فحسب ، بل جعلتهم يدركون أنهم كانوا ضالين عن الحق ، فيما ائتمروا به من حرمان الفقراء والمساكين ، واستدركوا قائلين : بل نحن محرومون ، إذ حرمنا الله تعالى من بستاننا لِمَا عزمنا عليه من حرمان غيرنا ، فصرنا محرومين لسوء نيتنا . والله تعالى هو الذي حرمَنا ، لأنه هو ربُّنا ، وربُّ الفقراء والمساكين . .

وقال أوسطهم ، وهو أرجحهم عقلاً وأعدلهم قولاً : ألم أحذركم من سوء ما نويتم عليه ؟ فوعظتكم بالاَّ تظلموا الآخرين ، وأن تتوكلوا على الله تعالى وتسبِّحوه وتجلُّوه وتعظِّموه على ما أفاء عليكم من خير ، وأن تعطوا من خير ما رزقكم نصيباً للسائل والمحروم . أرأيتم كيف أنكم لمَّا أردتم الظلم أوقعتم أنفسكم به ؟ . . وحاشا الله

تعالى أن يظلم أحداً . . لأنه سبحانه لا يرتضى الظلم من عباده ، بل يعاقب الظالمين على ظلمهم ! . . . وعندها أدركوا خطأهم ، قالوا : ﴿ سبحان ربنا ، إنا كنا ظالمين ﴾ حقاً ، بما عزمنا عليه ، وقد عاقبنا الله تعالى على هذا العزم ، فنحن إليه تائبون . . وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون فيما بينهم . . . وظهرت في تلاومهم الحسرة والحرقة بعد الأسف والندامة ، إذ قالوا : يا ويلنا ، ويا حسرتنا ﴿ إنا كنا طاغين ﴾ (والطغيان أشد من الظلم) أي قد تجاوزنا حدودَ الظلم إلى أشد منه وأعتى . . وعسى أن يتقبل منا ربُّنا توبتنا ويمنَّ علينا بخيرٍ من جنَّتنا ، إنه هو السميع العليم .

فهذا المثل الذي ضربَهُ اللَّهُ تعالى عن الظالمين لأنفسهم ولغيرهم ، فيه توجيه منه سبحانه للناس أجمعين بألَّا يظلموا ، وألَّا يطغوا ، وألَّا يعيثوا فساداً في الأرض ، لأن ذلك من فعل المشركين ، والعاصين ، والمنافقين ، والكافرين . .

وقد اختتم سبحانه ذلك التوجيه بالتحذير والوعيد . . وأنَّ من يظلم في هذه الحياة فإن له عذاباً مثل العذاب الذي أصابَ أهل تلك الجنة الذين كان عذابهم الدنيويُّ شديداً ، وأَلَمهُم النفسي كبيراً ، بعد أن فقدوا رزقهم وغناهم . . ثم بعد الوعيد عقَّب سبحانه بقوله : ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ وأين منه عذابُ الدنيا الذي فيه تلف المال أو الرزق ، أو فقدُ العزيز والصديق . فعذاب الآخرة هو العذاب الكبير في نار جهنم ، لو كانوا يعلمون ما هو ، وما نوعه ، وما مقداره . . إنهم لا يعلمونه ، ولو علموه لعبدوا اللَّهَ تعالى ، وانصرفوا بكليتهم ، وطوال أعمارهم لمرضاة ربِّهم حتى يُبعدوا

أنفسهم عن ذلك العذاب الذي أعدَّه سبحانه لمن عصاه . أما المتَّقون ، الذين يخافون عذابَ الله ، فإنهم يسيرون في الحياة الدنيا على طريق الصلاح والتقوى ، ولهم عند ربهم في الآخرة جنات النعيم . . والمتَّقون هم المسلمون الذين أخلصوا لله تعالى دينهم وكمل إيمانهم ، وصدَّقوا رُسُله واحتسبوا عملهم لوجهه سبحانه وأحسنوا لأنفسهم ولغيرهم .

فهل يجعل اللَّهُ تعالى هؤلاء المسلمين المحسنين كالمجرمين في المصير؟ ما لكم أيها الكفار ! . وكيف تحكمون هذا الحكم الفاسد بأن تقولوا للمؤمنين : إن بعثنا اللَّهُ نعطى أفضل منكم . أو نكون مثلكم في المصير؟ لا ! لا تتوهموا ذلك ولا يظننَّ أحد بالله تعالى إلَّا العدل في الحكم . . ولن يجعل المسلمين كالمجرمين ، بل لكل منهم درجات ومنازل عند ربِّهم . . فمن أطاع واتَّقى كانت له جنات النعيم ، ومن عصى وكفر كانت له جهنم وبئس المصير .

القتال

تداول الأيام بين الناس

القتال

١ ـ واجب الردِّ على الاعتداء بمثله

يقول الله تعالى :

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (١) .

إدَّعى المستشرقون ، بل والغرب بأسره ، أنَّ الإسلام قام على القتال ، وفي ذلك مطلق التجنّي الحاقد ، الصادر عن سابق تصور وتصميم ، لأنهم يريدون أن يظهروا للناس أنه لولا استعمال القوة ، لما انتشر الإسلام ذلك الانتشار الواسع في القارات التي وصل إليها . والحقيقة أن رسول الإسلام (ﷺ) والمسلمين لم يبدأوا قوماً بقتال ، ولا قاتلوهم إلا دفعاً لأذىً أو رداً لظلم ، ولم يقصدوا بلداً أو خاضوا حرباً إلاّ من أجل تعريف الناس على الإسلام ، وإزالة الحواجز المادية

---

(١) البقرة : ١٩٤ .

من طريق إعلاء كلمة الله . . فقد كانت غاية المسلمين تتلخص في عرض دينهم الحق على الناس كافة ، كما أمرهم بذلك ربُّ العالمين ، فمن قبل هذا الدين دخل فيه مختاراً ، ومن لم يقبله خلّوه على دينه ، لأن القاعدة الأساسية في الإسلام هي قوله تعالى ، في محكم كتابه العزيز : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ . . وهي نصٌّ قرآني يفضح كذب الدسَّاسين على الإسلام ، والكارهين لدين الله الحق ، لأنهم لا يريدون أن يسود العدل ، وأن تعم المساواة ، وتُؤدَّى الحقوق ، وتصانَ الحرمات والمقدسات . . وبكلمة وجيزة هم لا يريدون أن يسود الخير ، وينهزم الشر في هذه الأرض ، وإلَّا لاختلَّ توازن وجودهم ، وقضي على مطامعهم وشهواتهم . . ولذلك كانت حملاتهم المغرضة ، التي ما تزال قائمة ومستعرة على الإسلام ، وضد المسلمين . .

ومهما يكن أمر أعداء الإسلام ، وأياً كان تفكيرهم ، وأياً كانت دراساتهم ومخططاتهم ، فالقرآن الكريم يقدّم الأمثالَ التي تتضمن بعض أحكام القتال ، وهي تردُّ على المغالين والمنافقين في كل حين . .

فالله تعالى عندما يقول : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ فمعنى هذا القول القدسيّ أنَّ من ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يُحرمَ الضمانات التي يكفلها له ذلك الشهر من الأمن والأمان . . وقد جعل الله تعالى البيت الحرام (أي الكعبة الشريفة) واحةً للأمن والسلام في المكان ، كما جعل الأشهر الحرم واحةً للأمن والسلام في الزمان ، وذلك لتُصان فيها الحرمات ، وتحجب الدماء . ولا يُمَسّ فيها أحد بسوء ؛ فمن أبى أن يستظل بهذه

الواحة وأراد أن يحرم المسلمين منها ، كان جزاؤه أن يُحْرَمَ هو أيضاً منها . . فالذي ينتهك الحرمات ، لا تصان حرماته ؛ لأن الحرمات قصاص - أي يقتص بمثلها إذا انتهكت - ومع هذا فإن إباحة الرد، والقصاص للمسلمين ، توضع في حدودٍ لا يتعدونها . فلا تباح هذه المقدسات إلَّا للضرورة وبقدرها : فالشهر الحرام بالشهر الحرام . . . ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ فمن ظلمكم بالاعتداء عليكم ، فجازوه على اعتدائه وقابلوه بمثله ، أي عاقبوه على نفسٍ قدر ظلمه لكم . وعقوبته على اعتدائه لا تُعدُّ اعتداءً في الحقيقة ، ولكن سمَّاها رب العالمين اعتداءً ، لأنه مجازاة على الاعتداء ، ولكن على مقداره ومثله . . وإن كان الاعتداء الأول جوراً والثاني عقوبة ولكنها عقوبة عادلة . أما أنه مثله في الجنس ، وفي مقدار الاستحقاق فلكونه ضرراً ، كما أن الاعتداء ضرر . ولذا فهو مثله في الجنس والمقدار والصفة . ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ، ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ بالعون والنصر . .

وفي هذه الآية الكريمة دلالة أيضاً على أن من غَصَبَ شيئاً أو أتلفه ، يلزمه ردّ مثله ؛ ثم إن المثل قد يكون من طريق الصورة في ذوات الأمثال (أي مقدارها في الكمية والجنس والنوع والمزايا) ومن طريق المعنى كالقيم فيما لا مِثْلَ له ، كالتعويض الأدبي أو التعويض عن الألم وما شابه ذلك . .

٢ - الجهاد طريق للجنة

يقول تبارك وتعالى :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم

مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ(١) .

ما أجدر المسلمين بأن يضعوا هذه الآية المباركة نصب أعينهم ليعتبروا بها في ناحيتين :

الأولى : أن الحياة ابتلاء دائم ، ففيها يتعرَّض الإنسان للبأساء والضراء في حالاتٍ كثيرة ، لأن الخطوب قد تداهمه والشقاء قد يلازمه ، فيعلم أن الحياة ليست نعيماً دائماً ولا راحة مستمرة ، لا ، بل إنَّ تعبها أكثر من راحتها وتعاستها أكثر من سعادتها .

والثانية : أن الصبر على البلاء فضيلة ، والتأسّي برسول الله (ﷺ) وأصحابه الميامين يقوّي هذا الصبر . فالرسول الكريم (ﷺ) وأصحابه (رضي الله عنهم) قد نزل بهم كرب عظيم وبلاء كبير في مواجهة الأعداء ، فصبروا حتى جاء نصر الله .

وهذا الصبر والتأسّي لا بد وأن يقترنا بالتوجُّه إلى الله تعالى ، ورجائه بأنْ يخفِّفَ المصاب وآلامه . . وفي تكوين هذه الحالة النفسية نصرٌ من الله تعالى للإنسان ، وذلك بما وهبه من قوة على الصبر والاحتمال ، تؤدي إلى السيطرة على الألم والانتصار عليه .

وهذه الآية الكريمة نزلت ، وقد لقي الرسول (ﷺ) والمسلمون الأوائل أذىً شديداً من المشركين وأمثالهم ، فكان في نزولها تسرية للألم عنهم وتخفيف لوطأته ، وذلك بما تعظهم به من أخبار الأمم الخالية التي لاقى فيها المؤمنون أمثالهم العذاب والعداء من الكفار والمشركين ،

---

(١) البقرة : ٢١٤ .

فصبروا واحتملوا حتى نالوا الجنة . . ولـذلك كـان الخطاب في مـطلع النص موجهاً للمؤمنين مباشرة : ﴿ أحسبتم ﴾ أيها المؤمنون ، وظننتم أنكم تستطيعون دخول الجنة ، ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به المؤمنـون قبلكم ؟ لا ، فعليكم أن تصبـروا كما صبـروا ، وليس بعد الصبـر إلاَّ الفرج من ربكم والنصر . . وأمَّا الذي أصاب المؤمنين من قبل فهو ما مسَّهم من ﴿ البأساء والضراء ﴾ أي كل ما ينطوي على البلاء والضرر كشـدة الفقر والعـوز ، وكالمـرض والقتـل ، وكـالتعـذيب والتنكيـل ، وكـالقهر والـظلم . . وما إلى ذلـك من أنواع المصـائب والبلايـا . . . وهـذا هو بـالذات مـا أصاب الـرسول (ﷺ) وأصحـابه ، حتى قـال رسول الله (ﷺ) والذين آمنوا معه ، أي بعد تناهي الشـدة عليهم : متى نصـر الله ؟ متى يأتي هـذا النصـر الـذي وُعِـدنـا بـه ؟ ويجيب الله تعـالى : ﴿ ألا إنَّ نصر الله قـريب ﴾ . فهو مـدَّخر لمن يستحقـونـه ، ولكن لا يستحقه إلاَّ الذين يثبتون حتى النهاية ، في الصبر على البأساء والضـراء ، والـذين يصمـدون أمـام العـواصف العـاتيـة فـلا يحنـون رؤوسهم لهـا ، ولا يستسلمون لعتوها . بل يستيقنون أن لا نصـر إلا نصـر الله ، يؤتيـه من يشـاء ، ومتى يشـاء ؛ وحتى حـين تبلغ المحنـة أقصى ذروتها فهم لا يتطلعون إلاَّ لنصر الله ـ سبحانه ـ دون غيـره . . وبهذا يدخل المؤمنون الجنة ، مستحقين لها ، جديرين بها . . أي بعد الجهـاد والصبر والثبـات ، والتوجـه إليـه تعـالى وحـده ، وإغفـال من سواه ، وكل من عداه . .

ويأتي التأكيد على هذه القاعدة الإسلامية التي تقول بـأن لا نصر إلاَّ من عنـد الله ، بقولـه عـزَّ وعـلا : قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا

فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٢) .

ألا إن التأييد بالنصر لا يكون إلَّا من الله سبحانه وتعالى . وهو يَعِدُ أهل الإيمان بأن يؤيدهم بالنصر على أهل الكفر . ويضرب لنا مثلاً بما حصل في موقعة بدر حين تقابل المسلمون مع المشركين ، فالمسلمون كانوا أقلَّ عدداً لا يزيدون على ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً ، وليس معهم من العدَّة إلا النزر اليسير ، بينما كان عدد المشركين يربو على الألف ومعظمهم مدجج بالسلاح . . فهاتان الفئتان التقتا يوم بدر . . فئة المسلمين وهي تقاتل في سبيل الله تعالى ، وفئة الكفار من قريش وهي تقاتل في سبيل البقاء على الشرك ، وعلى السيادة والحكم . . ونظر المشركون إلى المسلمين باستخفافٍ وصلف لقلة عددهم وعدتهم ، فبادروا إلى اقتحامهم وهم يقولون : عليكم بهم ، فما هم إلا كأكلة رأس ! . . أما المسلمون فأراهم اللَّهُ سبحانه المشركين قليلي البأس ، ضِعافَ القوةِ والتماسكِ ، ضِعاف الهمم على القتال ، فاجترأوا عليهم ، واستهانوا أمرهم ، كما يُنبىء بذلك رب العالمين ، بقوله العزيز : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ، ويقللكم في أعينهم ﴾ . . ومثل هذه الرؤية ، كانت من أهم أسباب النصر للمؤمنين، والتخذيل للكافرين، لأنَّ النصر منه تعالى يمكن أن يكون إما بالغلبة في القتال ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . وهذا على خلاف المجرى الطبيعي للأمور . .

---

(١) آل عمران : ١٣ .

وإما بالغلبة بالحجة الدامغة ، والبرهان القاطع ، اللذين لا يتركان مجالاً للجدال ، ويقطعان الخصام ! . .

وفي ذلك عبرة لأولي الأبصار ، الذين ينظرون ببصائرهم ، ويُعملون عقولهم ، فيرون أنه سبحانه قادر على أن ينفذ حكمه في أي أمرٍ من الأمور ، ويظهره خلافاً للسنن العادية التي يألفها الناس . . إذن فلا بدّ من بصيرةٍ نافذةٍ ، وعقلٍ واعٍ لإدراك العبرة ومعرفة حقيقتها ؛ وإلَّا فالعبرة تمرُّ في كل لحظة من الليل والنهار ، وليس من يعتبر بها ، وليس من يعيها ، ويقف على أبعادها ومراميها .

٣ ـ نهي المؤمنين بألَّا يكونوا كالكافرين

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(١) .

ينهى اللَّهُ سبحانه المؤمنين عن أن يكونوا كالكافرين أو كالمنافقين في كل ما يفعلون أو يقولون . . ذلك أنهم كانوا يقولون لإخوانهم الذين يضربون في الأرض ، ويسافرون للتجارة أو لطلب المعاش ، أو الذين كانوا يغزون أعداء دينهم لدفع الظلم عن

---

(١) آل عمران : ١٥٦ و ١٥٧ .

أنفسهم : لو كانـوا أقامـوا عندنـا ، حيث نحن نقيم لعاشـوا في راحة وأمـان ، وما مـاتوا ومـا قتلوا . . إذن فالمعنى : يـا أيها الـذين آمنوا لا تقولوا قولهم ، ولا تفعلوا فعلهم ، وأنتم تعلمون أن ربكم هـو الذي يملك أسبـاب المـوت والحيـاة ، وهـو يميت النـاس في حـالتي السفـر والحضر ، بل ويدركهم الموت ولو كانوا في بروج مشيَّدة . .

أمـا غايـة المنافقـين من ذلـك فكـانت تثبيط عـزائم المؤمنـين ، وثنيهم عن الخـروج لقتال أهـل الكفـر . . ولكنَّ المؤمنـين لم يتـأثـروا بأقوال المنافقين ، أو بتخذيل الدسَّاسـين ، بل خـاضوا معـارك الجهاد والشرف أبطالاً ، ونـالوا الأمجاد والغنائم أعـزّاءً ، فكان ذلـك حسرة جعلها الله في قلوب الذين كفروا . .

وبعـد هذا البيـان للحسرة التي تـأكل قلوب الكـافـرين ، وهم يـرون عزَّة الإسـلام والمسلمين تتعـاظم ، يأتي التعقيب : ﴿ والله يحي ويميت ﴾ من يشـاءُ ، ومتى يشاء ، فـلا مقدّم لمـا أخَّر ، ولا مؤخّـر لما قـدَّم ؛ ولا رادَّ لما قضى ، ولا منـاص مما حكم . فبيـده ـ سبحـانـه ـ إعطاء الحياة ، وبيده استرداد ما أعطى في الموعد المضـروب ، والأجل المـرسوم ، سـواء كان النـاس في بيوتهم وبـين أهليهم ، أو في ميـادين الكفاح للرزق ، أو في ساح الحرب دفاعاً عن العقيدة .

ومهما يكن عمل الناس ، فالله تعالى بما يعملون بصير . وعندما يـدرك الإنسان ، ويشعـر في قـرارة نفسـه أن ربَّـه يـراه ، ويبصـر مـا يفعل ، فلا شك بأن ذلك سيكون عاملاً رئيسياً لترغيبـه في الطاعـة ، وترهيبه عن المعصية . فإذا ما جاهد الإنسان في سبيـل الله ، وذاد عن حيـاض دينه ، واستشهد في سبيل الله ، أو إذا مـات وهـو يضـرب في

الأرض سعياً وراء الكسب الحلال ، فإنَّ له مغفرة لذنوبه ، ورحمةً ، من ربِّه ، ذلك أنه تعالى لا يكل المؤمنين ـ في هذا المقام ـ إلى أمجاد شخصية ، ولا إلى اعتبارات بشرية ، ولكنه يكلهم إلى ما عنده من رحمة ومغفرة ، ويعلق قلوبهم بالطمع بعفوه ورضوانه . وهذا خير من كل ما يجمع عليه الناس على الإطلاق ، وخير من كل ما تتعلق به القلوب من أعراض الحياة الدنيا .

٤ ـ ما أصاب الناس فهو من أنفسهم

يقول عزَّ وجلَّ :

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [1] .

في تربية الله تعالى للمؤمنين حقائق لا ينبغي أن يفرّطوا بشيء منها . فإنْ رأوا أفضاله وأنعمَهُ ـ سبحانه ـ عليهم كثيرة ، فذلك لتجاوبهم الصادق مع العقيدة ، ولاستجابتهم المخلصة مع أوامره تعالى ونواهيه . فإن انصرفوا قليلاً أو كثيراً عن هذا التوجه ، فلا بدَّ أن يروا انعكاسه عليهم مباشرة . وفي الآية الكريمة تظهر هذه الحقيقة بوضوح ، عندما يواجه العزيز الحكيم المؤمنين بحقيقة ما أصابهم يوم « أحد » ، وبأنه من أنفسهم . . ذلك أن مصيبة المسلمين يوم « أحد » كانت مقتلة سبعين رجلاً . بينما كانت مصيبة المشركين يوم « بدر » مقتل سبعين وأسر سبعين آخرين ، أيْ مثلي المصيبة التي أصابت المسلمين . . ويوم « أحد » قال بعض المسلمين : كيف يحصل لنا هذا

---

(١) آل عمران : ١٦٥ .

وفينا رسولُ الله (ﷺ) الذي يتلقى الوحيَ من الله تعالى ، ونحن نجاهد في سبيل مرضاته ؟ فيوجّهُ سبحانه وتعالى نبيّهُ الكريم لأن يقول لهم : إنما هو من عند أنفسكم وليس من عند الله تعالى . وهو يردُّ على دهشتهم المتسائلة مرجعاً ما حدث لهم إلى سببه المباشر القريب ، وهو مخالفة الرماة منهم لأوامر رسول الله (ﷺ) ، التي كانت تقضي بملازمة الرماة لأماكنهم أياً كان سير المعركة لصالح المسلمين أو ضدهم . ولكنهم أهملوا هذه الأوامر واندفعوا وراء المغانم والمكاسب العاجلة ، فالتفَّ من ورائهم الكفار وأوقعوا بهم الهزيمة المادية بعد أن حققوا النصر عليهم في بداية المعركة . . إذن فهاجس الكسب ، واغراء المغانم هي المشاعر التي انبثقت من أنفس الرماة وكانت سبباً في المصيبة التي حلت بهم وبإخوانهم أجمعين ، فليعلموا هذا ولا يستغربوا ما حلَّ بهم ! . وعلى كل حال ، فقد وجَدَ المسلمون في تلك المصيبة الدرس والعظة البالغين ، وهما من مقاصد التربية الإلّهية لهم . ولكن يبقى كل شيء بيده سبحانه وتعالى ، فإن أرادَ نَصرَ المسلمين ، وإن أرادَ هزَمَهم ، سواء في تلك المعركة أم في غيرها ، وسواء في أي عملٍ حاضراً أو مستقبلاً . لأن من مقتضى قدرته أن تنفذ سنته ، وأن يحكم ناموسه ، وأن تمضي الأمور وفق حكمه وإرادته ، وألَّا تتعطل سننه التي أقام عليها الكون والحياة والأحداث .

٥ ـ مثل من يخشون الناس كخشية الله تعالى

يقول اللَّهُ تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾(١) .

وهنا بيان لحال فئة من المسلمين ، كانـوا يقولـون للنبي (ﷺ) وهم في مكة : لِمَ نحتمل يا رسولَ الله كل هذا الأذى من المشركين ولا نقاتلهم ؟ فكان الرسول (ﷺ) يقول لهم : « لم أؤمر بعـدُ بالقتـال . فلا تقاتلوهم ، ولكن ادأبـوا على إقـامة الصـلاة ، والأمر بـالمعروف ، والنهي عن المنكر حتى يتحقق أمر الله تعالى في هذا الدين » .

فلما فرض على المسلمين القتال وهم في المدينة ، إذا فـريق منهم يخشون مواجهة الكفار والمشركين ، كخوفهم من الموت الذي كتبه اللَّهُ تعالى عليهم ، وما قد يلاقون فيه من مشاقّ وعذاب يخـافونـه أشدَّ من خوفهم الموت . ونتيجة لذلك الخوف ، الذي هو في طبيعة البشر كانوا يقولون : ربنـا لِمَ كتبت علينا القتـال ؟ ! ولشدة الخـوف الذي يعتـري نفوسهم ، كانوا يطلبون من ربهم أن يؤجّل موتهم : ربَّنا لـولا أخرتنـا إلى أجل قريب ؟ أي أنهم كانوا يـدركون بـأن الأجل آتٍ ، مهـما طال عمـر الإنسان ، وهـو قريب جـدّاً بالقيـاس مـع الـزمن . ولكن الله ـ سبحـانه ـ يُعلم نبيَّـهُ الكريم (ﷺ) بـأن خوفهم من المـوت ، وعـدم قيامهم للقتال ، إنما كان لتعلقهم بمتاع الحياة الـدنيا التي يعتقـدون أن فيها الأطايب واللذائذ والمنافع التي تشدُّ الإنسان وتُغريـه . . . ولذلـك

---

(١) النساء : ٧٧ .

يأمره بأن يقول لهم : إنَّ كلَّ متعٍ هـذه الدنيـا قليلة ، وآيلةٌ إلى الفناء مثلما أنكم فـانون ، والجنـة في الآخرة خـير لمن اتقى ربـه . . وأنتم يـا معشر المؤمنين ، لا تُبخسون حقوقكم ، ولـو بمقدار الفتيـل ـ أي شق النواة ـ وقد سمي فتيلاً لأنه كالخيط المفتول . .

وهذا هو الهـدف من الآية الكـريمة . تصـوير للنفس المؤمنـة في تقلّبها بين الإيمان ، وبين الخـوف من المكروه ، سـاعة تـرى الجدَّ قـد جدَّ . . ذلك أن أشدَّ الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً ، قد يكونـون هم أشدُّ الناس جزعاً وانهياراً وهزيمة ، عندما يجدّ الجـدُّ وتقع الـواقعة . . بل إن هذه قد تكون القاعدة ! . ذلك أن الاندفاع والحماسـة الفائقـة غـالبـاً مـا تكـون منبعثـة عن عـدم التقـديـر لحقيقـة المـوقف وحقيقـة التكاليف ، لا عن شجاعـة وإصرار عـلى القتال . كـما أنها قد تكـون منبعثـة عن قلة الأحتمال لـوطأة الضيق والأذى، فتـدفع صـاحبها إلى طلب الحـركة والانتصـار بأي شكـل ، دون اعتبارٍ لتكـاليف الحـركـة والانتصـار . حتى إذا واجهته هـذه التكاليف كـانت أثقـل ممـا قـدَّر ، وأشقَّ ممـا تصور ، فكـان أشدّ النـاس فزعـاً وجزعـاً وأكثـرهم نكـولاً وانهيـاراً . . على حـين يثبت أولئك الـذين كانـوا يمسكـون أنفسهم ، ويحتملون الضيق والأذى بعض الـوقت ، ويعـدون لـلأمـر عــدّتـه ، ويعـرفـون حقيقـة تكـاليف النصـر ، ومـدى احتمـال النفـوس لهــذه التكـاليف . . والمندفعـون المتهورون يحسبـونهم إذ ذاك ضعـافـاً ، ولا يعجبهم تمهلهم ، ووزنهم لــلأمـور . ولكن في المعــركـة يتبـين أي الفـريقين أبعـد نظراً ، وأشـدّ تحملاً وأكـثر اندفـاعـاً في سبيـل تحقيق النصر .

٦ ـ من قتل نفساً ظلماً فكأنما قتل الناس جميعاً

يقول الله تعالى :

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾(١) .

إنها حكاية أول جريمة قتلٍ حصلت على وجه الأرض ، وارتكبها قابيل بن آدم (ع) حين قتل أخاه هابيل ، لأنَّ الله ـ سبحانه ـ تقبّل قربانَ هذا المؤمن ولم يتقبّل قربان ذاك الجاحد .

ويبيِّن لنا السياق هنا ذلك الحوار الذي دار بين الأخوين ، وقد عزم قابيل على قتل أخيه ، فيقول له هابيل : لئن رفعت إليَّ يدك لتقتلني ظلماً وعدواناً دون أن أرتكب خطأً بحقك أو بحق غيرك ولم أقترف ذنباً أو معصية بحقّ الله تعالى ، فلن أمدَّ يديَ إليك ، ولن

---

(١) المائدة : ٢٨ ـ ٣٢ .

أبادئك بالقتال ، أو بظلم ، لترجع بإثم قتلي ، وإثمك الذي ترتكبه ، فتكون من أصحاب النار . وذلك جزاء الظالمين .

وبذلك صوَّر هابيل لأخيه إشفاقه من جريمة القتل ، ليثنيَهُ عما تراوده به نفسه ، وليخجله من هذا الذي يدفعه إليه هواه تجاه أخٍ له ، مسالم وديع تقي . فقد عرض له وزر جريمة القتل ، لينقذه منها ، ثم زيَّن له الخلاص من الإثم المضاعف بالخوف من الله تعالى ، وبلغ من هذا وذاك أقصى ما يبلغهُ إنسان في صرف الشر ودوافعه عن قلب إنسان . ولكن النموذج الشرير من الجنس البشري لم يأبَهْ لذلك النصح كله ، فأصرَّ قابيل على ارتكاب جريمته وزيَّنت له نفسه قتل أخيه ، فقتله حتى صار من الخاسرين في الدارين ، لأنه خسر بذلك الدنيا والآخرة وذهب عنه خيرهما ، وذلك هو الخسران المبين .

وبعد أن قتل أخاه لم يدر قابيل ما يصنع به لأنه أول قتيل على وجه الأرض من بني آدم ، فحمله على ظهره ، وراح يدور به ، حتى صار جسد أخيه جيفة ـ وهي السوأة ـ فبعث الله غراباً أمامه ، راح ينبش التراب بمنقاره وبرجليه حتى حفر حفرة ، ثم أهال التراب على غراب ميت حتى واراه ، وذلك ليُري قابيلَ كيف يستر جيفة أخيه التي تركها حتى أنتنت . . فقال عندها قابيل: يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي ؟ فأصبح من النادمين ، وربما لم يكن هذا الندم منه على الوجه الذي تكون فيه التوبة إلى الله تعالى ، لأنَّ جريمته كانت مع سبق الإصرار والعمد ؛ بل كان ندماً على التعب أو القلق الذي أصابه حين كان حائراً لا يدري ماذا يفعل بأخيه بعد أن قتله ، حتى بعثَ اللَّهُ تعالى له الغرابَ وعلَّمهُ طريقة دفن الميت .

وقد قال رسول الله (ﷺ) : « لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلاَّ كان على ابن آدم الأول (قابيل) كفلٌ من دمها ، لأنه أول من سنَّ القتل » .
من أجل ذلك ، أي وبسبب تلك الجريمة البشعة التي أول من ارتكبها قابيل ، وتحريماً للقتل على العباد ، لفداحة جرم القتل وكراهيته ، فقد حكم اللَّهُ تعالى على بني اسرائيل ، لعلمه سبحانه بأنهم أكثر الناس حباً للقتل ، أو أكثرهم قتلاً للآخرين ظلماً وعدواناً ، بأنه من قتل نفساً بغير استحقاق للقتل ـ أي ظلماً واعتداءً ـ أو من قتل شخصاً بغير فسادٍ أتاه في الأرض ، كالكفر أو أي عملٍ من عمل الفساد ، فكأنما قتل الناس جميعاً .

ومن أحيا نفساً ، بأن امتنع عن قتلها أو ساعدها على الخلاص من هلاك أو كفر فكأنما أحيا الناس جميعاً . .

من أجل ذلك نرى أن من قتل إنساناً ظلماً ، فالناس كلهم خصماؤه في قتل ذلك الإنسان ، وقد وتَرهم وِتْرَ من قصد قتلهم جميعاً ، فأوصل إليهم من المكروه ما يشبه القتل الذي أوصله إلى المقتول، فكأنه قتلهم كلهم. ومن استنقذ إنساناً من غرق أو حريق أو هدم أو مما يميت لا محالة ، أو استنقذ نفس إنسان من ضلال أو كفر ، فكأنما أحيا الناس جميعاً ، أي أن أجره على الله يكون كأجر من أحياهم جميعاً ، لأنه في إسدائه المعروف إليهم ، بإحيائه أخاهم المؤمن ، صار بمنزلة من أحيا كل واحد منهم أو بمنزلة من قدَّم حسنة أو خدمة لكل واحد منهم ، ويؤيده قول رسول الله (ﷺ) : « من سنَّ سنة حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

والقتل في كل حال ، هو إهانة للحياة التي كرَّمها اللَّهُ تعالى ، وهتك لحرمتها ، ولا فرق بين الواحد والجمع في ذلك . . وفي هذا تعظيم لشأن النفس ، وتعظيم لقتلها وإحيائها في القلوب ، وبذلك يمتنع الناس عن الجسارة عليها ، ويتراغبون في المحاماة عن حرمتها ، لأن المتعرِّض لقتل النفس إذا تصور أنه بهذا القتل يقتل الناس جميعاً عظم عليه ذلك فثبَّطَهُ ، وكذلك من أراد إحياءها فشجَّعَهُ . ولذا فإن قاتل النفس ظلماً جزاؤه جهنم ، كأنه قتل الناس جميعاً .

قال رسول الله (ﷺ) : « إذا تواجَهَ المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا : يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » . .

ثم يختتم الله تعالى سياق الآيات ببيانٍ عن بني اسرائيل الذين جاءتهم رسلُ الله تعالى بالمعجزات الكثيرة ، ولكنهم كانوا كلما جاءتهم معجزة ألحُّوا في طلب المزيد ، مما جعل أكثرهم مجاوزين الحد بالكفر والقتل وغير ذلك .

٧ ـ العقاب بمثله والصبر خيرٌ

قال اللَّهُ تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (١) .

إنه التوجيه الرباني للعباد في طريقة العقاب . فإن أراد أحَدُ

---

(١) النحل : ١٢٦ .

معاقبة الذي اعتدى عليه فليعاقبه بمثل ما عوقب به ولا يزيد عليه . .

وقيل إن هذه الآية نزلت بعد معركة أحد . . ذلك أن المشركين لما مثَّلوا بقتلى المسلمين ومنهم حمزة بن عبدالمطلب (رض) حيث شقوا بطنه وأخذت هند بنت عتبة كبده ولاكتها ، ثم جدعت أنفه وأذنه ، جاشَ الغضب في نفوس المسلمين وقالوا : لئن أمكننا اللَّهُ تعالى منهم لَنُمثِّلَنَّ بالأحياء منهم قبل الأموات ، فنزلت الآية المباركة تنهى عن التمثيل وأن يكون عقاب القتل بالقتل فقط . .

ثم إن الآية الكريمة هي حكم عام في كل ظلم أو اعتداء أو غصب أو نحوه ، فإنما يُجازى المعتدي أو الظالم أو الغاصب بمثل فعله . . ولكن إن ترك القصاص والعقاب ، وأخذ بالعفو مع المقدرة فذلك عمل الصابرين الذين يصبرون على ما أصابهم من الألم والمرارة ، وفي هذا العفو مع الصبر على البلاء ، خير للصابرين لما فيه من جزيل الثواب ، لأن الصبر يحتاج إلى مقاومةٍ للانفعال ، وضبط للعواطف . .

فالقاعدة إذن هي القصاص بالمثل . ولكن القرآن الكريم يدعو في نفس الوقت إلى العفو والصبر ، حتى يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان في الحالات التي يكون العفو فيها والصبر أعمق أثراً ، وأكثر فائدة للدعوة . فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصبر . أمَّا إذا كان العفو والصبر يُهينان دعوة الله ـ سبحانه ـ ويرخصانها ، فالقاعدة الأُوْلى هي الأَوْلى .

وقد قال الله تعالى :

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ

﴿ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾(١) .

أي أن ذلك الأمر الذي قصصناه عليك يا محمد مِنْ أنَّ مَنْ عاقب وجازى الظالم بمثل ما ظلمه ، أو قاتل المشركين كما قاتلوه ثم بُغِيَ عليه بزيادة الظلم والعدوان - كما حصل مع المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً وبغياً عليهم لأنهم آمنوا بك رسولاً لدين الله الحق - فإن اللَّه تعالى ينصره على الباغي عليه ، لأنَّه سبحانه عفوٌّ عن المؤمنين ، غفور لهم لقتالهم في الشهر الحرام دفاعاً عن دعوتهم وأنفسهم ، وهو تعالى متجاوزٌ عن التائبين المنيبين ، يغفر الذنوب لمن فارقوا الشرك ودخلوا في الإسلام فأصلحوا أمورهم مع الذين كانوا قد بغوا عليهم وظلموهم ، لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله . . ومن هنا نرى أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى شرط هذا النصر بأن يكون العقاب قصاصاً على اعتداء ، لا عدواناً ولا تبطُّراً ، على أن لا يتجاوز العقاب ما وقع من العدوان ، فيكون بلا زيادة أو مغالاة .

٨ - جزاء السيئة سيّئة مثلها

يقول الله تعالى :

﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾(٢) .

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ يعني القصاص في الجراحات والدماء . وقد سمَّى سبحانه الثانية سيئة لأنها في مقابلة الأولى كما قال

(١) الحج : ٦٠ .
(٢) الشورى : ٤٠ .

تعـالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فـاعتـدوا عليـه بمثـل مـا اعتـدى عليكم ﴾ ؛ فالسيئة هي المكروه ، ومن نال غيره بمكروه فعقابه بمكروه مثله . .

ثم ذكر سبحانه العفو ، فقال : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره علـى الله ﴾ أي من عفـا عمَّن له عنـده حق ، وأصلح الأمر فيـما بينه وبـين المعفوِّ عنه ، فثوابه على الله ، والله ـ سبحانـه ـ يأجـره لا محالـة ، وهو تعالى لا يحب الظالمين ، البادئـين بالـظلم فيرتب عليهم عقـابه . والله سبحانه وتعالى يريد اللطف الرباني الذي يحب أن يملأ المؤمنُ به قلبه ولكن لا يـريد تـرغيب المظلوم في العفـو عن الظالم ، لميله إلى هـذا الظالم أو لأنه يؤثره فيريد له العفو ، ولكن ليُنعم على المظلوم من خلال عفوه ، بجزيل الثواب ، ويحضه على حب الإحسان والفضل . وقد روي عن النبي (ﷺ) أنه قال : « إذا كـان يوم القيـامة نـادى منادٍ : من كـان أجره على الله فليدخل الجنـة . فيقال : من ذا الـذي أجره عـلى الله ؟ فيقال : العافون عن الناس فيدخلون الجنة بغير حساب » . .

٩ ـ أعمال المعوِّقين من المنافقين

يقول الله تعالى :

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ

ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

يبدأ هذا النص بتقرير علم الله المؤكد بالمعوِّقين الذين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة ويدعون إخوانهم إلى القعود عن الجهاد ، ويقولون لإخوانهم المنافقين الذين أظهروا الإسلام ، أقبلوا علينا ولا تحاربوا ، وخلُّوا محمداً فإنا نخاف عليكم الهلاك . ﴿ ولا يأتون البأس إلاَّ قليلاً ﴾ ولا يشهدون الجهاد إلاَّ لُماماً . . فهم مكشوفون لعلم الله ، ومكرهم غير خافٍ عليه تعالى .

ثم يأتي التصوير للمعجزة في رسم سمات هذا النموذج من البشر بقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ أشحة عليكم ﴾ أي في نفوسهم كزازة على المسلمين بالجهد والمال ، وكزازة بالتعاطف والمشاعر على السواء . ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك - يا محمد - تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴾ . . وهي صورة شاخصة ، واضحة الملامح ، متحركة الظِّلال ، تثير السخرية من هذا الصنف الجبان ، الذي تنطق أوصاله في لحظة الخوف بالشخوص المرتعش الخائر ! . . ولكن الذي هو أشد إثارة للسخرية هي صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجيء الأمن : ﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حدادٍ ﴾ فخرجوا من الجحور، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش ، وانتفشوا بعد الانزواء ، وانتفخت أوداجهم بالعظمة ، وادعوا في غير حياء، ما شاء لهم الادِّعاء من البلاء في القتال ، والفضل في الأعمال ،

(١) الأحزاب : ١٨ - ٢٠ .

والشجاعة والاستبسال . . ثم لا يقف بهم هذا الغرور الفارغ عند حدِّ الاعتداد بأنفسهم ، والتشوُّف على المؤمنين الصادقين ، بل يذهبون إلى إيذائهم بالكلام ، ومجادلتهم بألسنة سليطة ذربة . . فهؤلاء أشحة على المسلمين بالخير ، بخلاء ، يشاقُّونهم عند قسمة الغنائم . . ﴿ أولئك لم يؤمنوا ﴾ حقيقة ، وإنما كان إظهارهم للإيمان نفاقاً ؛ فأحبط الله أعمالهم ، لأنها لم تكن أعمالاً يستحقون عليها الثواب ، ولم يقصدوا بها وجه الله تعالى . وكان ذلك الإحباط على الله يسيراً ، هيّناً . . ثم وصف اللَّهُ ـ سبحانه ـ هؤلاء المنافقين فقال : ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا . وإن يأتِ الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أخباركم ﴾ . . فهم يظنون أن الكفار لم يذهبوا إلى مكة لخوفهم منهم ، ولكن إذا رجع الأحزاب كرة أخرى ، يتمنون لو أنهم كانوا في البادية ، يسألون عن أخباركم ، وما جرى لكم مع الكفار في قتالكم لهم، من غير أن يريدوا أن يكونوا معكم أبداً ، حذراً من القتل وتربصاً بالدوائر . ولو كانوا معكم ما قاتلوا إلَّا قدراً يسيراً ، ليوهموكم أنهم ينصرونكم، وقتالهم قتال رياءٍ وخوفاً من التعيير ليس أكثر . . وهذا النموذج من البشر كان معايشاً للجماعة الإسلامية الناشئة ومنخرطاً في صفوفها في المدينة المنورة ، وهو النموذج الذي ما زال يتكرر في كل جيل وكل قبيل ، بنفس الملامح ، وذات السمات . .

تداول الأيام بين الناس

يقول اللَّهُ عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[1] .

قول الله تعالى هو قول الحق من ربكم أيها المؤمنون . وهـو هنا يواسيكم من علیائه ، ويحثكم على الصبر والتأسي في القتال والشدة ، وينهـاكم عن الوهن واليـأس ، فإن الغلبـة ستكون في النهـايـة لكم ، والنصرُ وعدٌ مؤكد منه سبحانه ، وحسنُ العاقبة لكم في كلِّ حال . .

﴿لا تهنوا﴾ هو أمرٌ منه سبحانه بألَّا تضعفوا عن قتال الكفار . . عقَّبه بقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما أصابكم أو مـا يصيبكم في الجهـاد في سبيـل الله تعـالى ، إذا أنتم لاقيتم الشـدائـد وويـلات

(١) آل عمران : ١٣٩ و ١٤٠ .

القتال ، فأنتم ﴿ الأعلَون ﴾ أي المنتصرون الظافرون لأنكم على الحق ، وهم على الباطل ، وستكون لكم الغلبة بإذن الله في النهاية . إن كنتم مصدقين بوعد اللَّهِ تعالى بالنصرة والثواب . .

﴿ إن يمسسكم قرح ﴾ وهو أن يصيبكم جرح أو ألم أو نصَبٌ ﴿ فقد أصاب ﴾ أعداءكم مثله . وقيل إن هذه المواساة الربانية نزلت على ما أصاب المسلمين في يوم أحد . . عن ابن عباس قال: «لما كان يوم أحد صعد أبو سفيان الجبلَ يريد التباهي على المسلمين ، فقال رسول الله (ﷺ) : « اللَّهم لا يَعْلُنَّ علينا ، اللَّهم لا قوة لنا إلاَّ بك » . . فنادى أبو سفيان بملء صوته : يوماً بيوم ، وإن الأيام دول وإن الحرب سجال . . فقال (ﷺ) : « أجيبوه » . فقالوا : لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . فقال : لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم . فقال النبيُّ (ﷺ) : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » . فقال أبو سفيان : أعلُ هبل . فقال النبيُّ (ﷺ) : « الله تعالى أعلى وأجلّ » . وانصرف أبو سفيان ، ودارت الأيام ، حتى تحقق النصر للمسلمين ، وانتشر الإسلام مع الأيام في مشارق الأرض ومغاربها . .

﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ وذلك بتصريف الله تعالى للأيام بين المسلمين والكافرين ، بتخفيف المحنة على المسلمين أحياناً ، وتشديدها عليهم أحياناً أخرى ، لا بنصرة الكفار عليهم ، لأن الله تعالى لا ينصر الكفار على المسلمين ، إذ إن النصرة تدل على المحبة ، والله تعالى لا يحب الكافرين ، ولا الظالمين المعتدين ، فكيف ينصر مثل هذه الجماعات على المؤمنين الذين يحبهم هو سبحانه ورسوله كما أنهم هُمُ يحبون اللَّهَ تعالى ورسولَهُ الكريم ! . . فالنصر

دائماً من عند الله ، لأنه يملك أسباب القوة والسلطان ، وأسباب الغلبة والنصر . وهو سبحانه دائماً في جانب من يجاهد لإعلاء كلمته وجعلها هي العليا ، وجعل كلمة الذين كفروا هي السفلى . . وإنما جعل سبحانه أيام الدنيا متقلبة ، كي لا يطمئن المؤمن إليها دائماً ، ولتقلَّ رغبته فيها وحرصه عليها ، إذ يَفْنى عَرَضُها في نظره ، فينصرف إلى مرضاة الله تعالى الذي يقوده إلى نعيم الآخرة الذي لا يفنى .

هذا وإن في مداولة الأيام بين الناس ، ما يجعل الدولة حيناً للمؤمنين ، وحيناً عليهم ، ليدخل الناسُ في الإيمان على الوجه الذي يدعوه هذا الإيمان ، لا على أساس النفع والفائدة ، لأنه لو كانت الدولة أبداً للمؤمنين لكان الناس يدخلون في الإيمان على سبيل اليُمْنِ والفأل والمنفعة ، وبذلك لا يتحقق الدافع الإيماني الصحيح . . أما إذا وجد هذا الدافع في وقت الشدة ، كما هو في وقت الرخاء فذلك هو الإيمان الحق الذي يعلي شأن المؤمن ، ويجعله عند ربه من المقرَّبين . .

هذا مع الملاحظة بأن كل موضع حضره النبيُّ (ﷺ) لم يخلُ من ظفر إما في ابتداء الأمر ، وإما في النهاية ، ليتأكد للمؤمنين وعد الله الحق بالنصر من عنده سبحانه .

ثم إن في مداولة الأيام بين الناس سنّة لله تعالى في خلقه ، وهي أنَّ الدولة تكون لهؤلاء أو لأولئك وفقاً للنوايا والأعمال . فإن صفت النوايا ، وطهرت القلوب ، صلحت الأعمال وارتفعت الأفعال ، أما إن انطوت السرائر على الغش والمنافع الذاتية دون مصالح الجماعة ، فإنَّها تتفرق الجهود ، وتتبعثر الإرادات وتهزم الجماعة لتحلَّ في الدولة جماعة غيرها . .

ثم إن في مداولة الأيام أمراً أراده اللَّهُ تعالى من عباده وقد بيَّنه في قوله الكريم مخاطباً المؤمنين : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ﴾ ، ليعلم الله المؤمنين من الكافرين . فاستغنى بذكر أحدهما (المؤمنين) عن الآخر (الكافرين) ، يعلمهم بما يظهر من صبرهم على الشدة والبلاء ، وبما يتفانون فيه إبان الجهاد في سبيل الله تعالى ، موقنين أن ما يصيبهم من خير فبإذن الله ، وما يصيبهم من كرب فبعلمه سبحانه . . . وعِلْمُ الله تعالى بالمؤمنين ، لا يعني أنه ـ سبحانه ـ لم يكن عالماً بهم ، فهو يعلمهم قبل إظهار إيمانهم وبعده ؛ يعلمهم قبل إظهارهم الإيمان أنهم يتميزون بالإقبال عليه ، فإذا أظهروه علمهم متميِّزين ، وهم علموا أنفسهم بهذا التمييز عن الكافرين . واللَّهُ تعالى ، الخالق للإنسان ، يعلم في غيبه جبلة أو طبع كل فرد بشري ، فهو يعلم المؤمن والكافر قبل أن يظهرا للناس على حقيقتهما ، فإذا ظهرا وتميَّزا علم بهما متميِّزين معروفين للناس . .

وإذا كان اللَّهُ تعالى يعلم المؤمنين ، ويعلم الكافرين ، في طبائعهم ، وقلوبهم ، وفي أفعالهم وتصرفاتهم ، فإنَّ في مداولة الأيام بين الناس جميعاً حكمةً إلهيةً أخرى ، وهو أنه يتَّخذ من المؤمنين شهداء على الآخَرين من خلال تلك المداولة الدائمة . . ففي كل حين يبقى الحق متصارعاً مع الباطل ، والمؤمنون هم أنصار الحق ، والكافرون والمنافقون وأمثالهم أنصار الباطل ، وتتقلّب الأيام بين أولئك وهؤلاء ، وتنشب بينهم المعارك المعنوية والمادية ، التي يتخذ الله تعالى من خلالها شهداء من عباده الصالحين . . وهؤلاء الشهداء هم الذين اصطفاهم ربهم في المعركة الدائمة الدائرة ما بين الحق والباطل ، ليشهدوا على الناس جميعاً بما عاينوا من طاعة أو عصيان ،

واتِّخاذهم شهداء هنا دليل على علوِّ مرتبتهم عند ربهم .

ثم هم ـ أو منهم ـ يكون الشهداء الصرعى في القتال من أجل نُصرة دين الله تعالى ، وهم الذين بذلوا المهج والنفوس من أجل الغاية الكبرى التي هي رضوانه عزَّ وجلَّ ، فحق لهم أن يختارهم ربُّهم ويكرمهم على غيرهم بشهادة الموت في الدنيا ، وبالشهادة على ظلم الكافرين في الآخرة .

وفي النتيجة ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ على ظلمهم وكفرهم . وعدمُ حبِّه ـ سبحانه ـ لهم هو غضبه عليهم ، وعاقبة هذا الغضب تكون العذاب . وإذا كانت للكافرين غلبة أو ظهور في تداول الأيام بين الناس ، فذلك يكون استدراجاً لهم ، لا تأييداً ولا محبة من الله تعالى . .

وهكذا فإن القرآن الكريم يردُّ المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض . يردهم إلى الأصول التي تتحرك وفقها الأمور . فالنواميس التي جعلها الله تعالى تحكم الحياة جارية لا تتخلف ، والأمور مقدَّرةٌ لا تمضي جزافاً ، بل تتبع هذه النواميس ؛ فإذا هم درسوها ، وأدركوا مغازيها ، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبيَّنت لهم الأهداف من وراء الوقائع ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث ، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام ، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق ، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين ، لينالوا النصر والتمكين ، بدون الأخذ بأسباب النصر ، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول .

والسنن التي يسير إليها السياق هنا ويوجه الأبصار إليها هي :

عـاقبة المكـذبين عـلى مدى التـاريخ . ومـداولة الأيـام بـين النـاس . والابتـلاء لتمحيص السرائـر ، وامتحان قـوة الصبر عـلى الشـدائـد ؛ واستحقاق النصر للصابرين ، والمَحْقُ للمكذبين .

وفي خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بـالتشجيع عـلى الاحتمـال ، والمـواسـاة في الشـدة ، وتحمُّـل القـرح الـذي لم يصبهم وحدهم ، وإنما أصاب أعداءهم كذلك ، وهم ـ على كلِّ حالٍ ـ أعلى من أعدائهم عقيدة وهـدفاً ، وأهـدى منهم طريقـاً ومنهجاً ، والعـاقبة ستكون حتماً بإذن الله لهم ، والدائـرة ستدور بـإذن الله على الكـافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم .

الانفاق

الانفاق

١ ـ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١) .

المال والبنون زينة الحياة الدنيا . .

وهذا المال الذي يجهد الإنسان في جمعه ، هو عطاء من ربه ، الذي يرزق من يشاء بغير حساب . .

ولكنّ الرزق قد يكون على صاحبه نعمةً من أعظم النعم ، أو

---

(١) البقرة : ٢٦١ و ٢٦٢ .

نقمة من أعظم النقم . . فإن وسَّع صاحب المال والرزق على نفسه وعياله بوجوه الحلال ، وأكثر من عمل الخير والبر ، وأعطى من يستحق العطاء من عباد الله ، أي أنه أنفق في سبيل الله ، فإنَّ إنفاقه هو خير له وأبقى . .

أما إذا طمع صاحب المال بماله ، وجشع في جمعه ، وتكالب على اكتنازه لتكديس الثروة ، ثم بخل على نفسه وعياله ، وحرم الفقراء والمساكين ، ولم يبذل شيئاً في وجوه البر والخير ، فإن المال يكون نقمة تنزل عليه ولا يكون له من ماله إلَّا التعب في جمعه ، والشقاء في إحصائه ، والخسران في تركه والحساب العسير على كنزه عند ملاقاة ربه . .

من هنا حثَّ القرآن الكريم على الإنفاق في سبيل الله تعالى ، مبيّناً أن النفقة تضاعف يوم القيامة أضعافاً كثيرة . . وأن هذا الإنفاق هو قرض يقرضه المنفق لربه الغني الكريم المحسن ، ليؤديه له أضعافاً مضاعفة يوم الجزاء . ولعلَّ في هذا المفهوم القرآني العلاج الشافي لشح النفوس وطمعها في المال . فهو يستل منها ذلك الحرص ، ويدفعها إلى البذل بسماحة وطيب خاطر .

وقد ضربَ اللَّهُ تعالى مثلاً على الإنفاق في سبيله عزَّ وجلَّ بالنبات بعد بذْر حَبِّه . فالإنسان هو الذي يبذر الحبَّة ، ولا تنبت الحبةُ عادةً إلَّا سنبلة واحدة . ولكنَّ التمثيل القرآني يريد إبراز فضل الإنفاق في سبيل الله ، فيقول إنَّ مثل هذا الإنفاق كمثل الحبة التي أنبتت سبع شعب ، بسبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة . . أي أن الحبَّة الواحدة أعطت سبعمئة حبة . . وقد نستغرب نحن بني البشر ذلك ، ولكن

أين الغرابةُ إذا كان اللَّهُ تعالى هو المنبت ، والحبة سببٌ أسند إليها الإنبات كما أسند إلى الأرض والماء . . ولا غرابة أيضاً إذا كان اللَّهُ تعالى هو الذي يضاعف ، وما كان التمثيل إلَّا تصويراً للأضعاف كأنها ماثلة أمام عيني الناظر . . فكل نفقةٍ في سبيل الله يعادلها الله تعالى بسبعمئة نفقة في غير وجه ، أو أنه تعالى يضاعفها ليصل أجرها إلى سبعمئة مرة . . فما أعظم كرم الله على عباده المحسنين ، وما أسماه من إنفاق في سبيل الله ؟ ! . .

والإنفاق في سبيل الله تعالى كما يكون في وجوه البر والخير ، يكون أيضاً من أجل إعلاء كلمة الله في الجهاد . . ففي الجهاد مثلاً رأينا أن المسلمين الأوائل كانوا ينفقون بسخاء أكثر من أي أمر آخر ، وذلك لأنَّ الحسنات فيه تكون أضعافاً مضاعفة تصل إلى المئات ، بينما تكون النفقة في غير الجهاد حسنة ، والحسنة بعشرة أمثالها .

ومن ينفق في سبيل الله تعالى ، ومن أجل مرضاته عزَّ وجلَّ ، ولا يُتبع هذا الإنفاق بالمنّ ، وبتعداد ما أنفق ، وإذلال المعطي له ، كما لا يرافق هذا الإنفاق أذىً في التطاول على كرامة المنعم عليه . . . فمن أنفق على هذا الأساس كان له أجر عظيم عند ربِّه ، ولا خوف عليه ولا هو يحزن في الآخرة ؛ لأنه يعطي وقلبه مفعم بالإيمان والرحمة وبحبِّ عمل الخير ؛ فيخرج المال حينئذٍ من قلبه قبل خروجه من يده ، ومن غير جزع ولا هلع على ما خرج من يده ، لأنه محبٌّ لذلك العطاء ، باذلٌ لماله بسخاءٍ وجُودٍ وكرم ، عالمٌ بأن ماله عطاءٌ من الله وأن إنفاقه في سبيل الله . .

وكم تكون الحياة جديرة بالتقدير والاحترام عندما تكون زاخرة

بمثل هذا العطاء الصادر عن قلب طيِّبٍ ونفسٍ سخيَّة ، ففي موكب الحياة النامية ، كثيرون من ذوي الحاجة والعوز ، والإنسانُ الطيِّب يتَّجه فيها دائماً إلى البذل والعطاء ، وخصوصاً إذا كان كريماً بطبعه ، ومتأثراً بعقيدته ، شاعراً بأحوال أمته . فإنه ـ بلا شك ـ يجب أن ينفق في سبيل الله لِيرفع كلمة ربِّه ، وليذود عن مصالح أمته ، وليسد حاجات المؤمنين من إخوانه .

والإنفاق الذي يقبله اللَّهُ ـ سبحانه ـ ويضاعفه في الدنيا والآخرة ، هو الإنفاق الذي يرفع من قدر الإنسان ولا يضعفه . وهو الذي لا يؤذي كرامة هذا الإنسان ولا يخدشها ، ثم يكون ـ في الوقت نفسه ـ منبعثاً عن أريحية ونقاء طويَّة ، ويكون متجهاً إلى الله تعالى وحده ، لابتغاء مرضاته . .

أما الإنفاق الذي فيه منٌّ وأذى فهو مكروه عند الله تعالى . لأن المنَّ ظاهرةٌ كريهة فيها لؤمٌ وشعور خسيس منحط . والنفس البشرية لا تمن بما أعطت إلاَّ رغبة في الاستعلاء أو في إذلال الآخذ . فالمن إذن فيه ضرر للمنفق وللآخذ على حد سواء . ضرر بما يثير في نفس المنفق من كبر وخيلاء ، وأذى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام . . وما أراد الإسلام بالإنفاق مجرد سد الحاجة وملء البطون . . وإنما أراد تطهيراً وتزكية لنفس المعطي وربطاً له بأخيه في الله ، وفي الإنسانية ، وتذكيراً له بنعمة الله عليه في غير منع عن المحتاجين ، ولا منٍّ عليهم . كما أراده ترضية وتندية لنفس الآخذ ، وتوثيقاً لصلته بأخيه في الله والإنسانية . وهكذا تسير الجماعة على أساس من التكافل والتعاون ، ويكون قوامها وحدة اتجاهها ووحدة

أهدافها . . والمن يذهب بهذا كله ، ويحيل الإنفاق سمّاً زعافاً ، وناراً محرقة . فهو أذى وإن لم يصاحبه أذى باليد . هو أذى في ذاته يمحق الإنفاق ويمزق وحدة المجتمع ، ويثير السخائم والأحقاد بين الأفراد .

والرسول الكريم يقول : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » . فمن ينفق في سبيل الله هو من يستحق الأجر والثواب، والله يضاعف الحسنات لمن يشاء ، وهو سبحانه واسع الفضل لا يضيق عطاؤه ولا ينضب ؛ كما أنه عليمٌ بالنوايا ، مثيبٌ عليها ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

وكما في القرآن الكريم أمثلة دالة على الإنفاق في سبيل الله ، فكذلك فيه أمثلة دالة على الإنفاق رياءً وفي سبيل حب الظهور والتعالي ، كما في المثال التالي . . .

٢ ـ مثل الإنفاق في غير طاعة الله

يقول تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ

ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ
فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ
لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ
ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ [1] .

مما لا شك فيه أن الرياء يبطل ثواب العمل ، والأذى يحبط أجر الصدقة . .

والرياء مَرض من أمراض المجتمع البشري ، يدل على ضعف في الشخصية ، ومراوغة في الخلقية ، وهو عادة طريق يسلكه كل متلوِّن مخادع يريد الوصول بواسطته إلى منافع ومكاسب شخصية ، دون أن يحسب حساباً لإنسانيته وكرامته وعزة نفسه . .

والإسلام عندما أوصى بالصدقة إنما أوصى بها تزكيةً لنفس المتصدق وماله ، وحرصاً على أخيه المسلم لكي يمنع عنه غائلة الجوع ، ويرفع عنه وطأة الحاجة ؛ ولذلك يأمر الله تعالى الذين آمنوا بالَّا يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى على مستحق الصدقة ، بل المحافظة على عواطفه وشعوره بألَّا تمتهن بالمن ، أو تخدش بالأذى فتسبب له الألم النفساني الذي يجلب له التعاسة ، بحيث تتحول الصدقة عليه شقاءً ونقمة .

ويضربُ الله تعالى مثلاً للمؤمنين عن الذين يبطلون صدقاتهم

---

(١) البقرة : ٢٦٤ ـ ٢٦٦ .

بالمنّ والأذى حتى يصيروا كالذي ينفق ماله أمام الناس مرائياً في هذا الإنفاق ، فيبطل أجر عمله ، ويتساوى مع الكافر الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثل هذا الشخص المرائي ، المحب للظهور ، كمثل حجر أملس عليه تراب ، نزل عليه مطر شديد ، فجرف ما عليه من تراب وتركه صلباً أملس لا شيء عليه. والذي ينفق أمواله رياءً هو كالمنافقين المنّانين الذين يذهب إنفاقهم سدىً ولا يستحقون عليه أجراً ولا ثواباً ، ولا يحصلون من نفقتهم على أي منفعة ، فلا يقدرون على شيء مما كسبوا . وفي هذا يقول رسول الله (ﷺ) : « من أسدى إلى مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو منَّ عليه فقد أبطل الله صدقته » والله لا يهدي القوم الكافرين ، ولا يثيبهم على أعمالهم ، لأن الكفر محبط للأعمال جميعاً ، ومانع من استحقاق الثواب عليها ؛ وإنما يثيب ـ سبحانه ـ المؤمنين الذين يوقعون أعمالهم على الوجوه التي يستحقون بها الثواب .

ويأتي النص بعد ذلك على الإنفاق المثالي ، عندما يصوره بأنه الانفاق الذي يرتكز على دعائم من الإخلاص والتقرب إلى الله تعالى ، وتثبيتاً للنفس على الإيمان . وهذا الإنفاق ، مهما كانت قيمته ، فإنَّ مثوبته تبقى قائمة ، وثوابه ثابت .

إذن فالذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاةِ الله سبحانه ، وتثبيتاً من أنفسهم (أي تحقيقاً وتصديقاً بما هم عليه لأن المال معادل للنفس ، وبذله أشق على هذه النفس من سائر العبادات الشاقة ، فكان إنفاق المال ، النابع من النفس ، تثبيتاً لها على الإيمان ، واليقين والبصيرة في الدين). . هؤلاء مثلُ إنفاقهم كمثل بستان في مكانٍ

مـرتفع مستـوٍ . وقـد خصَّ التشبيـه بـالـربـوة (وهي المكـان المـرتفـع المستـوى) لأن نبتها يكـون أحسن وريعها أكـثر من الأرض المنخفضة التي يتجمع فيها الماء فلا يـطيب ريعها . فـإذا نزل المـطر شديـداً على ذلك البستان أعطى ثماراً وغـلالاً ضعفَي ما يعـطي غيره . أمَّـا إذا لم يصبه وابلٌ بل مطر خفيف فإنه يكفيه أيضاً لوجوده في مكان مرتفع . . إذن فهذا البستان يثمر ويزكو ، كثر المطر عليه أم قـلَّ. وهكذا الـذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتاً لأنفسهم عـلى حب الصدقـة والخير ، فهؤلاء نفقاتهم تزكو عنـد الله سبحانـه كثرت أم قلَّت . والله بما تعملون بصير ، فيجازيكم به .

إذن فالله تعالى يبيّن للناس أن الانفـاق قد يكـون على نـوعين : إنفاق كثير مثل المطر الوابل ، أو إنفاق قليل مثـل الطل الخفيف . وفي هذا يقول صاحب المنار « ووجه الشبه عنـدي أن المنفق ابتغاء مـرضاة الله والتثبيت من نفسه هو في إخلاصه وسخـاء نفسه وإخـلاص قلبه ، كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجـر ، العظيمـة الخصب ، في كثرةِ بِـرِّه وإحسانه ؛ فهو يجود بقدر سعته ، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع في الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدر ، فخيره دائم ، وبرّه لا ينقـطع ، لأن البـاعث عليـه ذاتيٌّ لا عـرضيّ كـأهـل الـريـاء وأصحـاب المنِّ والإيـذاء ، فالـوابل والـطل عبـارة عن سعـة الـرزق ، ومـا دون السعة » .

ثم تمضي الآيات الكريمة بعد ذلك لتبين عاقبة الرياء والإيذاء : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنـاب . تجري من تحتهـا الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء ﴾ .

إن صاحب البستان (الجنة) أصابه الكِبر ، بعدما تقدَّم به السن ، وكانت له ذرية ، أطفال صغار ، لا يقدرون على القيام بخدمة البستان حتى يبقى مثمراً . فأصابه إعصارٌ فيه نار فاحترق ، لشدة ما حملت الزوابع معها من الكوارث التي أدت إلى تدمير هذا البستان ، في الوقت الذي كان فيه صاحبه بأشد الحاجة إليه ، فبقي هو وأولاده الصغار ، العاجزون لا حيلة لهم . .

وهذا المثل ضربه الله تعالى للمنفقين أموالهم رياءً ومنّاً . فالذي ينفق ماله لِيُرائي الناس به، يذهب ماله، فلا يأجره الله عليه. فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى نفقته وجدها قد أحرقها الرياء فذهبت . كما انفق ذلك الرجل على جنته حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته جاءت ريح فيها سموم فأحرقت جنته ، فلم يجد منها شيئاً . .

وهذا المثل يدل على الحسرة بعد سلب النعمة من عدة وجوه :

أولاً : أنه مثل المرائي في النفقة ، ربما انتفع بمراءاته عاجلاً ، ولكن صدقته تنقطع عنه آجلاً عندما يكون في عجزه وضعفه أي وهو أشد ما يكون حاجة إلى نفعها .

ثانياً : أنه مثل المهمل في طاعة الله من أجل ملاذ الدنيا ، يحصل في الآخرة على الحسرة العظمى . . فالمراد به حاجته في آخرته إلى الأعمال الصالحة كحاجة ذلك الرجل الكبير الذي له ذرية ضعفاء إلى ثمار بستانه وقد احترقت وذهبت ، فتكون أعظم حسرة لأن الكبير الذي يئس من سعي الشباب في كسبه ، يكون أضعف أملاً وأشد حسرة في كبره .

ثالثاً : أنه مثل شيخ كبير ضعف جسمه ، وقلّت حيلته ، وله

ذرية ضعفاء إن في الحنان عليه وإن في الفقر الذي هم فيه ، لا يقدرون على نفعه بل يكونون عالة عليه ، فهو أحوج ما يكون إلى بستانه أو إلى عمله الصالح الذي ينال منه الخير وقت الشدة والحاجة .

وإن الإنسان لأحوج ما يكون إلى عمله الصالح إذا انقطعت عنه الدنيا .

كذلك يبين الله الآيات بما تحمل من الأمثال والعظات لعلكم تتفكرون ، وتنظرون ، وتتدبرون .

٣ ـ مثل إنفاق الكافرين

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1] .

فالذين كفروا لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً . وقد خص سبحانه الأموال والأولاد بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بالمال ، وتارة بالاستعانة بالأولاد . فمن كان الكفر شأنهم فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون بسبب كفرهم .

---

(١) آل عمران : ١١٦ و ١١٧ .

وهؤلاء الكافرون قد يمدُّ لهم الله تعالى من فضله ، ويغدق عليهم من نعمه ، فينفقون في هذه الدنيا الشيء الكثير ، إما على المحتاجين ، وإما على إنشاء المؤسسات ، أو غيرها من المشاريع التي يرغبون في تزويدها بالمال . . ولكنهم رغم هذا الإنفاق - وإن كان في وجوه الخير - يظلون على كفرهم سادرين ، وفي الجحود والنكران قائمين ، فمثل إنفاقهم كمثل ريح فيها صرٌّ (أي بردٌ شديدٌ) أصابت هذه الريح الباردة حرث قوم ظلموا أنفسهم بالعصيان ، فأهلكت زرعهم بسبب عصيانهم وكفرهم ، وتجاوزهم حدود الله تعالى ، ومخالفتهم أوامره، وإشراكهم به، وتكذيبهم رسله. . وهؤلاء هم الذين ظلموا أنفسهم عندما اختاروا الشرك والضلال ، والانفلات من التمسُّك بحبل الله الممدود، فإنَّ عملهم كله هباء - حتى ما ينفقونه وفي ظاهره الخير - لأنَّه إنْ أصاب حرثَهم كلَّه الدمارُ ، لم يُغنِ عنهم مال ولا ولد . وليس في ذلك ظلم من الله تعالى لهم ، بل ، هم الذين ظلموا أنفسهم بما اختاروه لها من تنكُّبٍ وشرودٍ عن حدود ما أنزل الله تعالى على لسان رُسُله الكرام صلوات الله عليهم .

وهكذا يتقرر أن لا جزاء على بذل ، وأن لا قيمة لعمل إلا إذا ارتبط بمنهج الإيمان ، وإلا أن يكون باعثه حب الله وطاعته . يقول تعالى هذا ويقرره ، فلا تبقى بعده كلمة لإنسان ، ولا يجادل في هذا القرار إلا الذين يجادلون في آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

الـربا

يقول اللّٰه تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ
مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ
وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى
ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ
ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (١)

---

(١) البقرة : ٢٧٥ ـ ٢٧٩ .

لقد حثَّ اللَّهُ تعالى في قرآنه المبين ـ وفي غير هذه الآيات الكريمة ـ على الإنفاق ، وبيَّن ما يحصل للمنفق من الأجر العاجل والآجل . .

وبعد ذلك البيان القرآني يأتي هنا حكم اللَّهِ تعالى في الربا حيث قال سبحانه : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ . وهذا التشبيه الذي يعطيه ـ سبحانه ـ لآكلي الربا ، يرسم لهم صورةً مهزوزةً ، يحركها دافع شيطاني ، بل يحركها الشيطان نفسه ، بحيث إن المرابين لا يقومون ـ من قبورهم يوم القيامة ـ إلَّا كما يقوم الذي يصرعه الشيطان من الجنون . . وهذه علامةٌ لآكلي الربا حتى يُعرفوا بها يوم القيامة . .

قال رسول الله (ﷺ) : لَمَّا أُسريَ بي إلى السماء رأيت أقواماً يريد أحدهم أن يقوم ولا يقدر من عِظَمِ بطنه ، فقلت : مَن هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلَّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . . فهذا التصوير لمن يأكل الربا هو تهديد واضح . وما كان أي تهديدٍ معنويٍّ ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة ، الحية ، المتحركة . صورة الممسوس المصروع . . وهي صورة معروفة ، معهودة للناس ، إذا تذكروا رؤية المجنون وهو يتخبط بحركاته اللاواعية واللامسؤولة . . فالنص القرآني يستحضرها لتؤدي دورها الإيمائي في إفزاع النفس لاستجاشة مشاعر المرابين ، وهزها هزّة « عنيفة » تُخرجهم عن مألوف عادتهم ، في نظامهم الاقتصادي ، ومن حرصهم على ما يحققه لهم الربا من فائدة .

وذلك الصرع الذي يمسُّ المرابين كان بسبب أنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا في الجواز ، وفي الربح . فوقعوا في شبهةٍ خاطئة وهي أن البيع يُحقق فائدة وربحاً ، كما أن الربا يحقق فائدة وربحاً . وهي شبهة واهية ، لأن العمليات التجارية قابلة للربح والخسارة ، في حين أن العمليات الربوية تكون محددة الربح في كل حالة ولا خسارة فيها ، وهذا هو الفارق الرئيسي بين البيع والربا ، وهذا هو مناط التحليل والتحريم . . كما أنَّ الربا قد يؤدي إلى ظلم المدين ، كما نعهد في حالاتٍ كثيرة حيث تتراكم قيمة رأس المال وفوائده بحيث لا يعود المدين قادراً على تسديد الفوائد وحدَها ، فيقع في الإفلاس . . أو كما نعهد في حالات أخرى حيث يضطر أحدهم إلى الاستدانة لضرورة ملحة فلا يجد إلَّا الدائن المرابي الذي يقرضه المال مقابل نسبة مئوية مرتفعة جدّاً تكون في حقيقتها إرهاقاً للمدين قد لا يخلص من براثنه إلَّا بشق النفسَ إن لم يكن ببيع بيتٍ له مثلاً ، أو أية ممتلكات أخرى . . وأما المحتاج الذي لا يقدر على دفع فائدة المبلغ الذي يرغب في استدانته فلا أحد يمدُّ له يدَ المساعدة في النظام الربوي فيبقى على حاجته ، وقد تغلب عليه هذه الحاجة حتى توقعه في مشكلة اقتصادية أو معيشية . . هذه بعض ملامح النظام الربوي ، أفلا يكون من الواجب والعدل أن يحرّم الله تعالى الربا الذي لا ينتج إلَّا آفاتٍ اقتصادية في المجتمع ؟ ! . .

وردَّ الله تعالى على المرابين بأن ﴿ أحل الله البيع وحرَّم الربا ﴾ . . أي أنه تعالى أحلَّ البيع الذي لا ربا فيه وجعل كسبه حلالاً ، وحرم الربا الذي فيه زيادةٌ يفرضها المرابي ، وقطعُ سبيل المعروف بين الناس وتحميل المحتاج عبئاً ثقيلاً . والبيع هو بدل البدل لأن

الثمن فيه بدل بدل المثمن ، والربا زيادة في غير بدل للتأخير في الأجل ، أو زيادة في الجنس . قال رسول الله ( ) : « كل قرض جرَّ إلى نفع فهو ربا » . وإن علة تحريم الربا هي أن في الربا تعطيل المعايش والأجلاب والمتاجر ، إذا وجد المُرابي من يعطيه دراهم ، وفضلاً بدراهم . وقد قال جعفر الصادق (ع) : « إنما شدَّد اللّهُ ـ سبحانه ـ في تحريم الربا لئلا يمتنع الناس عن اصطناع المعروف قرضاً فيما بينهم أو رفداً » . . ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى ﴾ أي فانزجر وتذكر واعتبر ، فامتنع عن أكل الربا ، فله ما سلف قبل النهي ، فلا يسترد منه ، وأمره في العفو عنه إلى الله تعالى . أما من عادَ إلى أكل الربا مُشبِّهاً إياه بالبيع في الحلال ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، لأنهم عصوا أوامر الله تعالى في النهي عن الربا ، وظلوا متعمدين أكله بالفحشاء ، فكان جزاؤهم البقاء الدائم في النار .
وقال الباقر عليه السلام : من أدرك الاسلام وتاب ممَّا كان عليه في الجاهلية ، وضع الله عنه ما سلف . فأما ما لم يقبض بعد ، فلا يجوز له أخذه ، وله رأس ماله فقط . وأمره بعد مجيء الموعظة والتحريم إلى الله تعالى ، إن شاء عصمه عن أكله في انتهائه عنه ، وإن شاء خذله أي عامله بما يستحق ، ولذلك فإن من عاد إلى أكل الربا بعد التحريم ، فقد استحق أن يكون في النار خالداً فيها .

فالله ـ سبحانه ـ يكره الربا ، ولذلك فهو يمحقه ، وينقصه ويذهب بركته . ولكنه سبحانه بالمقابل يزيد الصدقات وينميها ويضاعف ثوابها . وهو تعالى لا يحب أي عاصٍ لأمره ، كافرٍ بتحريم الربا ، فاجرٍ بأكله ، وإنه سينال عقابه إن عاجلاً أو آجلاً .

أمَّا أصحاب الصدقات فهم المؤمنون الذين أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، الذين لهم أجرهم العظيم عند ربهم ، ولا خوف عليهم من العذاب ، ولا هم يحزنون في الآخرة ، من العقاب الذي يطال الكافرين ، آكلي الربا ، وأصحاب الفواحش . .

ثم يخاطب اللَّهُ ـ سبحانه ـ المؤمنين مباشرة ، ليأمرهم بتقواه سبحانه ، وبترك ما بقي مستحقّاً لهم من الربا حتى يوم تحريمه إن كانوا صادقين في إيمانهم ، لأن من شأن المؤمن الامتثال لأمر ربه (وقيل إن هذه الآية نزلت لما طالب بعض الصحابة ـ بعد النهي ـ بربا كان لهم من قبل) . . وهذا النهي الرباني هو لجميع المؤمنين ، لكي يحاسبوا أنفسهم في كل وقت ، فيتخلَّوا عن الربا ، إن وجد في حياتهم ، ويتركوه إلى ما لا نهاية ، فإن لم يفعلوا ما أمرهم اللَّهُ تعالى به ، فإنه ينذرهم بحربٍ منه تعالى ، وبحرب من رسوله الكريم ، وهذا تهديد لهم ، فإن تابوا ، ورجعوا عنه ، فإن رؤوس أموالهم تُعاد إليهم بلا زيادة ، فلا يَظلمون غيرهم بزيادة يأخذونها منهم رباً ، ولا يُظلَمون بنقص في رؤوس الأموال التي تعود لهم .

فالربا إذن ممقوتٌ من الله تبارك وتعالى ، وهو يجلب البلاء والعقاب ، بخلاف الصدقات التي تزكِّي النفوس ورؤوس الأموال . قال رسول الله (ﷺ) : « إن الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قل ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ » .

هذا حكم الله تعالى في الربا ، وحكم رسول الله (ﷺ) . . ولكن ماذا فعل الناس ؟ . . لقد جعلوا الربا الوجه الآخر المقابل

للصدقة ، في حين أن الصدقة عطاء وسماحة وطهارة وزكاة وتعاون وتكافل . . . والربا شح وقذارة ودنس وأثرة . . ذاك أن الصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد . والربا استرداد للدَّين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه . من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح هو نتيجة لعمله وكده ، ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر ، أو كان قد أخذ المال للحاجة فأنفقه على نفسه وأهله ، ولم يستربحه شيئاً . . .

ومن ثمَّ فهو ـ الربا ـ الوجه الآخر المقابل للصدقة . وهو الوجه الكالح الطالح ! لهذا عرض السياق القرآني للربا بعد عرض الصدقة مباشرةً . وقد عرضه عرضاً منفِّراً ، يكشف عمَّا فيه من قبح وشناعة ، ومن جفاف في القلب ، وشرٍّ في الجشع ، وفساد في الأرض ، وهلاك للعباد . وأما الصدقة فهي الوجه الطيب السمح الطاهر الذي يطرد الجشع ويصلح الأرض ويوطد الإلفة والمحبة بين العباد .

ولم يبلغ من تفظيع أمرٍ أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا . . ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا . ولله الحكمة البالغة ، فلقد كانت للربا في الجاهلية مفاسده وشروره ، ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجهه الكالح ، ما كانت كلها بادية في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت في عالمنا الحاضر ، ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم في مجتمعنا الحديث . فهذه الحملة المفزعة البادية في هذه الآيات البينات على ذلك النظام المقيت ، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع في حياة البشرية ،

أشد مما كانت متكشفة في الجاهلية الأولى .

ويـدرك ـ من يريـد أن يتدبـر حكمة الله وعـظمة هـذا الدين ، وكمال هذا المنهج ، ودقة هذا النظام ـ يـدرك اليوم من هـذا كله ما لم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مـرة . وأمامـه اليوم من واقع العالم ما يصدّق كل كلمة تصديقاً حيًّا مباشـراً واقعاً . فـالبشريـة الضالة التي تأكل الربا وتؤكله تنصبُّ عليهـا البلايـا الماحقـة من جراء هذا النظام الربوي ، في أخلاقها ودينها واقتصادها . . وتتلقى ـ حقّاً ـ حـرباً من الله تصبُّ عليهـا النقمة والعـذاب أفراداً وجمـاعات ، وأممـاً وشعوباً ؛ وهي لا تعتبر ولا تفيق ! . .

والنظام الربوي ، والنظام الإسلامي : هما نـظامان متقـابلان ، متضادان لا يلتقيان في تصور ، ولا يتفقان في أساس ، ولا يتوافقان في نتيجة . إن كلًّا منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف ينـاقض الآخر تمام المناقضة ، وينتهي إلى ثمرة في حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الاختـلاف . . ومن ثم كانت هـذه الحملة على الـربـا المفـزعـة ، من القرآن الكريم ، وكان هذا التهديد المرعب : ﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ .

فـالنـظام الإسـلامي ينعش الإنسـان ويجعله رفيـقـاً رحيـماً بـالآخرين ، فينفق مـاله لا منـةً ولا حبّاً بجـاه ، بل ابتغـاء وجـه الله سبحانه وتعالى الذي جعل في ماله حقّاً معلوماً للسائل والمحروم .

أما النظام الربوي فقد أفسد طبيعـة الإنسان في تشـريعاتـه التي سحقت البشرية سحقاً ، وأشقتها في حياتها أفـراداً وجماعـات ، ودولاً وشعـوباً ، لمصلحـة حفنة من المـرابـين المنحـطين أخـلاقيّـاً ونفسيّـاً ؛

وأحدثت خللاً في دورة المال ، ونمو الاقتصاد البشري نمواً سوياً . . وهؤلاء المرابون الذين لا يرعون في البشرية إلاًّ ولا ذمة ، ولا يراقبون فيها عهداً ولا حرمة ، هم وحدهم الذين ترجع إليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها ، وكدِّ الآدميين وعرقهم ودمائهم ، في صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم حبة عرق ولا نقطة دماء من جهودهم في تحصيلها . . .

وهم بالحقيقة في ظل النظام الربوي لا يملكون المال وحده ، بل يملكون النفوذ أيضاً . . ولما لم تكن لهم أفكار سليمة ولا تصور ديني صحيح ، بل لَمَّا كانوا هم يسخرون من حكاية الأديان والأخلاق والمُثل ، فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذي يملكونه في إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التي تمكنهم من زيادة الاستغلال ، ولا تقف في طريق جشعهم وخسة أهدافهم أية عوائق . . وأقرب الوسائل هي تحطيم أخلاق البشرية واسقاطها في مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات ، التي يدفع فيها الكثيرون آخر درهم يملكونه ، حيث تسقط جميع الأموال في المصائد والشباك المنصوبة ! وذلك مع التحكم في جريان الاقتصاد العالمي وفق مصالحهم المحدودة ، مهما أدى هذا إلى الأزمات الدورية المعروفة في عالم الاقتصاد ، وإلى انحراف الإنتاج الصناعي إلى مصلحة الممولين المرابين الذين تتجمع في أيديهم خيوط الثروة العالمية ! .

والكارثة التي تمت في العصر الحديث ـ ولم تكن معروفة بهذه الصورة البَشعة في الجاهلية الأولى ـ هي أن هؤلاء المرابين الذين كانوا يتمثلون في الزمن الماضي في صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون

الآن في صورة مؤسسي المصارف العصرية ، قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها ، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام في الأرض كلها ، سواء في ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال ودور السينما والمسارح وغيرها، أن ينشئوا عقلية عامة تسوّغ أكل الربا بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون لحومهم ، ويشربون دماءهم في ظل النظام الربوي . . وجعلوا هذه العقلية خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول ، والأساس الصحيح الذي لا أساس غيره للنمو الاقتصادي ، وأنه من بركات هذا النظام وحسناته ، كان هذا التقدم الحضاري في الغرب . . وأن الذين يريدون إبطاله جماعة من المتدينين التقليديين الخياليين - غير العمليين - وأنهم يعتمدون في نظرتهم هذه على مجرد نظريات ومُثُل لا رصيد لها من الواقع ؛ وهي كفيلة بإفساد النظام الاقتصادي كله لو سمح لها أن تتدخل فيه ! . حتى لَيتعرض الذين ينتقدون النظام الربوي من هذا الجانب للسخرية من البشر الذين هم في حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته ! . ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالمي نفسه ، الذي تضطره عصابات المرابين العالمية لأن يجري جرياناً غير طبيعي ولا سوي ، ويتعرض للهزات الدورية المنظمة ! . بحيث لا تحصل فيه البشرية على نفع ، لأن مداخيله تظل حكراً على حفنةٍ ملوثة من الذئاب ! .

وليس هذا وحده هو كل ما للربا من جريرة ، فإن قيام النظام الاقتصادي على الأساس الربوي يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين في التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستعرة ؛

فإن المرابي يجتهد في الحصول على أعلى نسبة من الفائدة ، ومن ثم يمسك المال حتى يزيد اضطرار التجارة والصناعة إليه ، فيرفع سعر الفائدة ، ويظل يرفع السعر حتى يجد العاملون في التجارة والصناعة أنهم ليسوا سوى أُجراء يعملون لحساب أصحاب المال ، إذ يجني ثمرةَ كدهم أولئك المرابون ! وأنه لا فائدة لهم من استخدام هذا المال ، لأنه لا يدر عليهم سوى ما يوفون به الفائدة ، ولا يفضل لهم منه شيء . . عندئذٍ ينكمش حجم المال المستخدم في هذه المجالات التي تتشغَّل فيها الملايين ، وتضيّق المصانع دائرة إنتاجها ، ويتعطل العمال ، فتقل القدرة على الشراء ، ويعم الكساد ، ويحصل اضطراب في العلاقات ؛ ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص إلى حد كبير أو كاد أن يتوقف حينها يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطراراً . فيقبل عليه العاملون في الصناعة والتجارة والزراعة من جديد ، وتعود دورة الحياة تعمل بخوفٍ من جديد . . وهكذا دواليك ، فتقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية ، ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة ! .

ثم إن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين ، لأن أصحاب الصناعات والتجار لا يدفعون فائدة الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين ، فهم يزيدونها في أثمان السلع الاستهلاكية ، فيتوزع عبؤها على أهل الأرض لتدخل في جيوب المرابين في النهاية .

أما الديون التي تقترضها الحكومات لتقوم بالإصلاحات والمشروعات العمرانية ، فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها

للمؤسسات الربوية كذلك ، إذ إن هذه الحكومات تضطر إلى زيادة الضرائب المختلفة لتسدد منها هذه الديون وفوائدها ، وبذلك يشترك كل فرد في دفع هذه الجزية للمرابين في نهاية المطاف . . وقلما ينتهي الأمر عند هذا الحد ، ولا يكون الاستعمار هو نهاية الديون . . ثم تكون الحروب بسبب الاستعمار ! .

ونحن هنا لا نستقصي كل عيوب النظام الربوي ، فإن عيوبه لا تحصى ، ولكن نكتفي بهذا القدر لنخلص منه إلى تنبيه من يريدون أن يكونوا مسلمين إلى حقائق أساسية بصدد كراهية الإسلام للنظام الربوي المقيت :

الحقيقة الأولى : التي يجب أن تكون مستيقنة في نفوسهم - أنه لا إسلام مع قيام نظام ربوي في مكان . وكل ما يمكن أن يقوله أصحاب الفتاوى من رجال دين أو غيرهم سوى هذا ، إنما هو دجل وخداع . فأساس التصور الإسلامي يصطدم اصطداماً مباشراً بالنظام الربوي ، ونتائجه العملية في علاقات الناس وتصوراتهم .

الحقيقة الثانية : أن النظام الربوي بلاء على الإنسانية - لا في إيمانها وتصورها للحياة فحسب ، بل كذلك في صميم حياتها الاقتصادية ، وأنه أبشع نظام يمحق سعادة البشر محقاً ، ويسحقها سحقاً ، ويعطل نموها الإنساني المتوازن ، على الرغم من الطلاء الظاهري الخداع ، الذي يبدو وكأنه مساعدة من هذا النظام للنمو الاقتصادي العام .

الحقيقة الثالثة : أن التعامل الربوي يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبثه من روح الشره والطمع والأثرة بصفة عامة . والمال

المستدان بالربا ليس همه أن ينشىء أنفع المشروعات للبشرية ، بل همه أن ينشىء أكثرها ربحاً . ولو كان الربح إنما يجيء من استثارة الغرائـز وأقـذر الميول كـانتشار دور الخـلاعـة وأنـديـة القمـار . . وهـذا هـو المشـاهد اليـوم في أكثر أنحـاء الأرض ، وسببه الأول هـو التعـامـل الربوي ! .

الحقيقة الرابعـة : أن الاسلام نـظام متكامـل ، فهو حـين يحرم التعـامل الـربوي ، ينـظم جوانب الحيـاة المجتمعية بحيث تنتفي منـه الحاجة إلى هذا النوع من التعامل ، بـدون مساس بـالنمو الاقتصـادي والإنساني المطرد .

مَثَل
خَلق عيسَى بن مريَم عَليه السَّلام

مثل
خلق عيسى بن مريم عليه السلام

١ - حمل مريم بعيسى (عليهما السلام)

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾[1] .

لقد كانت حنَّةُ ، زوجة عمران عقيماً . وقد كبرت في العمر حتى بلغت سنَّ اليأس . وقيل إنها كانت تستظل يوماً تحت شجرة ، فرأت طائراً يرفُّ حول فرخه ، فتحركت نفسها بعاطفة الأمومة ، ودعتِ اللَّهَ تعالى أن يهب لها الولدَ لتقرَّ به عينها . ويشاء العزيز القدير

(١) آل عمران : ٣٥ و ٣٦ .

أن يظهر سابق علمه ، وتتحقق حكمته في خلقه ، فينشىء الحملَ في بطن تلك المرأة الطاهرة القلب ، الصافية النية . .

وأحسَّت حنَّةُ بالحمل ، فما وجدت خيراً من السجود والشكر لله تعالى على ما أفاض عليها من نعمةٍ عظيمة ، وقد جاء تعبيرها عن هذا الشكر بأن نذرت أن يكون ما في بطنها خالصاً لوجهه الكريم ، فقالت : ﴿ ربِّ إني نذرت لك ما في بطني محرَّراً ﴾ .

فقد كان نذر حنَّة الشاكرة ، أن يكون حملها ولداً ذكراً، محرَّراً في إخلاصه في طاعة الله ، وفي خدمته لبيت المقدس . . وكان المحرَّر ـ وفق العرف السائد آنذاك ـ هو الذي يوضع في بيت العبادة ليقوم على خدمته ، فلا يبرحُهُ حتى يبلغ الحلم ؛ فيخيَّرُ عندها بين الإقامة في المعبد بإرادته أو أن يتركه ويكون مثل سائر الناس الآخرين . وقد ختمت حنَّةُ نذرها بقولها : ﴿ فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ﴾ حيث كان رجاؤها ، بأن يتقبَّل ربُّها ما نذرت ، فهو السميع لدعائها الصادق ، العليم بنيتها المخلصة . .

ووضعت امرأة عمران حملها ، ﴿ فلما وضعتها قالت : ربي إني وضعتها أنثى ﴾ . . أي لم تضع ذكراً كما نذرت ، فكيف تستطيع الوفاء بالنذر ؟ وفي هذا القول اعتذار من القلب ، علَّه سبحانه يقبلُ هذا الاعتذار ، طالما أنه لم يكن بيدها أمر ما تضع ! . . ولكنه سبحانه هو أعلم بما وضعت ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ فهو الذي صوَّرها في رحمها ، وهو الذي خلقها ، ومنحها الحياة ، وما كانت أمها إلَّا السبيل الذي تحققت به مشيئة الله تعالى ، وهي المشيئة السابقة في

خلق مولودها أنثى ، نظراً لما سيكون لهذه المولودة من شأنٍ عظيم اختارها اللَّهُ تعالى له . . وأما قولها في اعتذارها ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ فهو نابع من واقع الحياة التي كانت تعيشها ، ومن العادات والتقاليد التي سيطرت على كثير من المجتمعات البشرية ، التي نظرت إلى الأنثى مخلوقاً أضعف من الرجل ، وأقلَّ احتمالاً على مواجهة مصاعب الحياة . . وفي نظر حنَّةَ ان مولودتها الأنثى قد لا تستطيع القيام بأعباء الخدمة في بيت المقدس ، كما يقوم به مولود ذكر ؛ ثم إنَّ لهذا البيت قدسيته ، فكيف يتوافق للأنثى لما يلحقها من حيض أن تحافظ على تلك القدسية ، أو كيف يتناسب وجودها في بيت المقدس مع ملاحقة أنظار الناس لها ؟ هذا فضلاً عن أن التقاليد التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، ربما كانت تفرض ألَّا يلتحق في ذلك البيت إلَّا الذكور من دون الإناث . .

كل تلك الاعتبارات كانت الدوافع في اعتذار حنَّة ، فلعلَّ الله سبحانه وتعالى يتقبَّل اعتذارها ونذرها . ولكن مشيئته سبحانه قد نفذت ووضعتها أنثى ، فرأت أن تسميها ، وليس أفضل من أن يكون اسمها « مريم » أي العابدة والخادمة ، على لغة ذلك الزمان . . لأنها ستكون عابدةً في الهيكل ، قائمة على خدمته إيفاءً للنذر ، وهو العهد الذي أخذته أمها على نفسها حينما دعتِ اللَّهَ تعالى أن يرزقها المولود . .

وبعد أن أسمتها مريم ، أعاذتها به تعالى قائلة : ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ .

وفي هذه الإعاذة إلهامٌ رباني يستكمل به الشأن العظيم الذي

أعدّه تعالى لهذه المولودة . . فحنّةُ دعت ربّها بأن يحمي وليدتها ، وأن يصونها ، هي وذريتها من الشيطان اللعين المطرود من رحمة الله . ولكنه دعاءٌ واستعاذة يسبقان الزمن ، إذ أنطقها تعالى بهما ، لتبعد عن مريم وذريتها غواية الشيطان ، ووسوسته وإضلاله للآدميين ، فتكون مريم وذريتها ، من المؤمنين ، الصالحين كما أراد لهما رب العالمين . . ولذلك يأتي التعقيب القرآني الذي يؤكد هذه الحقيقة ، بقوله تعالى : ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسنٍ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ أي أنه سبحانه تقبّلها وهي أنثى بقبول حسنٍ منه تعالى ، وهو قبول الرضى والنعمة ، وأنشأها ورعاها رعاية حسنةً أيضاً تتوافق مع قبولها الحسن ، فكانت ـ كما يروى ـ تكتمل في اليوم بقدر ما يكتمل غيرها من المواليد في الأسبوع . فكان ذلك كله جزاءً للأم على الإخلاص الذي عمر قلبها ، وعلى تجرّدها الكامل في نذرها ، وإعداداً للمولودة فيما اختيرت له من دون نساء العالمين .

ويبين القرآن الكريم حقيقة هذا الاختيار بقوله تعالى :

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾(١) .

أي واذكر يا محمد ما أثبتناه في هذا القرآن من خبر مريم بنت عمران ، إذ اعتزلت أهلها لعبادة الله تعالى ، حيث أقامت في بيت

---

(١) مريم : ١٦ ـ ١٩ .

المقدس ، في المحراب الذي أعده لها كافلها زكريـا عليه السـلام ، في ناحيةٍ شرقيةٍ من البيت ، بحيث تكون بعيدة عن أهلهـا وعن الناس ، في مكان محجوبٍ عن الأنـظار ، لا يراهـا فيه أحـدٌ ، ولا تطالهـا نظرة سوء ، ولا يقتحم عليها أحدٌ خدرها . . ذلك أن في الحجاب احتجاباً أو اختفـاء عن الآخـرين ، وانقـطاعاً عن التعـامـل معهم في شتى الأمور . . وبالفعل فإنَّ زوج خالتها زكريا عليه السلام أعدَّ لها محـرابها الذي أقامها فيه ، ومنع الدخول عليها ، فلا يصعد أحدٌ غيره إليهـا ، لأنـه كفل رعـايتها ومسؤوليـة وجودهـا وحياتهـا في بيت المقدس ، بمشيئة الله تعالى ، الذي أوكله لهذا الدور . .

وترعرعت مريم في أحضان بيت المقدس ، وحيدة في محـرابها ؛ ونشـأت على الـطهارة والعبـادة ، حتى صارت في سن البلوغ ، أي في الوقت الذي عيّنه الله تعالى لها لتلقّي النبأ العـظيم ، حين أرسـل إليها جبريل الأمين ـ عليه السـلام ـ روحاً منـه ، ولكن على هيئـة بشري . وقد سمّاه تعالى ﴿ روحنا ﴾ لأنـه روحاني ، وزاد ضمـير المتكلم « نا » تعظيماً لنفسه سبحانه أي لباعث هذا الروح (ومثله أن تقـول : فؤادنا أو عقلنا أو فكرنا أو حتى كتابنا . . .) أرسل تعالى لمريم جبريل الأمين روحاً ، ولكنه تمثَّل لها بشراً سويّاً ، مثل سـائر البشـر . . وهنا يتمثـل الخيـال تلك العذراء الـطاهرة ، البـريئـة ، التي نشـأت عـلى التـربيـة الصالحة ، في محيط العبادة والإيمان ، وفي كفـالة نبيٍّ مبـارك من أنبياء الله ، هو زكريا عليه السلام . . يتمثلها الخيال وقد دخل عليها شـاب سويُّ الخَلْق ، بهيُّ الطلعة ، جميلُ المحيّا ، يقـف أمامها فجأة ، ومن غير استئذان كفيلها ، فماذا تقول له ، وبماذا قد تشعر ؟ ! . . .

قد تأخذ الدهشة مريم أو أيَّ عذراء غيرها لمرآه ، ولكنَّ الدهشة لا تقاسُ لو أن جبريل (ع) ظهر أمامها بصورته الملائكية ، التي قد تأخذها حقّاً ، ولا تعود فتقوى على محادثته أو استماع كلامه ؛ ولذا كانت مشيئته تعالى أن يرسل إليها ملاكاً على صورة إنسان ، يكلمها بلغتها، ولا يكلِّمها إيحاءً تنفر منه، أو إيماءً تجعل قلبها يجفل منه . . وبالفعل لم تؤخذ مريم العفيفة الورعة ، ولم تخفْ من هذا البشري الجميل ذلك الخوف الذي يعتري وحيدةً في محرابها ، ولكنها قالت له : ﴿ إني أعوذ بالرحمان منك إن كنت تقيّاً ﴾ . . وأيضاً لم تبادره إلَّا بما ينمُّ عن الطهر والعفاف ، ولذا خاطبته مستعيذة بالرحمان منه ، الذي يعصم من الزلل والابتلاء . فقولها يعني : إني أعتصم بالرحمان منك ، ومن دخولك عليَّ ، فاخرج من عندي أيها الإنسان إن كنت تخاف اللَّهَ تعالى . . وقد استعملت لفظة﴿ تقيّاً ﴾ لأنَّ التقيَّ إذا تعوَّذ أحد منه بالله تعالى ، ارتدع عما يسخط أو يغضب رب العالمين . . إذن ففي قولها تخويف وترهيب له . .

﴿ قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيّاً ﴾ . أي ولداً طاهراً ، مزكيًّ من الله تعالى ، لا يخالطه دنَسٌ ، وينمو في فعل الخير . .

وهنا أيضاً مجال واسع كي يتمثل الخيال مقدار الخوف ، والخجل، والحيرة التي قد انتابت العذراء مريم (ع) في تلك اللحظة، وهي تستمع لما يقول لها ، في خلوة بعيدة عن الأعين ؛ يتمثلها وهي تتصور أنه لا يمكن أن يهب لها غلاماً إلَّا أن يلامسها . ولكنها هي لا ترضى بملامسة أي رجل على الاطلاق ، لأنه تعالى عصمها عن شهوة

النساء ، وعن الزلل ، وندبها للعبادة والطاعة ، إعداداً للأمر الجلل . .

ولكنه لم يداخل العذراء (ع) أي تفكير بأن يلامسها ذلك الشاب الجميل الصورة ، الفائق الحسن . ولم يخطر على بالها شيء من ذلك على الإطلاق ولذلك قالت له :﴿أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ، ولم أكُ بغيّاً؟﴾ أي كيف أَلِدُ غلاماً وأنا لم يمسسني رجلٌ ، ولست من النساء اللواتي يبتغين الرجال ؟ ! . . .

فقال لها جبريل عليه السلام :﴿كذلك قال ربك هو عليَّ هيّن ولنجعله آيةً للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيّاً﴾ أي مقدراً محتوماً . .

٢ ـ مثل عيسى عند الله تعالى كمثل آدم

يقول عزَّ وجلَّ :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١] .

فخلق عيسى ، مثل خلق آدم ، بنص القرآن الكريم الذي كرَّمه ، وبرَّأ أمه البتول المطهَّرة. فَخَلْقُ آدم كان من غير أب وأمٍّ، وخلق عيسى كان من أمٍّ ودون أب. ولو تفكَّر الناس في هذين الخلقين ، لوجدوا أنهما آيتان منفردتان في خلق البشر ، لهما مدلولات عظيمة على قدرة الله تعالى ومشيئته . فآدم خلقه اللَّهُ تعالى من تراب ، ولم يخلق أحداً غيره من التراب، وعيسى خلقه من الروح التي نفخها فيها، ولم

---

(١) آل عمران : ٥٩ .

يخلق أحداً غير آدم وعيسى عليهما السلام بهذه الكيفية العجيبة. فإذا كانت سنة الله في خلق البشر، أن يكون من أب وأم، فإنَّ خلق عيسى من أم فقط، أقل عجباً من خلق آدم من غير أم وأب.. وإذا كانت عناصر الحياة التي نشاهدها، وهي النار والنور والماء والتراب والهواء هي التي خلق الله تعالى منها سائر مخلوقاته من الملائكة والجن والإنس، فإنَّ هذه العناصر يؤكد القرآن الكريم على وجودها، ويضيف بأن خلق الإنسان كان منها أي من صلصال من فخار، ثم نفخ فيه من روحه، فصار بشراً سويّاً.. وإذا كان تعالى قد خلق آدم (ع) على ذلك النحو، أي بكلمة منه، من غير أب وأم، وقد أقرُّوا بهذا الخلق لآدم - عليه السلام - ولم يُنكروه، فكيف لا يُقرون بخلق عيسى بكلمة من الله، ثم ينكرون خلقه بِفِعل الكلمة وحدها؟!... أليس اللَّهُ تعالى هو الخالق القادر الذي يقول للشيء كن، فيكون؟!.. أليس هو جلَّ وعلا من قال لآدم: كن، فكانت الاستجابة والكينونة؟ وهو عزَّ وجلَّ من قال لعيسى: كن، فكانت الاستجابة والكينونة؟! إذن فلا يستقيم إنكار خلق عيسى من غير أب، مع الإقرار بخلق آدم من غير أب ولا أم. وإذا كان لكل منهما ميزته في الخلق (أي آدم من تراب وعيسى من الروح) فلا شيء يمنع من تشبيه خلق عيسى بخلق آدم، لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، وقد شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة. فهما في ذلك نظيران. ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فقط، فشبَّه الخلق الغريب (خلق عيسى) بالأغرب (خلق آدم) ليكون أقطع للخصم، وأحسم لمادة المشابهة إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه.

وعلى كل حال ، فإن الله تعالى حسم الأمر في حقيقة عيسى (ع) وفي طبيعة الخلق ، وبيّن أن قدرته العظيمة هي التي تنشىء الكائن كما يشاء سبحانه وتعالى . . فإذا كانت ولادة عيسى عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر ، فأية غرابة فيها حين تقاس بخلق آدم أبي البشر ؟ وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ، ويجادلون حول عيسى - عليه السلام - بسبب مولده ، ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب ، فأهل الكتاب هؤلاء كانوا يقرّون بنشأة آدم (ع) من التراب . وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني من غير أن يصوغوا حوله الأساطير التي صاغوها حول عيسى ؛ ودون أن يقولوا عن آدم إن له طبيعة لاهوتية . على حين أن العنصر الذي صار به آدم إنساناً هو نفس العنصر الذي ولد به عيسى من غير أب : عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك ! وإن هي إلّا الكلمة ﴿ كن ﴾ ، التي تنشىء ما تراد له النشأة ﴿ فيكون ﴾ .

وهكذا تتجلى ، ببساطة ، هذه الحقيقة . . حقيقة عيسى ، وحقيقة آدم (عليهما السلام) . حتى ليعجب الإنسان : كيف ثار الجدل حول هذا الحادث ، وهو جارٍ وفق السنّة الكبرى ، سنة الخلق والنشأة التي سنّها الله سبحانه للخلق جميعاً ! . .

التقليد والتبعيّة

التقليد والتبعيّة

١ - تبرّؤ المتبوعين من التابعين يوم القيامة

يقول اللّهُ تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا۟ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾(١) .

إن التقليد تعطيل لنعمة العقل ، وأَسْرٌ لموهبة الإدراك . ولذلك فإن المقلّدين يُلغون أفهامهم ومداركهم فيقودهم ذلك إلى عدم التفكّر في خلق السماوات والأرض ، وعدم البحث والاستقـراء ليتوصلوا إلى

(١) البقرة : ١٦٥ - ١٦٧ .

الاعتقاد الجازم ، والإيمان المكين . أي أن تعطيل خصائص الإنسان الروحية والذهنية يميت فيهم التكوين المتأثّر والمؤثّر في المجالات الحيوية للإنسان ، وفي طليعتها مجال الإيمان والعقيدة الدينية . . وفي هذا المجال تجدهم قد صمّوا آذانهم عن سماع دعوة الحق سماع تدبّر وتبصّر وتفهّم ، وسُلبوا النعمة التي خصَّ اللَّهُ تعالى بها الإنسان (التمييز والاختيار) ، ولم يتجاوبوا مع دعوة الداعي ﴿ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ ، فلن نحيد عن معتقداتهم ، ولن نخرج على عاداتهم وتقاليدهم . . فالمقلدون الذين قالوا : ألفينا آباءنا على دين ونحن على آثارهم مقتدون ، لم يدركوا حقيقة الاسلام ، ولا شعَّ نوره في قلوبهم ، لبعدهم عنه ، أو لاكتفائهم بظاهر إيمانهم . فإن قنعوا بتقليدهم الأعمى وبتبعيتهم الجهلاء ، فاللَّهُ تعالى لا يقبل منهم هذه التبعية وذاك التقليد . ولذلك ضرب لهم في القرآن أمثالاً تبيّن صفاتهم وأحوالهم ، التي نراها في كل زمان ومكان ، في أناسٍ يتخذون من دون الله ـ جلَّ وعلا ـ أصناماً أو أشخاصاً أو كائنات معينة يعبدونها ، فيقعون في الشرك والضلال ، لأنها كلها شرك خفي أو ظاهر ، إذا ذكرت إلى جانب اسم الله تبارك وتعالى ، أو إذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله ـ والعياذ بالله من ذلك ـ . . فكيف إذا نزع حبَّ الله تعالى من قلبه ، وأفرد تلك الأنداد بالحب الذي لا ينبغي ولا يجوز إلاَّ أن يكون للخالق ؟ تلك هي حال المشركين ومن تبعهم . . أما المؤمنون فلا يحبون شيئاً حبهم لله : لا أنفسهم ، ولا أهليهم ، ولا سواهم من البشر مهما عظم وسما ، ولا يقيمون وزناً ، ،ولا يعطون قيمة لما يجري وراءه الناس ﴿ والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله﴾ عزَّ وجل خالقهم، وهاديهم، والمنعم عليهم. وحبهم

له سبحانه يكون حبّاً مطلقاً من كل موازنة ، ومن كل قيد ، ومتجهاً إليه تعالى دون سواه ، لأنهم عرفوا عن طريق تفكيرهم حقيقة وجود الله ، وسناء عظمته ، وجلال شأنه ، وعظيم فضله عليهم ، فعبدوه حبّاً ، وطاعة وقناعة ، وشكراً ، وامتناناً وثناءً . . .

إذن فأين هم الذين اتخذوا أنداداً أو أرباباً من دون الله ، يحبونهم مثل حب الله ، ويخلصون لهم الودَّ والطاعة؟ . . أين هُم من المؤمنين الذين صدقوا في حبهم لله تعالى ، وأخلصوا له الإيمان والطاعة ؟ إنَّ حب المؤمنين لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أشدُّ من حب غيرهم ، من وجهين :

الأول إخلاصهم في العبادة والتعظيم لله الواحد الأحد ، والثناء عليه ، وتسبيحه وإجلاله ، وتنزيهه من الإشراك .

والثاني حبهم لله تعالى عن علمٍ بأنه المنعم ابتداءً ، وأنه يفعل بهم في جميع أحوالهم ما هو الأصلح لهم في التدبير ، وقد أنعم عليهم بالكثير ؛ ولذلك فإنهم يعبدونه عبادة الشاكرين ، ويرجون رحمته رجاء المتقين . فلا بد أن يكون حبهم له أشدَّ .

﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ﴾ . ومن هم الذين ظلموا ؟ هم الذين اتخذوا أنداداً من دون الله ، فظلموا بذلك أنفسهم وظلموا معهم غيرهم من الذين عملوا مثلهم . . لو يرى هؤلاء الظالمون عذاب الله الذي سينزل بهم ، لأدركوا أن القوة والبأس ، والشدة والجبروت ، والعظمة كلها لله تعالى الواحد القهّار . ولو رأوا ذلك لرأوا مضرَّة فعلهم وسوء عاقبتهم، ولَعَلِموا عندئذٍ أن اللَّهَ شديد العذاب لما يذوقون من شدّته

وألـوانه . . إذن فتقـدير المعنى : أنهم لـو علموا في الـدنيـا ـ ويا ليتهم يرون ويعلمون ـ شدَّة عذاب الله ، وأن القدرة له تعـالى وحده ، فـلا يملك أحدٌ غيره ـ سبحانه ـ أسباب القوة ، لما اتخذوا من دونه أنداداً ، ولا أشـركوا بـه شيئاً ، ولتـركوا تقليـد آبـائهم ، ولـرفضـوا عبـاداتهم السخيفة ! . .

﴿ إذ تبرَّأ الذين اتبعوا من الذين اتَّبعـوا ﴾ يوم القيـامة . حيث يتبرأ الآباء والرؤساء ، والآلهـةُ والأربابُ وسـائر المتبـوعين من الـذين اتَّبعوهم في معتقداتهم ، أو من الـذين أقامـوا على عبـادتهم بتقليدٍ من غيـرهم، منكـرين عليهم ضـلالهم وذلـك حين ﴿ رأوا الـعـذاب ﴾ جميعاً ـ التابعون والمتبوعون ـ عندمـا حلَّ بهم ذلـك العذاب الأليم ، وعندما تقطعت بينهم كل أسباب القرابة والأرحام والمـودة ، أو الحلف أو العهد ، وكل الصلات التي كانت تربطهم في الـدنيا . . . بحيث لم تعـد تنفعهم بشيء في الآخرة ، لأنَّ مـدار النفع والثـواب والأجـر لن يكون إلَّا عمل الإنسان وحده ، وما كسبت نفسه في أولاه . . .

إذن يحصـل التبرؤ ، وتنقـطع الأسبـاب والصـلات ، ويقعـون جميعـاً في العذاب : تـابعين ومتبـوعين ، فمـاذا بعـدُ ؟ هنـا يـأتي دور التابعين : ﴿ وقال الذين اتَّبعوا : لو أن لنا كرَّة فنتبـرَّأ منهم كما تبـرَّأوا منا ﴾ أي لو أن لنا عودةً إلى الـدار الدنيـا ، وفرضت علينـا التكاليف من جـديد ، فـإننا نتبـرَّأ هناك من الـذين اتبعناهم كـما تبرأوا هم منـا هنـا ؛ ولن نقتدي بهم ، ولن نعـود إلى اتبـاعهم أبـداً . . فيـا لـه من مشهـد مؤثـر : مشهـد التبـرّؤ والتعـادي والتخـاصم بـين التـابعـين والمتبـوعين ، فكـلٌّ يريـد أن يتنصَّـلَ من وزر الآخـر ، ومن إضـلالـه

لـه . . ولكن هيهاتِ أن تكـون لهم عودة ، فقـد أُحضروا إلى الآخـرة التي لا رجـوع منها إلى دار الـدنيا . . وكـما بدت لهم سيئـات أعمالهم باتباع الضالين المضلّلين ، فكذلك يريهم الله تعالى أعمالهم حسراتٍ ، وندامات تختنق بها أنفسهم . فهم يتحسرون على أعمالهم التي ارتكبوا فيهـا الشرك والمعصيـة، وتركـوا التوحيـد والطاعـة، لأنهم أدركوا يـومئـذٍ مقـاديـر الثـواب التي عـرضت عليهم لـو فعلوا الـطاعـات ، فتحسـروا على ذلك الثـواب الجزيـل حسرةً دائمـة ، قد تكـون أشدَّ من حسـرةِ العـذاب ، بل هي من صميم العـذاب الذي منـه يعـانـون . ولكنهـا حسرة لا تفيدهم بشيء ، لأن مصيـرهم النار ومـا هم بخارجـين منها بعد دخولها .

٢ ـ مثل الذين كفروا كالسوائم الصمّ البُكم

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(١) .

فهنا يضرب اللَّهُ تعـالى مثـلاً عن الـذين كفـروا فلم يستجيبـوا لـدعـوة التـوحيـد ، وركنـوا إلى التقليـد ، مصمّـين آذانهم عن دعـوة الـرسل ، فيشبههم بـالبهائم التي يصـرخ فيها الـراعي فـلا تفهم منـه شيئاً ، بل تسمع صراخه أو نَعيقه أو دويَّ صوته ، وربما جرس نغمـة هذا الصوت إذا ناداها بشيء من الـرأفة والحنـان ، ولكن من غير أي إدراكٍ لما تسمع . .

---

(١) البقرة : ١٧١ .

فالكفار الذين اتبعوا دين آبائهم ، وقلَّدوهم في عقائدهم وعباداتهم ، يمثلهم القرآن الكريم بالسوائم أو البهائم التي تطيع صيحات راعيها من غير تفكير في مدلولاتها الوضعية : لا تفهم أوامره ، ولا تفقه نواهيه ، ولا تعقل صيحاته ونداءاته . . بل تسمع منه أصواتاً اعتادت عليها : تدعى بصوت فتأتي مقبلة ، وتصرف بآخر فتعود مدبرة ؛ هكذا هم الكفار ، دُعوا للشرك والكفر فاتَّبعوه ، فكأنما هم في اتباعهم إيَّاه صمٌ لا يسمعون نداءَ الإيمان ، بكمٌ لا ينطقون بكلمة الحق ، عميٌ لا يبصرون آيات الله تعالى في أي شيء ؛ فهم إذن لا يعقلون الحقيقة ، ولا يدركون الطريق السويَّ الذي يجب أن يسيروا عليه ، ولذلك تاهوا في مجاهل الكفر والضلال .

نقض العهود

والحلف بالله تعالى خداعا

نقض العهود

١ ـ مثل ناقض العهد كالتي تنقض غزلها المنسوج

يقول الله تعالى :

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١) .

من الفضائل التي يحرص عليها الإسلام ، فضيلة الوفاء بالعهود ، والحفاظ على المواثيق . ولذلك كان نقض العهد نقيصة وليس بفضيلة، لأن الإنسان يحيد بها عن حق الله تعالى، وحق عباده . ذلك أنّ من ينقض ما عاهد الله ـ ربَّهُ ـ عليه ، من السهل

---

(١) النحل : ٩١ و ٩٢ .

عليه أن ينقض عهود الناس ، وألَّا يلتزم بوفاء أو صداقة، مما يجعل المعاملات عرضة للمخاطر ، التي تجلب الأضرار المادية والمعنوية وتلحق الأذى والدمار بالصلات ، والروابط ، والمواثيق على اختلافها . . لذلك نجد أنه لما تقدم ـ في سورة النحل ـ ذكر الأمر بالعدل والإحسان ، والنهي عن المنكر والعدوان ، أتبعه هذا التعقيب بقوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾، وفيه توجيه للناس نحو الحق والخير، وأمرٌ لهم بالوفاء بالعهد، ونهيٌ عن نقض الأيمان، فإن عاهد أحدٌ ربَّه تعالى على أن يفعل شيئاً حسناً ، صار واجباً عليه فعلُهُ التزاماً بعهده مع ربه . وإن حلَف أحدٌ أيماناً بالله تعالى ، فإنَّ هذا الحلف فيه عقد وإبرام باسم الله تعالى، فلا يجوز بعده اللغو بهذا اليمين، خصوصاً وأنه جعلَ اللَّهَ تعالى كفيلاً عليه في ذلك . والكفيل بالشيء يحفظه ويؤديه، والإنسان عندما يقسم بالله تعالى فإنما هو يؤكد على نفسه أنه تعالى يكفل ويحفظ هذا الأمر الذي أقسم عليه ، وأنه سَيَفي به، ولا يحنث بوعده في وفائه ، أو في الامتناع عن القيام به ، إذا كان الأمر يتعلق بنفي الأمر أو الامتناع عنه . . ـ لأن الله تعالى الذي أُقْسِمَ به يعلم ذلك : ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ من وفاءٍ بالعهود ، أو نقض لها ، لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية. . والوفاء بعهد الله ـ سبحانه ـ يشمل بيعة المسلمين للرسول (ﷺ) . ويشمل كل عهدٍ على معروفٍ يأمر به ربُّ العالمين . والوفاء بالعهد هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس ، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع ، ولا تقوم إنسانية . والنص يُخجل المتعاهدين أن ينقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلوا الله تعالى كفيلاً عليهم ، وأشهدوه على عهودهم ، وجعلوه كافلاً

للوفاء بها . ولذلك يهددهم النصُّ تهديداً خفيفاً : ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ . فلا يغيب عنه أمر من أموركم ، ولا يخفى عليه شيء في حياتكم ، وهو يرقبكم ، ويحصي عليكم حركاتكم وسكناتكم ، فحاذروا من عمل لا يرضاه ، لأنه تعالى يعلم كل عمل ، وكل فعل تقومون به . . ثم ضربَ سبحانه وتعالى مثلاً على من ينقضون العهود، فقال عز وجل : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ﴾ . فجاء هذا المثل من واقع حياة الناس ، حيث يأمرهم ربهم بألَّا يكونوا مثل تلك المرأة الحمقاء التي تغزل صوفها بإحكام ، ثم تعود وتحلّ ما غزلته أنكاثاً أي قطعاً متفرقة أو خيوطاً مبعثرة ، فلا تنتفع من رداءٍ غزلته ، ولا تعود خيوط الصوف صالحة للانتفاع بها بعد تقطيعها . . ويقال إنه كان لعمرو بن كعب بن سعد بنت تدعى «ريطة» . وكانت إذا غزلت الصوف عادت ونقضته لحماقتها، فكانت تلقّب بخرقاء مكة . ولكن ليست « ريطة » مكة هي المقصودة بالمثال ، بل هو عام يتناول أعمال الناس التي فيها نقض للعهود ، فيأتي التشبيه ليرسم لهم صورة هذا النقض بواقعٍ من حياتهم قد يرونه كل يوم . أفلا ترون أن كل جزئية من جزئيات التشبيه تشي بالتحقير والتعجب ، وتشوّه الأمر في النفوس ، وتقبّحه في القلوب ؟ وهذا هو المقصود هنا . . تقبيح عمل النقض ، وتشويهه وتحقيره . . ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ . والدَخَل هو ما يُدخَل في الشيء - وليس منه - لإفساده . فقد كان بعضهم يعقدون المواثيق ، ويقيمون العهود ، وهم يضمرون الخيانة والخديعة . أما الناس فكانوا يسكنون إلى مواثيقهم وعهودهم بعد أن يغلظ أولئك الأيمان بالله تعالى ، ويصدقونهم . . أي أنهم كانوا في الحقيقة ، يتخذون أيمانهم مكراً

وخـداعاً لتحقيق المـآرب والمنافـع الذاتيـة ، دون الاعتداد بـإشهاد الله تعـالى وحلفهم به جـلَّ وعلا . ومن قبيـل تلك الفعال تـرك حلفائهم القدماء والاتفاق مع حلفاء جدد ، قد يكونـون بنظرهم أكـثر عدداً ، وأشدَّ قوة ، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أن تكون أمـة هي أربى من أمة﴾ أي أن تكون جماعة أعزَّ نفراً وقوة من جماعة أخرى، فحالما يجدون هذه الجماعة الجديدة ينكثون عهدهم مع الجمـاعة السـابقة التي كـانوا يحالفونها ، متناسين ما أغلظوا من الأيمان للوفاء بالعهد ، والحفاظ على التحالف . . وكل ذلك ركضاً وراء المصالح المادية ، بينما كان الأجـدر بهم الوفاء بالعهد ، والمحافظة على الأيمان ، لأنَّ فيه خيراً لهم . . إذن ففي نكث العهـد شر لهم وليس مصلحـة ، فهـل يفهمـون ويعـون ذلك ؟ !

ويدخل في مدلول النص أن يكون نقض العهد تحقيقاً لما يسمى في العصر الحاضر « مصلحة الدولة » . إذ تعقـد دولة مـا معاهـدة مع دولة أخرى أو مـع مجموعـة من الدول ، ثم تنقضهـا بعد أن تـرى أن هنالك دولةً أربى من التي عاهدتها من قبل! أما الإسـلام فلا يقـرُّ مثل هـذا المبـرر، بـل يحتِّم الـوفـاء وعـدم نقض المعـاهـدات من طـرف واحـد ، على أسـاس أن تتوافق إرادة الـطرفين المتعـاهدين عـلى إلغاء المعاهدة أو وقفها . ذلك أن الإسلام يريد الوفاء بالعهد والمعاهدات ، وعدم اتخاذ الأيمان ذريعة للغش والدَخَل . وينـطبق على ﴿ الايمـان ﴾ في عصـرنا سيـاسة المـداهنة والنفعيـة التي تقـوم بهـا الـدول؛ وأعـراف الشرف التي توثق بها علاقاتها مـع غيرهـا ، بينما هي تضمـر في الخفاء خداعاً وغشاً ومراوغة لتحقيق أهداف قد تكون قـريبة أو بعيـدة ، كما كانت تفعل بريطانيا من قبل ، وما تزال ، إذ كثيراً ما تـداهن وتتقرّب

من غيرها ، للوصول إلى غايات غير منظورة ، ثم تتبين غاياتها على المدى القريب أو البعيد . . .

إذن فالنتيجة الحتمية لمفاهيم الإسلام هي أنه لا يقر تعاهداً ، ولا تعاوناً على الإثم والفسوق والعصيان ، وأكل حقوق الناس ، واستغلال الشعوب والدول . وعلى هذا الأساس السليم من الوفاء بالعهد قام بناء الجماعة الإسلامية ، وبناء الدولة الإسلامية . فَنَعُمَ العالم بالطمأنينة والثقة والنظافة في المعاملات الفردية والدولية يوم كانت قيادة البشرية إلى هذا الدين القويم . واللَّهُ تعالى عندما يأمرنا بالوفاء بالعهد ، فذلك اختبار لنا ، وليميّز المطيع من العاصي . وهو اختبار أيضاً لمن يرغب في نصرة المؤمنين على ضعفهم وقلة عددهم ، ومؤازرتهم على عدوهم ، وإن بدا هذا العدو قادراً ، مقتدراً ! .

ولا تقف آثار الوفاء بالعهود على العلاقات الدنيوية بل تتعداها إلى الآخرة، لأنه تعالى يعذّب الناكث بالعهد ويثبّت الملتزم. والرسول (ص) قال : « أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً . ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

٢ ـ الجاحد بآيات الله ختّار كفور

يقول الله تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ[(1)] .

ومن لا يـرى الفلك تجري في البحـر ؟ كل منـا يـراه . . ولكنَّ قول الله تعالى يوجِّهُ انتباه الإنسـان ، ويحرك عقله وحـواسه إلى آيـاته سبحـانه التي خفيت عـلى أفهام البشـر ، إذ اعتادوا عـلى رؤ يتهـا فلم تتحـركْ في نفوسهم أيـة مشاعـر، ولا ثار أيُّ استفهـام! . . فالفلك تسيـر في البحر ، ولكن هل عرف الإنسان بـأن جريـانها فوق هـذا الماء هـو بنعمـة من الله تعالى وفضله ، ولـو شاء العـزيز القـديـر لما سخّـر لنـا البحر ، ولما وهبنا العقل لنصنع تلك السفن ثم نقذفها فوق اليمِّ لنحقق بواسطتها مصالحنا ؟ .

ولو أمعن الإنسان تفكيره في مشهد الفلك وهي تجـري في البحر لأدرك حقّـاً أنـه من الشـواهـد الـدَّالـة، والآيـات المبينـة التي تـوجب علينا ألَّا نراها فقط بالعين المجردة، بل وأيضاً بـالبصيرة النـافذة، لأن هذا التبصُّر من شأنه أن يقود حتماً إلى الإقـرار بأن في جـريان الفلك في البحر آيات بيِّنـات للناس، أقلها أن للماء ضغطاً أوجده الله ـ سبحانه ـ ينبعث من أدنى إلى أعلى لكي يستطيع أن يحمل ثقل الجسم الملقى على صفحتـه، وأن يجعله يـطفـو، بـالغـاً ما بلغ وزنـه، إذا تـوفـرت لـه شروط التوازن في الحجم والشكل والصنع . . ونتيجة لذلـك القانـون الذي أوجده الله تعالى في الماء ، كـانت تلك العمارات من الأسـاطيل التجـارية وغـير التجاريـة التي تجـوب البحـار والمحيطات بـين مختلف

(1) لقمان : ٣١ و ٣٢ .

القارات، فتسهِّل عملية مبادلات السلع وتقيم العلاقات بين أمم الأرض وشعوبها . . أوليس في ذلك ما يوجب الشكر لله تعالى على هذه النعمة الجزيلة ، والثناء عليه سبحانه لهذا الفضل العظيم ، ثم الإقرار بقدرته وعظمته ؟ ! . .

والعبرُ من هذا البحر ، ومن الفلك التي تجري فيه كثيرة . . وإحدى هذه العبر أن كثيراً ما يصادف أولئك الذين يجوبون البحار عواصف هوجاء وعاتية ، تهبُّ على الأمواج فترفعها ، وعلى السفن فتزلزلها. وما بين العواصف وهبوبها ، والأمواج وتلاطمها ، تصبح السفينة عرضة للهلاك تتقاذفها الأخطار من كل جانب ، حتى ليرى من هم على متنها أنَّ لا نجاة لهم من الموت المحتوم . . وقد يحاول هؤلاء بذل قصارى جهودهم للحفاظ على سفينتهم ، ويعملون المستحيل لئلا تحطمها العاصفة ويبتلعها وإياهم اليم ، ولكنهم مهما فعلوا لا يقدرون على شيء إن لم يُردِ اللَّهُ تعالى لهم الخلاص والنجاة . وأمام هذا الخطر الداهم ، فإنهم لا يجدون مناصاً - كائناً ما كان اعتقادهم - من اللجأ إلى الله تعالى ودعائه بأن يخلّصهم من هذا الكرب العظيم . ذلك أن نفس الإنسان ، في مثل هذه الحالة من الخطر والضيق ، تتعرَّى من القوى الخادعة ، وتتجرَّد من القدرات الموهومة ، وتعود إلى صافي فطرتها التي فطرها اللَّهُ تعالى عليها ، فلا تجدُ إلَّا الله تعالى ملاذاً ، وملجأً . . أي أنه بعد سقوط جميع الحوائل التي كانت تفصل ما بين النفس وخالقها ، تعود وتستقيم متجهة إلى ربها وبارئها ، مخلصة له الدعاء ، موحدة له ، نافيةً عنه كل شريك ، نابذة كل ندٍّ . . فينجيها سبحانه برحمته ، لأنه قال سبحانه ﴿ادعوني استجب لكم﴾ . .

فأولئك الذين وقعوا في الكرب ، وحاق بحياتهم الخطر ، قد أنجاهم اللَّهُ تعالى لأنهم دعوه مخلصين . . ولكنهم ما بالهم وقد أعادهم تعالى إلى البر ، فمنهم مقتصد ، ومنهم جاحد ، أي بعضهم من يبرُّ بالوعد الذي عاهد الله عليه ، وبعضهم يعدل عن الوفاء بعهده ، وينسى ذلك الفضل العظيم من ربه ؟ ! فهما إذن صنفان من البشر ، صنف شاكر مقتصد ، وصنف جاحد منكِر . . فأما المقتصد ، فهو الذي يكون على طريقة مستقيمة ، وصلاح في الأمر ، وثبات في الإيمان ، ووفاء بالعهد ، لا يجرفه الأمن والرخاء إلى النسيان والاستهتار ، بل يظل ذاكراً ، شاكراً ، وإن لم يوفِّ حق الله تعالى حق الوفاء في الذكر والشكر . من هنا سمّاه تعالى ﴿ مقتصداً ﴾ . . وأما غيره، فهو الجاحد بآيات ربه، المنكِر نعمته عليه لمجرد زوال الخطر، وعودة الرخاء والأمن، الذي دعا اللَّهَ تعالى وقت الضيق، وعاهده على الطاعة والوفاء ، ولكنه أخلف وجحد بالنعمة ، نعمة النجاة من الهلاك . وما يجحد بآيات الله تعالى إلاَّ كل ختار كفور. (والختَّار هو الشديد الغدر والكفور هو الشديد الكفر). ومثل هذه المبالغة الوصفية تليق هنا بمن يجحد بآيات ربه سبحانه ، بعد هذه المشاهد الكونية ، ومنطق الفطرة الخالص ، الواضح المبين .

محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وصحابته الكرام

محمد رسول الله وصحابته الكرام

١ ـ صفات الرسول وأصحابه

يقول الله تعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾(١) .

في هذه الآية المباركة وصف لمحمدٍ (ﷺ) ولأصحابه الكرام ورد بهذه الصورة الوضيئة ، وبهذا الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله تعالى عنها وبلّغها رضاه . فقد نصَّ

(١) الفتح : ٢٩ .

سبحـانه عـلى اسم النبي ليزيـل كل شبهـة بشأنـه . فقال : ﴿ محمـد رسول الله ﴾ والرسالة هي منتهى ما يطمح إليه بشري يتلقى التكليف من الله تعالى ليبلغ رسالته إلى أهل الأرض . ففيها اصطفاء ، واختيار وتمييـز . . وفيها عهـدة إلى من يقدر عـلى تحمل العبء ، والقيـام بمـا يفـرضه التكليف . . وهي مـزية خـاصة لفـردٍ معينً من بني البشـر ؛ يحمـل وسام الـرضى ، وشرف الـرفعة والسمـو ؛ لأنها العطاء الإلهي والفضـل الكبير . . والـرسالـة ليست معنىً مجرداً يمكن أن يضـاف إلى سمات واحد من بني البشر ، بل هي تفاعلٌ حيوي لقيادة البشـرية إلى خيـرهـا وصـلاحهـا ، وإلى راحتهـا واطمئنانها، وإلى أمْنهـا النفسي وانعتـاقها الفكـري ، وإلى نورانيـة قلوبها وهنـاء وجدانها . . . وهي ـ أيضاً ـ التفاعل الزاخر، والتطلع الـدافق. . . وليس من صفةٍ لمحمـدٍ (ﷺ) أعظم من أن يكون رسولاً لله ، جلَّ وعلا ، الذي هو رب الكون والحياة والإنسان ، وإله الوجود ، والمعبود الحق ، العلي العظيم . إذن فليعلم أهل الأرض ، وليعلم أهل السـماء ، أن محمداً هـو رسول الله لبني البشـر عـلى الأرض ، فليكن ذلـك سبيـلاً لـلإيمـان بـرسـالتـه ، والالتفـاف حولـه ، ونصرة دينـه ، لأنه دين الله تعـالى : ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ .

وبعد أن يعلم اللَّهُ تعالى أهل الأرض كافة بأن محمداً هو رسول الله ، يبـيّن بعض سجايـاه هو ومن معـه من المؤمنين بقـولـه تعـالى : ﴿ والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ﴾ . فقـد قيل إنـه بلغ من تشدّد أولئك الصحابة الأبرار على الكفار أنهم كانـوا يتحرَّزون من ثياب المشركين حتى لا تَمَسَّ ثيابهم ، وبلغ تـراحمهم فيما بينهم أن كـان لا يَرى مؤمنٌ مؤمناً إلاَّ صافحه وعانقه ؛ ومثله قـوله تعـالى : ﴿ أذلة

على المؤمنين أعزّة على الكافرين ﴾ . . ﴿ والذين معه ﴾ أي مع محمد (ﷺ) ليس فقط الصحابة الذين رافقوه في معترك نشر الرسالة ، بل كل من حمل لواء هذه الرسالة منذ بُعث محمد (ﷺ) وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . . نعم ، إنَّ من اتَّبع الإسلام ، وعمل بمفاهيمه قولاً وعملاً بنيةٍ خالصة ، ومن عامل الناس بأخلاق الإسلام ، وقام بتربية الأفراد والجماعات على أسس إسلامية ، هو مع محمدٍ (ﷺ) ، مهما طال به الزمن ، أو امتدت به العصور . . وإذا كنت تريد أن تكون كأصحابه فأمامك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فاتَّبعهما واعمل بوحيهما وهديهما ، لتتمَّ صحابتك مع رسول الله (ﷺ) : ويا لها من صحبة سوف تتلقّى آثارها ومفاعيلها وأنت بين يدي ربك في الدار الآخرة ، وقد استقبلك رسول الله (ﷺ) يرحِّب بلقياك صحابيّاً مؤمناً ، محتسباً ، عاملاً ، أحببت الله ورسوله ، فأحبك اللّهُ ورسولُه . . والتراحم بين صحابة محمد (ﷺ) هو تقارب القلوب والأفكار ، وهو تعاون على البر والتقوى ، وابتعاد عن الإثم والعدوان ؛ كما أنه التفاعل الدائم بين المسلمين على أساس الإسلام ، فلا تنابذ ، ولا تناحر ، ولا تقاتل ، ولا عصبية مذهبية ولا طائفية . . بل توجه إسلامي صرف ، ودعوة خالصة إلى الله ورسوله . . فهل نحن اليوم مسلمون ، رحماء فيما بيننا ، حتى نفكر بأن نكون أشداء على الكفار ؟ ! . . .

أمَّا أصحاب محمد (ﷺ) فَـ ﴿ تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ فهم بصلاتهم : راكعون ساجدون يلتمسون زيادة النعمة من رضى الله تعالى . . وليس أعظم وأجل من رضى الله على عبدٍ من عباده ، لأن من نال هذا الرضى فقد فاز في

الـدارين ! . . . وأصحـابـه تـرى ﴿ سيمـاهم في وجـوههم من أثــر السجود ﴾ وتتجلَّى سيماهم في وجوههم بالأثر الظاهر عـلى جباههم من كثرة السجود، وبالوضاءة والإشراق والصفـاء والشفافيـة . وقد اختـار لفظ ﴿ السجود ﴾ لأنه يمثل حالـة الخشوع والخضـوع والعبوديـة لله في أكمل صورها. فإن أثر هذا الخشوع يظهر في الجبهة، وفي ملامح الوجه حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء ، والتعـالي والغطرسـة ، ويحل مكـانها التواضع النبيل ، الذي يزيد المؤمن لُطفاً وكياسةً ورحمة. وهذه الصورة ليست مستحـدثة ، بـل هي ثابتـة لهم في لوحـة القدر ؛ ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة : ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ فهي صفتهم التي عـرّفهم الله تعالى بهـا في الكتاب الـذي أنزلـه عـلى مـوسى (ع) وبشـر الأرض بها ، قبـل أن يجيئوا إليهـا . وهي كـذلـك ﴿ مثلهم في الإنجيـل ﴾ بمـا ورد فيـه من وصفٍ في بشـارتــه بمحمـدٍ (ﷺ) ومن معه ؛ فهم إذن ﴿ كزرع أخرج شطْأه ﴾ ، فهو زرع نامٍ قويّ ، يخرج فـرخه من قـوته وخصـوبته . ولكن هـذا الفرخ لا يُضعف العـود بـل يشـده ﴿ فآزره ﴾ . أو أن العـود آزر فرخـه فشـدَّه ، والاثنـان العـود والفـرخ يشدّان بعضهـما بعضـاً ، ﴿ فـاستغلظ ﴾ الـزرع ، وضخمت سـاقه وامتـلأت ﴿ فاستـوى على سـوقه ﴾ لا معـوجّـاً ومحنيّـاً ، ولكن مستقيماً ، قويّاً ، سويّاً . .

هـذه صورتـه في ذاته ، فـأمـا وقعـه في نفـوس أهـل الخبـرة في الزرع ، العارفين بالنامي منه والذابل ، المثمر منه والبـائر ، فهـو وقع البهـجــة والإعجــاب ﴿ يـعجـب الــزُّراع ﴾ وفي قــراءةٍ ﴿ يعـجب الـزَّراع ﴾ . . وهو رسـول الله (ﷺ) صـاحب هـذا الـزرع النـامي المخصب البهيج . . وأما وقعـه في نفوس الكفـار فعلى العكس ، لأنـه

وقع الغيظ والكمد والحقد ! . . ﴿ ليغيظ بهمُ الكفارَ ﴾ . . وتعمُّد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي زرعة الله ، أو زرعة رسوله ، وأنَّ هذه الزرعة هي أتباع محمد (ﷺ) ، الذين جعلهم الله تعالى أداة لإغاظة أعدائه سبحانه ! . . وهكذا يثبت الله العليم الحكيم في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة ، صحابة رسول الله (ﷺ) . . فتنبت في صلب الوجود كله ، وتتجاوب بها أرجاؤه وهو يستمع إليها من بارىء الوجود ، وتبقى نموذجاً للأجيال ، تحاول أن تحققها ، لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات . وفوق هذا التكريم كله ، وعد الله سبحانه بالمغفرة والأجر العظيم : ﴿ وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ . فلهم ثواب جزيل ، ونعيم دائم عندما يلاقون ربهم نتيجة إيمانهم وعملهم الصالح .

وهكذا أعادَ القرآن الكريم المثلَ الذي ضربَهُ اللَّهُ تعالى في التوراة ، وفي الإنجيل ، ليصف به محمداً (ﷺ) وأصحابه . . فالزرع هو محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ، والشَّطْءُ (أي ما يفرّخ هذا الزرع) هم أهل بيته ، والصحابة والمؤمنون من حوله . . وعادة ما يكون أول الزرع دقيقاً ، ثم يغلظ ويقوى ويتلاحم . . هكذا كان المؤمنون ، وجميع من هم حول رسول الله (ﷺ) ؛ كانوا في أول أمرهم قليلي العدد ، ضعافاً ، لا يقوون على رد أذىً أو عداء ؛ ولكنهم مع الوقت ، وبفعل إيمانهم القوي ، راح عددهم يتكاثر ، وبدأت قوتهم تتماسك ، حتى استووا على أمرهم ، فاستغلظوا وصاروا تلك الجماعة المتلاحمة المتراصة ، التي يشد بعضها أزر بعض كالبنيان المرصوص ، والتي أغاظت الكفار والمشركين ،

وأربكتهم بما وصلت إليه من وحدة إسلامية متماسكة ، ذات منعةٍ وشدة ، لم يعد العدو قادراً على قهرها والقضاء عليها كما كان يأمل . . .

٢ ـ دعوة الله تعالى لرسوله محمد (ﷺ) بالصبر

يقول تبارك وتعالى :

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (١) .

إنها دعوةٌ من الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد (ﷺ) بأن يصبر على حكم ربه الذي حكم بجعله نبيّاً ورسولاً يتحمل مشاقّ بتبليغ آخر رسالاته السماوية إلى الأرض . وهي دعوة لكي يصبر على أمره ، فلا يقاتل المشركين في بادىء الأمر ، مهما ناله من أذاهم ، ومن عنتهم وعداوتهم ، حتى يأذن اللَّهُ تعالى له بالقتال ، فيأتيه النصر من ربه ، الذي ينصر أولياءه ، ويقهر أعداءه . .

إذن فالدعوة إلى الصبر هي مواساة للرسول (ﷺ) على ما ينالُهُ من أذى القوم . ولكن مع هذه المواساة ينهاه بألَّا يكون كالنبي يونس ـ عليه السلام ـ إذ لم يصبر على عنت قومه وجهلهم وشدة كفرهم ، فاستعجل في الخروج من بينهم مغضباً ، مستاءً ، متبرّماً ، قبل أن يستأذن ربَّهُ في هذا الخروج . فكان أن حكم الله تعالى عليه بأن يعاني

(١) القلم : ٤٨ ـ ٥٠ .

شدة ظلمات ثلاث، بعد أن ابتلعه حوت كبير في جوفه . فكابد من جراء ذلك، ظلمة الليل البهيم ، وظلمة البحر القاتم ، وظلمة جوف الحوت الخانق. وهو حي وسط تلك الظلمات ، مكظومٌ ، مهمومٌ، مغموم، قد نادى ربه: ﴿ لا إلّه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾. فاستجاب سبحانُه لدعائه ، وأدركته رحمته . ولولا أن أدركته هذه النعمة الإلهية لبقي في بطن الحوت إلى يوم يبعثون ، ولكن الله تعالى نجّاه ، فطرحه الحوت في أرض العراء وهو مذموم أي ملوم إذ أتى بما يُلام عليه. ولكنه سبحانه وقد اختاره للنبوة، لم يشأ أن يحرمه من فضل هذا الاختيار ، فاجتباه ، فجعله من الصالحين .

أمهات المؤمنين

أمهات المؤمنين

يخاطب اللَّهُ تعالى نساءَ النبي (ﷺ) بقوله عز وجل :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾[1] .

لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية في تصور الإسلام للحياة . هذه القيم التي ينبغي أن تجد ترجمتها الحيَّة في بيت النبي (ﷺ) وحياته الخاصة ، وأن تتحقق في أدق صورة وأوضحها في هذا البيت الذي كان ـ وسيبقى ـ منارة للمسلمين ، وقبلةً لأنظارهم ، ونبراساً للدين إلى يوم الدين .

فقد نزلت ـ في ذلك البيت الكريم ، الرفيع العماد ـ آيتا التخيير لنساء النبي (ﷺ) تحددان لهنَّ الطريق : فإما الحياة الدنيا وزينتها ، وإما اللَّهَ تعالى ورسولَه الكريم والدار الآخرة . وذلك في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ

---

(١) الأحزاب : ٣٢ .

﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١) .

ولقد اختار النبي (ﷺ) لنفسه ولأهل بيته عيش الكفاف ، ولم يُعر متاع الدنيا أقلَّ عناية . وهذا الاختيار لم يكن بسبب العجز عن المتاع ، فقد عاش حتى فتحت له الأرض ، وكثرت غنائمها ، وعم فيؤُها، واغتنى مِن أتباعِهِ مَن لم يكن له مال ولا زاد ! ومع هذا بقي (ﷺ) يعيش مع أهل بيته على الكفاف ، مع جوده السخيّ بالصدقات والهبات والهدايا ، لأنَّ اختياره ذاك كان عزوفاً عما هو فانٍ زائل ، واستعلاءً على زينة الحياة الدنيا ومتاعها ، ورغبةً خالصة فيما عند الله الكريم . وقد رضيت نساءُ النبي (ﷺ) باختياره ، لأنهن أردْن اللَّهَ ورسوله والدار الآخرة ، تطبيقاً للمنهج الإلّهي في بيت النبوة ، وتجاوباً مع نور الرسالة يشع في أرجاء ذلك البيت ، وامتثالاً للاختيار النبوي، النابع من ذاتيةٍ أحبّت اللَّهَ تعالى، فعملت كلَّ ما يرضيه .

ثم يتوجهُ الخطاب الرباني ، بعد مخاطبة الرسول الكريم ، إلى زوجاته ـ أمهات المؤمنين ـ مبيّناً لهنَّ اختصاصهنَّ الذي خصَّهُنَّ به من دون سائر النساء بقوله سبحانه : ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتُنَّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ . إذن فنساء النبي لسن كغيرهنَّ من النساء ، بل ولَسْنَ كأحدٍ من النساء بوصفهن أزواجاً للنبي الذي أراده تعالى خاتماً للنبيين ، وصلَّى عليه

(١) الأحزاب : ٢٨ و ٢٩ .

سبحانه وملائكته ، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه :﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلموا تسليماً﴾ . . فهو إذن (ﷺ) ليس كأحدٍ من الرجال ، فوجب أن تكون نساؤه على غير ما هي عليه النساء. . ولذلك عقَّب النصُّ بالتحذير لهنَّ مما قد تفعل غيرهنَّ من النساء لأنَّ اللَّهَ تعالى وقد خلق الرجل والمرأة ، يعلم أن في المرأة خفايا قد تظهر بمظاهر مختلفة تلفت نظر الرجل ، كما في صوتها حين تخضع بالقول ـ أي عندما تترقق في اللفظ ـ ما يثير الطمع في القلوب ، ويهيج الفتنة في النفوس . وأن القلوب المريضة ، التي تثار وتطمع ، موجودة في كل عهد ، وفي كل بيئة ، وتجاه كل امرأة ، ولو كانت زوجاً للنبي الكريم وأُمّاً للمؤمنين . وأنه لا طهارة من الدنس ، ولا تخلُّص من الرجس ، حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس . .

وإذا كان التحذير يأتي إلى نساء النبي (ﷺ) اللواتي لا يجرؤ أن يرتفع إليهن نظر ، فكيف بمجتمعاتنا الحاضرة التي نعيش فيها اليوم ؟ كيف بنا في هذا الجو الذي نرى فيه النساء يتخنثن في نبراتهن ، ويتميَّعن في أصواتهن ، ويجمعن كل فتنة الأنثى وزينتها ، وكل هتاف الجنس ومثيراته ، ثم يطلقنه في تأنّثٍ صارخ وتَعَرٍّ فاضح ؟ ! . . فما أبعدهن من الطهارة ؛ بل كيف يمكن أن يرفَّ الطهر في هذا الجوِّ الملوَّث ، وهنَّ بذواتهن ، وحركاتهنَّ ، وأصواتهنَّ تلك ؟ ذلك الرجس ، يريد الله أن يذهبه عن عباده المختارين ، وأهل بيت نبيّه الكريم ، وأن يطهرهم تطهيراً ، ليكونوا قدوة صالحة لجميع خلق الله من النساء والرجال ، ولذلك أمر سبحانه نساء النبي (ﷺ) أن يبتعدن عن صفة التميع والإغراء ، وأن يكن طبيعيات في

القول والفعل ؛ ثم أمرهن في ختام الآية المباركة : ﴿ وقُلن قولاً معروفاً ﴾ أي أن تكون أحاديثهن ، وأقوالهن في أمور معروفة ، صريحة ، غير منكرة ؛ فلا ينبغي أن يكون بين المرأة والرجل الغريب عنها لحن ، ولا إيماء ، ولا هذر ، ولا هزل ، ولا دعابة ، كي لا يكون ذلك مدخلاً إلى شيء آخر وراءه ، قد يحصل من قريب أو بعيد .

والله سبحانه الخالق ، العليم بخلقه وبطبيعة تكوينهم ، هو الذي يوجّه الأمر والتحذير لأمهات المؤمنين الطاهرات ، كي يراعين القولَ في محادثة أهل زمانهن ، مع أنه كان خير الأزمنة على الإطلاق . . فكيف بنا ونحن نعيش في زماننا هذا ، كما نرى ، وكما نعلم ؟ ! أفلا يجب على المرأة أن تمتثل لقول الله تعالى فتراعي حكمه الذي خاطب به أمهات المؤمنين حتى يعمَّ الطهر بدل الفساد ، ويسود القول المعروف بدل قول الفحشاء ؟ !

٢ ـ مثل المرأة الكافرة والمرأة المؤمنة

يقول عزَّ وجلَّ :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾(١)

(١) التحريم : ١٠ ـ ١٢ .

من المتعارف عليه أن الصحبة الطيبة تورث العشرة الطيبة ، وأن الصحبة السيئة تورث العشرة السيئة ، ولكن يبقى عمل الإنسان هو الأصل ، وهو الأساس في ميزان العدل الإلٓهي حيث يحاسَب كل فرد على ما فعل وعمل . فزوجات نبيّنا محمد (ﷺ) أوصاهنَّ اللَّهُ تعالى - في آياتٍ خاصة بهنَّ - ألَّا يكن كباقي النساء ، لمركزهنَّ من رسول الله (ﷺ) . . وهنا - في هذه الآيات الكريمة - حكم عام ينطبق على جميع النساء وعلى جميع المؤمنين ، لأن العمل هو القاعدة والأساس . ولذا فهو يعتبر موجهاً لنساء النبي (ﷺ) وحثّاً لهنَّ على طاعة الله تعالى ورسوله ، لأن مصاحبة الرسول مع معصية الله ، أو مخالفة رسوله لا تنفعهنَّ ، كما هي الحال بالمقابل من أن مصاحبة الكافر مع إطاعة الله تعالى ورسوله لا تمنع رضوان الله تعالى ومغفرته . . ولبيان أن مصاحبة الرسل وحدَها - حتى في الحياة الزوجية - لا تنفع ، ضربَ اللَّهُ تعالى الأمثال عن نساءٍ كافراتٍ كن أزواجاً لرسل الله ، كما ضرب الأمثال عن نساءٍ مؤمناتٍ كن أزواجاً لكافرين .

والتمثيل عن النساء الكافرات كان بامرأة نوح وامرأة لوطٍ، اللتين خانتا في الدين زوجيهما، النبيين الصالحين، فلم تكونا على خطاهما ، ومنهاجيهما في العقيدة والعمل ؛ ذلك أن كلًّا منهما كانت تشي بزوجها إلى قومها ، وتدلهم على ما يقوم به في سبيل الدعوة إلى دين الله . فمثلاً امرأة لوطٍ (عليه السلام) تآمرت مع قومها بأن توقد النارَ على سطح المنزل كلما أتى غريب يريد أن يتّصِلَ بزوجها فيأتون محاولين منعه من ذلك . وهذا بالفعل ما حصل عندما بعثَ اللَّهُ تعالى ثلاثة ملائكةٍ على صورة رجال لكي يحققوا أمره تعالى

في قوم لوط المفسدين. فما أن دخلَ أولئك الملائكة على لوط ضيوفاً، حتى سارعت امرأته وأوقدت نارها علامةً للقوم بالهجوم على بيت زوجها للاعتداء على ضيوفه ؛ وكان ما كان وأُهلك أولئك القوم في تلك الليلة بالذات . . إلاّ أن فعل امرأة لوط (ع) ظلَّ خيانةً ، لأنه كان يرمي إلى مساعدة الكافرين ضد النبي المرسل . . فخيانة امرأة لوط (ع) هي خيانة الدعوة إلى الله تعالى ، وبذلك فهي كفرٌ صراح ؛ وليست خيانة البغي أو الزنا مع رجلٍ آخر ، إن حاول أحد أن يفسّرها على هذا النحو دسيسةً وافتراءً . . ثم إن الخيانة ، في مفهوم القوانين الوضعية ، لها مدلولات عديدة ، فيقال الخيانة العظمى ويقصدون بها خيانة الوطن ؛ ويقال خيانة الواجب الوظيفي ، ويقال خيانة السر (أي بإفشائه) . . وغيرها من مدلولات الخيانة التي نعرفها ، وهي مدلولات صحيحة في أعراف الدين وأهل الدنيا. . . وبهذه المدلولات، بل وأبعدَ أثراً كانت خيانة امرأة النبي نوح ، وخيانة امرأة النبي لوط (عليهما السلام) عندما خانتاهما في أمر الدعوة التي يحملان ؛ أي لم تؤمنا بعقيدة التوحيد ، وبقيتا على الكفر . ولذلك ضرب الله تعالى بهما مثلاً للذين كفروا . . وببقائهما على الكفر لم يغنِ عنهما شيئاً زواجُهما من نبيين ، بل على العكس زادَ في ذنوبهما وآثامهما ، لأنه كان الأَولى بهما أن تؤمنا بدعوة زوجيهما ، وتعيناهما على نشر هذه الدعوة . . . كما فعلت خديجة بنت خويلد (رض) التي كانت أول امرأة آمنت بنبوة زوجها محمد (ﷺ) وبذلت كل ما تملك معنويّاً ومادياً في سبيل نصرة الدعوة التي يحملها زوجها الرسول الكريم . . نعم لم يغنِ نوح ولا لوط (عليهما السلام) عن

زوجتيهما الكافرتين شيئاً من عذاب الله ، وأدخلتا في النار مع الداخلين الخالدين فيها . .

ثم ضربَ اللَّهُ تعالى مثلاً للذين آمنوا ، امرأة فرعون ـ آسية بنت مزاحم ـ التي آمنت بالله تعالى وكتبه ورسله ، واهتدت بفضله إلى الاسلام ، فعبدتِ الله تعالى من خلال إسلامها ، بعيداً عن ترهات وثنية زوجها فرعون ، وكفره ، هو وملئه . . لقد عاشت في بيت طاغية جبار ، ادَّعى بأنه « الربُّ الأعلى » ، ولكنها هزئت منه ومن ادعائه ، وسخرت من سفاهة قومه وعبادتهم ، فظلت على إسلامها وإيمانها الصادقين ، حتى ظهرت حقيقتها لفرعون زوجها ، فنهاها عن ذلك لأنها من سلالة العائلة المالكة ، ولكونها زوجته وشريكته في الملك ، إلَّا أنها لم تنتهِ . . وكيف تنتهي عن الإيمان الذي يملأ قلبها وجوارحها ؟ وكيف تترك عبادة الله العلي القدير ، وهي المؤمنة الصادقة ؟ لا ، لقد ثبتت آسية بنت مزاحم على يقينها وإيمانها بربها تعالى ، فأجفل ذلك فرعون وأخافه . . وقيل إنه ربط يديها ورجليها بالحبال وشدَّها بأربعة أوتاد ، وأمر بإلقائها في حرِّ الشمس اللاهب ، وعلى صدرها صخرة كبيرة . فلما قرب أجلها ، قالت : ﴿ ربي ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجِّني من فرعون وعمله ، ونجِّني من القوم الظالمين ﴾ . فاستجابَ اللَّهُ تعالى لدعوتها وأماتها على الاسلام وطاعة الله ورسوله ، ونجّاها من كفر فرعون ، وظلم قومه . .

وفي هذه الآية قطع الله سبحانه طمع من ركب المعصية وهو يأمل أن ينفعه صلاح غيره من الأنسباء أو الأقرباء ، وأخبر أن معصية جبابرة العباد لا تضر من كان مطيعاً لله تعالى ورسوله ، وأنه لا ينفع

أحداً ـ يوم الحساب ـ لا مال ولا بنون ، ولا صحبة ، ولا أي شيء ، إلَّا من أتى الله بقلب سليم ، ملؤه الإيمان والطهر ، والعمل الصالح ، والنية الصافية . .

ثم ضربَ سبحانَهُ مثلاً آخر عن المؤمناتِ بمريم ابنة عمران التي أحصنتفرجها من الدنس ، وعفّت عن كلِّ حرام ، فخلق سبحانه ابنها عيسى في بطنها من دون أب ، ونفخ فيه من روحه . . ومريم ـ عليها السلام ـ قد صدقت بكلمات ربها أي بشرائعه وبكتبه المنزَّلة فكانت من القانتين أي المطيعين الدائمين على طاعة الله تعالى .

فهذه الآيات الكريمة اشتملت إذن على ثلاثة أمثال : مثل للكافرين ، ومثلَين للمؤمنين . فأما مثل الكافرين فتضمن أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسله ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لُحمة نسب أو صلة مصاهرة ، أو أي سبب من أسباب الاتصال . لأن جميع الأسباب تتقطع يوم القيامة ، إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده أو على يد رسوله . فلو أن القرابة أو المصاهرة أو الزواج مع عدم الإيمان والعمل الصالح ينفع في شيء لكانت نفعت الصلة التي كانت قائمة بين نوحٍ ولوط (عليهما السلام) وبين امرأتيهما ، أي صلة الزوجية . ثم إن صلة العمومة لم تنفع أبا لهبٍ الذي كان عمَّ النبيّ (ﷺ) ؛ وصلة البنوة لم تنفع ابنَ نوح ـ عليه السلام ـ فأبو لهبٍ وابنُ نوح ظلا على كفرهما ، ولم يؤمن الأول بدعوة ابن أخيه ولا آمن الثاني بدعوة أبيه . ولم يُغن محمد (ﷺ) عن عمِّه شيئاً ، ولم يُغن نوح عن ابنه شيئاً ، كما لم يغنِ كل من نوحٍ ولوط عن امرأته شيئاً . . فالمثَلان للمؤمنين هما : مثل امرأة فرعون ، ومثل مريم بنت عمران .

أما المثل الأول فيبيِّن أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله ، فمعصية العاصي لا تضر المطيع شيئاً في الآخرة، وإن تضرر بها في الدنيا. كما يحدث في اتصال الإنسان مع الكفرة الفاجرين. وهو الاتصال الذي يعتبر بحد ذاته ضرراً للمؤمن، على أن يكون في قرارة نفسه مؤمناً حقّاً، وأن يعمل بوحي هذا الإيمان كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كما هو الحال في امرأة فرعون ،فقد كانت ترى كفره، وطغيانه وشروره . . ولكنها في قرارة نفسها كانت مسلمة صادقة الإيمان : فهي إذن مؤمنة وزوجها كافر ، واتصالها به لا يضرها شيئاً طالما أنها لم تفعل فعله .

وأما المثل الثاني للمؤمنين فكان مريم بنت عمران ـ عليها السلام ـ التي لا زوج لها أي لا زوج مؤمن كنوح ولوط (عليهما السلام) ولا زوج كافر كفرعون . .

فيكون السياق القرآني قد ذكر ثلاثة أصناف من العلاقات ، عن طريق ذكر الرابطة التي تقوم مع ثلاثة من النساء :

١ ـ **المرأة الكافرة** التي لها صلة بالرجل المؤمن الصالح .

٢ ـ **المرأة المؤمنة** الصالحة التي لها صلة بالرجل الكافر .

٣ ـ **المرأة المؤمنة** العذراء التي لا صلة لها بأحد من الرجال ، لا من المؤمنين ولا من الكافرين .

فالأولى لا تنفعها صلتها وسببها . والثانية لا تضرها صلتها ولا سببها . والثالثة لا يضرها عدم وجود صلة أبداً .

وفي هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يربط العلاقات

الإنسانية كلها تقريباً بالإيمان ، فضلاً عن أنه في هذه الأسرار ما يناسب سياق السورة كلها ، فإنها سيقت في ذكر أزواج النبي (ﷺ) لتحذيرهنَّ من تظاهرهنَّ عليه ، وأنهنَّ إن لم يطعن اللَّهَ ورسوله ، ولم يردن الدار الآخرة ، لن ينفعهن اتصالهن برسول الله (ﷺ) كما لم ينفع امرأتي نوح ولوط اتصالهما بهما .

الإرث والرضاعة

الإرث والرضاعة

يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) .

بعد أن يبين الله سبحانه أحكام الطلاق في الآيات السابقة لهذه الآية المباركة ، يُعَقِّبها هنا ببيان الأحكام الشرعية التي تتعلق برضاع الأطفال بعد الطلاق ، وأولاها أن تبقى هنالك علاقة قائمة ، لا تنفصم بين المطلقين ، وهي علاقة النسل الذي ساهم كلاهما فيه ،

(١) البقرة : ٢٣٣ .

وارتبط كلاهما به . فإذا تعذر العيش المشترك بين الوالدَين ، فإنَّ الرَّضع الصغار لا بد لهم من ضمانات دقيقة مفصَّلة ، تستوفي كل حالة من الحالات . ومن يفرض هذه الضمانات إلَّا العزيز الرحيم ، الذي هو أولى بالناس من أنفسهم ، وأبرُّ وأرحم بهم من والديهم ؟ ولذلك يفرض على الوالدة المطلقة واجباً تجاه طفلها الرضيع ، بحيث لا يتركها تنساق مع فطرتها وعاطفتها التي قد تفسدها الخلافات الزوجية ، فيقع الغرم على هذا الرضيع . . وذاك الواجب هو حق مفروض له في عنق أمه ، بأن ترضعه سنتين كاملتين ، لمن يريد من الأزواج أن يتم هذه الرضاعة ، ولا يمتنع عنها تلقائيّاً، من غير إرغامه على ذلك . والله تعالى لم يحدد هذه المدة بالذات إلَّا لأنه يعلم سبحانه بأنها هي المثلى من جميع الوجوه الصحية والنفسية للطفل ، أي أنها كافية لاشتداد بنية الطفل ، واستغنائه بعدها عن الرضاعة . .

وهذا ما تثبته البحوث الصحية والنفسية اليوم من أن فترة عامين ضرورية لنمو الطفل نموّاً سليماً من الوجهتين الصحية والنفسية . ومن نعم الإسلام على الجماعة الإسلامية أن علَّمهم الله العليم الحكيم هذا الأمر قبل اكتشافه ، وقبل أن تجري عليه الأمم الأبحاثَ والتجارب . والحكمة الإلٓهية البالغة تقضي بأن الرصيد الإنساني من ذخيرة الطفولة لم يكن ليترك يأكله الجهل كل هذا الأمد الطويل ، ولذلك كان الإسلام رحمة للإنسانية جمعاء تغرف من معينه ما تشاء ، ذلك لأن البشر جميعاً هم مخلوقات الله ، والله تعالى رحيم بخلقه ، وخاصة بهؤلاء الصغار ، الضعاف ، المحتاجين للعطف والرعاية ، فلما أنزل الإسلام ، بيَّن تعالى للناس كافة ، كيف يصونون صغارهم ، وكيف يعالجون نموهم ، بعلاجٍ وحيدٍ أساسي ، ألا وهو الرضاعة من حليب

الأم لمدة سنتين كاملتين ، وتلك هي الرحمة التي شاءَ سبحانه أن يسبغها على الناس قبل أجيالٍ طويلة من بحوثهم العلمية ، وقبل حقباتٍ من نزوع الأمهات نحو ترك الرضاعة ، وإبدالها بالطرق الاصطناعية التي لا تلبي حاجة الرضيع صحيّاً ونفسيّاً ، بل على العكس ربما تخلّف فيه آثاراً ضارة في ناحية أو أخرى .

إذن فاللَّهُ تعالى فرض على الوالدة الحضانة والرضاعة ، وفي الوقت نفسه فرض لها على المولود له ـ أي والد الرضيع ـ حقّاً هو أن يقدم لها الرزق والكسوة بالمعروف ، وحسن المعاملة . وبذلك جعلهما كليهما شريكين في التبعة ، ومسؤولين تجاه هذا الرضيع ؛ فأمه تمدُّه بالحليب والحضانة ، وأبوه يمدُّها بالغذاء والكساء لترعاه . وكل منهما يؤدي واجبه في حدود طاقته : ﴿ لا تكلَّف نفس إلَّا وسعها ﴾ ، فلا يرهق أحدهما الآخر ، لأن القاعدة العامة هي أن التكليف يكون على قدر الاستطاعة . . ثم لا ينبغي أن يتخذ أحد الوالدين من الرضيع سبباً لمضارَّة الآخر : ﴿ لا تضارَّ والدة بولدها ، ولا مولود له بولده ﴾ فلا يستغل الأب عواطف الأم ولهفتها على طفلها فيهددها بفصله عنها ، أو تقبل رضاعته بلا مقابل ، ولا تستغل هي عاطفة الأب على ولده وحبه له لتثقل كاهله بمطالبها .

وتمضي كفالة الله تعالى للولد عندما يضع على عاتق الوارث للأب في حال وفاته ، مثل الذي كان عليه في حياته . .

فإذا كان الرضيع نفسه هو الوارث ، فإن وليهُ على ماله يقدّم لأمه مثل الذي كان على أبيه أن يقدمه لها من الرزق والكسوة . . بل إن النص يفرض هذا الواجب على وارث الأب أيّاً كان هذا الوارث

لتركته ، فهو المكلف أن يرزق الأم ويكسوها بالمعروف والحسنى تحقيقاً للتكافل العائلي الذي يتحقق أحد طرفيه بالإرشاد والرعاية ، ويتحقق طرفه الآخر باحتمال التبعات . . وهكذا فإن الطفل لا يضيع إذا مات والده ، لأن حقه وحق أمه مكفولانِ في جميع الحالات . . وعندما يستوفي النص هذا الاحتياط ، يعود إلى استكمال حالات الرضاعة : ﴿ فإن أرادا فصالاً عن تراض بينهما وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ . فإذا شاء الوالد والوالدة ، أو الوالدة والوارث ، أن يفطما الطفل قبل استيفاء العامين ، لسبب صحي أو سواه ، فلا جناح عليهما إذا تم هذا بالرضى بينهما ، وبالتشاور في مصلحة الرضيع الموكول إليهما رعايته ، المفروض عليهما حمايته . وهكذا يكون اشتراط التراضي والتشاور في مصلحة الولد ، لأن الوالدة تعلم من تربيته ما لا يعلمه الوالد ، فلو لم يتشاورا لأدَّى ذلك إلى ضرر الرضيع ، ولذلك لم يكن عليهما جناح ، ولم يرتكبا خطأ بعد تشاورهما وتراضيهما . .

﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم ﴾ أي إذا أردتم أن تطلبوا لأولادكم مراضع غير أمهاتهم ، لامتناع الأمهات عن الرضاعة بسبب من الأسباب ، كأن يكون انقطاع للحليب أو مرض للأم أو غيره ، ﴿ فلا جناح عليكم إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾ ، لا جناح عليكم في ذلك إذا سلمتم إليهن ما آتيتم أي ما أردتم إيتاءه لهن من الأجرة ، بالمعروف الجميل وطيب النفس . ﴿ واتقوا الله ﴾ في الوقوع بالمعاصي في مجاوزة ما حدَّه الشارع الأقدس لكم . والتقى هو الضمان الأكيد في النهاية ، بل هو الضمان الوحيد للرضيع ، ﴿ واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ يرى كل شيء تعملونه في السماوات والأرض ، وهو مطلع على النوايا والخفايا ، فلا يغيب عنه شيء أبداً .

٢ ـ الميراث للأولاد والوالدين

يقول الله تعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[١] .

لقد وضع المنهج القرآني نظام التوارث وطهره من دنس الأفكار الجاهلية ، ورفعه إلى ذلك الأفق الوضيء حيث يبدأ بوصية الله للأولاد والوالدين فيقول : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ أي بأن جعل للذكر نصيب اثنتَين من الإناث إذا اجتمعتا معه ، فيكون له نصف التركة ولهما النصف الآخر . وليس في هذا التوزيع الرباني محاباة لجنس على حساب جنس كما يزعم أعداء هذا الدين الكريم ، والجهلة من الناس أجمعين ، لأن الأمر أمر توازن وتعادل ، بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى في التكوين العائلي وفي النظام الاجتماعي الإسلامي . فالرجل المسلم الذي يتزوج امرأة يصبح مكلفاً بإعالتها وإعالة أبنائها منه في كل حالة ، وهي معه ، وهي مطلقة منه . . أما هي فإما أن تقوم بنفسها فقط إذا لم يكن لها وليّ ،

---

(١) النساء : ١١ .

وإما أن يقوم بها رجل من مثل والدها أو إخوتها أو أحد أرحامها .

أي أن الأنثى قبل الزواج وبعده سواء ، فهي ليست مكلفة بنفقة للزوج ولا للأبناء في أي حال ، بينما الرجل مكلف ـ على الأقل ـ بضعف أعباء المرأة في التكوين العائلي . ومن ثم يبدو العدل كما يبدو التناسق بين الغنم والغرم في هذا التوزيع الحكيم .

وقد أجمعت الأمة على أن حكم البنتين حكم من زاد عليهما من البنات ، لأن في الآية بيان حكم البنتين فما فوقهما ، لأن معناه : فإذا كنَّ اثنتين فما فوقهما ، فلهن ثلثا ما ترك ، إلَّا أنه قدم ذكر الفوق على الاثنتين ، كما روي عن النبي (ﷺ) أنه قال : « لا تسافر امرأة سفراً فوق ثلاثة أيام إلا ومعها زوجها أو ذو محرم لها » ومعناه لا تسافر ثلاثة أيام فما فوقها . . ﴿ وإذا كانت واحدة فلها النصف ﴾ مما ترك المورث . ثم ذكر ميراث الوالدين فقال : ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس إذا كان له ولد ﴾ أي أن لكل من الأب والأم السدس في حال وجود الأولاد . وهنا تظهر المساواة بين الأم والأب (الرجل والمرأة) في الإرث عندما لا يكون الرجل مسؤولاً عن المرأة في الإنفاق ، وأما عندما تظهر مسؤولية الرجل عن المرأة في هذا الإنفاق فيكون للرجل الضعفان لمسؤولية الإنفاق . ﴿ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾ والباقي أي الثلثان يكون لأبيه ـ المكلف بالانفاق على أمه ـ كما يدل عليه ظاهر النص . ﴿ فإن كان له أخوة فلأمه السدس ﴾ .

﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً . فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ .

وهذه اللمسة الأخيرة في هذه الآية المباركة هي لتطبيب النفوس تجاه هذه الفرائض . فهنالك من تدفعهم عاطفتهم الأبوية إلى إيثار الأبناء على الآباء ، لأن الضعف الفطري تجاه الأبناء أكبر . وفيهم من يغالب هذا الضعف بالمشاعر الأدبية فيميل إلى إيثار الآباء . وفيهم من يحتار ويتأرجح بين الضعف الفطري والشعور الأدبي ، وكذلك قد تفرض التقاليد والأعراف اتجاهات معينة . . فلذلك أراد اللَّهُ سبحانه أن يسكب في القلوب كلها راحة الرضى والتسليم لأمره تعالى ولما يفرضه ، بإشعارهم جميعاً أن العلم كله له وحده تبارك وتعالى ، وأنهم لا يدرون أي الأرحام أقرب لهم نفعاً ، ولا أي الأقرباء أقرب لهم مصلحة . فهو ـ سبحانه ـ لم يزل عليماً بمصالحهم ، حكيماً فيما يقضي به عليهم ، في هذه الأحوال وغيرها .

٣ ـ توزيع الميراث في الكلالة

يقول الله تعالى :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ (١) .

لمَّا بيَّن الله سبحانه وتعالى في أول سورة النساء سهام الفرائض ، ختم هذه السورة ببيان ما بقي من ذلك ، فقال سبحانه :

---

(١) النساء : ١٧٦ .

﴿ يستفتونك . قل : الله يفتيكم في الكلالة ﴾ . أي إن طلبوا الفتوى منك يا محمد في الكلالة فقل : اللَّهُ يبيِّن لكم الحكم في هذه الكلالة . . فما هي الكلالة ؟ هي معرَّفةٌ بقوله سبحانه : ﴿ إن امرؤ هلك ليس له ولد ﴾ أي إن مات شخص وليس له ابن ولا ابنة ولا والد ، لأن الكلالة اسم للنسب المحيط بالميت دون اللصيق به ، والوالد لصيق الولد ، كما أن الولد لصيق الوالد ، ولذلك جمعت الكلالة المحيطين ، دون الأولاد والوالدين اللصيقين فإن مات هذا الشخص ﴿ وله أخت فلها نصف ما ترك . وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ﴾ أي أن الأخت ترث نصف تركته . أما أخوها فيرث في حال موتها كل تركتها (إن لم يكن لها ولد ولا والد) ﴿ فإن كانتا اثنتين ـ أي أختين ـ فلهما الثلثان مما ترك ﴾ أخوهما . ﴿ وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ . أي إن مات وترك إخوة وأخوات فقط ، فتقسم التركة فيما بينهم وفقاً لقاعدة الميراث الأساسية (للذكر نصيب أنثيين) .

ثم تُختتم السورة كلها بالتعقيب القرآني الذي يرد الأمور كلها لله تعالى ، ويربط تنظيم الحقوق والواجبات بشريعته سبحانه ﴿ يبيِّن الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم ﴾ أي عليم بجميع ما يحتاج إليه عباده من أمر معاشهم ومعادهم على ما توجبه الحكمة . وقد تضمنت الآية التي جاءت في أول سورة النساء بيان ميراث الولد والوالد . والآية التي تلتها بيان ميراث الأزواج والزوجات والأخوة والأخوات من قبل الأم ، وتضمنت الآية التي ختمت بها السورة بيان ميراث الأخوة

والأخـوات من الأب والأم ، والأخوة والأخـوات من الأب فقط عنـد عدم وجودهم من الأب والأم ، فيكون توزيع الميراث قـد شمل جميـع الحالات التي يمكن أن تقع في حياة الناس جميعاً .

علاقة الرجُل بالمرأة

علاقة الرجل بالمرأة

١ ـ تبادل الواجبات والحقوق

يقول الله تعالى :

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١) .

فقد فرض الله تعالى على المطلقات أن ينتظرن ثلاثة قروء تمضي من حين الطلاق . والقرء هو الطهر بعد الحيض . ولا يحل لهن أن يخفين حملهنَّ الذي خلقه اللَّهُ تعالى في أرحامهنَّ إن كنّ حاملات . هذا إن كنَّ مؤمنات بالله تعالى وباليوم الآخر ؛ فلا يفعلن ذلك ، أي لا يكتمن الحمل . وفي مدة التربّص تلك يبقى أزواجهنَّ أحقّ بردِّهنَّ إليهم إن أرادوا إصلاح الخلاف والعودة إلى حياة الزوجية المشتركة .

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

وفي هـذا الطلاق الـرجعي ، أو في مـدة العـدة لا حقَّ لغـير أزواجهن فيهنَّ . ولهن أي للمطلقات (والأولى أن يكـون الحكم للنساء كـافة) عـلى أزواجهن حق بالمعـروف مثـل الـذي للرجـال من حق عليهن . وكلمـة المعروف هنـا تعتبر من الكلمـات العجيبـة الجـامعـة للفـوائـد الجمة ، أو للحقوق المتعددة ، لأنها تجمع كل ما يتعلق بحسن العشـرة وترك المضارة أو الضرر ، والتسوية في الكسوة والنفقـة ؛ ومقابـل ذلك يكون للرجل عـلى المرأة حقـوق كالـطاعة ، وعـدم الدخـول في فراش غيره ، وأن تحفظ ماءه (الجنين منه) فـلا تحتال في إسقـاطه ، وأن تحفظ ماله فلا تهدره وتُنفقه بلا طائل ، إلى غير ذلك ممَّـا فرضـه الله سبحانـه على الرجل والمرأة ، كل منهما نحو الآخر . .

٢ ـ مُهور المشركات ونفقاتهن

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

في صدر الإسلام أسلمت نساء متزوجات كنَّ في عصمة رجـالٍ من المشـركين ، وبقيت زوجـات مشركـات في عصمة رجـالٍ أصبحوا من المسلمـين . فلما نزلت هـذه الآية ـ وإنفـاذاً لحكم الله تعالى ـ أدى المسلمـون نفقـات زوجـاتهم المشـركـات ، اللواتي أبـين الـدخـول في الإسـلام ، ثم طلقوهنَّ . ولكنَّ المشـركـين أبـوا العمـل بـالمثـل ، ولم ينصـاعـوا لحكم الله تعـالى في أداءِ النفقـات للمسلمـات المـطلقـات

(١) الممتحنة : ١١ .

منهم . . فـالمعنى أنه إذا ذهبت زوجـات الـرجـال المسلمين إلى الكفـار لبقائهن على الشرك ، أو إذا ارتدت بعضهن بعد إسلامهن وذهبت إلى المشركين ، وأديتم أيها المسلمون حقـوقهن لهنَّ ، ثم غزوتم وغنمتم ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم من الغنيمة ، مثل ما أنفقوه لهنَّ من المهور وغيرها ، بدون أن تنقصوا عليهم شيئـاً . ﴿ واتقوا الله الـذي أنتم به مؤمنـون ﴾ والتقـوى تكـون بـاجتنـاب المعـاصي ، وعـدم تجـاوز أمـره سبحانه .

أحكام
صيد المحرم في الحج

أحكام صيد المحرم في الحج

١ ـ كفارة قتل المُحرم للصيد

يقول الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾(١) .

في هذه الآية الكريمة أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بألَّا يقتلوا الصيد ، وهم محرمون للحج أو للعمرة . .

وقد اختلف في معنى الصيد فقيل كل الوحش أُكل أو لم يؤكل ، وهو قول أهل العراق ، واستدلوا عليه بقول علي (عليه السلام) :

---

(١) المائدة : ٩٥ .

صيد الملوك أرانب وثعالب   فإذا ركبت فصيديَ الأبطال .

وقيل : « هو ما يؤكل لحمه » وهو قول الإمام الشافعي (رض) .

ومن اصطاد متعمداً في نطاق الحرم المقدس وقت الحج أو وقت الإحرام ، فجزاؤه بأن يقدم من الأنعام مثل ما قتل . . واختلف في هذه المماثلة أهي في القيمة أم في الخلقة . . فالذي اعتمده معظم أهل العلم أن المماثلة معتبرة في الخلقة ، ففي النعامة بُدنة ؛ وفي حمار الوحش وشبهه بقرة ؛ وفي الظبي والأرنب شاة . وقال إبراهيم النخعي : « يقوّم الصيد قيمة عادلة ثم يشترى بثمنه مثله من النعم » . فاعتبر المماثلة في القيمة . . والحكم في رأينا أنه عند إمكان المماثلة بالخلقة فيمكن تقديم الحيوان المشابه للحيوان المقتول ، وعند عدم الإمكان في الحصول على حيوانٍ مشابه ، يمكن أن يقوَّم الحيوان المقتول ويشترى بثمنه أي حيوان آخر . . ويحكم في ذلك ﴿ ذوا عدل ﴾ أي رجلان عادلان يميزان أشباه الأشياء ، ويقدران قيمتها . ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ أي أن الذي أصاب الصيد ، وهو محرم بالعمرة يهدي ما حكم به هدياً بحيث ينحره في مكة قبالة الكعبة ؛ وإن كان محرماً بالحج ذبحه أو نحره بمنى . ﴿ أو كفارة طعام مساكين ﴾ أي أن يكفّر عن قتل الصيد بأن يقوَّم مثله من النعم ثم يتصدق بقيمته على المساكين والمحتاجين ؛ أو أن يصوم بمقابل ذلك عدداً من الأيام ؛ ويكون الصيام يوماً واحداً عن كل ما توازي قيمته مدَّين من القمح . وذلك جزاءً لمن قتل الصيد لينال عقوبة عمله . . وقد يسأل سائل : كيف يسمى الجزاء وبالاً وهو عبادة ، فإذا كانت عبادة فهي نعمة

ومصلحة ؟ فالجواب إن الله سبحانه شدَّد على قاتل الصيد التكليف بعد أن ارتكب فعله عمداً ، فهو مأمور بألَّا يقتل هذا الصيد وقت الاحرام ، فقتله بعد الأمر يعني ارتكاب معصية تستوجب التكفير عنها ، بما يثقل عليه لأن الصوم يثقل على النفس والجسد لما فيه من تعب وحرمان مؤقتين . ومثال ذلك أيضاً ما حرم على بني اسرائيل من الشحم لما اعتدوا في السبت ، فثقل ذلك عليهم وإن كان فيه مصلحة لهم . ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ من قتل الصيد قبل تحريمه ﴿ ومن عاد ﴾ إليه ﴿ فينتقم الله منه والله عزيزٌ ﴾ غالب على أمره ﴿ ذو انتقام ﴾ ممن عصاه وخالف أمره .

الإنسان مرهون بأعماله

الإنسان مرهون بأعماله

١ ـ أهل الجنة يرزقون بغير حساب

يقول الله تعالى :

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] .

ما أعظم عدل الله تعالى على المسيئين . . وما أعظم كرمه وسخاءه على المحسنين !! . . .

فمن يعمل سيئة أو يفعل معصية لا يجازى عليها إلَّا بمقدار ما تستحق من عقاب لا أكثر ولا أقل ؛ أما الذين يعملون عملاً صالحاً من بني آدم ، وهم مؤمنون بالله وبرسله وأنبيائه ، ثم يقومون بهذا العمل ابتغاء مرضاة الله تعالى (وقد شرط الإيمان في قبول العمل الصالح) فأولئك يدخلون الجنة ، ويرزقون فيها من رزق الله الواسع ، الذي لا ينتهي ، بغير حساب ، وبغير مقدار ؛ لا عملاً

---

(١) غافر : ٤٠ .

بعمل ، ولا صالحاً بصالح ، بل بقدر ما يتفضّل الله سبحانه عليهم من الرزق والخير والبركة ؛ ولو كان بمقدار العمل فقط لكان بحساب . . فقد قضى الله تعالى بفضله أن تضاعف الحسنات ، ولا تضاعف السيئات ، رحمة منه بعباده ، وتقديراً لضعفهم ، وللجواذب والموانع لهم في طريق الخير وَالاستقامة ، فضاعف لهم الحسنات ، وجعلها كفارة للسيئات . فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب ، رزقهم الله تعالى فيها بغير حساب .

يقول الله تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1] .

أي أن الذين يفعلون السيئات تصير بمثابة كسب لهم، فيجازَون على هذه السيئات على أساس جزاء كلٍّ سيئة بمقدارها ، أي بقدر ما يستحق صاحبها من غير زيادة أو نقصان ، كما ذكرنا سابقاً ، لأن الزيادة في العقاب ظلم تنزَّه الله سبحانه عنه ، وليس كذلك الزيادة في الثواب ، فإن الزيادة تفضّل يحسن فعله ابتداء . وعندما ينالون العقاب على قدر السيئات التي عملوها ، يقعون تحت وطأة الذل والهوان ، حتى ترهقهم هذه الوطأة أيما أرهاق ، وهذا الإرهاق يحسونه ثقيلاً ، لأن العقاب في الأصل ثقيل على النفس وعادة ما يصاحبه ملازمة الشعور بالإهانة والإذلال . . فمن العقاب ، إلى الشعور

---

(١) يونس : ٢٧ .

بالذل ، ينشأ تراكم في العقاب يؤدي إلى هذا الإرهاق . . ثم لا يجدون مانعاً يمنع عنهم العقاب والهوان . . فمن يمنعهم من الله سبحانه والأمر بيده، ومردّ ومرجع كل شيء إليه؟! فهم ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾ أي أن وجوههم لشدة سوادها القاتم من أثر تلك الصدمة التي يلاقونها ، تبدو وكأنها أُلبست قطعاً من الليل البهيم . . أو كأنما قُطعت قطعٌ من الليل المظلم الدامس فغُشيت بها وجوه الذين فعلوا السيئات ! فالجو كله يغشاه ظلام من ظلام الليل ورهبة من رهبته ، فتبدو فيه هذه الوجوه ملفّعة بأغشية من ذلك الليل البهيم . فأولئك المبعدون عن رحمة الله تعالى ، التائهون في ذلك الظلام والقتام . . وهم أصحاب النار الخالدون فيها .

التَوَجّهُ إلى اللّهِ تعَالى عِنْدَ مسِّ الضّرّ

التوجه إلى الله تعالى عند مس الضر

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

إنها صورة للنموذج البشري المكروب . فالإنسان يظلُّ مدفوعاً مع تيار الحياة : يخطىء ويذنب ، ويطغى ويُسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية . وليس من يتذكّر في إبّانِ قوته وقدرته أن هنالك ضعفاً ، وأن هنالك عجزاً (إلاَّ من هدى اللَّهُ ورحم) فإنَّ ساعات الرخاء تُنسي ، والإحساس بالغنى يُطغي . ولكن هذا الإنسان الذي كان يشعر بقوته ، ما إن يمسُّه الضرُّ حتى يصير قليل الصبر ، جزوعاً ، هلوعاً ، ضائقاً بالشدة ، ثم يتحول لأن يصير كثير الدعاء ، عريض الرجاء ، مستعجلاً كشف ضره ، طالباً من ربه

---

(١) يونس : ١٢ .

النجاة والخلاص . . فإذا استُجيب الدعاء، وكُشِف الضّر، انطلق ذلك الإنسان لا يعقّب ، ولا يفكر ، ولا يتدبّر ، ثم هو لا يسأل نفسه : من أوقعه في هذا الضر ، ومن كشفَهُ عنه ؟ بل ولا يلبث أن يعود إلى ما كان فيه قبلاً من اندفاع واستهتار . .

هذا النموذج من البشر تصوّره الآية الكريمة في حركاته وسكناته . في راحته وتعبه ، في هنائه وشقائه . . . فهو عامل ، متحرك ، مندفع على مسرح الحياة في وقت الراحة والهناء ؛ فإذا ناله الضرُّ، أحسَّ بالمشقة والبلاء، والمحنة ومعاناتها . . فيلوذ عندئذٍ بالله تعالى ، ويتوجه إليه بالدعاء والرجاء ، إن في تقلّبه على جنبيه من الأرق ، وإن في قعوده أو قيامه الدائمين اللذين يحرّكهما الضرُّ ، بل وفي تشوشه واضطرابه على أي حالٍ يكون . . .

ولا يزال ذلك الإنسانُ ـ إذن ـ مجتهداً في سؤاله لله تعالى ، وفي طلب العافية منه سبحانه ، لا ينقطع عنه ولا يحيد ، وليس غرضُهُ إلَّا زوال ما هو عليه من الكرب ، وما ينتابه من الألم والشدة ، دون أي تفكير في نيل الثواب أو الأجر في الآخرة . . فإذا ما كشف الله سبحانه وتعالى عنه الضرَّ ، ودفع عنه البلاء ، وأعادَ له الأمن والأمان ﴿ مرَّ ﴾ على وضعه السابق مرور العابر ، وأعرض عن الدعاء والرجاء ، حتى صار مثله كمن اعترضَهُ أمر هامٌّ جدّاً ، ولاذ بمن يخلّصه منه أو يدبّره له ، وهو يتذلل له ويستغيث به حتى إذا قدم له العون الذي طلب ، ولّى معرضاً عنه من غير أن يلتفت إليه ، أو أن يفكر في شكره ، أو من غير أن يتأمَّل بما جرى معه ، ليعتبر . . فهو جاحد ، منكر لصنع الجميل . . . فما بالك بالذي يكشف اللّهُ تعالى عنه الضرَّ الذي

مسَّهُ ، ثم لا يلبث بعده أن يعود إلى دأبه من الاندفاع وراء مظاهر القوة ، وكأنه لم يستجر بالله تعالى ، ولم يَدْعُهُ أن يكشف عنه الضر ؛ أو كأنه لم يسأله برجاء وذل وانكسار أن يزيل عنه الشدة ، وأن يذهب عنه الألم ؟ ! . . ثم ها هو يندفع مع تيار الحياة ، دون كابح ، ولا زاجر ، ولا أيّة مبالاة ! . . . ما هذا الصنف من البشر الذي لا يعرف اللَّهَ تعالى إلاَّ وقت الشدة، وينساه فيما عدا ذلك؟ بل وما بال هذا النموذج من البشر يجحد فعل الخير ، وينسى حسن الصنيع ، ويتنكر للمعروف ؟ ! . . أوصفٌ ينطبق عليه من صفات الإنسانية ؟ ! . لا ، لأنه من ﴿ المسرفين ﴾ كما وصفه ربُّ العالمين . . فهؤلاء هم الذين ينسون رحمة الله تعالى التي تكشف الضرَّ الذي يمسهم ، لتعلّقهم بزينة الحياة الدنيا وأهوائها ، وبعدهم عن الله تعالى وفضله عليهم ، فكما تزيّن شياطين الإنس والجن للغاوين الاستسلام لأهوائهم ونزعاتهم ، فينصرفون إلى الباطل ، وينغمسون في الشر ، كذلك زيّن للمسرفين الجاحدين ما كانوا يعملون من فعال منكرة ، وتصرفات ضالّة ، فتناسوا اللَّهَ تعالى ، وتركوا الحق والخير والإيمان . .

وفي هذه الآية الكريمة ، وبما تحمل من تصويرٍ بشعٍ للنموذج البشري الجاحد، حثٌّ بالمقابل للمؤمنين خاصة، وللناس عامة، بألاَّ ينسوا ربَّهم إذا منحوا الرخاء بعد الشدة ، والعافية بعد البلاء . بل عليهم أن يتذكروا دائماً حسن صنيعه تعالى لهم ، وجزيل نعمته عليهم ، وأن يشكروه ويسألوه دوام هذه النعمة وذلك الصنيع الجميل ، والفضل العظيم . كما أن فيها تنبيهاً من الله تعالى على وجوب الصبر عند المحنة احتساباً للأجر ، وابتغاء للثواب والذخر ، وأملاً في تغيير الحال بأحسن حال .

مثل الشياطين المضلين

مثل الشياطين المضلين

يقول الله تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (١) .

لما ذكر الله سبحانه نعمته على بني آدم فيما جعل لهم من مستقر في الأرض ، وفيما آتاهم من التدبير لارتداء اللباس والتستر ، أعقبه في تحذيرهم من غواية الشيطان ، كيلا يفتنهم ويضلّهم عن الدين ، ويصرفهم عن الحق بأن يدعوهم إلى المعاصي التي تميل إليها النفس الأمارة بالسوء . وضرب لهم مثلاً على فتنة الشيطان بما أغوى به أبانا آدم وأمنا حواء عليهما السلام من أكل ثمرة الشجرة التي نهاهما ربهما عن أكلها ، عندما ادَّعى كذباً لهما بأنها شجرة الخلد . . فكان إخراجهما بسبب ذلك الإغواء من الجنة، أي من المكان الآمن الظليل

---

(١) الأعراف : ٢٧ .

المليء بالخيرات والثمرات، الذي جعلهما الله تعالى فيه، ينعمان بخيره حتى يحين اختبارهما ، كما أراد اللَّهُ تعالى . أما أنَّ النص نسب الإخراج للشيطان ، فمعناه أنه كان بسببه ، أي بسبب إغوائه خرج أبوانا عليهما السلام من المكان الذي أعدَّه الله تعالى ليعيشا فيه ردحاً من الزمن .

ومثله أن يُنْسب إليه أنه نـزَعَ لباسَهما عنهما ليريهما سوءاتهما . . وهذا من قبيل التأكيد على أن الحياة التي ابتدآها كانت صافية ، خالصة من السوء ، ومن أي فعل منكر ؛ فلما وقع آدم وزوجه حواء عليهما السلام في الإغواء ، كان لا بد من أن تتبدَّل نظرتهما إلى وجودهما ، فيشعران بأنَّ اللباسَ الذي كانا يلبسانه لم يعد مؤتلفاً مع وضعهما الجديد . . . فاتَّقوا فتنة الشيطان يا بني آدم ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ قال ابن عباس : إن الله تعالى جعلهم (أي الشياطين) يجرون من بني آدم مجرى الدم في عروقه ، فجعلوا من صدور بني آدم مساكن لهم ، كما قال تعالى ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة ﴾ ، فهم يرون بني آدم ، وبنو آدم لا يرونهم . قال قتادة : « واللَّهِ إن عدوّاً يراك من حيث لا تراه لشديد المؤنة إلَّا من عصم الله » . وإنما قال ذلك لأنا إذا كنا لا نراهم لم نعرف قصدهم لنا بالكيد والإغواء ، فينبغي أن نكون على حذر فيما نجده في أنفسنا من الوساوس خيفة أن يكون ذلك من الشيطان .

﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ ، أي إنا حكمنا بذلك لأنهم يتناصرون على الباطل ؛ وإنما خصَّ الذين لا يؤمنون تنبيهاً إلى أن الشياطين مع اجتهادهم في الإغواء لا يتمكنون

من خيار المؤمنين المتيقظين ، وإنما يتمكنون من الكفرة والجاهلين والفسقة المغفلين الذين يتخذونهم أعواناً لهم ، ومطايا لنفث سمومهم وأحقادهم عليهم وعلى كل جنسهم من بني آدم .

بلاغة دعاء الأنبياء

بلاغة دعاء الأنبياء

يقول اللّهُ تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] .

إنها مواساة من الله تعالى لرسوله الكريم محمد (ﷺ) بأن يتذكَّر أخاه أيوبَ (ع) وما حَصَلَ له من البلاء ، فقال تعالى : ﴿ واذكر عبدنا أيوبَ إذ نادى ربه ﴾ . . وهنا الصيغة الجميلة في دعاء أيوب (ع) ، وهو يرفع صوته منادياً : يا ربِّ ! . . فالنداء هو كالدعاء . . فإذا قال : « اللهم ارحمني ، أو ما شاكل ذلك » . كان داعياً ، وليس منادياً . ولكن النداء تبقى فيه صرخةٌ أعمق في طلب الرحمة والاستجابة . .

---

(١) ص : ٤١ - ٤٣ .

وبماذا نادى أيوب (ع) ربَّه ؟ ناداه : ﴿ أنيَّ مسَّني الشيطان بنُصْب وعذاب ﴾ . يقول أيوب (ع) : « يا رب ! . . لقد أضرَّني الشيطان بالتعب والعذاب بوسوسته الخبيثة لي ، فاصرفه عني ، لأني راضٍ بحكمك عليَّ ، صابرٌ لأمرك بي » . . .

وما كانت تلك الوسوسة إلَّا تذكيراً لأيوب (ع) بنعم الله عليه التي سلبها منه تعالى . . فقد كان له أولاد وأموال وأنعام وأرض واسعة ، ذهبت كلها أثناء ابتلائه بمرضٍ عضالٍ ، استمر أعواماً طوالاً ، ولذا راودَه الشيطان في محاولةٍ لإقناطه ، فلم يجد إلَّا تذكيره بما كان عنده من الأهل والولد والمال (وربما هي أعز شيء عند الإنسان في دنياه هذه) ، وكيف ذهب ذلك كله ، ثم وقع هو نفسه في المرض الشديد ، والبلاء العظيم . . إذن فقد كان الشيطان يطمع بأن يُزلَّ عبدَ الله ورسولَه أيوب (ع) فينصرف عن التوجه إلى ربه ، ولذلك قَعَدَ له في وسوسة خبيثة، وسلك معه طريق التضجُّر والتبرُّم من الحالة التي كان عليها . ولكن خابَ وخسيء الشيطان الرجيم في محاولته تلك ، فما وجَدَ في أيوب (ع) إلَّا عبداً صابراً ، محتسباً ، مستسلماً لأمر الله تعالى ، مسلّماً بمشيئة ربه سبحانه . . .

وقيل في عمل الشيطان انَّه لم يكتفِ بوسوسته لأيوب (ع) إبَّان اشتداد المرض عليه ، بل راح يوسوس للناس بأن يبتعدوا عنه فلا يزورونه، ولا يقدمون له أي عونٍ، بل وأن يجافوا امرأته حتى لا تدخل عليهم في بيوتهم ، طالما هي تقوم على خدمة زوجها ، وتواسيه من دون سائر الناس . . وهذا ما جعل أيوب (ع) يتأذَّى كثيراً من ضرر الشيطان له ، ومن الألم الذي يناله بسببه ، في حين أنه لم يتأفف ولم

يشْكُ من آلام المرض التي هي ابتلاءٌ من الله تعالى له . .

ودام أيوب (ع) على عذابه وألمه سبع سنين ، لم ينفك خلالها عن مقاومة الشيطان ، وطرد وساوسه من نفسه ، والاستعاذة بالله تعالى منه ، محيلاً الوساوس إلى دعاء ، وتوسل ، ورجاء ، وإلى نداءٍ صارخ وتضرّع خاشع ، علَّ ربَّهُ وسيده يخلصه مما هو فيه من البلاء والابتلاء . . فأثابه اللَّهُ تعالى بأن استجاب لندائه ، وتضرّعه ، فأوحى إليه أنْ : ﴿ اركض برجلك ﴾ أي اضرب الأرض ، حيث أنت مُقعدٌ برجلك ، فترى آية الله تعالى في الاستجابة لك . . .

وضربَ أيوب (ع) برجله ، كما أمرَهُ الوحي ، فإذا عين ماءٍ تنبع عند قدميه . فقال له الوحي : هذا ماء بارد فاغتسل واشرب منه . . فلما فعل أيوب (ع) إذا بكل أثرٍ لدائه قد ذهب ، وعادَ معافىً أحسن مما كان . .

ويبيّن الله سبحانه وتعالى بعد ذلك جزيل فضائله على عبده الصابر أيوب (ع) . إذ وهب له أهله ومثلهم معهم . أي أنه تعالى عوَّضه عن الذين ماتوا جميعاً ، ومثلهم معهم . وذلك رحمةٌ منه تعالى ونعمة ، وعظةٌ لأولي الألباب ، وأصحاب العقول التي تتفكَّر بقدرة الله عز وجل ، وبرحمته ، ونعمته على عباده الصالحين ، الصابرين ، الذين لا ينفكون عن شكره وعبادته مهما تألّبت عليهم الظروف أو داهمتهم الخطوب . .

وعن أيوب أيضاً يقول تعالى : **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ**

أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ [1] .

وفي هاتين الآيتين المباركتين نفس المعاني التي تتضمنها أخواتهما (في سورة ص) السابقة . بحيث لا نجد أي اختلافٍ في هذه المعاني أبداً . ولكن القرآن الكريم يكرر القصة في أكثر من سورة تأكيداً على عظاتها ومراميها ، وإبرازاً لبلاغته في نصوصه ، من صوغ المعاني تارة بالإطناب والإسهاب ، وتارة بالاختصار والتقليل في اللفظ ، ليكون ذلك عبرة لذوي الأفهام، وتنبيهاً إلى أنَّ من يأتي بهذا الأسلوب ليس بشراً ، إذِ البشر لا يقدرون على إيراد نفس المعاني بصيغ مختلفة ، ذات ألفاظ أكثر أو أقل ، ولها نفس الوقع والجرس والأداء ، بلا أي تفاوت أو تناقض . . فالقصة هي عينها ، والأداء والأسلوب هو ذاته ، وغالبية الألفاظ هي ذاتها في الموضعين . والقصة هي ذاتها في آيتين بلا زيادة أو نقصان . . . أما العظة فهي أن الله تعالى على كل شيء قدير ، فهو يعطي ويهب النعمة ، وينشر الرحمة لأنه وحده القادر ، المعطي ، الواهب ، المنعم ، الرحيم بمخلوقاته . وأما الضرُّ والبأساء أو الشدة والابتلاء ، فإنها عوارض يمحّص بها القلوب ، ويثيب العابدين الصابرين بما يستحقون من الأجر والثواب . . وهل أعظم ثواباً ورحمةً ونعمة على أيوب (ع) من أن يشفيه ربُّهُ من مرضه العضال ، وأن يعوّضه عما فقد ، ويزيد عليهم بمثلهم ، ثم يعيد له زوجَهُ أكثر شباباً وحيوية ونشاطاً ، وأن يفيض عليه من الأرزاق والخيرات أضعاف ما كان عنده قبل الابتلاء ؟ ! . .

وكل ذلك كان لأن أيوب (ع) لم ييأس ولم يقنط من رحمة

---

(1) الأنبياء : ٨٣ و ٨٤ .

ربه ، ولم يخضع لوسوسة الشيطان وغـوايته ، بـل صبر عـلى حكم الله تعالى ، وتوكّلَ عليه ، فلم ينقطع قلبه ولسـانه عن ذكـره تعالى ، وعن عبادته ، وشكره والثناء عليه في الضرّاء كما في السرّاء ، فـاستحق تلك الرحمة المباركة العظيمة لأنه من عباد الله الصابرين .

الإسلام

هو صبغة الله تعالى في الأديان

الإسلام

هو صبغة الله تعالى في الأديان

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾(1) .

الآيـة الأولى تعني في مـدولهـا، وفي اشتـراطهـا أن اليـهـود والنصارى إن آمنوا بما آمنتم به أيهـا المسلمون من أن الاسـلام هو دين الله الحق ، وأن القرآن هو كلام الله المنزل على عبده ورسوله محمـد بن عبـدالله (ﷺ) ، ثم شهدوا بشهـادة أن « لا إلـه إلاّ الله وأن محمـداً رسول الله » ، فقد اهتدوا لما تسكب هـذه الشهادة في قلب المؤمن من الاعتزاز بما هو عليه من الهـداية . . ولـذلك كـان توجيـه الخطاب إلى المسلمين بأنَّهُ إن آمن أهل الكتاب ، وأهل الأرض بما آمنتم به ، فقـد اهتدوا ، وسلكوا الطريق المستقيم . وإن تولَّوا ، وانصرفوا عن الإيمان

---

(1) البقرة : ١٣٧ و ١٣٨ .

بهذا الدين ، وجحدوه ولم يعترفوا به ديناً خاتماً للرسالات السماوية ، وديناً تامّاً للناس كافة ، فإنما هم في شقاق ، ونزاع ، وخلاف ، في قرارة نفوسهم ، وفي تعاملهم معكم ، لأنهم يكونون قد فارقوا الحق الذي يدعو إليه دينكم ، وتمسّكوا بالباطل الذي تزيِّنه لهم أهواؤهم ، فصاروا مخالفين لما أراد الله لعباده ، سائرين في طريق الخصام ، والعداوة والحرب التي تفرضها شؤون حياتهم . . وفي هذه الأحوال ﴿ فسيكفيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ يا محمد بما يعدُ رسلَهُ من نصرة دينه ، وكفايته من أعدائه . ذلك أنه هو اللَّهُ الذي لا إلَهَ إلاَّ هو ، وهو يسمع أقوالهم في السر والجهر ، ويعلم أحوالهم ، وما يعملون ويخططون ليصدوا عن سبيل الله ، ويوقعوا بالمسلمين . .

و ﴿ صبغةَ الله ﴾[1] مصدر مؤكّد ، ولذلك جاء منصوباً لفعل مقدَّر ﴿صَبَغنا﴾ . أي أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى قد صَبَغنا بهذا الدين صبغة تظهر علينا كما يظهر الصباغ في الثوب ، ويميّزه بألوانه . . وفي المعنى أن اللَّهَ سبحانه وتعالى قد أنزلَ هذا الدين مميّزاً بكماله وتمامه ؛ وأوْسَعَهُ بالأحكام الحقة الثابتة التي لا يطرأ عليها نقصان أو زوال ،

(١) من المعاني التي يحتملُها تعبير ﴿ صبغة الله ﴾ الطقوس التي يقوم بها أهل الكتاب لتثبيت أبنائهم على دينهم . ومن قبيله ما يفعل النصارى عندما يولد لهم مولود جديد فإنهم يغمّسونه في « ماء المعمودية » كما يسمونها وذلك تطهيراً للمولود ولصق صفة النصرانية به . فتكون ﴿ صبغة الله ﴾ بهذا المعنى التطهير على تلك الطريقة . ولذلك قيل إن اليهود يصبغون أولادهم يهوداً ، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى ، أي يلقّنون أبناءهم اليهودية والنصرانية . وإلى هذا يؤول ما روي عن عمر بن الخطاب (رض) من أنه أخذ العهد على بني تغلب بألاّ يصبغوا أولادهم أي لا يلقنونهم النصرانية ، ولكن يَدَعونَهم حتى يبلغوا فيختاروا لأنفسهم ﴿ صبغة الله ﴾ أي ما يشاؤون من الدين . وقيل : سمي الدين صبغة لأنه هيئة تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة وغيرها من الآثار الجميلة التي تظهر على المؤمن كما يظهر الصباغ في الثوب .

فصـار تشبيهها بـالصباغ الأصـلي الذي يُصبـغ بـه الثـوب فيصـير من أصله ، غـير قابـل للمحو أو البـوار . وتتأكـد صبغـة الله في الإسـلام بقوله تعـالى : ﴿ إن الدين عنـد الله الاسلام ومن يبتـغِ غير الإسـلام ديناً فلن يقبل منـه وهو في الآخـرة من الخاسـرين ﴾ . ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ . ومن يقدر أن يأتي بمثل ما يأتي بـه اللَّهُ تعالى ، بـل ومن أحسن من الله تعالى صُنعاً وصبغةً ؟ فهو سبحـانه قـد أنزل هـذا الدين كما يشاء ، لأنه القادر على ذلك ، ولا أحد غيره سبحـانـه يحسن هـذا الصنيع الجميـل ، ولا أحد غيـره عـز وجـلَّ يمكن أن يفعـل مـا يـريد . فهـو الصانـع ، وهو البـاعث ، والخالق والعـالم بما هـو أنفـع وأحسن لعباده . . وإن من يتّبع هـذا الدين القيم ، الـذي أحسنَ الله تعـالى صبغتـه ، وأحسن تـزيينـه وتجميله، يكون من عبـاده الصـالحين العابدين . .

ونحن نختم كتابنا هذا بقوله تعالى : ﴿ صبغة الله ومن
أحسن من الله صبغة ﴾ ، ونحمده بأن منَّ علينا وقدّرنا
بأنْ نبين ونبرز بعض جوانب عظمة أمثال القرآن
المجيد ، كي نسهّل على القارىء الكريم فهم
عِبَرها وعظَاتِها ، وأبعادها وغاياتها . ونرجوه أن
يتقبّل عملنا خالصاً لوجهه الكريم
إنه سميع قريب مجيب .

فهرس الآيات

رقم الصفحة		رقم الآية
	سورة البقرة	
٣٣٥	﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾	١٧
٣٣٥	﴿ أو كصيب من السماء ﴾	١٩
٨٩	﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾	٢٣
٢٥١	﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة ﴾	٢٦
٢٥١	﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾	٢٦
٣٦٣	﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾	٧٤
٢١٥	﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾	١٠٦
٣٦٧	﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾	١١٣
٣٢١	﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾	١١٨
٦٤٥	﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾	١٣٧
٥٥٥	﴿ يحبونهم كحب الله ﴾	١٦٥
٥٥٥	﴿ فنتبرأ منهم كما تبرءُوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾	١٦٧
٥٥٩	﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع ﴾	١٧١
٤٨٧	﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾	١٩٤
٤٨٩	﴿ ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾	٢١٤
٦٠٧	﴿ ولهن مثل الذين عليهن ﴾	٢٢٨

رقم الصفحة		رقم الآية
٥٩٥	﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾	٢٣٣
١٤٥	﴿ أو كالذي مر على قرية ﴾	٢٥٩
٥١٧	﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴾	٢٦١
٥١٧	﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾	٢٦١
٥٢١	﴿ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ﴾	٢٦٤
٥٢١	﴿ فمثله كمثل صفوان عليه تراب ﴾	٢٦٤
٥٢١	﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ﴾	٢٦٥
٥٢٢	﴿ كمثل جنة بربوة ﴾	٢٦٥
١٧٨	﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾	٢٦٦
٥٢٩	﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان ﴾	٢٧٥
٥٢٩	﴿ قالوا إنما البيع مثل الربا وأحلَّ الله البيع وحرم الربا ﴾	٢٧٥

سورة آل عمران

٤٩٢	﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾	١٣
٥٤٣	﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾	٣٦
٤٢٢	﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾	٥٩
٣٧٢	﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾	٧٣
٥٢٦	﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ﴾	١١٧
٥٢٦	﴿ كمثل ريح فيها صرٌّ أصابت حرث قوم ﴾	١١٧
٥٠٩	﴿ فقد مسَّ القوم قرح مثله ﴾	١٤٠
٤٩٣	﴿ لا تكونوا كالذين كفروا ﴾	١٥٦
٤٩٥	﴿ قد أصبتم مثليها ﴾	١٦٥

سورة النساء

٥٩٩	﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ﴾	١١
٤٩٧	﴿ يخشون الناس كخشية الله ﴾	٧٧
٣٤٣	﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾	١٤٠
٦٠١	﴿ فللذكر مثل حظ الأنثيين ﴾	١٧٦

رقم الصفحة		رقم الآية
	سورة المائدة	
٤٩٩	﴿ أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ﴾	٣١
٤٩٩	﴿ فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾	٣٢
١٩٤	﴿ ومثله معه ليفتدوا به ﴾	٣٦
٦١٣	﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾	٩٥
	سورة الأنعام	
٢٠٧	﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾	٣٨
٢٤٠	﴿ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾	٩٣
٢٤٦	﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾	١٢٢
٢٤٣	﴿ حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾	١٢٤
٢٤٤	﴿ كأنما يصّعد في السماء ﴾	١٢٥
٢٢٤	﴿ فله عشر أمثالها ﴾	١٦٠
	سورة الأعراف	
٦٣١	﴿ كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾	٢٧
٢٤٩	﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾	٤٠
١٥٦	﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾	٥٧
١٥٦	﴿ كذلك نصرف الآيات ﴾	٥٨
٣٦٥	﴿ وإن يأتهم عرض مثله ﴾	١٦٩
٣٧٩	﴿ فمثله كمثل الكلب ﴾	١٧٦
٣٧٩	﴿ ذلك مثل القوم ﴾	١٧٦
٣٧٩	﴿ ساء مثلا القوم الذين كذبوا ﴾	١٧٧
٤٦٣	﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾	١٧٩
١٨٦	﴿ يسألونك كأنك خفي عنها ﴾	١٧
٣١٨	﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾	١٩٤
	سورة الأنفال	
٢١٩	﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا ﴾	٢١

رقم الصفحة		رقم الآية
٢٢٩	﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾	٣١

سورة يونس

٦٢٥	﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾	١٢
٤٤٧	﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء ﴾	٢٤
٦٢٠	﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾	٢٧
٦٢٠	﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل ﴾	٢٧
٤٧٦	﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا ﴾	١٠٢

سورة هود

٨٨	﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾	١٣
٢٦٦	﴿ مثل الفريقين ﴾	٢٤
٢٦٧	﴿ هل يستويان مثلاً ﴾	٢٤
٣٨٣	﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾	٢٧
٣٨٥	﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾	٤٢
٣٩٢	﴿ أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ﴾	٨٩
٣٢٧	﴿ ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤ هم ﴾	١٠٩

سورة الرعد

٤١٤	﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾	٦
٦٦	﴿ إلا كباسط كفيه إلى الماء ﴾	١٤
٢٧٩	﴿ زبد مثله ﴾	١٧
٢٧٩	﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾	١٧
٢٤٨	﴿ كمن هو أعمى ﴾	١٩
١٩٧	﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ﴾	٣٥

سورة إبراهيم

٧٧	﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾	١٠
٧٧	﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾	١١
٢٥٥	﴿ مثل الذين كفروا بربهم ﴾	١٨

رقم الصفحة		رقم الآية
٢٨٧	﴿ ضرب الله مثلا كلمة طيبة ﴾	٢٤
٢٨٧	﴿ ويضرب الله الأمثال ﴾	٢٥
٢٨٧	﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾	٢٦
١٩٠	﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾	٤٥

سورة النحل

٧٠	﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾	١٧
٣١٥	﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾	٦٠
٧٣	﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾	٧٤
٧٣	﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً ﴾	٧٥
٧٣	﴿ وضرب الله مثلاً رجلين ﴾	٧٦
٥٦٣	﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ﴾	٩٢
٢٦٢	﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة ﴾	١١٢
٥٠٢	﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾	١٢٦

سورة الإسراء

١٤٩	﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾	٤٨
٩٥	﴿ أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴾	٨٨
٩٥	﴿ لا يأتون بمثله ﴾	٨٨
٦٩	﴿ قادر على أن يخلق مثلهم ﴾	٩٩

سورة الكهف

٢٦٧	﴿ واضرب لهم مثلا رجلين ﴾	٣٢
٤٥٢	﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ﴾	٥٤
١٠٠	﴿ من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً ﴾	٨٠٩
١١٧	﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾	١١٠

سورة مريم

٥٤٦	﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾	١٧

رقم الصفحة		رقم الآية

سورة طه

٣٩٥	﴿ فلنأتينك بسحر مثله ﴾	٥٨
١٦٧	﴿ إذ يقول أمثلهم ﴾	١٠٤
١٦٦	﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾	١٢٦

سورة الأنبياء

١٨٩ -	﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾	٣
٦٤٠	﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾	٨٤

سورة الحج

٣٠١	﴿ فكأنما خرَّ من السماء ﴾	٣١
٥٠٣	﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾	٦٠
٣٠٤	﴿ ضرب مثل فاستمعوا له ﴾	٧٣

سورة المؤمنون

٤٣٦	﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾	٢٤
٤٣٨	﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ﴾	٣٣
٤٣٨	﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم ﴾	٣٤
٤٤٢	﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾	٤٧
٧٥	﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾	٨١

سورة النور

٤٧٨	﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله ﴾	١٧
١٢٤	﴿ آيات مبينات ومثلاً ﴾	٣٤
١٢٤	﴿ مثل نوره كمشكاة ﴾	٣٥
١٢٤	﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ﴾	٣٥
٢٥٧	﴿ كسراب بقيعة ﴾	٣٩
٢٥٧	﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾	٤٠

رقم الصفحة		رقم الآية

سورة الفرقان

٤٣١	﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾	٩
٨٥	﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ﴾	٣٣
٤٦٥	﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾	٤٤

سورة الشعراء

١٠٧	﴿ كل فرق كالطود العظيم ﴾	٦٣
٤٤١	﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية ﴾	١٥٤
٣٩٤	﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا ﴾	١٨٦

سورة القصص

١٣٥	﴿ كأنها جانٌ ﴾	٣١
٣٧٠	﴿ قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾	٤٨
٤٥٨	﴿ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾	٦١
٢٩٢	﴿ كما أحسن الله إليك ﴾	٧٧
٢٩٢	﴿ مثل ما أوتي قارون ﴾	٧٩

سورة العنكبوت

٣٠٧	﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ﴾	٤١
١٠١	﴿ كمثل العنكبوت ﴾	٤١
١٠١	﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾	٤٣

سورة الروم

١٦٢	﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ﴾	٢٧
٣١٢	﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾	٢٨
١٦٢	﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾	٥٥
١٦٢	﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾	٥٨

رقم الصفحة		رقم الآية

سورة لقمان

٤٦٧	﴿ كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقر ﴾	٧
١٣٢	﴿ إلا كنفس واحدة ﴾	٢٨
٥٦٧	﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله ﴾	٣٢

سورة السجدة

٢٦٥	﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾	١٨

سورة الأحزاب

٥٠٥	﴿ تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴾	١٩
٥٨٣	﴿ لستن كأحد من النساء ﴾	٣٢

سورة سبأ

١١٢	﴿ وجفان كالجواب ﴾	١٣

سورة فاطر

٣٢٠	﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾	١٤

سورة يس

٤٠٧	﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ﴾	١٣
٤٠٧	﴿ ما أنتم إلا بشراً مثلنا ﴾	١٥
١٣٣	﴿ وخلقنا لهم من مثله ﴾	٤٢
١٥٨	﴿ وضرب لنا مثلاً ﴾	٧٨
١٥٩	﴿ أن يخلق مثلهم ﴾	٨١

سورة الصافات

٣٩٩	﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾	٤٩
٣٩٩	﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾	٦١
٣٩٩	﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾	٦٥

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
	سورة ص	
٢٧٣	﴿ كالمفسدين في الأرض ﴾	٢٨
٢٧٣	﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾	٢٨
٦٣٧	﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ﴾	٤٣
	سورة الزمر	
٣٠٩	﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾	٢٧
٣٠٩	﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً ﴾	٢٩
٣٠٩	﴿ هل يستويان مثلاً ﴾	٢٩
١٩٢	﴿ ومثله معه لافتدوا به ﴾	٤٧
	سورة غافر	
٢١٦	﴿ إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾	٣٠
٢١٦	﴿ مثل دأب قوم نوح ﴾	٣١
٦١٩	﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾	٤٠
	سورة فصلت	
٣٢٨	﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾	٦
٣٢٣	﴿ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾	١٣
	سورة الشورى	
٦٨	﴿ ليس كمثله شيء ﴾	١١
٥٠٤	﴿ وجزاؤا سيئة سيئة مثلها ﴾	٤٠
	سورة الزخرف	
٤١٢	﴿ ومضى مثل الأولين ﴾	٨
٤٢٧	﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلاً﴾	١٧
٣٩٨	﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾	٥٦
٤٢٤	﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴾	٥٧
٤٢٤	﴿ وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾	٥٩

رقم الصفحة | | رقم الآية

سورة الدخان

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
٤٠٥	﴿ كالمهل يغلي في البطون ﴾	٤٥
٤٠٥	﴿ كغلي الحميم ﴾	٤٦

سورة الأحقاف

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
٣٧٥	﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾	١٠

سورة محمد

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
٢٩٠	﴿ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾	٣
٧٢	﴿ وللكافرين أمثالها ﴾	١٠
٤٧٠	﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾	١٤
١٩٧	﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار ﴾	١٥
١٩٧	﴿ كمن هو خالد في النار ﴾	١٥
٤٥٣	﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾	٣٨

سورة الفتح

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
٥٧٣	﴿ ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل ﴾	٢٩
٥٧٣	﴿ كزرع أخرج شطأه ﴾	٢٩

سورة ق

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
١٥٣	﴿ وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾	١١

سورة الذاريات

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
٧٩	﴿ إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾	٢٣
٣٨٧	﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾	٤٢
٤٠٣	﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم ﴾	٥٩

سورة الطور

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
٨٦	﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾	٣٤

سورة القمر

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
١٦٩	﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾	٧

رقم الصفحة		رقم الآية
٣٨٨	﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾	٢٠
٣٩٠	﴿ فكانوا كهشيم المحتظر ﴾	٣١
١٢٩	﴿ كلمحٍ بالبصر ﴾	٥٠

سورة الرحمان

١١٠	﴿ صلصال كالفخار ﴾	١٤
١١٣	﴿ الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ﴾	٢٤
٢٠٤	﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾	٥٨

سورة الواقعة

٢٠٤	﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾	٢٣
١٥١	﴿ على أن نبدّل أمثالكم ﴾	٦١

سورة الحديد

٤٥٥	﴿ كمثل غيث أعجب الكفار نباته ﴾	٢٠

سورة الحشر

٣٥٠	﴿ كمثل الذين من قبلهم ﴾	١٥
٣٥٠	﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ﴾	١٦
٣٥٠	﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾	٢١

سورة الممتحنة

٦٠٨	﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾	١١
٢٢١	﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾	١٣

سورة الصف

٢٢٢	﴿ كما قال عيسى ابن مريم للحواريين ﴾	١٤

سورة الجمعة

٣٦١	﴿ مثل الذين حملوا التوراة ﴾	٥
٣٦١	﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾	٥

رقم الصفحة		رقم الآية
	سورة المنافقون	
٣٤٧	﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾	٤
	سورة الطلاق	
١١٦	﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾	١٢
	سورة التحريم	
٥٨٦	﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا ﴾	١٠
	سورة القلم	
٤٧٩	﴿ فأصبحت كالصريم ﴾	٢٠
٤٧٩	﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾	٣٥
٥٧٨	﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾	٤٨
	سورة الحاقة	
٣٨٨	﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾	٧
	سورة المعارج	
١٨٤	﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾	٨
١٨٤	﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾	٩
	سورة المزمل	
١٨٥	﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾	١٥
	سورة المدثر	
٢٣٥	﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾	٣١
٢٣٥	﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾	٥٠
	سورة الإنسان	
٤٦٩	﴿ إذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ﴾	٢٨
	سورة المرسلات	
٤١٦	﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴾	٣٢

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
٤١٦	﴿ كأنه جمالتٌ صفر ﴾	٣٣

سورة النازعات

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
١٨٨	﴿ كأنهم يوم يرونها ﴾	٤٦

سورة القارعة

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
١٨٣	﴿ كالفراش المبثوث ﴾	٣

سورة الفيل

رقم الصفحة	الآية	رقم الآية
١٠٥	﴿ فجعلهم كعصفٍ مأكول ﴾	٥

مراجع الكتاب

القرآن الكريم
تفسير القرآن الكريم ، مجمع البيان للطبرسي .
تفسير القرآن الكريم ، للطبري .
تفسير القرآن الكريم ، للقرطبي .
تفسير القرآن الكريم ، الكشاف للزمخشري .
في ظلال القرآن الكريم ، للسيد قطب .
لسان العرب ، لابن منظور .
الأمثال من الكتاب والسنة ، محمد بن علي الحكيم الترمذي .
الأمثال في القرآن الكريم ، لابن قيم الجوزية .
الأمثال النبوية ، محمد الغروي .
أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني .
الدعوة الاسلامية ، د. أحمد أحمد علوش.

فهرس المواضيع

المقدمة ٩
التمثيل والاستعارة ١٧
أنواع المثل ١٩
أهمية المثل وفوائده ٢١
المثل قديم النشأة ٢٦
صورة المثل القرآني ٣٢
القياس التمثيلي في الأمثال ٤١
فنيّة الأمثال في القرآن الكريم ٤٨
العقيـدة ٦١
القرآن كتاب الله المبين ـ القرآن يتحدى ٨٣
عظمة الخلق برهان ساطع على عظمة الخالق ١٠١
الإيمان بقدرة الله تعالى وهداه ١٢٣
البعث ١٣٩
الجنة ١٩٧
اللوح المحفوظ ٢٠٧
المؤمنون ٢١٣
الكافرون ٢٢٩
أعمال الكافرين ٢٥١
الفرق بين المؤمنين والكافرين ٢٦٥

الحق والباطل ٢٧٩
الشرك والمشركون ٣٠١
المنافقون ٣٣٣
اليهود ٣٦١
الجدال والحِجاج ٤٢١
مثل الحياة الدنيا ٤٤٧
الذين يتبعون الأهواء ٤٦٣
التربية والإرشاد ٤٧٣
القتال ٤٨٧
تداول الأيام بين الناس ٥٠٩
الإنفاق ٥١٧
الربا ٥٢٩
مثل خلق عيسى عليه السلام ٥٤٣
التقليد والتبعية ٥٥٥
نقض العهود ٥٦٣
محمد رسول الله (ص) وصحابته الكرام ٥٧٣
الإرث والرضاعة ٥٩٥
علاقة الرجل بالمرأة ٦٠٧
صيد المحرم في الحج ٦١٣
الإنسان مرهون بأعماله ٦١٩
التوجه إلى الله تعالى عند مس الضر ٦٢٥
مثل الشياطين المضلين ٦٣١
بلاغة دعاء الأنبياء ٦٣٧
الإسلام هو صبغة الله تعالى في الأديان ٦٤٥